

المدخل إلى بحوث الفعل

البحث الاجتماعي لتحقيق التغير الاجتماعي

تأليف
ديفيد جرينوود
مورتن ليفين

ترجمة
هشام سيد عبد المجيد

2339

المدخل إلى بحوث الفعل

البحث الاجتماعي لتحقيق التغير الاجتماعي

المركز القومي للترجمة

تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2339

- المدخل إلى بحوث الفعل: البحث الاجتماعي لتحقيق التغير الاجتماعي

- ديفيد جرينوود، وموريتن ليفين

- هشام سيد عبد المجيد

- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

INTRODUCTION TO ACTION RESEARCH:

Social Research for Social Change – 2nd Edition

By: Davydd J. Greenwood & Morten Levin

Copyright © 2007 by Sage Publications Inc.

Arabic Translation © 2016, National Center for Translation

All Rights Reserved

نشرت هذه الترجمة بالتعاون مع ساج للنشر أمريكا ، لندن ، نيودلهي، والتي

نشرت الطبعة الإنجليزية عام ٢٠٠٧

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

المدخل إلى بحوث الفعل

البحث الاجتماعي لتحقيق التغير الاجتماعي

تأليف: ديفيد جرينوود

مورتين ليفين

ترجمة: هشام سيد عبد المجيد



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جرينود، ديفيد؛ ليفين، مورتين
المدخل إلى بحوث الفعل: البحث الاجتماعي لتحقيق للتغير الاجتماعي /
تأليف: ديفيد جرينود، مورتين ليفين، ترجمة: هشام سيد عبد المجيد.
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٥١٦ ص، ٢٤ سم
١ - التغير الاجتماعي
(أ) ليفين، مورتين (مؤلف مشارك)
عبد المجيد، هشام سيد (مترجمة)
(ب) العنوان
٣٠٣،٤

رقم الإيداع: ٢٠١٥/ ٢٦٥٤٥
التقييم الدولي: ١ - 0049 - 92 - 977 - I.S.B.N - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

19	 مقدمة الطبعة الثانية
21	 مقدمة الطبعة الأولى
27	 شكر وتقدير

الجزء الأول

ما مجرى الفعل؟

31	 الفصل الأول: مدخل إلى بحوث الفعل، والتنوع، والديمقراطية
32	 تعريف بحوث الفعل
33	 لماذا يصعب الوصول إلى مفهوم عام لبحوث الفعل
	بحوث الفعل والبحوث التطبيقية، والبحوث الكيفية مقابل
35	 البحوث الكمية
36	 الفعل والبحث والمشاركة
38	 بحوث الفعل والنظم وتغطية الأحداث
41	 نتاولنا لبحوث الفعل: بحوث الفعل البرجماتية
45	 خطة الكتاب
46	 افتراضاتنا عن هذا الكتاب للقراء
47	 الهوامش

49	 الفصل الثاني: تاريخ بحوث الفعل
52	 الديمقراطية الصناعية
54	 العمل المبكر لكورت ليفين
59	 معهد تافيسنوك للعلاقات الإنسانية
68	 طريق الانتشار: أولا الشرق ومن ثم الغرب
74	 المحتوى الفكرى للديمقراطية الصناعية
78	 بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة PAR
80	 الجنوب
82	 الجنوب فى الشمال
83	 الخلاصة
85	 الهوامش
87	 الفصل الثالث: حالات بحوث الفعل من واقع الممارسة
88	 سترونجفجوردين: تنمية قرية فى غرب النرويج
	 موندراجون: المشكلات التنظيمية فى التعاونيات
99	 الصناعية
111	 مدرسة علاقات العمل والصناعة بجامعة كورنيل
115	 الخلاصة
117	 الهوامش

الجزء الثانى

العلم والمعرفة والممارسة فى بحوث الفعل

123	 الفصل الرابع: الأساس المعرفى لبحوث الفعل
124	 تعريف البحث العلمى

127	النظرية العامة للأنساق.....
131	الفلسفة البرجماتية وبحوث الفعل.....
136	الأسس المعرفية لبحوث الفعل.....
138	الاستقصاء السياقي المحدد لأهمية المشكلات المحلية....
139	عمليات الاستقصاء الديمقراطي تربط المشاركين والمهنيين.
141	التنوع كفرصة.....
142	عملية الاستقصاء فى بحوث الفعل.....
142	هل ترتبط الحتمية بالفعل.....
144	المصادقية والجدارة فى استقصاءات بحوث الفعل.....
147	الإيجابية.....
147	تكوين المعنى.....
149	مصادقية التحول السياقي.....
152	إعادة تصنيف عمليات بحوث الفعل.....
156	الاقتصاد السياسى والبناء الاجتماعى للعلم.....
159	الخلاصة.....
161	الهوامش.....
163	الفصل الخامس: المنهج العلمى وبحوث الفعل.....
	هل تستطيع بحوث الفعل الوصول إلى نتائج ذات
165	دلالة علمية.....
	العلوم الطبيعية والبيولوجية كحلقات متكررة من
169	التفكير والفعل.....
180	العلم هو بشر فى فعل.....

182	الخلاصة
183	الهوامش
185	الفصل السادس: البحث فى العلوم الاجتماعية
186	البحث الاجتماعى التقليدى وبحوث الفعل
188	البحوث الاجتماعية التقليدية
188	الأساليب
188	نماذج العمل
189	إستراتيجيات البحث
189	إستراتيجيات بحوث الفعل
189	الأساليب
190	نماذج العمل
190	إستراتيجية البحث
191	نموذج الإنتاج التعاونى
193	تحديد المشكلة
193	ميادين الاتصال
197	التغذية العكسية
197	خلق الميادين
199	ما بحوث الفعل التى ربما لا تنفذ؟
199	بحوث الفعل ليست مجرد بحوث كيفية
203	القدرة على التشغيل (الإيجابية) والشرح
205	الخلاصة
206	الهوامش

207	 الفصل السابع: إنتاج المعرفة فى بحوث الفعل
	المعرفة المحلية والمعرفة القائمة على البحث العلمى
209	 الاجتماعى
215	 عملية إنتاج المعرفة
217	 الحفاظ على الاختلافات
217	 بحوث الفعل تأخذ وقتها
218	 حل المشكلة التطبيقي المحدد السياق
218	 اختيار الأساليب الفنية ونماذج العمل
220	 كتابة (تسجيل) بحوث الفعل
223	 قصص التعلم التجريبي
225	 النشرات التقليدية
225	 الكتابة التفصيلية
226	 ردود فعل الداخلين
228	 الخلاصة
229	 الفصل الثامن: الصديق الخارجى
229	 لا تحاول أن تقهر العالم الجامع العنيد
231	 خلق الإمكانيات بدلا من تعزيز الحدود
236	 الارتباط بالنظرية والفهم المحلى
239	 ممارسات ومهارات باحثى الفعل
245	 الصديق الخارجى
248	 مهارات عملية الصديق الخارجى
249	 الثقة بالذات والتكاملية

250	المخاطرة.....
250	التجاهل أو السخرية.....
252	الأمن والحماية.....
252	الصبر.....
253	باحث الفعل اللائق.....
253	المهارات الاجتماعية.....
254	التخطيط والتفاني.....
255	الخلاصة.....
256	الهوامش.....

الجزء الثالث

التطبيقات (المتنوعة لبحوث الفعل)

259	الفصل التاسع: بحوث الفعل البرجماتية.....
262	بناء ميادين الحوار.....
264	البحث.....
265	مؤتمرات البحث.....
267	الجنور التاريخية للبحث.....
268	الخبرات النرويجية.....
271	الخبرات الأسترالية.....
272	استخدام مؤتمرات البحث في الولايات المتحدة الأمريكية...
273	مؤتمرات الفعل كعمليات تغيير بنائية.....
274	الاختيار التعاوني.....

274	 متى تصبح العملية بحثاً
277	 الإعداد للبحث
277	 التخطيط للبحث وتنفيذه
277	 التفويض بمؤتمر البحث
278	 تحديد المشاركين
279	 دعوة المشاركين
280	 الدعم اللوجستى
281	 مراحل مؤتمر البحث
281	 إيجاد التاريخ المشترك
283	 إنتاج رؤية مشتركة
284	 تحديد خطط العمل
285	 أولويات الأفكار
286	 نشاط التغيير الواقعى خلال فرق عمل المتطوعين
288	 الخلاصة
290	 الهوامش
291	 الفصل العاشر: القوة والإصلاح الاجتماعى
295	 البحوث بالمشاركة وبحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة....
296	 تحقيق الديمقراطية كنوع من الليبرالية.....
302	 الاختيار التعاونى الشمالى الجنوبى.....
305	 الإستراتيجيات التعليمية.....
308	 المدارس العليا الشعبية: أصول التعليم الشعبى.....

309	تعليم النقابة المهنية.
311	التعليم الشعبى.
313	تحليل مساواة المرأة للتنمية والظلم.
319	الخلاصة.
320	الهوامش.
321	الفصل الحادى عشر: بحوث الفعل التعليمية.
322	أطر العمل.
322	فينجر وأسـن: تعليم الكبار فى مفترق الطرق.....
324	أشر وبريانت وجوهانستون؛ تحدى ما بعد الحداثة.
325	إصلاح التعليم فى الشمال.....
325	بحوث الفعل التعليمية فى المدارس وتعليم المهن.
327	بدائل التعليم العام.....
327	بحوث الفعل داخل مؤسسات التعليم العالى.....
330	تعلم الخدمات.....
331	اتجاهات تعليم الكبار فى المجتمعات الصناعية....
331	أندراجوجى والتعلم التحويلى.....
334	الفصول المشتركة.....
335	تعليم الكبار وتنمية المجتمع.....
335	تنمية المجتمع.....
336	التنمية كإطار لبحوث الفعل.....
337	التعليم الشعبى فى الجنوب.....

339	 باولو فريير
342	 مؤسسات التنمية الدولية
344	 جماعات الدعم
344	 حلقات الدراسة
345	 التنظيمات غير الحكومية
346	 الإرساليات وحملات التبشير
347	 الخلاصة
349	 الهوامش
351	 الفصل الثانى عشر: التقييم بالمشاركة
354	 سلطة التقييم
355	 نشأة التقييم بالمشاركة
357	 نماذج التقييم بالمشاركة
358	 التقييم البنائى
360	 النفعية والمشاركة
362	 تقييم التمكين
365	 بحوث الفعل فى ممارسة التقييم
366	 الخلاصة
369	 الفصل الثالث عشر: التقدير الريفى بالمشاركة
370	 التقدير الريفى بالمشاركة فى التنمية الدولية
374	 تاريخ التنمية
377	 المشاركة فى سياق مؤسسات التنمية الكبيرة

379	المشاركة والتأييد.....
381	التقدير الريفى بالمشاركة.....
382	التقدير الريفى السريع.....
386	انتقادات التقدير الريفى بالمشاركة.....
389	التقدير الريفى بالمشاركة وبحوث الفعل.....
391	الخلاصة.....
393	الهوامش.....

الفصل الرابع عشر: تنوعات الاستقصاء الإنسانى: التعاون والفعل

397	والتأمل الذاتى.....
399	وجهات النظر الرئيسية.....
403	الاستقصاء الإنسانى.....
411	استقصاء الفعل واستقصاء الانعكاس الذاتى.....
411	استقصاء الفعل لوليام توربيرت.....
415	استقصاء الانعكاس الذاتى لجودى مارشال.....
416	الاستقصاء التعاونى.....
416	الاستقصاء التعاونى لجون هيرون.....
419	المصادقية.....
	القضايا كنقاط اختيار وتساؤلات حول جودة
419	بحوث الفعل.....
420	الخلاصة.....

الفصل الخامس عشر: علوم الفعل والتعلم التنظيمى.....

424	علوم الفعل.....

425	المواجهة
426	نظرية التغيير والجمود
426	الموضوعية
427	التدخل والعلم
428	اعتناق النظرية والنظرية قيد الاستخدام
431	الاختبار الإمبريقي فى علوم الفعل
432	مثال استرجاعى لعلم الفعل: تجارب ميلجرام...
434	ممارسة علوم الفعل
434	الخصائص الإيجابية
435	النقد
439	تاريخ العلم
440	التعلم التنظيمى
	المهارات التى تتطلبها علوم الفعل والتعلم
443	التنظيمى
444	الخلاصة
445	الهوامش

الجزء الرابع

بحوث الفعل والتعليم العالى والديمقراطية

449	الفصل السادس عشر: تعليم باحثى الفعل
453	الاعتبارات العامة
454	التخصيصية ضد تعدد التخصصات

	تعدد التخصصات أو تعدد التخصصات
457	الموجهة فكرياً.....
458	تطبيقات بحوث الفعل فى التعليم العالى.....
	القيود الزائفة.....
	بعض إمكانيات تعليم بحوث الفعل فى مرحلة
460	البكالوريوس.....
460	المراحل التعليمية فوق المتوسطة.....
460	مقرر الإدارة العامة والتخطيط لليفين.....
462	مقرر المدخل لبحوث الفعل لجرينوود.....
463	مقرر ليفين عن النمو التنظيمى.....
	المقررات القائمة على أساس الخبرة لمرحلة
466	البكالوريوس.....
468	التدريب على بحوث الفعل فى مرحلة الدكتوراه.
468	برامج الدكتوراه المميزة.....
469	برامج الدكتوراه المعتمدة على الجماعة.....
470	برامج الدكتوراه الدولية: إدار.....
472	رسائل دكتوراه بحوث الفعل.....
472	وضع بحوث الفعل فى الجامعة.....
476	الخلاصة.....
478	الهوامش.....
479	الفصل السابع عشر: بحوث الفعل والمشاركة وتحقيق الديمقراطية
481	المشاركة.....

481	أرنستين: القوة والضبط
484	جرينبيرج: الوضع السياسى
486	ليفين: العالم البرجمائى القائم على أساس الواقع..
488	تحقيق الديمقراطية
491	موقع المشاركة وتحقيق الديمقراطية
495	الخلاصة: بحوث الفعل وعمليات الديمقراطية..
497	المصادر المستخدمة

مقدمة الطبعة الثانية

نشعر بالرضا لما توفر لدينا من فرصة مراجعة هذا الكتاب. ولعل السنوات التي أعقبت نشر هذا الكتاب أظهرت أنه أصبح المرجع الأكثر انتشاراً بين هؤلاء الذين يحاولون الوصول إلى وجهة نظر حول بحوث الفعل (AR). وقد تمثلت إستراتيجيتنا في كتابة هذا المؤلف في مزج بناء سهل يقدم للقراء الأسس الفكرية والعلمية الاقتصادية والسياسية لبحوث الفعل مع مسح مختصر للأشكال الكبرى لبحوث الفعل. وقد استمر ذلك ليبدو وكأنه فكرة جيدة وسمة متميزة لهذا الكتاب. وخلال السنوات التي تم فيها نشر النسخة الأصلية من هذا الكتاب تعلمنا تناول أفضل عن بحوث الفعل وعمقنا مفاهيمنا المعرفية، ووسعنا إدراكنا للممارسات المتنوعة لبحوث الفعل. وكل ذلك أدى إلى تحسين الطبعة الثانية. وربما كان تركيزنا الأكبر في عملنا طوال السنوات الثماني الماضية ينصب على تحليل المشكلات وتكامل بحوث الفعل في مؤسسات التعليم العالي وفي ممارساتها. ويعتبر ذلك كأساس ليس فقط لمستقبل بحوث الفعل، ولكن أيضاً لمستقبل مؤسسات التعليم العالي، والتي يبدو أنها في فترة متصلة من تخفيض النفقات، وربما كان ذلك هو أكثر الأبعاد الملحوظة في الطبعة الثانية.

مقدمة الطبعة الأولى

النقى ديفيد جرينوود Davydd Greenwood ومورتن ليفين Morten Levin لأول مرة عام ١٩٦٦ فى المقابلة التنظيمية للمؤتمر التذكارى لإينار ثورسرود Einar Thorsrud، وقد بدأ التعاون بيننا منذ نصف عام مضى. وقد قضى ليفين فترة تفرغه عام ١٩٨٧ فى مدرسة علاقات العمل والصناعة فى كورنيل، وعمل فى برنامج نظم التوظيف ومكان العمل. وقد انضم جرينوود أيضا على هذه الجماعة فى نفس الوقت، وبالتريج أصبح يعرف كل منا الآخر بصورة أفضل. وكان هناك أصدقاء لضحكائنا وسخريتنا وسياساتنا واهتماماتنا. وقد قام ليفين بالعديد من الرحلات إلى إيثاكا Ithaca وأيضاً إلى كورنيل أعوام من ١٩٩٤-١٩٩٥ وكذلك عام ٢٠٠٥.

وفى عام ١٩٨٦ أسس ليفين بشكل جيد لبحوث الفعل (AR) بينما كان جرينوود فى السنة الأخيرة لأول مشروع ضخّم لبحوث الفعل فى التعاونيات الصناعية فى مدينة موندراجون بإقليم الباسك بإسبانيا. وبالنسبة لجرينوود فقد كان المؤتمر التخطيطى هو الحدث الأهم لسببين رئيسيين. لقد قابل العديد من الأشخاص نوى الأهمية فى أوروبا وأمريكا وأعضاء حركة بحوث الفعل بأستراليا، حصل على أول جرعة من عملية التخطيط المشتركة ذات النمط الإسكندنافي. وقد انخرط ليفين بالفعل لبعض الوقت فى تدريس نظريات ونماذج بحوث الفعل فى الجامعة النرويجية للعلوم والتكنولوجيا فى تروندهيم Trondheim. وفى المقابل فلم يأخذ جرينوود بحوث الفعل داخل الفصول الدراسية حتى عام ١٩٩٠، ولم يكن لديه أى تفكير فى تدريس القضايا التى أظهرتها بحوث الفعل.

وقد بدأ تعاوننا الحقيقي مع الطلاب الحاليين، وقد تعزز تعاوننا من خلال اهتمامنا المشترك بالتدريس. وفي عام ١٩٨٩ دعا كل من مورتين ليفين وماكس إلدين Max Elden جرينوود إلى تروندهيم لإدارة مجموعة من جلسات الحوار (سمينار) عن نشاط موندراجون لأول جماعة من طلاب الدكتوراه في بحوث الفعل في برنامج الدراسات العليا المتجدد في تروندهيم. وقد ساعدت جهود شرح العمليات المعقدة لبحث الفعل طوال ثلاث سنوات لجماعة من الطلاب واسعى الاطلاع في إقناع جرينوود على أن يقوم بتدريس بحوث الفعل في جامعة كورنيل. وقد بدأ هذه العملية عام ١٩٩٠ مع حلقة النقاش التي غيرت ممارسته التعليمية للأبد. والقصة تكمن في أن أول حلقة حوار قد تم توثيقها بواسطة المشاركين في المقالة المرتبطة بهذه الخبرة التي اشترك في تأليفها (Elvino, Grant Mathews, Greenwood, Martin, Thomas, 1997). وقد زار ليفين ومجموعة من طلابه كورنيل في نهاية أول سمينار، حيث شرع طلاب جرينوود وطلاب ليفين في مناقشة بحوث الفعل. وبعد ذلك تبادل كل من جرينوود وليفين الزيارات باستمرار. وقد تم دعوة جرينوود بشكل منتظم لتقديم النصائح لجماعة ليفين من طلاب الدكتوراه وللإشتراك في اللجان الثنائية لمناقشة رسائل الدكتوراه. ومن ثم فقد وظف ليفين في برنامج المشروع النرويجي ٢٠٠٠، ووجهه للعمل كمستشار لبحوث الفعل ومستثير لفريق بحث الفعل لليفين. وأثناء بعض هذه الزيارات قمنا بإلقاء المحاضرات معا في الجامعة. وقد علم ليفين جرينوود بوضوح كيفية تصميم أول مؤتمر بحث.

وقد ساعد ليفين وجرينوود بالتعاون مع كل من هانز فان بنيوم Hans Fan Beinum وريني فان دير فليست Rene Van Der Vlist وكجيل جوهانسين Kjell S Johannessen وكلاودي فوتشيوكس Claude faucheux

كأعضاء لهيئة برنامج تنمية بحوث الفعل بإسكندنافيا، والتي أحضرت حوالى ٣٠ من باجئى الفعل المهنيين معا للتدريب الإضافى لتحسين جودة البحث وكتابة بحوث الفعل، وذلك لمدة عامين. ولقد ذهنا من الصعوبات التى تواجه ممارسى بحوث الفعل فى كل من كيفية الوصول إلى نتائج البحث المكتوبة، والوصول إلى التعامل الحازم مع القضايا المعرفية.

وقد أنت بنا هذه الخبرات إلى الاعتراف بمسئوليتنا العامة فى التعليم، وإلى وجهات نظرنا الأخلاقية والسياسية المتشابهة. ومن خلال هذه العملية أصبحنا صديقين مقربين، ولكن أنت بنا هذه الخبرات أيضا إلى الاعتراف بأننا نشترك فى الكثير من الأفكار التى تضاف إلى وجهات النظر الأخرى المختلفة لبحوث الفعل من الأشخاص الآخرين الذين نقرأ عنهم. وعلى الرغم من أن الطرق التى وظفناها لم تكن حديثة، فإن اهتمامنا بالعلاقات السياسية بين بحوث الفعل وبين البحوث الاجتماعية التقليدية، وسلبية الدور الاجتماعى للجامعات، والنقص العام فى الطموح المعرفى والاهتمام المنهجى فى معظم بحوث الفعل المكتوبة أكد لنا أن لدينا وجهة نظر كافية عن بحوث الفعل تختلف عن وجهات النظر الأخرى، والتى تعتبر جديرة بتحديددها بدقة فى الكتابة.

وقد اقترح ليفين كتابة هذا الكتاب، مستفيدين من فترة إجازته الجامعية من ١٩٩٤-١٩٩٥ فى التخطيط لكتابته معا. وعندما دخلنا فى هذه العملية، فلم يكن لدينا فقط الوقت الرائع الذى عمقنا فيه اقتناعنا بأن وجهة نظرنا عن بحوث الفعل تختلف عن وجهات النظر الأخرى السائدة، ولكن أيضا لدينا العديد من الفرص المتاحة لمحاولة اختبار وجهات النظر هذه على كل من الطلاب والزملاء، والتى تضمنت بعض أوراق العمل ذات التأليف المشترك. وقد أظهر هذا الكتاب تحديات تعليم بحوث الفعل والرغبة العامة

فى زيادة جودة وشهرة بحوث الفعل من خلال رسم خطط معرفية وسياسية واضحة فى الجامعات.

وكان طلابنا معنا طوال هذه العملية. لقد علمونا كيفية التعلم (عدم التعلم) عن بحوث الفعل: لقد انتقدوا معظم الأفكار فى هذا الكتاب، لقد أرغمونا باستمرار على أن نعمل حساباً لأسئلتهم الحادة النابعة من الأزمات والمشكلات التى تواجههم كباحثى فعل. لقد أصبحنا جميعاً متعلمين متعاونين فى عملية تأليف هذا الكتاب.

لذلك كان هذا الكتاب خلاصة ١١ عاما من الحوار بين جرينوود وليفين والذى كان خلالها الطلاب من كل الأنواع والأعمار مشاركين فعالين. وكان التزامنا نحو هؤلاء الطلاب واعتقادنا بأن هناك شيئا جديدا يمكن قوله هو السبب الرئيسى لكتابة هذا الكتاب.

ويعتبر هذا الكتاب فريدا فى العديد من الجوانب. لقد وضع خطة معرفية لبحوث الفعل، وهى التى وصلت بشكل جيد إلى ما وراء طموحات الكثير من الممارسين، وتلك القضايا التى تتحدى العلوم الاجتماعية التقليدية الأكاديمية على كل من المستويات المعرفية والأخلاقية. وهى أيضا فريدة فى محاولتها تنظيم تنوع وتعقيد التيارات السياسية والفكرية، والتى تنعكس داخل بحوث الفعل. إننا لا نحاول تقليل هذا التعقيد ليكون نمونجا مثاليا، ولكن على العكس من ذلك نريد أن يفهم القارئ شيئا عن الاتجاهات المختلفة لبحوث الفعل.

إننا ننطلق إلى هذا الاتجاه باهتمام، إننا نعتقد أنه لا توجد طريقة واحدة صحيحة لإجراء بحوث الفعل، حتى لو كانت هناك بعض الممارسات التى نفضلها بشكل شخصي. إن بحوث الفعل هى سياق محدد يرتبط بقوة بمهارات واهتمامات وخلفيات الممارسين. لقد تعلمنا من خلال تدريسنا أننا لا نستطيع توقع كيفية ارتباط طلاب معينين بقضايا بحوث الفعل. ونحن نعلم

أن التدريس الجيد يحتاج إلى اتجاه مفتوح ومتنوع يزيد من قدرة الطلاب على أن يجدوا نقاط الالتقاء الخاصة بهم.

ومع ذلك فإن الكتاب الكامل، والإبقاء على العمل مستمرا، والدعوة إلى الحوار والمناقشة في مجال ليس كافيا بالنسبة له. إن هدفنا وأملنا يتمثل في أن يشجع هذا الكتاب القراء على انتقاد تطبيقات بحوث الفعل، ونحن ندعوكم للارتباط بنا في هذا المشروع.

شكر وتقدير

نود أن نتقدم بالشكر والتقدير إلى ليزا شاو بمؤسسة ساج للنشر والتوزيع على حماسها ودعمها لإخراج هذه النسخة المعدلة من هذا الكتاب. وقد ساعدتنا مراجعاتها لهذه النسخة في تعديل الكتاب، كما في مراجعة العديد من الدوريات من طبعتها الأولى. كما لا ننسى العمل الرائع لبام سوينكي على إخراجها الرائع لهذه النسخة.

الجزء الأول ما بحوث الفعل؟

يقدم هذا الكتاب بحوث الفعل (AR) كمجموعة من الوسائل التعاونية لإدارة البحث الاجتماعي، وفي نفس الوقت تتفق مع المتطلبات العلمية الصارمة وترتقى بالتغيير الاجتماعي الديمقراطي. ونعرض للقارئ العديد من القضايا المعرفية والفنية التي برزت بواسطة بحوث الفعل، ونحاول رسم صورة شاملة للأنواع المتعددة لبحوث الفعل التي توجد حول العالم. ونقدم في الفصل الأول "المدخل: بحوث الفعل والتنوع والديمقراطية" بحوث الفعل على أنها إستراتيجية بحثية وممارسة إصلاحية. ونرى أن بحوث الفعل هي وسيلة للعمل في الميدان، من خلال الاستفادة من أساليب البحث المتعددة، والتي تهدف إلى تعزيز عملية التغيير وتوفير البيانات لإنتاج المعرفة العلمية. وتعتمد بحوث الفعل على التطوير التعاوني للمعرفة وتصميم الفعل، والذي يشمل المستفيدين كمشاركين مشاركة تامة في عمليات التعلم المتبادل.

إن بحوث الفعل هي عبارة عن مجموعة من الإستراتيجيات الديمقراطية والتضامنية الشعورية لإنتاج المعرفة وتصميم الفعل، والتي يتعاون من خلالها الخبراء المدربون والمستهدفون المحليون في العمل معاً. ويتم اختيار موضوع البحث بالتعاون بين المستفيدين المحليين وباحثي الفعل، حيث يتم تنظيم العلاقة بين المشاركين على أنها عمليات تعلم مشتركة. وتركز بحوث الفعل على العمل "مع" المستفيدين المحليين بدلاً من العمل "لأجلهم" وتتفق في خبراتهم الثرية وردود أفعالهم الممكنة التي اكتسبوها من معيشتهم الممتدة لزمن طويل في المواقف المعقدة التي واجهتهم.

وقد نبعت بحوث الفعل من العديد من المصادر وتدرجيا تركزت حاليا فى إستراتيجية متعدد الأبعاد لتحقيق التغيير الاجتماعى. ونظرا لتنوع اتجاهات بحوث الفعل فقد سعيانا فى الفصل الثانى (تاريخ بحوث الفعل) إلى تقديم ملخص وافٍ عن هذا المجال، وتفصيل عميق للمناقشات التى دارت حول بحوث الفعل. وقد افترضنا أنه خلال أعوام عديدة قدمت بحوث الفعل مناقشات قوية تتعلق بالوسيلة التى يمكن أن تعمل بها العلوم الاجتماعية، ولكن هذا الوضع قد تم التوقف عنه مؤسسيا وأيديولوجيا. ومن وجهة نظرنا فإنه من المهم أن نرى كيف تستطيع بحوث الفعل منح النشاط والحيوية للعلوم الاجتماعية، والتى يبدو مستقبلها بالنسبة لنا محل شك بسبب الهجمات المتصلة من العولمة، والنظرة التجارية لإنتاج المعرفة وانتشارها، وإعادة بناء الجامعات كميادين صناعية متضامنة (متحدة) ومدارس مهنية.

وتتمثل المصادر الكبرى لبحوث الفعل فى التقاليد الاقتصادية والسياسية الأصلية البعيدة عن تلك التى تتكون منها العلوم الاجتماعية المعاصرة، ومنها الفلسفة الأمريكية البرجماتية، وعلم النفس التجريبي والاجتماعى، وتنمية المجتمع وتعليم الكبار، وأنشطة الديمقراطية الصناعية، والاستقصاء الإنسانى، وعلوم الفعل، وتعلم الفعل، والممارسة الانعكاسية، والتنمية الريفية المشتركة، واللاهوتية الليبرالية. وأن ما يأتى بكل هذه الاتجاهات معا هو الاعتقاد بأنه لا يوجد بديل عن التعلم بواسطة العمل.

وتتمثل إحدى نتائج ذلك فى تلك الحالات وقصص الحالات التى احتلت مكانا مركزيا فى عمليات التعلم التى أسهمت فى تكوين ممارس بحث فعل ذى كفاءة. لذلك فقد أنهينا الجزء الأول من الكتاب ببعض حالات بحوث الفعل فى الفصل الثالث، ولذلك قمنا بوصف ثلاث حالات لكى نرى المادة الثرية والتحديات والأخطار والإمكانات. وقد نبعت إحدى هذه الحالات من الخبرات الإسبانية فى الجمعيات التعاونية بموندراجون، وكان موقع الحالة الأخرى فى قرية صغيرة فى غرب النرويج، أما الحالة الأخيرة فقد كانت داخل جدران جامعة كورنيل.

الفصل الأول

مدخل إلى بحوث الفعل، والتنوع، والديمقراطية

من الممكن أن تساعدنا بحوث الفعل فى بناء مجتمع أفضل أكثر حرية وعدالة من خلال تعاوننا فى تحليل هذه المشكلات وحلها فى بيئتها. وهنا نقدم للقارئ فى هذا الكتاب صورة شاملة عن بحوث الفعل متضمنة الفلسفة الشاملة التى تقوم عليها، ومراجعة بعض الطرق الشائعة الاستخدام وأمثلة للحالات فى بيئتها، ومراجعة مختلف اتجاهاته التطبيقية. وأثناء كل ذلك يستمر دفاعنا عن بحوث الفعل وأجندتها عن التغيير الاجتماعى مقارنة بأشكال البحث الاجتماعى الأخرى، والتى لا تساهم بصورة مباشرة وفعالة فى عمليات التغيير الاجتماعى الديمقراطى، بل إنها فى نفس الوقت تساهم فى تكوين المعرفة الاجتماعية الصادقة.

ويقوم دفاعنا عن بحوث الفعل على أساسين مختلفين، ولكنهما مرتبطان هما المضمون الديمقراطى وجودة البحث الاجتماعى. فبحوث الفعل تساعد فى جعل عمليات البحث تتسم بالديمقراطية من خلال تضمين المستفيدين المحليين كباحثين أساسيين فى العملية. وأيضاً تقدم بحوث الفعل بحثاً اجتماعياً ذا جودة أفضل من تلك البحث يقوم بها إستراتيجيات البحث الاجتماعى ذات الخبرة المهنية. لذلك تعتبر بحوث الفعل عاملاً أساسياً ومركزياً فى الالتزام بالتحول الاجتماعى الديمقراطى من خلال البحث والتحليل وتصميم الفعل.

تعريف بحوث الفعل:

بحوث الفعل هي بحوث اجتماعية تنفذ من خلال فريق عمل، يتضمن باحثي فعل مهنيين وأعضاء من المنظمات والمجتمع المحلى وشبكة (المستفيدين) الذين يسعون إلى تحسين مواقف المشاركين. وترتقى بحوث الفعل بالمشاركة الواسعة فى عملية البحث وتدعم الفعل الذى يقود إلى موقف بالعدالة والتأييد أو إشباع احتياجات المستفيدين.

ويقوم كل من المهنيين والمستفيدين معا بتحديد المشكلات التى يريدون دراستها، ويتعاونون فى إنتاج المعارف ذات العلاقة بهم، ويتعلمون الأساليب الفنية للبحث الاجتماعى ويتخذون الأفعال⁽¹⁾، ويفسرون نتائج الأفعال القائمة على أساس ما تعلموه. وتعتمد بحوث الفعل على الاعتقادات والخبرات التى يقوم من خلالها كل الناس -بمن فيهم باحثو الفعل المهنيون- بتجميع وتنظيم المعرفة المركبة واستخدامها باستمرار فى كل يوم من أيام حياتهم. وهذا الاعتقاد يعتبر واضحا جليا فى أى من مشروعات بحوث الفعل نظرا لأن أول خطوة يتخذها باحثو الفعل وأعضاء المجتمع والمنظمة وشبكة العمل network هى تحديد المشكلة التى تبحث عن الحل. إنهم يبدعون بالمشاركة Pooling بمعرفتهم. إن بحوث الفعل تحقق العلاقة الديمقراطية بين الباحثين المهنيين وباقى الأطراف المحلية ذات الاهتمام.

ونظرا لارتباط ممارسة البحث ببرامج التغيير الاجتماعى، فإن بحوث الفعل تنتقد الممارسات الأكاديمية التقليدية والمنظمات التى تركز على ضرورة دراسة المشكلات الاجتماعية بدون البحث عن إيجاد حلول لها. وعلى الرغم من أن بحوث الفعل ترى أن نظم المعرفة الأكاديمية والمهنية لا تهتم بالممارسة الموجهة على أنها تتسم بالعناد والمكابرة، فإن باحثى الفعل لا يرفضون طرق البحث الرسمى ولا يتجاهلون القضايا المعرفية التى تمثل

ضرورة لزيادة نمو وتطور المعرفة الاجتماعية الصحيحة. وفي المقابل يتسم باحثو الفعل بالدقة لأن نتائج بحوثهم تؤثر على حياة ومعيشة المستفيدين، ولديهم اهتمام عميق وكبير بصدق المعرفة التي تم الحصول عليها. وسوف يتم التعامل مع هذه القضايا بالتفصيل في الجزء الثاني من هذا الكتاب وخاصة في الفصل الرابع "الأسس المعرفية epistemological foundation لبحوث الفعل" وفي الفصل الخامس "الطريقة العلمية وبحوث الفعل".

لماذا يصعب الوصول إلى مفهوم عام لبحوث الفعل:

لقد قررنا أن نكتب نظرة عامة وشاملة عن بحوث الفعل نظرا لأن خبرتنا بطلاب الجامعة والممارسين الذين يدرسون الموضوع لأول مرة. ومن خلال خبرتنا وجدنا أن الطلاب والممارسين الجدد يفتقدون إلى الوصول بكفاءة إلى الوسائل الشاملة والمتوازنة للتعلم عن المصادر المتنوعة والنظريات والطرق والدوافع، وكذلك المشكلات المرتبطة بالمجال المعقد. وعلى الرغم من وجود العديد من المؤلفات والكتابات عن بحوث الفعل، والتي تتضمن عددا من الأعمال التمهيدية والأدلة التي توفر نظرة شاملة عن مختلف الاتجاهات (سوف نذكرها في أماكنها) فإننا نشعر بأننا نحتاج أيضا إلى نوع آخر من الكتب العامة. وتتسم الأعمال الموجودة حاليا بالإيجاز والتركيز على نوعيات معينة من بحوث الفعل واستبعاد الأنواع الأخرى. أو أنها لا تربط تاريخ وفلسفة وممارسة بحوث الفعل بمجموعة واسعة من القضايا الفلسفية والعلمية والسياسية. ويحاول الكتاب الحالي أن يتغلب على بعض هذه الحدود والعراقيل.

تكمن صعوبة الحصول على مثل هذه النظرة الشاملة عن بحوث الفعل في تنظيم التطبيق العملي لبحوث الفعل. يوجد باحثو الفعل في مؤسسات الخدمات الاجتماعية والمنظمات غير الحكومية ومؤسسات التنمية

الدولية وأقسام التخطيط والصناعة. وكذلك ينتشرون فى المعاهد والمؤسسات الأكاديمية (مثال: التعليم والتخطيط والاتصالات، والخدمات الاجتماعية وتقييم البرامج وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والسلوك التنظيمى). وتقريبا لا تخلو أى مؤسسة أكاديمية من وجود قسم لبحوث الفعل. والأكثر من ذلك فإن العديد من شبكات وجماعات الزملاء فى مختلف التخصصات يشتركون فى اهتمامهم ببحوث الفعل. وإحدى النتائج تتمثل فى أن ممارسى بحوث الفعل لديهم معرفة عامة قليلة، ويقرعون الدوريات والكتب المتنوعة، وغالبا ما يكتبون بتجاهل عن مساهمات الآخرين فى بحوث الفعل فى مجالات أخرى.

إننا نعتقد بأن إنشاء قسم جامعى لبحوث الفعل ليس هو الإجابة على هذه المعضلة. حقيقة كان تقسيم العلوم الاجتماعية إحدى الوسائل التى تضمنتها أجندة الإصلاح الاجتماعى، والتى نبعت من السياسة الاقتصادية التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر الميلادى قد قلت أو تراجعت، ومع ذلك فإننا لم نترك المؤسسات الأكاديمية غير المرتبطة، وسوف نتناول هذه القضايا فى الجزء الرابع والأخير من هذا الكتاب.

ونريد أن يفهم القارئ أن ما سوف يلى ما هو إلا عرض لمجموعة متنوعة ومتشعبة من الممارسات التى تركز على استخدام البحث الاجتماعى من أجل التغيير الاجتماعى الديمقراطى. ولهذه النهاية فإننا نحاول أن نعرض العديد من الاتجاهات المتنوعة لبحوث الفعل وتوفير بعض المراجع التى تسمح للقراء بمتابعة اهتماماتهم الخاصة. إن ما نقدمه هو محدد بخبراتنا وأحكامنا عن الاتجاهات المختلفة التى نعرفها وبأجندائنا العلمية والمنهجية والسياسية. إن هدفنا هو تقديم عرض عقلى أمين وشامل عن مجال بحوث الفعل من وجهة نظرنا. ونحن ندرك تماما أن الخريطة ليست لمقاطعة أو إقليم ونعرف أيضا أن القدرة المعرفية للممارسين يوجد بها العديد من انفجوات والخصوصيات فى اختياراتنا^(٢).

بحوث الفعل والبحوث التطبيقية، والبحوث الكيفية مقابل البحوث الكمية:

تشير بحوث الفعل إلى اتحاد ثلاثة عناصر هي الفعل والبحث والمشاركة. وإذا لم توجد هذه العناصر الثلاثة فإن العملية يمكن أن تكون مفيدة، ولكنها ليست بحث فعل. ومن ناحية أخرى فإن بحوث الفعل هي إستراتيجيات بحثية ضرورية لاتخاذ الفعل المناسب للارتقاء بعملية التحليل الاجتماعي والتغيير الاجتماعي الديمقراطي. إن التغيير الاجتماعي الذي نشير إليه هنا ليس هو أى نوع من التغيير. إن بحوث الفعل تستهدف زيادة قدرة أعضاء المجتمع أو المنظمة على التحكم الفعال فى مقدراتهم وتحسين قدراتهم على تحقيق ذلك داخل بيئة أكثر دعما وعدالة.

وبحوث الفعل ليست بحوثا تطبيقية، بل إنها ترفض بوضوح الفصل بين التفكير وبين الفعل، والذي يركز على الفصل التطبيقي التام الذى يميز البحث الاجتماعي فى العديد من الأجيال. إن الفصل الزائف بين النظرية والتطبيق من وجهة نظرنا يعتبر الميكانيزم الذى بسببه تم تشويه العلوم الاجتماعية. إنه يخلق رقصة غير مفيدة بين النظريات غير المرتبطة والفاعلين المرتبطين، تلك الرقصة التى تحرر كل جانب من الحاجة إلى الفهم الصحيح للعالم الاجتماعي وعمليات تغييره ويعوق قدرتهم عن المحاسبة لكل من النتائج الاجتماعية والمنهجية والأسس النظرية.

نحن نعتقد أن المعرفة الاجتماعية الصادقة يمكن أن تتبع فقط من ارتباطها المنطقي بالممارسة من خلال الفعل. ونحن نعتقد كباحثى فعل بأن الفعل هو فقط الوسيلة المدركة لإنتاج معرفة جديدة واختبارها. إن الاعتقاد الواسع الانتشار بأنه لكى تكون عالما اجتماعيا يعنى ألا ترتبط بفعل اجتماعي يعتبر بالنسبة لنا غريبا جدا وغير بديهي، وسوف نخصص مساحة واسعة لشرح هذه الظاهرة فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

إننا نرفض الاتجاه السائد لدى الناس الذين يعتقدون أن بحوث الفعل يجب أن تكون بحوثاً كيفية بدلاً من أن تكون بحوثاً كمية. وربما ينبع هذا الافتراض غير المبرر من الاعتقاد بأن العمل الموجه بالفعل لا يعتبر علمياً (لأنه يتضمن فعل) والافتراض الآخر (الخاطئ من وجهة نظرنا) بأن البحث الكمي أكثر علمية من البحث الكيفي. ونظراً لأننا لا نؤمن بصحة هذه الافتراضات ولأننا نستخدم كلا من الطرق الكمية والكيفية فإننا نرفض فكرة أن بحوث الفعل هي بحوث كيفية فقط ونحن مقتنعون بأن باحثي الفعل لابد أن يكونوا على درجة عالية من الكفاءة والمهارة في جميع أشكال البحث الاجتماعي.

ويجب أن يتقبل باحثو الفعل عدم وجود أى قيود على استخدام تكنيكات وأساليب البحث الاجتماعي. فكل المسوح والتحليلات الإحصائية والمقابلات ودراسة المجتمعات البدائية وتواريخ الحياة تعتبر مقبولة ومفيدة لو تم الاتفاق على الغرض من استخدامها من قبل المشاركين في بحوث الفعل، وكذلك إذا استخدموها بطريقة خاصة لا مثل اضطهاد المشاركين. إن المعرفة الدقيقة لكمية المعادن التي تحتويها المياه الجوفية في مكان ما تعادل تقريباً معرفة كيفية تكوين الناس للوعي والإحساس بالمستقبل كجزء من مشروعات بحوث الفعل. إن الطرق الكمية والكيفية والمختلطة تعتبر جميعها مناسبة للمواقف المختلفة.

الفعل والبحث والمشاركة:

على الرغم من الفروق الجوهرية بين ممارسي بحوث الفعل، وكذلك بين مواقف حياتهم، فإننا نعتقد أن هناك العديد من الالتزامات المهمة تربط بيننا. إن بحوث الفعل هي مزيج من ثلاثة عناصر متوازنة لو غاب أحدها

فإن هذه العمليات لا تعتبر بحوث فعل. وليس معنى قولنا هذا إن كل الأبحاث غير بحوث الفعل تعتبر غير ذات معنى، ولكن نريد فقط أن نميز بين بحوث الفعل وبين أنواع البحوث والأنشطة التطبيقية الأخرى.

١. الفعل Action: بحوث الفعل هي بحوث تشاركية Participatory لأنها تستهدف تغيير المواقف الأساسية للجماعة والمنظمة أو المجتمع في الاتجاه نحو حالة تتسم بالإدارة الذاتية والليبرالية (الحرية) والدعم. إن ما يعرف على أنه حالة تحررية يختلف من ممارس إلى آخر، فالبعض يستخدم بحوث الفعل في خلق نوع من التحرر من خلال عملية تحقيق ذات كبيرة. والبعض الآخر يركز أكثر على المعاني السياسية للتحرر، حيث يختلفون بين أنفسهم حول طبيعة أجندة التحرر السياسى التى يدافعون عنها. ولا يزال البعض الآخر يعتقد أن بحوث الفعل تحدث في العديد من أنواع الأنشطة البحثية وخاصة تلك التى يوجد فيها بعض أعضاء التنظيمات أو المنظمات التى يتم دراستها. وعلى الرغم من أن القليل من الممارسين يحاولون ربط بحوث الفعل بالتطبيقات الثورية فإن باحثى الفعل يعتبرون مصلحين اجتماعيين أكثر من أن يكونوا ثوريين.

٢. البحث Research: نحن نؤمن بالبحث وبقوة وقيمة المعرفة والنظريات والنماذج والتحليل. ونؤمن أيضا أن بحوث الفعل تعتبر واحدة من أقوى الوسائل لتكوين معرفة بحثية جديدة.

٣. المشاركة Participation: نحن نؤمن بالمشاركة التى تمثل قيمة قوية وبارزة فى الديمقراطية وضبط مواقف حياة الإنسان. وهذه القيم تتبع من مناقشاتنا وتخلق التزاما عاما وقويا لجعل عملية تكوين المعرفة أكثر ديمقراطية. وتتضمن بحوث الفعل باحثين اجتماعيين مدربين

يعملون كميسرين ومعلمين لأعضاء المجتمعات المحلية أو المنظمات. ونظرا لأن هؤلاء الناس يحققون معا أجندة بحوث الفعل ويكونون المعرفة اللازمة لتغيير أو تحويل المواقف، ووضع النتائج موضع التنفيذ فإن بحوث الفعل هي عملية مشاركة يتحمل من خلالها كل فرد بعضا من المسؤولية.

إن كل هذه الاتجاهات المختلفة قد تم تقسيمها إلى أجزاء فرعية وفقا للموضوعات التي تتناولها: تنمية المجتمع، والتغيير فى أنساق التعليم، والتنمية الاقتصادية والتحرر فى العالم الثالث، والتغيير فى المؤسسات الرئيسية فى المجتمع (الشركات والبيروقراطيات الإدارية وغيرها). وتعتبر العديد من هذه الاتجاهات متعارضة. البعض منها يعتمد على الأفكار الماركسية عن الاقتصاد السياسى والتحول الاجتماعى، ويمتد جذور البعض الآخر إلى الفلسفة البرجماتية، ولا يزال البعض الآخر يبنى على أساس بعض جوانب علم النفس الاجتماعى، ويدافع البعض الآخر ببساطة عن فكرة أينما يكون السؤال فإن المشاركة هي الإجابة. ونحاول أن نأخذ القارئ بجديّة إلى أن يصبح مدركا لهذه الاختلافات، ولكننا لا نضمّر أى وهم أو خداع للتوفيق أو للتسوية بين هذه الاختلافات.

بحوث الفعل والنظم وتغطية الأحداث:

كما ذكرنا سابقا فبحوث الفعل لا تعتبر نظاما، إنها تتضمن ممارسين من علم الأنثروبولوجى ودراسات التنمية والتعليم والهندسة ودراسات الجنس والنوع والخدمات الاجتماعية وعلم النفس والخدمة الاجتماعية وعلم الاجتماع والتخطيط والهندسة المدنية والكثير من المجالات الأخرى، والتي تتضمن الكثير من أشكال الممارسات غير الأكاديمية. ومن ثم لا يجد الطلاب أى

عرض لبحوث الفعل فى مقرراتهم الدراسية الأساسية فى معظم الأقسام العلمية. وتستخدم التخصصات الأكاديمية مقررات المداخل لتقوية التخصصات البينية الجديدة، ولزيادة معدلات تسجيل الطلاب لاستيفاء متطلبات إدارات الجامعات، والتي من خلالها تحصل الأقسام على موارد إضافية. وعموما فإن هذه المقررات لا تستهدف جذب الطلاب أو الممارسين الذين يشتركون فى وجهات نظر خاصة عن الديمقراطية والمشاركة وإيجاد معارف نافعة. وهذه هى الحالة على الرغم من خيال المحافظين الجدد فى الولايات المتحدة الأمريكية الذين يتصورون العلوم الاجتماعية والإنسانيات فى الجامعات الولايات المتحدة مجالا خصبا للارتقاء بالأيديولوجيات اليسارية.

إن بحوث الفعل فى بيئة التعليم العالى لا تعتبر وسيلة سهلة للعمل بسبب أن عمليات تسجيل الطلاب وحدود التخصصية تعتبر الأدوات التى تستخدم فى المنافسة والقيادة والإدارة الأكاديمية. ومع ذلك فإننا نواجه بزيادة عدد الطلاب من المجالات المتنوعة والذين يأتون إلينا لتعلم بحوث الفعل. والبعض يأتى كرد فعل لخبراتهم غير المرضية فى التجريد والسلبية الاجتماعية فى المجالات التى يعملون بها، والبعض الآخر بسبب رفضهم لمذهب النفعية فى العديد من المجالات التى تسمى بالتطبيقية، والبعض الآخر بسبب خبراتهم بالعديد من الاتجاهات التى تنتقد أنساق النظم القانونية (مثال ذلك: مذهب مساواة المرأة Feminism والماركسية الجديدة والنظرية النقدية). إن التحدى الذى يواجه عملية تعليم الجماعات المتنوعة والمتباينة يتمثل فى كيفية تقديم مدخل إلى الأشخاص الذين يبحثون عن شىء يمدهم بخلفية كافية تسمح لهم بالاستمرار فى التعلم الاستقلالى لبحوث الفعل وفى نفس الوقت لبناء الخبرات الممكنة التى تنقلهم إلى اكتشاف بحوث الفعل من أول جلسة أو مكان.

بعد التفكير فى هذه المشكلة وتعليم مقررات بحوث الفعل خلال العشرين عاما الماضية، قررنا أن أفضل اتجاه بالنسبة لنا يكون فى تطوير

مناقشة تاريخية وفلسفية وأخلاقية لبحوث الفعل توفر بعض حالات ممارسة بحوث الفعل، ومن ثم تقدم اتجاهات متنوعة لبحوث الفعل. ولاستيفاء شروط هذا التصميم نقوم بتطوير مناقشة فلسفية لبحوث الفعل كنشاط علمي ورؤية ارتباط بحوث الفعل بالعديد من الأنواع المختلفة للحركات الإصلاحية في العلوم الطبيعية والهندسة والعلوم الاجتماعية. ونعزز ذلك بالمناقشات والحجج السياسية والاقتصادية التي تأخذ في حسابها إخماد البحوث الاجتماعية ذات التوجه التطبيقي في المجال الأكاديمي. ونظرا لأننا نهتم بالمعبر بين النظرية والتطبيق فإننا أيضا نزيد من مناقشات التصميمات المنهجية والأدوات المفيدة لبحوث الفعل. ومن ثم فمن أجل استدعاء وجهات النظر المتنوعة بين الممارسين، فإننا نقدم ملخصا عاما لبعض الأوضاع والمواقف الرئيسية لبحوث الفعل (والتي تتضمن وجهات نظرا) ونعلم جيدا أن الكثير من بعض هذه المواقف والأوضاع تتجاهل البعض الآخر في الممارسة.

ومن المحتمل أن نتعرض هذه النظرة العامة للانتقادات من بعض ممارسي بحوث الفعل بسبب أنها غير شاملة، وبسبب أننا عبرنا عن آرائنا الخاصة عن كل اتجاه راجعناه. وتوجد اقتراحات عديدة لبحوث الفعل والعديد من الجماعات المختلفة التي يدعى بعضها أنه يعرف الوسيلة الصحيحة لإجراء بحوث الفعل، بينما يرفض البعض الآخر الاسم كلية ويفضلون (غالبا لأسباب حسية) مصطلحا آخر (مثل بحوث المشاركة، الاستقصاء والإنساني، علم الفعل). ويتجاهل بعض الممارسين بشكل تقليدي بعض الأعمال أو يتعصبون للبعض الآخر. وعلى الرغم من إدراكنا بأن مراجعتنا لن تكسبنا أصدقاء في كل الجماعات، فإننا نصر على تقديم وجهة نظرنا هذه عن بحوث الفعل كحق فكري وسياسي وندعو الآخرين لتقديم وجهات نظر بديلة وانتقادات حول وجهة نظرنا هذه. وقد أثارت الطبعة

الأولى من كتابنا هذا بعض ردود الفعل، ولكن حتى الآن لم تقترح وجهة نظر بديلة متكاملة حول مجال بحوث الفعل.

نتاولنا لبحوث الفعل: بحوث الفعل البرجماتية:

تسود خبرتنا هذه (وإن كانت ليست مقصورة عليها) بعض المؤسسات الصناعية ومؤسسات التعليم العالي ومؤسسات المجتمع في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. ويعتبر ديفيد جرين وود Davydd Greenwood عالم أنثروبولوجيا ومورتن ليفين Morten Levin عالم اجتماع ذو خلفية في الهندسة. ويعمل جرينوود أستاذ في جامعة كورنيل Cornell، التي تعتبر مجمعا ضخما بالولاية ومعهدا خاصا، ويعمل مديرا أكاديميا للعديد من المراكز الكبرى في التخصصات البيئية المتعددة لأكثر من ٢٠ عاما، بينما استمر في تعليم الأنثروبولوجي. وقد احتل بحثه الرئيسي مكانا متميزا في إسبانيا، وفي شمال مدينة نيويورك، وحاليا في الدراسة المقارنة العلمية للجامعات. لقد كان عضوا فعالا في العديد من البرامج في النرويج والسويد، منها برنامج دكتوراه بحوث الفعل الذي إدارة مورتين ليفين. وليفين هو أستاذ في العلوم والتكنولوجيا بجامعة النرويج (NTNU) بمدينة تروندهيم Trondheim وكان هو الرائد في إنشاء المجمع الهندسي وبرامج بحوث الفعل فيها، وأيضا قائد لبعض الأنشطة الدولية- برامج تنمية الحياة. وقد أدار أيضا العديد من بحوث فعل في الولايات المتحدة وكندا، وهو مؤسس وقائد لبرامج دكتوراه بحوث الفعل برعاية الشركاء الاجتماعيين النرويجيين الذي تم تأسيسه في جامعته.

لقد قمنا بجهد مخلص لكي نصبح واسعى الاطلاع للعديد من الاتجاهات، ولكننا مدركون أيضا بأن هناك العديد من الهفوات في خلفياتنا. إننا لم نتجاهل بدون وعى الاتجاهات الأخرى من خلال الكتابة عن أساسنا

المعرفى. إن المصطلح الأطول لحل مشكلات التوازن الموجود هنا هو بالنسبة للآخرين يتمثل فى كتابة وجهات نظرهم حول هذه الموضوعات ويصبحون ناقدين لما قدمناه. نحن نستجيب لذلك ونأمل فى فتح حوار يوسع من إدراكنا الجمعى للغرض من بحوث الفعل وتعزيز الحوار حول ديمقراطية إنتاج المعرفة والفعل. ونأمل أن يساهم كتابنا هذا فى تشجيع المناقشة النقدية المطولة التى نحتاجها لبحوث الفعل وتطبيقاتها^(٣). إن هدفنا هو تقديم خط strand واحد متسق من التفكير يتكامل فيه الوضع الفلسفى والمنهجى والسياسى والاقتصادى مع التطبيق الراسخ الذى تدعمه الطرق والأدوات المناسبة، مع الاحتفاظ بالفهم العميق لكل أنواع ممارسات ورؤى بحوث الفعل.

وكما ذكرنا سابقا فإننا نعتبر أكثر خبرة فى استخدام بحوث الفعل فى الصناعة وفى تنمية المجتمع فى المجتمعات الصناعية الغربية. ونحن نشترك فى التزامنا بتحقيق ديمقراطية المعرفة والتعلم، والتغيير الاجتماعى. إننا مصلحون ولنا ثوريين، ومع ذلك فنحن علماء اجتماعيون ولنا محالين نفسيين. ونحن نعتقد أننا لا نملك الحكمة أو الحق فى قيادة الآخرين إلى الترتيبات الاجتماعية الصحيحة "لما هو حسن بالنسبة لهم"، كما فعل بعض الممارسين الليبراليين، أو كما دافعت الكثير من الاتجاهات العلاجية لبحوث الفعل. وبدلا من ذلك فإننا نعتقد أننا نحاول ببراعة كلما أمكن ذلك توفير المساحات والأدوات من أجل التغيير الاجتماعى الديمقراطى.

إننا نرفض توجيه مثل هذا التغيير من طرف واحد أى من وضعنا كباحثى فعل. إننا نعتبر أنفسنا مشاركين فى عملية التغيير الاجتماعى والتى من خلالها تحكم الممارسة القواعد الديمقراطية عملية اتخاذ القرار. إننا نحضر إلى المنضدة مهارات ومعارف معينة، ويفعل الآخرون غيرنا نفس

الشيء حيث يحضرون قدراتهم الخاصة وخبراتهم للتأثير فى المشكلات. وهذا سبب ما أطلقنا عليه ممارستنا الخاصة المتنوعة لبحوث الفعل "بحوث الفعل البرجماتية".

وتعتبر آراؤنا حول المواقف الديمقراطية والتحررية ذات صلة بموضوعنا، ونحن نرغب فى توضيحهما. إن الديمقراطية مصطلح متعدد المعانى، وإن المحاولات التى تحاول توضيح هذا المفهوم تتسم بالتعارض الحاد. (انظر المراجعات المتميزة لداهل: Dahl, 1989). ويرى البعض وخاصة الكثير من الأمريكيين الشماليين أن مصطلح الديمقراطية غالبا من يستدعى إلى الذاكرة فلسفة المساواة بين البشر Egalitarianism. ويرى الآخرون أن هذا المصطلح يتضمن المشاركة، بينما يرى البعض الآخر أنه عملية اتخاذ القرار من خلال الإجماع، والبعض يرى أنه عملية اتخاذ القرار وفقا لقاعدة الأغلبية. ويرى البعض أن الديمقراطية تتضمن المجتمع المتجانس، والبعض الآخر يرى أنها تتضمن ساحات المناقشة والجدل النشط. ولكل من وجهات النظر هذه انتماءاتها الوراثية والنظرية والسياسية والأخلاقية.

ومن وجهة نظرنا فإن هذه الآراء تسوى بين الديمقراطية مع إيجاد ساحات للنقاش والجدال الفعال وبين عملية اتخاذ القرار التى تحترم تنوع الجماعات وتعززها. ونحن نرفض بوضوح العدالة المميّزة بين الناس، وعمليات الديمقراطية القائمة على نماذج الإجماع. إننا نتخذ تنوع المهارات والخبرات والثقافات والسياسات والتنوعات الجنسية (ذكورا وإناثا) كأكثر الموارد أهمية بالنسبة للتغيرات الاجتماعية الكامنة فى الجماعات. وبناء على ذلك فإننا نرفض وجهة النظر السياسية السائدة حول الديمقراطية على أنها حكم الأغلبية، ونقبل انتقاد إيريس يونج (Eris Young 1990) لوجهة النظر هذه حول الديمقراطية التى تعتمد على الأفعال والإجراءات المستبعدة لنظام

الرعاية الاجتماعية فى الدول الرأسمالية لتقليل العدالة الاجتماعية من خلال إعادة التوزيع المحدود للسلع والأرباح على عدد محدود من غير القادرين. ولا تحترم هذه النظرة الديمقراطية ولا تحترم التنوعات بكل أشكالها ولا تسعى إلى تعزيز قدرات المحرومين للعمل نحو تحقيق مصالحهم المشروعة. وتهدف بحوث الفعل إلى تمكين المجتمعات والمنظمات من تعبئة مواردهم الداخلية المتنوعة والمركبة بأقصى درجة ممكنة.

وبناء على ذلك فإننا نرتاب فى اتجاهات بحوث الفعل التى تعطى امتيازاً وأولوية لتجانس المجتمعات أو اتخاذ القرارات على أساس الإجماع، معتقدين بأن مثل هذه الاتجاهات تفتح الباب على مصراعيه للاحتتمالات الكبيرة للاختيار والإجبار. ولم يحاول أحد أن ينظر بعيداً نحو توثيق هذه المشكلات. ومن النقاط المختلفة فى التاريخ المعاصر، كما حدث عام ١٩٦٨ حيث تجسدت الانتقادات الديمقراطية للمشروعات الرأسمالية المألوفة، فى محاولات إيجاد ما أطلق عليه الأشكال الاجتماعية البديلة. وقد اتخذت العديد من هذه المحاولات شكل المجتمعات المستهدفة **Intentional** والتعاونيات والمدارس المفتوحة، وحاول الكثيرون أيضاً إلغاء الاختلافات الثقافية والاجتماعية وإبدالها باتخاذ القرارات القائمة على الإجماع وفقاً لقواعد الأغلبية. ولعل الوصف الإثنوجرافى المذهل لمثل هذا التنظيم قد قدمه مانسبريدج (1983) **Mansbridge** فى كتابه "ما وراء خصوم الديمقراطية **Beyond adversary democracy**" ولتخليص الأقلية من ظلم الأغلبية، فإنهم خططوا للتغيير الاجتماعى محاولين إحلال الإجماع المطلق بدلاً من قاعدة الأغلبية. وكان التأثير كما رآه توسكيفيل (2001/1835, 1840) **Tocqueville** فى الأجيال التى مضت غالباً ما خلق مطلباً استبدادياً للإجماع، والذى فى النهاية أدى إلى الإضعاف التدريجى فى الاعتقاد بالديمقراطية من خلال خبرة جماعات الضغط والرقابة الذاتية.

ونعتقد أن التنوع يعتبر واحدا من أهم خصائص المجتمعات الإنسانية. ويعتبر التنوع حقيقة بيولوجية، غالبا ما يتكاثر في كل جيل بغض النظر عن مقاصد أى شخص. ويعتبر التنوع أيضا نتاجا ثقافيا. إن أى شخص يكلف نفسه عناء النظر عن قرب يكشف أنه حتى في أكثر الجماعات التى تبدو متجانسة يوجد داخلها اختلافات واسعة فى المعرفة والاهتمامات والخبرات والقدرات. ونحن نرى أن هذه الاختلافات تعتبر موارد اجتماعية ثرية، والتى يمكن عند تعبئتها بفعالية فإنها تمنح الجماعة أو المنظمة قدرة كبيرة على تغيير نفسها. ونرى أن الديمقراطية نسق مفتوح، والذى يجب أن يكون قادرا على الترحيب بهذه الاختلافات وتحقيق أقصى درجة من الاستفادة الإنسانية منها. ومن وجهة نظرنا فإن الهدف من الديمقراطية هو الارتقاء بقدرة المجتمعات والتنظيمات على تأكيد وتعبئة وتنشيط هذه الاختلافات داخلها.

ونرى أن المواقف الليبرالية هى تلك المواقف التى يكون التغيير الاجتماعى فيها ممكنا، والتى يمكن أن تتأثر بالمشاركين. بالإضافة إلى ذلك فإننا نرى أن الجماعة أو المنظمة تصبح ليبرالية عندما تزداد قدرتها على التسامح والاستفادة من تنوع وجهات النظر والقدرات والخبرات داخلها ومكافأتها، وإذا كانت تسمح بزيادة نسبة الأعضاء الذين يؤثرون على توجهات المستقبل بالنسبة للعمل الجماعى. وأخيرا فإن الموقف الليبرالى يتسم بزيادة ترحيب الجماعة بالتغيير كفرصة لتعزيز قدرات الجماعة ولنموها.

خطة الكتاب

يستمر الجزء الأول من هذا الكتاب بعرض الفصل الثانى عن تاريخ بحوث الفعل، وعرض ثلاث حالات فى الفصل الثالث. ونتناول فى الجزء

الثانى (العلم والمعرفة والممارسة فى بحوث الفعل) حيث تتناول الفصول من (٤-٨) المناقشات الفلسفية والمنهجية لبحوث الفعل كشكل من الاستقصاء العلمى، والذى يقابل بشكل أفضل المعايير العلمية أكثر مما نطلق عليه حالياً "بالعلوم الاجتماعية" فى الدراسة الأكاديمية. وسوف نقدم عرضاً وتفسيراً لعملية تهميش أنشطة بحوث الفعل فى المجالات الأكاديمية من خلال تلخيص الخصائص التاريخية والسياسية والاقتصادية للمؤسسات الأكاديمية فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة. وفى الجزء الثالث (تنوعات تطبيق بحوث الفعل) ننتقل إلى الفصول من ٩-١٥ والتي تتناول الاتجاهات المختلفة لبحوث الفعل بداية باتجاهها الخاص. ونقترب فى الجزء الرابع من خلال الفصل ١٦ من تعليم باحثى الفعل، ونتعرض فى الفصل السابع عشر للنظرة الأوسع لبحوث الفعل والمشاركة والديمقراطية. وطوال هذا العرض فإننا ندافع بقوة عن وجهة نظرنا ولكن مع الاهتمام بتشجيع القارئ على ألا يتقبل ذلك بدون مناقشة.

افتراضاتنا عن هذا الكتاب للقراء

نفترض أن قراءنا لديهم خبرات سابقة، سواء للبحث الاجتماعى التقليدى، أو للتغير الاجتماعى الموجه بالفعل. ونحن نهدف إلى تقديم بحوث الفعل للقراء الذين يسعون إلى الوصول إلى ما يأملون من أساليب مناسبة وبناءة للقيام بالبحث الاجتماعى. ونحن لا نطلب منك أن تتجاهل خبراتك السابقة، إننا نشجعك على استخدام هذا الكتاب كمرجع تتعلم منه عن اتجاهات بحوث الفعل. وكما يحدث فى فصولنا التعليمية أو فى مشروعات بحوث الفعل، فإننا نرى أن العلاقة بين القارئ- والمشارك، والمؤلف- والباحث تعتبر علاقة تضامنية.

الهوامش

- (١) أحيانا ما ينخرط باحث الفعل المبنى فى الأفعال النابعة من عمليات بحوث الفعل وأحيانا لا. وهذا يعتمد على الموقف وعلى احتياجات المستفيدين.
- (٢) وقد ساعد وجود دليل بحوث الفعل لبينتر ريسون وهيلارى برادبورى **Peter Reason and Hilary Bradbury (2001a)** فى علاج هذه المشكلة، وإن هذا العمل يمكن أن يتم بنشاط مع الاستفادة من العديد من وجهات النظر والبيولوجرافيات الشاملة.
- (٣) إن التبادل المفيد من هذا النوع قد تم نشره فى المجلة الدولية لبحوث الفعل (والتى سميت فيما بعد بالمفاهيم والتحويلات **(Greenwood, 2002, 2004a)**)

الفصل الثانى

تاريخ بحوث الفعل

يمكن كتابة التاريخ بوسائل متعددة، ولكن لا يمكن لشخص بمفرده أن يكتب التاريخ. وينصب اهتمامنا فى هذا الفصل على تحديد انتساب (انتماء) **Genealogy** بحوث الفعل، التى تركز على الطريقة التى تعلمناها لفهم بحوث الفعل أثناء سنوات عملنا فى هذا المجال. ونحن لا نؤمن بأنه من الممكن تقديم تفسير موضوعى لتطور بحوث الفعل. وغالبا ما تقوم محاولة صياغة تاريخ ظاهرة معينة على افتراض أساسى، وهو أنه من الممكن رسم خط تاريخى واحد يربط بين العناصر المختلفة لهذه الظاهرة. وهذا لا ينطبق على حالة بحوث الفعل أو ربما أى موضوع آخر. إن تنوع الأنشطة التى تحدثت اليوم كبحوث للفعل لا يمكن -بطريقة واضحة- أن ترتبط ببعضها. والمثال اللافت للنظر لهذا الموقف حدث عام ١٩٩١ عندما تم نشر كتابين مهمين فى نفس الوقت بنفس العناصر فى عنوانهما: فالس بوردا ورحمن **Fals Borda** (1991) **and Rahman's** الفعل والمعرفة: تحطيم الاحتكار باستخدام بحوث الفعل **Action and Knowledge: Breaking Monopoly With** **Participatory Action Research**. وكتاب وايت (1999) **Whyte** بحوث الفعل المشتركة **Participatory Action Research**. وقد استخدم الكتابان نفس العناصر فى عنوانيهما، وعلى الرغم من ذلك كما رأى ليفين **Levin** (1998) لم يعترف كل منهما بالآخر. وبملاحظة قائمة المراجع التى اعتمدا عليها نجد أنهما لم يشتركا سوى فى ثلاثة مراجع فقط ترتبط بممارسة بحوث الفعل.

وقد تغير هذا الموقف خلال الخمسة عشر عاما الماضية. وقد أشار دليل بحوث الفعل الذى حرره ريسون وبرادبورى Reason and Bradbury (2001)، والذى جمع العديد من الاتجاهات الفكرية المتنوعة عن بحوث الفعل فى مجلد واحد إلى ظهور العديد من الآراء العالمية المتنوعة فى التطور المعاصر لبحوث الفعل. وقد وجدت العديد من المراجع المشتركة للأعمال الكلاسيكية لكل من كارل ماركس Karl Marx وجون ديوى John Dewey وكورت ليفين Kurt Lewin وجورجين هابرماس Jurgen Habermas وهانس جورج جادامر Hans Georg Gadamer وريتشارد رورتى Richard Rorty وغيرهم. إن ما تم افتقاده فى مجلد ريسون وبرادبورى وفى مجال بحوث الفعل عموما أصبح يمثل مجالا للنقد لمختلف تصورات بحوث الفعل، أو للخلاف حول مختلف الممارسات والنتائج. والأكثر من ذلك فقد استهدفت المساهمات فى مجلد ريسون وبرادبورى تقديم تصور واحد ومحدد، ولم يتضمن التصورات الفكرية المتنوعة. ونأمل أن يوجد نوع من الإبداع من خلال شبكة المهنيين الدولية فى بحوث الفعل تتضمن تعدد الآراء المعالجات النقدية والتى توفر خريطة ذات دلالة للتنوعات والاتجاهات المختلفة لبحوث الفعل.

وعلى الرغم من ذلك فإنه من الخطأ الادعاء بأن الأنشطة المتنوعة التى يطلق عليها بحوث الفعل تقتقد إلى خصائص أو مميزات الحركة الفكرية الاجتماعية. إن بحوث الفعل تجسد حركة تنوع واسعة تتضمن العديد من التشابهات فى القيم والاتجاهات فى المجال الإمبريقي والالتزام بالتعلم المتبادل بين أصحاب المشكلات والباحثين. وقد أصبح الممارسون فى مجال بحوث الفعل يشاركون فى المؤتمرات، ويكتبون الفصول فى نفس دليل بحوث الفعل لريسون وبرادبورى وينشرون فى نفس الدوريات العلمية، ولكن لم ينتج عن هذا النشاط اتصال أو تواصل كافٍ لذلك فمن السهل على القارئ

أن يبدأ فى جانب من جوانب بحوث الفعل لى يجد ما يريد ثم ينتقل إلى الجوانب أو الأركان الأخرى.

ويمكن تقسيم الاتجاهات المتنوعة والعديدة من التفكير إلى فئات محددة، ولكن يكفى لتحقيق أغراضنا هنا التركيز فقط على الوصول إلى نظرة تاريخية أكثر عمومية. أخيرا فإننا نقدم فى الجزء الثالث من هذا الكتاب الأصول التاريخية لمعظم اتجاهات بحوث الفعل، كما نتعرض بالشرح لكل اتجاه. ومن وجهة نظرنا فإن تاريخ بحوث الفعل يحتوى بالضرورة على أكثر من قصة أو رواية وكل رواية أو قصة تضيف عناصر أساسية إلى الصورة التاريخية الكبرى.

هذا وقد بدأنا ببناء تاريخ بحوث الفعل وركزنا اهتمامنا على الديمقراطية الصناعية الشمالية. وقد مثلت خبرات المنظمات الصناعية الشمالية الأرضية الخصبة والأساسية لتطور ونمو بحوث الفعل، وقد كرسنا معظم المساحات فى هذا الفصل للتقاليد الشمالية والغربية لأن القارئ يحتاج إلى معرفة من أين نحن جئنا. ويجب ألا يفسر ذلك على أنها إستراتيجية استثنائية أو انفصالية، ولكن بالأحرى تفصيل أو وصف للكيان الخاص بنا. بعد ذلك نقدم عرضا لحركات التحرر فى البلدان الفقيرة؛ نظرا لأنها تمثل جزءا حيويا من تاريخ بحوث الفعل. (ونقدم فى الفصول الأخيرة المشاركة الشمالية فى بحوث الفعل (PAR) واتجاهات التحرر الأخرى والتي تعطى معالجة دقيقة ومهمة) ويعتبر النقارب النهائى (بدون التشابهات المتبادلة) ضروريا لمستقبل بحوث الفعل ويحدد القوى المنظمة فى الشمال والجنوب ضد الديمقراطية. وتعتبر هذه واحدة من الممارسين الأساسيين فى بحث الفعل بالمشاركة، ويعتبر أورلاندو فالس بوردا Orlando Fals Borda هو الذى فهم ذلك جيدا وتوصل إلى كل الأوضاع فى عالم بحوث الفعل عندما اختار

تنظيم مؤتمرات العالم، التى أطلق عليها عنوان التقارب "Convergence" فى قرطاجنا وكولومبيا عام ١٩٧٧ و عام ١٩٩٧. ونختم الفصل بموجز مختصر لاتجاه الاستقصاء الإنسانى/الاستقصاء التعاونى.

الديمقراطية الصناعية Industrial Democracy:

يشير مصطلح حركة الديمقراطية الصناعية إلى أول الجهود المنظمة والمنطقية لبحوث الفعل فى المجتمعات الصناعية الغربية. وترجع جذورها للعمل المبكر لكورت ليفين Kurt Lewin فى الولايات المتحدة الأمريكية (كانت فى جامعة كورنيل أولا ثم أخيرا فى MIT). وقد عبرت أفكاره المحيط الأطلسى ووجدت أرضية خصبة فى معهد تافيسٲوك للعلاقات الإنسانية بلندن. وكان هناك عدد من الأنشطة فى بريطانيا العظمى، وهى المصدر الرئيسى لمشروعات بحوث الفعل على نطاق واسع والتى انتقلت إلى النرويج فى مشروع الديمقراطية الصناعية. وقد تم إعادة صياغة العديد من هذه الأفكار فى شكل إستراتيجيات الإدارة الصناعية فى السويد والشركات الصناعية بالولايات المتحدة الأمريكية، وأخيرا وصلت اليابان أيضا. ويعتبر هذا الانتشار السريع للأفكار التى تطورت من خلال بحوث الفعل قصة نجاح عن انتشار بحوث الفعل، ولكنها أيضا تعتبر قصة عن الطريقة التى استخدمتها الأفكار الراديكالية المعتدلة عن التغير الاجتماعى كأدوات للإدارة، والتى استهدفت إنتاج منظمات أكثر كفاءة بدلا من المنظمات الأكثر عدلا.

ويتمثل افتراضنا الرئيسى بأن الأفكار الأساسية لحركة الديمقراطية الصناعية قد أصبحت مقبولة اليوم كتقنية حديثة لتنظيم العمل. ولم يفشل قائد صناعى واع فى الغرب فى أن يضع فى حسابه تنظيم العمل القائم على فريق

أو على العاملين ذوى المهارة والمسئولية القادرين على الانخراط فى عمليات التجديد والإبداع (التحسين والتطوير) المستمر فى مستوى توزيع العاملين فى أعمالهم. وقد لاقى هذه الأفكار قبولا على نطاق واسع فى الوقت الحالى ذلك أن أصولها المعاصرة نسبيا فى حركة الديمقراطية الصناعية أصبحت فى طى النسيان.

ولعل إحدى نتائج ذلك أن مفهوم الديمقراطية الصناعية قد فقد معناه الأساسى. وقد طبق بعض الممارسين والشركات مصطلح الديمقراطية الصناعية بشكل اختياري، وأعطوا إستراتيجيات الضبط النموذجى للإدارة اسما جذابا اجتماعيا، بينما لا يزالون يستخدمون أساليب تايلور **Tayloristic Ways**⁽¹⁾. وعلى الرغم من أننا ننظر إلى ذلك على أنه موقف إشكالى فإن أى شخص آخر دائما ما يرى ذلك عندما تظهر أفكار جديدة فى المؤسسات الصناعية. ونستطيع أيضا أن نرى نفس عمليات التأهيل فى اتجاهين آخرين لبحوث الفعل سوف نناقشهما فى هذا الفصل. ففى الحركة التحررية التقليدية على سبيل المثال نجد أن العمل التعددى الذى يطلق عليه التقدير الريفى السريع **Rapid Rural appraisal** والتقييم الريفى بالمشاركة **Participatory Rural appraisal** أو تحليل التعلم بالمشاركة **Participatory Learning Analysis** (Chambers, 1994a,b,c) ينظر إليه على أنه مشاركة بدون قصد فى السلع والبضائع التى بنيت داخل إستراتيجيات التنمية كأسلوب تحرص عليه المؤسسات الرأسمالية. وقد سارت هذه العملية تماما بالتوازي مع عملية الاختيار أو الانتخاب بالديمقراطية الصناعية. وبالمثل فإنه من الممكن أن نتتبع عناصر نفس النوع من التأهيل التى اتخذت شكل الإصلاحات السريعة فى المؤسسات التنظيمية بدون تعلم منظور المدافعة لكل من هيرون (Heron 1996) وريسون (Reason 1994). وتوجد دائما الانتخابات **co-optation** بجانب الجهود الحقيقة والأصيلة لجعل المجتمع ديمقراطيا. ويتمثل التحدى الذى

يواجه بحوث الفعل فى أن المجتمع لا يحتفظ بنقاؤه "purity" ولكن فى أن يحدد إستراتيجيا كيفية توفير أرض جديدة لتنظيم العمل الديمقراطي والمحافظة على زخم التحول الديمقراطي، والذي يجعل بحوث الفعل أعمالا جذيرة بالاهتمام

العمل المبكر لكورت ليفين Kurt Lewin:

أدى انتشار النازية فى ألمانيا إلى ترك عالم النفس الاجتماعي كورت ليفين أوروبا وطلب اللجوء إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وتدرّب ليفين كعالم نفس اجتماعي وتركز اهتمامه الرئيسى على التغير الاجتماعي وخاصة فيما يتعلق بكيفية التنظير للتغير الاجتماعي وتحديد مفاهيمه وكيفية الارتقاء به. وعلى الرغم من اختلاف الحسابات فى هذا الموضوع فإن ليفين قصد أن يكون الشخص الذى يخرع بحوث الفعل ويعطى لها معانى قريبة من تلك التى نستخدمها فى هذا الكتاب.

وقد تخيل ليفين بحوث الفعل العملية التى بواسطتها يستطيع شخص ما بناء تجربة فى موقف اجتماعي أو مادي بغرض تحقيق هدف معين. على سبيل المثال فى الأيام المبكرة من الحرب العالمية الثانية أجرى ليفين عام ١٩٤٣ دراسة رعتها سلطات الولايات المتحدة الأمريكية على استخدام "معدة" الحيوانات Tripe بدلا من لحوم البقر فى وجبات الغذاء. وكان سؤال الدراسة هو إلى أى مدى تستطيع أو تشجع الزوجات أو ربّات البيوت الأمريكيات على استخدام الكرشة فى وجبات غذاء الأسرة. فلحم البقر أصبح نادرا ويتم توزيع المتاح منه أساسا على القوات الأمريكية. ولذلك تطلعت السلطات الأمريكية إلى مصادر بديلة للحوم البقر لاستهلاك المواطنين.

ويميل اتجاه ليفين في هذا البحث إلى دراسة إلى أى مدى يمكن تدريب عدد محدود من الزوجات أو ربات المنزل الأمريكيات على فن طبخ الكرشة. ومن ثم اختبر كيفية تأثير هذا التدريب على عادات طبخهن اليومية فى أسرهن. وفى هذه الحالة فإن بحوث الفعل أصبحت مشابهة لما يسمى بالتجربة الطبيعية **Natural Experiment**، والتي تعنى أن الباحثين فى سياق الحياة الواقعية يدعو المشاركين أو يجبرهم على أن يتحملوا جزءا من النشاط التجريبي. وما زال هذا الاتجاه البحثي يضرب بقوة داخل حدود العلوم الاجتماعية التطبيقية التقليدية، بمصاحبة أنماط التحكم أو الضبط السلطوى التى يتضمنها، ولكنه كان يهدف إلى تحقيق نتائج اجتماعية نوعية ومرغوبة. وقد أصبحت فكرة ليفين عن التدريب فى الأماكن الطبيعية هى الإستراتيجية الرئيسية فى مشروع الديمقراطية الصناعية النرويجية. وقد تدرب ليفين كعالم نفس اجتماعى، ومن ثم أصبح لديه اهتمام مهني بالتعديل السلوكي الذى أصبح واحدا من أهم القضايا الرئيسية فى المراحل المبكرة للجهود النرويجية لتحسين ظروف العمل.

ويوجد مساران آخران فى تفكير ليفين كان لهما تأثير كبير فى تطور حركة الديمقراطية الصناعية. أولهما تصور ليفين العلمى للتغير الاجتماعى على أنه يتضمن ثلاث عمليات مرحلية: تفكيك البناءات السابقة أو القديمة (إذابة التجمد unfreezing) وتغيير هذه البناءات (التغيير) وأخيرا تثبيتها والعودة بها إلى بناءات ثابتة ومستقرة (التجمد Freezing). وثانيهما عمله أو نشاطه عن ديناميات الجماعة وتحديد العوامل والقوى المهيمنة المؤثرة على نمو الجماعات وصراعاتها ومظاهر التعاون داخلها، والتي أدت إلى مفهوم جماعات ت (T-groups)، والتي أصبح لها تاريخ لاحق (انظر

(Gallagher,2001

وما زال التصور العلمى لليفين عن العمليات المرحلية للتغيير هو النموذج المؤثر حتى الآن. وتتمثل الفكرة الرئيسية لليفين فى أنه يمكن تحديد التغيير الاجتماعى كعملية متتابعة ومنفصلة تستخدم مصطلحا ديناميا حراريا Thermodynamic كناية عن حالات الذوبان (عدم التجمد) والطفو Floating والتجمد Freezing. ويتمثل جوهر نموذج ليفين فى فكرة ثبات واستقرار الظروف والأوضاع الاجتماعية والتي تسبق التغيير، والتي تحققت بعد أن يتخذ التغيير مكانه وموضعه. ويعتبر تدخل الفعل Action intervention (وهو عملية التغيير) حلقة ضمن مجموعة حلقات تنتهى فى النهاية بعودة الأنساق إلى حالة الثبات والاستقرار. وكان لهذا التصور العلمى للتغيير تأثير مسيطر وقوى فى الأيام المبكرة لبحوث الفعل وما زال سائدا فى تصورات الكثير من الممارسين فى منظمات التنمية بالولايات المتحدة الأمريكية (Lewin, 1994). وأصبح هذا النموذج جذابا لأنه يمثل أنواعا من التدخل المهنى قصيرة المدى المنطقية والحقيقية، وقد تطور هذا المفهوم أساسا بين علماء النفس الاجتماعى خلال السبعينيات من القرن الماضى. ولعب أيضا دورا كبيرا فى تشكيل الأفكار التى تقع وراء ممارسات الاستشارة فى مجال التطور أو النمو التنظيمى Organizational development، والتي هى جهود مخططة ومنظمة لإيجاد تغيير مشترك Participative change فى التنظيمات (Cummings & Worley, 2001) بدون الارتباط الضرورى بعمليات تغيير طويلة المدى.

ومن وجهة نظرنا فإن ذلك يعتبر وضعاً خاطئاً ومحدوداً جداً. فنحن نؤيد ونفضل أن تكون نماذج بحوث الفعل عمليات تعلم مستمرة ومشتركة، وليست كنوع من التدخل قصير المدى، ومن وجهة نظرنا فإن عملية التغيير هى نقطة انطلاق مفتوحة وغالبا لا توجد نقطة نهاية مطلقة لها. والأكثر من ذلك فنظرا لأن أفكارنا الجوهرية وممارساتنا المحورية تستهدف إيجاد قدرات

تعلم داعمة، ومنح المشاركين والمستفيدين فرصة الاختيار لزيادة التحكم فى مواقف حياتهم الخاصة، فإن تحديد عملية التغيير على أنها قصيرة المدى لا تتطابق مع ما نتبناه أو نعتبره ممارسة جيدة لبحوث الفعل. وربما تعتبر الأهداف قصيرة المدى (الإصلاحات السريعة) مناسبة إذا كانت تمثل خططا فى نسيج واسع من التغيير المستمر.

إن هذه الانتقادات لوجهة نظر ليفين لا تضعف من فكرته الأساسية عن بحوث الفعل: إن هذه الانتقادات تظهر فقط حدود اتجاهه المنشور وخاصة استخدامه لمفهوم عمليات التغيير قصيرة المدى بواسطة المستشارين الذين استغلوا فرصة الشهرة المبكرة لبحوث الفعل فى تحويل النمو أو التطور التنظيمى إلى مشروعات ربحية. لقد تحولت بحوث الفعل المعاصرة تحولا كبيرا بعيدا عن صياغة أو معادلة ليفين ويمكن أن نرى ذلك فى الوسائل التى تتميز بها عمليات التغيير. وتركز الصياغات المعاصرة حواراتها المستمرة على التعامل الكبير (Gustavsen, 1992) والإنتاج التعاونى للتعلم التعاونى المنتج Cogenerative كمحرك للتغيير المدعم.

وكان هناك تأثير مهم لعمل كورت ليفين فى جوانب أخرى: وهو مجال ديناميات الجماعة. وديناميات الجماعة هى مجموعة من التطبيقات والطرق التى تشكلت بقوة بواسطة تركيز ليفين على تكوين جماعات تستطيع مقاومة توترات العمليات التنموية (عمليات النمو) بدلا من تلك الجماعات التى تنهار عند ظهور هذه التوترات. ومن بين أكثر الاتجاهات شهرة اتجاه أسلوب جماعة ت T-group technique. ويشير حرف ت (T) هنا إلى بناء الجماعة. وفى بداية تكوين الجماعة يلعب الميسر (Facilitator) دورا اجتماعيا رئيسيا فى الجماعة ويكون وضعه فى قمة بناء الجماعة (T). ويشجع الميسر الممارسة من خلال اتخاذ دورا لا يتسم بالسيطرة والإجبار.

ومن خلال هذا الشكل من السلطة -وليس بالأسلوب السلطوى المعتاد- يستم وضع أعضاء الجماعة فى مشكلة وتحت ضغط وأحيانا خلال نزاع حاد ومؤلم، ليستعيدوا المصطلحات المرتبطة باتجاهاتهم نحو السلطة، وأخيرا جعل الجماعة تعمل بطريقة جديدة.

وتبدأ تطبيقات جماعة "ت" ما أصبح الطريق إلى جماعات الحساسية sensitivity groups، والتي تقدم تعلم تجريبى عن التفاعلات بين الأشخاص interpersonal interaction كطريق إلى النمو الشخصى العميق. ويعتبر هذا الاتجاه أكثر اتجاهات النمو الإنسانى انتقادا والذي يتضمن المخاطر العالية لإيجاد الضرر بالمشاركين. (Filley & House, 1969) وما زال المعمل القومى للتدريب بجامعة ميتشيجان يعلم الناس ديناميات الجماعات بوسائل يعتمد عليها منهجه، ولكن بتركيز أقل على القضايا التى كانت مركزية فى نماذج التدريب البدائية (القديمة) وبتركيز أكثر على ديناميات الجماعة ومهارات التفاعل الاجتماعى المطلوبة لبناء فرق العمل.

وقد اعترف ليفين أيضا بنوعين من المقولات المهيمنة فى العلوم الاجتماعية. وهذه المقولات معروفة ومهمة، وهى "لا يوجد شىء عملى مثل النظرية الجيدة"، و"إن أفضل وسيلة لفهم شىء ما هى محاولة تغييره"، وقد وجدت هذه الشعارات أصداء واسعة لدى ممارسى بحوث الفعل نظرا لأن هؤلاء الممارسين يتميزون بالتطبيقات العملية ويقدرّون قيمة النظرية فقط عندما تكون موجها جيدا لهذه التطبيقات، والذي يضعهم فى موقف مضاد لبحوث الاجتماعية التقليدية. ونعتقد أن أفضل وسيلة لاختبار النظرية فى بحوث الفعل هى فى رؤيتها، وهى توفر فهما عميقا وشاملا للبناءات الاجتماعية، وفهم المكتسبات التى تم الوصول إليها من خلال المحاولات المخططة التى تستهدف التغيير بتوجهات نوعية. ويعتبر التزام المستفيدين

المحليين بعمليات التغيير والتغييرات المناسبة الناتجة تعتبر برهاناً على الاستفادة من النظرية.

وقد أرست أعمال ليفين البناء الأساسى لما يطلق عليه اليوم بحوث الفعل. لقد وضع مراحل إنتاج المعرفة القائم على أساس حل مشكلات الحياة الواقعية. لقد وضع من البداية دوراً جديداً للباحثين وأعاد تحديد معيار الحكم على جودة عمليات البحث والاستقصاء. لقد غير ليفين دور الباحث من ملاحظ عن بعد إلى أن يكون ضمن (داخل - مشارك فعال) عملية حل مشكلة واقعية وملموسة. إن معيار الجودة الذى طوره ليفين للحكم على النظرية كان فى تركيزها الجيد والمناسب على قدرتها على دعم حل المشكلة العملية فى مواقف الحياة الواقعية.

معهد تافيستوك للعلاقات الإنسانية

The Tavistock Institute of Human Relations:

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كان الهدف الأكبر لبريطانيا العظمى يتمثل فى إعادة بناء قاعدتها الصناعية. وقد تحطمت هذه القاعدة الصناعية خلال سنوات هذه الحرب، حيث بدأت الجهود القومية بسرعة بعد انتهاء الحرب لإعادة إنعاش الاقتصاد البريطانى. وقد استندت الحكومة البريطانية معهد تافيستوك للعلاقات الإنسانية بلندن، وذلك لدعم مختلف أنواع هذه الجهود.

ويعتبر معهد تافيستوك (الذى يسميه أعضاؤه عيادة Clinic) بيئة فكرية تكونت، بواسطة أصحاب فكر التحليل النفسى وتوجهات الفعل Action orientation. وقد ظهرت أهمية هذا المعهد مع الدراسة التى أجريت على

مناجم الفحم الإنجليزية عندما لم يؤد إدخال معدات جديدة فى هذه المناجم إلى الزيادة المتوقعة فى إنتاجيتها. وقد تعاقد المعهد على إجراء هذا البحث مع اللجنة المختصة بمتابعة ومراقبة هذه المناجم. وقد أظهرت نتائج الدراسة الأكثر شهرة الآن، والتي قام بها كل من تريست Trist وبامفورث Bamforth (١٩٥١) كيفية الارتباط الحتمى بين المنتجات التكنولوجية وتنظيم العمل. وقد أظهر المؤلفان أنه يمكن تفسير نقص الأداء الجيد إلى عدم التطابق بين المتطلبات التي تخلقها التكنولوجيا وبين ما هو نافع ومفيد وبين العمال كجماعات إنسانية متفاعلة. إن فصل دورة العمل إلى أجزاء فى كل فترة Shift يسبب تقسيم التحسن على الفترات ويقلل من الإنتاجية ككل. وقد قدم الفهم العميق القائم على أساس نتائج تريست وبامفورث (١٩٥١) الوقوف مع اتجاه تبلور التقليدى للعمل، حيث دائما ما يركز البحث على إيجاد أكثر الوسائل الفنية كفاءة فى تنظيم العمال إلى جماعات مسئولة ومنفصلة تتعامل فقط مع العناصر الأكثر وضوحا وتحديدًا لدورة الإنتاج. وقد شكل هذا الفهم ظهور حركة الديمقراطية الصناعية.

وقد استعاد معهد تافيسنوك أعمال ليفين عن مفهوم التجارب الطبيعية وبحوث الفعل (Gustavsen, 1992) من الولايات المتحدة الأمريكية، وقد التزم معهد تافيسنوك نفسه بإجراء تجارب مباشرة على حياتهم العملية. وكانت العلاقة بين العاملين والاتحادات والنقابات العمالية ببريطانيا العظمى لا تسمح بالتجريب فى منظمات العمل الصناعية. ومع ذلك فقد قام إينار ثورسرود Einar Thorsrud، وهو عالم نفس ومدير سابق للموارد البشرية فى المؤسسة الصناعية النرويجية بعملية إيجاد نوع من الاتصال بمعهد تافيسنوك. وقد قاد هذا الاتصال أخيرا الأمل فى إجراء تجارب الحياة الواقعية فى الديمقراطية الصناعية، ولكن فى النرويج بدلا من بريطانيا العظمى.

وبالتعاون مع الباحثين الرئيسيين بمعهد تافيسـتوك إريك تريست Eric Trist وفريد إيمرى Fred Emery ثورسرود Thorsrud تم تصميم البرنامج النرويجى، والذي يتفق تماما مع اتجاه ليفين (Gustavsen, 1992) وقد ركزت الإستراتيجية الأساسية لهذا البرنامج على البدء فى العديد من التجارب فى وقت واحد، حيث تركز جميعها على تحسين وتطوير الديمقراطية على مستوى العمالة Shop-floor .

وقد اهتم ثورسرود Thorsrud والمهنيون والخبراء بمعهد تافيسـتوك بإقناع الاتحاد النرويجى للتوظيف (الاتحاد النرويجى للعمال) ومجلس نقابة التجاريين والمهنيين بضرورة تأييد ودعم مشروع الديمقراطية الصناعية. وكانت المرحلة الأولى فى المشروع تتمثل فى الدراسة الأوروبية للديمقراطية الصناعية بوجه عام، مع التركيز على أى من النماذج النيابية representative أو بالمشاركة Participative للديمقراطية التى تعطى بحق درجة عالية من ضبط العاملين (الموظفين) لعملهم (Emery & Thorsrud, 1976). وعلى غير المتوقع فقد أظهرت نتائج الدراسة أن اتجاهات المشاركة فى تنظيم العمل كانت ضرورية لزيادة وتنمية الديمقراطية الصناعية.

وقد تم تنفيذ مشروع الديمقراطية الصناعية النرويجى كمجموعة من التجارب فى العديد من الشركات والمصانع المتنوعة الإنتاج والتى توجد فى المناطق الريفية والحضرية. ومن المواقع الميدانية الستة لهذا المشروع ربما نستطيع القول الآن: إن موقعًا واحدًا فقط قد حقق نجاحًا طويل المدى، مع إدراك أنه أصبح هناك تأثير واضح على الشركة أو المصنع. أما التجارب الأخرى فقد أظهرت نجاحات قصيرة المدى مبرهنة على أن الإنتاج القائم على أساس العمل الجماعى كان أكثر مناسبة وكفاءة للمؤسسات والشركات

الصناعية. ولعل نظم العمل البديلة هذه قد فاقت بوضوح فى إنجازها النظم التنظيمية التقليدية لتيلور.

وقد ظهرت خلال هذا العمل ثلاثة مفاهيم كبيرة ومهمة. أولها التفكير التكنولوجى الاجتماعى **Sociotechnical Thinking** وهو بناء روابط وعلاقات مباشرة بين التكنولوجيا وتنظيمات العمل. وقد أصبح الاتجاه التكنولوجى الاجتماعى تصميمًا معياريا لكل أنواع التدخل والتعاملات. وثانيهما أن تصميم العمل قد تم إنجازه طبقا لمفهوم أطلق عليه متطلبات الوظيفة النفسية **Psychological Job Demands**، والثالث من خلال ربط التفكير التكنولوجى الاجتماعى بإشباع متطلبات الوظيفة النفسية ظهرت فكرة الجماعات شبه الاستقلالية **Semiautonomous groups**. إن متطلبات الوظيفة النفسية يمكن أن تشبع أو تتحقق لو تحملت جماعات العاملين المسؤولية نحو العملية الإنتاجية. ويمكن أن تتحقق عمليات التعلم والحاجة إلى التنوع والاختلاف والتحكم الذاتى داخل مثل هذه الجماعات. وتستطيع أن تعطى عملية إعادة تنظيم التكنولوجيا الصناعية الحرية الكافية للعاملين وتمنحهم الإمكانيات الكبيرة للنمو الإنسانى والصناعى من خلال الربط بين العديد من الوظائف.

إننا نقدم بعض الأمثلة المختصرة لهذه المصطلحات الرئيسية. إن مناقشة العلاقات التكنولوجى الاجتماعى المتبادلة (وتعنى التفاضلية **optimization**) تؤكد على إمكانية تحريك عملية التكيف فى أى اتجاه من التنظيم الاجتماعى إلى التكنولوجيا والعكس. وإذا أعطينا مثالا لنوع من التكنولوجيا المستخدمة فإن أى شخص يستطيع أن يمد العاملين أو يدرّبهم على المهارات الضرورية للعمل فى البيئة التكنولوجية أو نظم التكنولوجيا مع الأنواع الخاصة من السلوك وأشكال التنظيمات الجماعية.

إن المبدأ الأساسي في التصميمات التكنولوجية هو عمل هذين النوعين من التكيف في نفس الوقت، والنظر إلى التصميم التكنولوجي والتنظيمي على أنهما عنصران غير منفصلين في نفس شبكة العلاقات. فمن غير الممكن أن يخرط العامل أى شيء بدون أن يكون لديه مهارات فهم كيفية وضع القطعة في الآلة، وكيف يختار سرعة القطع المناسبة، وكيف يحدد عمق عملية القطع. إننا نستطيع أن نضيف المزيد عن الحاجة إلى المهارة، ولكن نكتفى بأن نحدد أن المخرطة أوجدت الحاجة إلى المهارات العملية. إن العامل بدون المهارات الضرورية يصبح بالتأكيد كارثة عند إنتاج أى منتج.

والمثال الموازي من الجانب التنظيمي هو نظام إنتاج حزام النقل. وعادة ما تأخذ دورة العمل العادية في نظام تجميع السيارات أقل من دقيقة. وتحت هذه الظروف فمن الصعوبة تخيل كيف يخلق العمل فرص تعلم وحرية شخصية. فإذا لم يتم إعادة التصميم الكلى لنظام إنتاج حزام النقل فإن الفرص اللازمة للتغيير التنظيمي تكون قليلة جدا. إنه من الممكن إنتاج السيارات من خلال العمل القائم على أساس الجماعة باستخدام دورات عمل طويلة وتزويد العاملين بدرجات عالية من الحرية. وقد أوجدت فولفو Volvo في مصنعى كالمار Kalmar وثورسلاندا Thorslanda هذه النظم. ومن الواضح في هذين المثالين أن الربط بين التصميم التكنولوجي والاجتماعي يؤدي إلى نظام إنتاجية فعال.

لقد أصبحت متطلبات الوظيفة السيكلوجية تصميميا معياريا مركزيا في الاتجاه التكنولوجية الاجتماعي التقليدي. وقد صاغهما كل من إيمرى Fred Emery ثورسرود Thorsrud كما في شكل (٢-١). والمعايير المقترحة في شكل (٢-١) تعتبر دليل موجه لتصميم العمل.

شكل (٢ - ١) المتطلبات النفسية للوظيفة

المصدر: (Emery & Thorsrud, 1976) pp.103-105

التنوع الأمثل للمهام داخل الوظيفة

النمط ذو معنى للمهام الذى يعطى لكل وظيفة الوعى والإحساس بالمهمة المميز ككل:

- المدة المثلى للدورة.
- وضع معايير لجودة المنتج كمياً ونوعياً، وكذلك التغذية الراجعة المناسبة عن المعرفة عن النتائج.
- ما تتضمنه الوظيفة من بعض المهام التحضيرية والاحتياطية أو الإضافية.
- تستلزم المهمة المتضمنة فى الوظيفة درجة من العناية والمهارة والمعرفة والجهد يجعلها جديرة بالاحترام فى المجتمع.
- لابد أن يكون للوظيفة مساهمة فعالة فى الترويج لفوائد المنتج للمستهلكين.
- التزود بالمهام المتشابهة والتناوب الوظيفى والجوار المادى عندما يكون هناك اعتماد متبادل بين البدائل.
- التزود بالمهام المتشابهة والتناوب الوظيفى والجوار المادى عندما لا تقدم الوظائف الفردية مساهمة فعالة للترويج لفائدة منتجاتها النهائية.
- عندما يرتبط عدد من الوظائف معا بواسطة المهام المتشابهة أو التناوب الوظيفى فإنها تصبح جماعية.
- التزود بقنوات الاتصال لذلك فإن الحد الأدنى من احتياجات العاملين يمكن أن يندمج داخل تصميم وظيفة جديدة فى أي مرحلة مبكرة.
- التزود بقنوات ترقية بمستويات الإشراف التى يقرها العاملون.

ومن أهم السمات المميزة الأخرى لتصميم التكنوإجتماعى هى تطبيق مفهوم فيليب هربست (1976) Philip Herbst عن الحد الأدنى من المواصفات الحاسمة **minimum critical specification** وفكرته هى أنه يجب أن تشكل البناءات التكنولوجية والتنظيمية بوسائل أو طرق تساعد فى اختيار البناء التنظيمى كلما كان ذلك ممكنا. إن تقديم أقل القيود الممكنة فى أنماط وأدوات العمل والآلات أو فى البناءات التنظيمية، يعطى مزيدا من الحرية للعاملين لتصميم ظروف عملهم الخاصة. لذلك فمن خلال تحديد الحد الأدنى من ظروف العمل فإن أى شخص يستطيع تحقيق درجة عالية من الضبط المشترك **Participative control** على مستوى العمال. وهذا بالطبع يعتمد أيضا على الافتراضات الأساسية عن معرفة ودوافع القوى العاملة **.workforce**.

ومن المفاهيم المهمة الأخرى التى طبقت فى تصميم التكنوإجتماعى هو مفهوم إيمرى وتريست (1973) Emery and Trist عن وفرة الوظائف **redundancy of functions** ووفرة المهام **redundancy of tasks**. إن النظام الذى يتميز بوفرة الوظائف يجعل العامل قادرا على إنجاز أكثر من وظيفة، بينما فى تصميم وفرة المهام فإن التنظيم يبنى على أساس أن يكون لديه عمال يمكن بسهولة التبديل بينهم؛ نظرا لأن لديهم جميعا كفاءات محدودة وضيقة. وهنا فإن الهدف من اتباع مبدأ وفق تعدد الوظائف هو تصميم العمل بطريقة يستطيع من خلالها كل عضو من أعضاء المنظمة أن يقوم بأكثر من المهمة التى يشغلها بالفعل، وهذا بالطبع يفترض أن العاملين قادرون تماما على إتقان مجموعات من المهارات المتعددة. وإذا حدثت أى مشكلات فى أى مرحلة من مراحل نظام الإنتاج، فإن أى شخص أو عامل قادر على أن يوقف هذه المشكلات ويقدم المساعدة المطلوبة. وهذا يحقق بالطبع المرونة

الكافية والحرية الكامنة لدى للناس للاستجابة للإنتاج. وهذا أيضا يعزز فرص التعلم لدى العمال لأنهم تدربوا على إدارة أكثر من وظيفة. وهذا بالتبعية يزيد من فهمهم لنظام الإنتاج ككل ومكانهم داخله.

ويعتبر الفكر التكنواجتماعى هو النتاج التصورى الأكبر فى الديمقراطية الصناعية التقليدية. وفى دراسة تريست وبامفورث **Trist and Bamforth, (1951)** بمناجم الفحم، والتي ظهر فيها بوضوح العلاقات التبادلية بين التكنولوجيا وتنظيم العمل. وقد مثلت تغيرا كبيرا من أفكار تيلور، حيث التحكم التكنولوجى الإدارى هو المسيطر تماما، أو من التفكير القائم على العلاقات الإنسانية، حيث تعتبر العوامل الاجتماعية والنفسية والتنظيمية مستقلة عن التأثيرات التكنولوجية. **(Herzberg, 1966; Maslow, 1933; Mayo, 1943)** ففى هذه الاتجاهات يعتبر كل من التنظيم والتكنولوجيا كيانات منفصلة، بينما تؤكد النظرة التكنواجتماعية على أنه لا يمكن أن يعمل التصميم التكنولوجى أو التصميم الاجتماعى بشكل منفصل عن الآخر. ومن ثم فإن هذا يعتمد على نظرة تكاملية وشاملة للعمال وتنظيمات العمل كأنساق إنسانية متعددة الأبعاد.

وقد لخص تريست **Trist, 1981** العلاقة بين النماذج القديمة لتنظيمات العمل وبين النماذج الجديدة للتكنواجتماعى كما نراها فى جدول (٢-١).

وما زال هناك بعض الشك فى أن التفكير التكنواجتماعى له تأثير كبير على العمل الصناعى المنظم. فالتصميم التكنواجتماعى يتضمن الجهود المبذولة للانفصال عن نماذج تيلور لتنظيم العمل ولديه الاهتمام بتركيز الأضواء على العلاقات المتبادلة بين التكنولوجيا والحياة الاجتماعية. إن لديه قناعة كبيرة بأن التركيز الحصرى على التغيير التكنولوجى أو على التنظيم الاجتماعى للعمل لا يمكن أن يخلق نظاما جيدة للعمل. وتمثل افتراضات واقتراحات الاتجاه

التكنولوجيا الاجتماعية بالتأكيد تقديرات مبالغ فيها لدى تأثيرها فى تنظيم العمل
الصناعى. (على سبيل المثال: Van Eijnatten's 1993 book with the
(bombastic title, The Paradigm that changed the work place

جدول (١-٢)

النماذج القديمة والحديثة لتنظيم العمل

النموذج القديم الإدارة العلمية Old Paradigm Scientific Management	النموذج الجديد التكنولوجى الاجتماعى New Paradigm Sociotechnical
سيطرة التكنولوجيا	الارتباط الفعال
الإنسان امتداد للألة	الإنسان مكمل للألة
الإنسان قطعة غيار متوفرة ممتدة	الإنسان مصدر للنمو والتطور
تعطل معظم المهام ونقص المهارات	التصنيف الأمثل للمهام والمهارات المتعددة
الضبط الخارجى (المشرفين وفريق المتخصصين)	الضبط الداخلى (الضبط الذاتى، والأنساق الفرعية والإجراءات)
مخطط (خريطة) المنظمة الرأسية والنمط الأوتوقراطى (النمط المستبد - الحكم المطلق)	مخطط (خريطة) المنظمة الأفقية ونمط المشاركة
المنافسة والصراع	المشاركة وتوزيع السلطة
أغراض المنظمة فقط	أهداف وأغراض للأعضاء والمجتمع
الاغتراب	الالتزام
انخفاض المخاطرة والمجازفة	التجديد والإبداع

وكان لمشروع الديمقراطية الصناعية النرويجية بعدا ديمقراطيا
مثاليا. وكان للمشاركة على مستوى العمال قيمة أساسيا ومن أهم حقوقهم.
وقد دافعت القيادات العمالية وباحثو الفعل عن هذا الوضع. والمثال الملاحظ
هى العبارة القوية (الحادة) وغير المشروطة من أحد أهم قيادات الباحثين
وهو فيليب هربست (1976) Philip Herbst ، والتى قال فيها: إن جعل أماكن
العمل أكثر ديمقراطية يعتبر الخطوة الأولى لتعزيز الديمقراطية فى المجتمع
بشكل أوسع. وقد تبدد هذا العنصر الأيديولوجى بالتدرج خلال السنوات
بالنرويج، واختفى أيضا من عمليات نشر الأفكار حول النرويج.

ومن المهم هنا ملاحظة أن الأفكار النابعة من مشروع الديمقراطية
النرويجية لم تنتشر مباشرة أو بسرعة فى النرويج. وعلى العكس تم التعامل
مع هذه الأفكار بنوع من الاهتمام، ولكن لم يكن لدى معظم المؤسسات
الصناعية النرويجية الرغبة للعمل على أساسها. وبشكل أساسى كان لها
تأثيرات كبيرة خارج النرويج. وفقط من وجهة النظر طويلة المدى كان من
الممكن تحديد كيف أثر مشروع الديمقراطية بالتدرج فى نظم الإنتاج
النرويجية.

طريق الانتشار: أولا الشرق ومن ثم الغرب

تم النقاط الأفكار الرئيسية فى الديمقراطية الصناعية- جماعات العمل
وتصميم العمل طبقا للمتطلبات النفسية بشكل شبه منفصل- بواسطة
المشروعات الرئيسية الصناعية فى السويد. وقد أدرجت كل من شركات
فولفو وساب سكانيا وألفا لافال القوة الكامنة لهذه الأفكار وقامت فى الحال
بإعادة تصميم بعض نظم إنتاجها حول هذه المفاهيم. وقد اكتسب كل من
مصنع ساب لتجميع المحركات فى سكوفد ومصنع فولفو لتجميع السيارات

فى كالمار سمعة عالمية ودولية كبيرة بسبب أساليبهم الإبداعية فى إعادة تنظيم العمل. ولكن كان تركيز الاهتمام على كفاءة هذه المشروعات فقط من الناحية الإنتاجية، ولكن تم تجاهل تحقيق أهداف تحقيق الديمقراطية فى العمل. وقد أصبحت منظمة PA radet، التى ظهرت فى ترتيب الاتحاد السويدى للموظفين هى محرك التغيير القيادى للعمل بجانب الاتجاهات القائمة على أساس بحوث الفعل والهيئات الاستشارية التقليدية. لقد قامت هذه المنظمة بوظيفة جديرة بالاحترام والتقدير لتوصيل وربط الأفكار والممارسات وإقناع الصناعة السويدية أن تأخذ بالأفكار التى تم إنتاجها من خلال مشروع الديمقراطية الصناعية. ولكن كان من إحدى النتائج أن الديمقراطية الصناعية جنت سمعة كبيرة فى الصناعة بسبب أسلوبها الفعال فى تنظيم العمل فى خطوط جميع الإنتاج أكثر من السير إلى نظام أكثر عدالة. وقد تفوقت بدرجة معينة على أساليب فورد التقليدية لتنظيم العمل فى إطار المصطلحات الاقتصادية، ولكن الدافعية التى أدت إلى إبداعاتها تضمنت برنامج تغيير اجتماعى واسع أكثر من ذلك.

إن تحول التفكير التكنو اجتماعى إلى قارة أمريكا الشمالية كان أيضا متساوى السرعة. وقد التقط لويس ديفيز Louis Davis الأستاذ بجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس هذه الأفكار وبسرعة وضع برنامج تعليمى واستشارى فى التصميم التكنو اجتماعى. (Davis & Taylor, 1972) وقد انفصل تفكير ديفيز تماما عن أى ارتباطات أيديولوجية واتجهت إلى قيمة الديمقراطية فى حد ذاتها. وتحول تصميم التكنو اجتماعى إلى تصميم أداة للإنجاز المرتفع للإنتاج الصناعى. وقد ركز مفهوم التصميم على الترابط أو العلاقة التفاضلية بين التكنولوجيا والأنساق الاجتماعية، مشيرا إلى أن الوسيلة الوحيدة لإيجاد نظام إنتاج فعال حقيقى هى تحقيق الانسجام المناسب بين الإنسان والتكنولوجيا.

وقد شارك مورتين ليفين Morten Levin في ورشة عمل برعاية جامعة UCLA عام ١٩٨٠. حيث نظمت هذه الجماعة برنامج تدريبي مدته ١٤ يوما بتوريننتو شارك فيه العديد من الأفراد من كل من كندا والولايات المتحدة. وقد أعجب مورتين عندما تعلم أن أبعاد النسق الاجتماعي للعمل قد تم وصفها وتحليلها طبقا لمصطلحات الفلسفة الوضعية لتالكوت بارسونز (Talcott Parsons 1951)؛ نظرا لأن نموذج بارسونز يعتبر واحدا من النماذج الأكثر تجريدا ويتكون من بناءات غير سلوكية في مجال نظرية الدور، إن هذا النموذج بمفرده يعتبر معبرا غير ملائم بين التكنولوجيا وتحليل الأنساق الاجتماعية. وكان الأكثر فائدة وإثمارا هو استخدام نماذج علم النفس الاجتماعي وتحليل المتطلبات السيكلوجية للوظيفة، ولكن حتى ذلك لاحظ مورتين أن الربط التفاضلي بين التكنولوجيا والعمل قد تم إهماله ببساطة كمفهوم. والمصادفة الغريبة والمهمة أن ليفين قد لاحظ اتحاد الشركات المفلسة Union-busting firm قد أقاموا ورشة عمل لمدة ١٤ يوما بنفس الفندق لتدريب المديرين على كيفية الحفاظ على اتحاداتهم ونقاباتهم بعيدا عن شركاتهم. وقد ألقت برامج التدريب المتعارضة الضوء بوضوح على الفرق في السياق السياسي والاقتصادي بين الدول الإسكندنافية وأمريكا الشمالية.

ويعتبر اتحاد المفلسين في المجتمعات الإسكندنافية إستراتيجية يصعب تخيلها لهروب الاستثمارات أو الأعمال الربحية. وترتبط مشروعات التغيير التي تركز على حيوية العمل الإسكندنافي في الغالب بالمغامرات بين الاتحادات التجارية والإدارة؛ لذلك فإن نقص الاهتمام بالعديد من أبعاد العدالة الاجتماعية لأنساق العمل التكنو اجتماعية في أمريكا الشمالية تعكس بوضوح عدوانية الجوانب السياسية والاقتصادية للصناعة في هذه القارة.

وقد انتشر أيضا فكر الديمقراطية الصناعية فى العديد من الحركات القومية الأخرى. وقد تطلعت اليابان إلى وسائل تنظيم إنتاجها الصناعى، والذى يؤمن ويوفر الإنتاجية العالية والجودة الممتازة. وقد لعب اثنان من العلماء الزملاء الذين تخصصوا فى ضبط الجودة، وهما جوران Juran (1980) وديمنج (W.E. Deming 1983) دورا مهما فى عملية إعادة صياغة التصنيع باليابان. وقد التقطت الشركات اليابانية نماذجها عن منتج يتوفر فيه شروط الجودة. وفى الحقيقة كان اليابانيون أكثر تقبلا لهما من نظرائهم فى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ساعدت الأفكار الأمريكية (حتى المستوردة من بريطانيا العظمى والدول الإسكندنافية) فى صنع معجزة المنتجات اليابانية. وربما تبدو هذه القصة جانبية أو هامشية، ولكن فى الواقع فإنه تسير بالتوازي مع حركة الديمقراطية الصناعية. وقد وجدت الموضوعات الرئيسية للديمقراطية الصناعية أرضا خصبة باليابان بسبب أن العمل الجماعى كان له أساس ثقافى قوى فى اليابان، وقد التقطت بسهولة أفكار الجماعات التى ارتبطت بعمليات حل المشكلة والمسئولية المهنية.

وقد ظهرت هذه الأنشطة أولا فى اليابان فى شكل دوائر وحلقات الجودة وجماعات حل المشكلة، التى وجدت للتعامل مع القضايا الطارئة فى نظام الإنتاج. (Ishikawa, 1976) وكان الهدف هو توفير عاملين ومهندسين يعملون معا لحل مشكلات الإنتاج. وقد تم تنظيم حلقات الجودة هذه بشكل منفصل عن روتين العمل اليومى. وغالبا ما كانت تلتقى هذه الجماعات فى أوقات غير مدفوعة الأجر ويعملون مجانا لحل مشكلات الشركة. ويعتبر ذلك ملموسا فى السياق الثقافى اليابانى. وأخيرا احتاجت العديد من مفاهيم ضبط الإنتاج مثل كانبان Kanban (نظام تويوتا لإدارة الإنتاج؛ انظر موندن Monden 1983) فى الوقت المحدد بالضبط Just in time (إنتاج بدون فاقد والتخزين المؤقت؛ انظر واميك وآخرون (1990) Womack et al، اتجاها

مختلفا لتنظيم العمل. وقد أصبح وجود درجة عالية من الاستقلالية والمسؤولية المحلية ممتازة مع القدرة على تعلم وسائل تحسين الأداء بشكل منظم العنصر الجوهرى فى نظم التنظيم. وكانت هذه الجهود فى خط واحد مع مبادئ التصميم التكنولوجى النابع من الديمقراطية التقليدية. لذلك كان طريق الانتشار بشكل عام معقدا ومفاجئا من بريطانيا العظمى إلى النرويج إلى السويد ومن ثم إلى الولايات المتحدة واليابان وأخيرا العالم كله.

وكان طريق الانتشار فى حد ذاته يمثل ظاهرة مثيرة ومشوقة؛ لأن شبكات البحث العلمى لعبت دورا مهما فى هذه العملية. إن الانتشار فى السويد، ومن ثم إلى الولايات المتحدة كان ممكنا بواسطة الاتصال بين الباحثين. ويتمثل جزء مهم من رسالة الأكاديميين فى العمل واللعب بالأفكار. وإذا كان ذلك لا يحدث دائما فى حالة الديمقراطية الصناعية فإن الأفكار التى وجدت داخل الدوائر الأكاديمية قد وضعت نفسها موطئ قدم فى التطبيقات الصناعية. واستقرت هذه الجهود فى المعهد النرويجى للتكنولوجيا (والذى سُمى أخيرا بالجامعة النرويجية للعلوم والتكنولوجيا) فى مدينة تروندهيم Trondheim، حيث أوجدت مكانا للاتصالات بشبكات العلماء الدولية، وكان ذلك فى المراحل المبكرة لمشروع الديمقراطية الصناعية النرويجية. ومن جانب آخر لم يكن تافستوك معهدا مرتبطا بجامعة، ولكنه امتلك مكانة عالية بين الباحثين المهتمين بالتغيير التنظيمى، وبذلك كان مشهورا دوليا وعالميا. وقد اتصل الباحثون العاملون بمعهد تافستوك بالعديد من شبكات المفكرين، والتى سهلت الانتشار السريع للأفكار التكنولوجية فى السياقات الأكاديمية.

ولكن لم يطور ذلك أى وعى لتقدير وتحديد الدور الأكاديمى فى هذه العملية. وبالتأكيد فإن الجامعات والأكاديميات لم تتبع هذه الأفكار والممارسات

للقطاعات الخاصة والعامة. والصحيح فإن الانتشار المتزايد والمتنامي لهذه الأفكار يرجع أخيرا إلى نجاح مبادئ التصميم التى قامت على أرضية الديمقراطية الصناعية فى تشكيل نظم إنتاج فعالة ومربحة. ذلك أن هذه الأفكار قد انتشرت لأنها عملت على إشباع الحاجات الاجتماعية للناس.

وقد تطور المنظور التكنواجتماعى بالتدرج إلى منظور أوسع يقوم على أساس المشاركة. فقد تغير الجيل القادم لباحثى العمل من ما حدده إيلدن (1979) Elden (وهو خبير جاء إلى المدينة وأخبر الناس بما يجب أن يفعلوه ثم تركهم) بـ (جيل الحقبة النائمة sleeping bag generation) إلى الجيل الأخير من الباحثين الذين فهموا الدور كتقديم دعم بعيد المدى لقدرات الشركات المحلية على إدارة عمليات التغيير بأنفسهم. وقد خلقت هذه الحركة نحو المشاركة الواسعة داخل الشركات والمؤسسات تناقضا ديمقراطيا مهما. فى البداية "المرحلة القائمة على الخبرة" كانت الديمقراطية قيمة محددة بوضوح، ولكن عند ممارسة التغيير المتجهة نحو عمليات التغيير الواسع لإدارة الذات أصبح التركيز على الديمقراطية كمفهوم وقيمة قد تبخر، بينما الممارسات نفسها كانت أكثر تعاونية.

وقد أوجد هذا التغيير فى الاتجاه العام لبحوث الفعل فى الصناعة أيضا حركة بعيدة عن الوضع التنظيرى القائم على أساس التفكير التكنواجتماعى للتركيز على التعلم أو المعالجات المتبادلة بين مالكي المنظمات أو المسؤولين عنها وبين الباحثين فيها. وقد اتخذت هذه العلاقة طريقتين أساسيتين. الأول بنى على أساس أخلاقيات الحديث (الكلام) المثالى لهايبرماس (1985) Habermas، فقد نشر بجورن جوستافسين (1985, 1992) Bjorn Gustavsen بصفة خاصة وبالتحديد عن الكيفية التى يمكن بها فهم العمل المتطور، وذلك من خلال محاضرات ولقاءات مع

مشاركين متكافئين (أعضاء من الشركات والمنظمات وباحثين). والشكل الرئيسى الآخر فى هذا النموذج أو النمط من العمل كان من خلال إسهامات أوفيند بالشوجين (1998) Oyvind Palshaugen وبير اينجلستاد Per Ingelstad (1986) Gustavsen & Ingelstad، وكان التركيز الرئيسى فى هذه الإسهامات على بناء الحوارات التى تزيد من قدرة المشاركين على إيجاد لغة تصف عوالم حياتهم الخاصة، وتلك اللغة التى يمكن أن تقود بعد ذلك إلى التغيير التنظيمى.

والنمط الآخر المختلف لإجراء بحوث للفعل قدمه كل من إيلدن وليفين (1991) Elden and Levin فى البدايات المبكرة من تسعينيات القرن الماضى. وفى هذا العمل فإن عملية البحث تم تصورها على أنها عملية تعلم متبادلة تتضمن أصحاب المشكلات والباحثين، حيث تعتبر تنوعاتهم واختلافاتهم عوامل بنائية كبيرة تحتاج إلى عملية خلق المعرفة. إن لدى هؤلاء المشاركين مواقع قوى مختلفة، تماما مثال ذلك أن قوى الباحثين تختلف عن تلك التى يملكها أصحاب المشكلات المحلية. وفى هذا الاتجاه فإن بحوث الفعل تتبع من العمليات المستمرة للتجريب وانعكاساتها، والتى من خلالها يعتبر التعلم المتبادل هو العملية الدافعة لكل من تدعيم التغيير وتكوين المعرفة.

المحتوى الفكرى للديمقراطية الصناعية

The Intellectual Content of Industrial Democracy

إن السبب الرئيسى للارتباط بعنوان "الديمقراطية الصناعية" فى البداية التقليدية لجهود بحوث الفعل فى الولايات المتحدة الأمريكية، والامتداد الفكرى خلال مرحلة تافيسوك، والظهور الكامل فى مشروع الديمقراطية

الصناعية النرويجية تمثل فى أن كل هذه الاتجاهات قد عززت التركيز الرئيسى على تشكيل البدائل للمنظمات ذات التسلسل الهرمى السلطوى التقليديـة. وكما أشرنا سابقا فإن العنصر الأكثر وضوحا داخل هذه الاتجاهات يدعى أنه يعطى اهتماما كبيرا للديمقراطية، ولكن لا يزالون لم يبنوا مفهوما عن أبعاد المشاركة فى هذه الاتجاهات لعملية التغيير التنظيمى حتى عندما لم يتصلوا بتحقيق الديمقراطية للملكية.

تركز الديمقراطية الصناعية على الوسائل التى أظهرتها نتائج البحوث من خلال إعادة تصميم المنظمات، والتى حسنت من قدرة المشاركين فيها على التحكم فى مواقف حياتهم الخاصة. وقد بدأت الديمقراطية الصناعية ردود فعلها الأولى عن تصميم عمليات البحث التى أعادت صياغة وتحديد العلاقة بين المشاركين والباحثين بدرجة كبيرة وعالية من التبادلية. وقد أتاح الجيل الثانى من ممارسة البحث فى مشروع الديمقراطية الصناعية النرويجية الإمكانيات الكبيرة للمشاركين للتحكم فى حياتهم. (Elden, 1979)

وقد قدم كتاب كارول باتيمان (1970) Carole Pateman عن "نظرية المشاركة والديمقراطية" مناقشة حادة حول الديمقراطية فى المؤسسات التنظيمية، وقد لعب هذا الكتاب دورا كبيرا فى إيجاد خلفية نظرية لجهود الديمقراطية الصناعية بالمشاركة (القائمة على المشاركة). وقد استفادت باتيمان من علم الأنساب genealogy المعتمد على أفكار روسى وميل Rousseau and Mill لإجراء مناقشات حديثة ومعاصرة عن الديمقراطية على مستوى العمال. وقد وفرت جهودها هذه نموذجا جيدا لمناقشة الديمقراطية، والذي تم استخدامه كنقطة انطلاق لقدرة العاملين على ضبط مواقف العمل مستبدلين النماذج العددية (الرقمية) للديمقراطية كأساس لتشكيل مجتمع ديمقراطى ناجح. ولم تناقش باتيمان العلاقة بين الديمقراطية النيابية

والاشتراكية، تلك القضية التى ظهرت سريعا كنقطة حيوية فى المناقشات الأوروبية عن كيفية الارتقاء بالديمقراطية فى تنظيمات العمل.

وقد واجهت التأثيرات الفردية للمشاركة المباشرة قوى جماعية أوجدتها أنساق الممثلين النيابيين فى أماكن العمل، وقد كانت هذه القضية محور اهتمام الاتحادات والنقابات التجارية. وقد ركزت هذه المناقشات سريعا على الدرجة التى ضعفت بها النقابات والاتحادات المهنية والتجارية بواسطة الضبط الفردى والمباشر فى ظروف العمل الفورية والمباشرة، وما زال هذا السؤال حيويا فى محاضرات ومناقشات الديمقراطية الصناعية. (انظر الفصل رقم ١٧ "Action research, participation, and Democratization")

وعلى الرغم من ذلك فقد المكون الديمقراطى فى العقد الأول من الديمقراطية الصناعية أرضيته بالتدرج فى بحوث الفعل. بداية كانت تركز المناقشات السائدة على أن الديمقراطية تمثل إجبارا وقهرا أيديولوجيا، وقد تم استبدالها تدريجيا بالمناقشات الواقعية البرجماتية التى خفت من الأسئلة المتعلقة بالاقتصاد السياسى الذى ظهرت من خلاله الديمقراطية الصناعية. وفى هذه العملية تغيرت النغمة أو الكلام من التركيز على الديمقراطية إلى التركيز على التمكين Empowerment ومن المشاركة كأساس للديمقراطية إلى المشاركة كضرورة للتحرك نحو عاملين لديهم الدافعية لتكوين وتشكيل منظمة أكثر فعالية وكفاءة وربما كسبا وربحية.

حقا لقد بدا لنا أن التمكين Empowerment هو مصطلح يستخدم كبديل عن المفهومين الأكثر وضوحا وطموحا، وهما المشاركة والديمقراطية. ونحن نعتقد أن لغة التمكين ذات الأبعاد الهرمية الحتمية تمثل خطوة إلى الوراء، وبالتأكيد التحرك بعيدا عن المفاهيم التى بدأت حركة الديمقراطية الصناعية. وهذه النقطة قد تم إيضاحها فى أحد الكتب الأكثر أهمية عن النمو التنظيمى

Cummings& Worley, 2001) Organizational Development والذي استخدم فيه مصطلح التمكين - كمصطلح محدد مرضيا ill defined- concept - بديلا عن الديمقراطية. وقد نشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٧٥ حيث اتخذت مكانة قوية، ولكن من عام ٢٠٠١ بدأ في الضعف بقوة.

وقد اعتمد البعد الآخر للعلاقة بين الديمقراطية الصناعية والعمل المبكر لكورت ليفين على نموذج تغيير مبسط (التغيير المتجمد- والتغيير غير المتجمد) وعلى أفكاره عن التصميمات التجريبية لعمليات التغيير. وكل هذه العناصر كانت واضحة وبارزة في مراحل التطور المبكرة للديمقراطية الصناعية في بحوث الفعل، وأصبحت تصميمات التجريب المأخوذة من أعمال ليفين الوسيلة أو الطريقة التي تعمل على أساسها الأفكار. وقد أوصى الباحثون الذين قاموا بالعديد من عمليات التحليل بتصميمات تنظيمية جديدة وبناء العمليات التي تنفذ بواسطتها عملية التغيير. وكانت الفكرة الجوهرية هي إحداث التغيير ومن ثم ترك المنظمات تقوم بتطوير حالة الاستقرار التي تتضمن عملية التغيير. وكان يمثل التوجيه والإرشاد للمشاركين المحليين الحد الأدنى.

وقد أبقى هذا على نموذج "الخبير Expert" في الفعل، والذي لم يتطور في بحوث الفعل كما نفهم ذلك الآن. وقد لعب الباحثون في المراحل المبكرة من الديمقراطية الصناعية دور الخبير الواضح clear-cut expert role. وقاموا بإجراء تحليلاتهم للمواقف في بيانات نوعية محددة وطبقوا توصياتهم في تصميم جديد. وكانت الخطوة التالية في أنشطتهم تتمثل في تطبيق أفكارهم بوسيلة تتضمن العاملين المتأثرين بالتغيير. وفي هذه الوسيلة أوجد الباحثون مواقف تجريبية في المواقع الطبيعية لاختبار ما إذا كانت هذه الأفكار مثمرة أم لا. ومع ذلك فلم يصبحوا باحثين متعاونين على أى مستوى من الوعي.

وفى النسخة المعاصرة لهذا الاتجاه فقد كان هناك بعض التركيز على تضمين العاملين والموظفين فى عمليات التغيير. وعادة ما تتعزز المشاركة وتقوى من خلال أنماط متعددة من المؤتمرات حيث يتدرب المشاركون على التأثير من خلال تطوير العمليات الواقعية. وتعتبر المؤتمرات البحثية أداة تطور جيدة، وقد وصفت بعض الاتجاهات المختلفة المؤتمرات الحوارية "dialogue conference" على أنها لها حصن منيع فى الدول الإسكندنافية. (Gustavsen, 1992; Palshaugen, 1998)

بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة، تنظيم العمل، وتنظيم المجتمع والحقوق المدنية:

"Southern" PAR, Labor Organizing, Community Organizing and Civil Rights

يتمثل الجانب الكبير الثانى من تطور بحوث الفعل فى مزيج من الجهود المتنوعة لإحداث الديمقراطية التى اتخذت مكانها تحت ظروف القهر والاضطهاد الواضح والعلنى. وتماثلا كما أن الديمقراطية الصناعية لم تكن نشاطاً فردياً فإن هذه الاتجاهات التحررية أظهرت العديد من الاختلافات الداخلية فى السياسات والأهداف والطرق - والكثير منها قمنا بتوثيقها هنا. وهدفنا هنا هو أن نتأكد من أن القراء أصبحوا واعين ومدركين لهذه الاتجاهات الكبيرة ولبعض من معظم التنوعات والاختلافات الكبيرة الواضحة.

وكثير من الأنشطة التى ناقشناها هنا أرخت لمصطلحات بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة (PAR) والبحث بالمشاركة Participatory Research

Participatory community development وتنمية المجتمع بالمشاركة ويعتبر ذلك عنصرا مهما في فهم كيف تطور كل مفهوم من هذه المفاهيم. وقد ظهرت اتجاهات بحوث الفعل في البداية بسبب الظروف التي أوجدتها المواقف الإنسانية غير الديمقراطية والتي خلقت: الكتل الاستعمارية في أفريقيا، وفي أمريكا اللاتينية، وفي جنوب شرق آسيا، والإبادة الجماعية للهنود الأمريكيين، والهجرات الواسعة لأجيال الفقراء الأوروبيين، واستعباد الأفريقيين في الغرب. وقد ساهمت كل هذه الظروف في ارتفاع حالات عدم العدالة والاستغلال والتعاسة الإنسانية. وقد ظهرت حركات الاستقلال وحقوق الإنسان في العديد من أجزاء العالم ومحاولات تحقيق بعض المعايير العالمية لحقوق الإنسان وكأنها محاولات ووعود لحل هذه النزاعات والآثام الشريرة.

ولسوء الحظ فقد تبع التحرر من الاستعمار إعادة الاستعمار مرة أخرى في شكل تعزيز عدم المساواة التي انتقلت من مرحلة الاستعمار إلى مرحلة جديدة من عدم المساواة من خلال العولمة وما يطلق عليه بتنمية المجتمعات المتخلفة **Underdevelopment** (Gunder Frank, 1970) والذي جعل من الواضح أنه ليس الاستعمار هو الذي سبب الإصرار على عدم المساواة، ولكنها الكيانات الاستيطانية.

ويبدو لنا أن الكفاح من أجل المساواة قد اتخذ شكلا جديدا ظهر مع الأنشطة والحركات الاستثنائية والتي بلغت ذروتها بشكل نهائي في أحداث ١٩٦٨. ومن هذا المنطلق أصبحت العديد من أشكال الكفاح ضد عدم المساواة البنائية معروفة تحت مسمى بحوث الفعل بالمشاركة الجنوبية وحركات حقوق الإنسان. وقد عمت هذه الحركات والأنشطة جميع أنحاء العالم: المجتمعات الريفية والمناطق العشوائية الحضرية والمدن الصغيرة في الشمال الصناعي. وقد أصبح التركيز على الفئات المضطهدة من الناس؛ فاقدى الوطن والنساء

والمعرضين للعنصرية والإبادة الجماعية، والمعاقين، والمسنين والأيتام وفاقدي المأوى والكثير من الفئات الأخرى.

ولم تجر أى مناقشة أو تحليل أو طريقة واحدة من خلال كل هذه الاتجاهات فى هذا الصراع، ولكنها عبارة عن أطر عمل محددة ومتعددة. وقد تم استثارة الكثير من هذه الأفكار بواسطة أدبيات الثورة والعصيان التى قامت بها الحركات المنظمة للنقابيين التجاريين وإستراتيجيات تنظيم المجتمع لتعليم الكبار والنظم اللاهوتية التحررية والحركات الكاثوليكية وحركات تحرر المرأة. وبتناولنا للتنوعات المختلفة للمشاركين فى هذه الحركات ونعتقدهم نجد أنه من غير الممكن أن نوجد خطأ تاريخياً واحداً، والأفضل أن نقدم ببساطة أمثلة قليلة لكى يسترشد بها القارئ.

الجنوب The South:

تتميز هذه المنطقة بعدد كبير من العناصر المتنوعة أكثر من أى وصف نستطيع أن نعطيها لها. ولعل الفكرة الرئيسية المتفق عليها هى وجود بناء ضخم من عدم المساواة والعدوان القائم على الطبقة فى كل المناطق الحضرية والريفية. فى هذا الاتجاه من بحوث الفعل لا نستطيع التسليم أو افتراض الميل أو الاتجاه نحو توزيع (مشاركة) القوة أو رؤية رعاية الفقراء والمهمشين. وقد تم تمويل هذه النظم بواسطة استغلال الفقراء، ويمكن فهم الخطط والبرامج بالمشاركة على أنها محاولات لإضعاف وتقويض أنساق التحكم والمراقبة للنظام السلطوى. لذلك يعتبر البحث الفعلى نشاطاً سياسياً متأصلاً مع المخاطر المصاحبة وأنماط التقسيم.

إن تحديد وضع بحوث الفعل فى هذه الظروف يتم لتأكيد التضامن مع المضطهدين ولتأكيد الدور العدائى نحو القوة الكائنة. ونتيجة لذلك فنادرا

ما يتضمن هذا النوع من بحوث الفعل أصحاب القوة والنفوذ أنفسهم. ويتضمن هذا النشاط إلى حد بعيد - التعليم، والتنظيم، والحراك - بناء الثقة بين الفقراء لزيادة قدرتهم على مواجهة القوة والنفوذ بالعدد الكافي وبالخطط الواضحة والكافية، لذلك فهم يملكون الفرص المناسبة لاحتمالات النجاح. ويتضمن هذا العمل عادة المخاطرة؛ نظرا لأن ممارسي بحوث الفعل يمكن النظر إليهم على أنهم مثيرو مشاكل واستفزاز.

وتختلف هذه الاتجاهات من بحوث الفعل، ليس في القضايا التي تتناولها، ولكن في الإستراتيجيات التي تستخدمها لمواجهة أو "الحديث بالحقيقة" لأصحاب السلطة والنفوذ". وقد اعتمد باولو فريير **Paolo Freire** (1970) على إستراتيجيات تعليم الكبار عن الحوار وتحليل ظروف الجماعات المضطهدة بالتزاوج مع تعلم أفكار قوة التغيير والكلمات المعبرة عنها بدلا من إنكار أو إخفاء هذا الاضطهاد. وقد انتقل المستفيدون من الصوت السلبي إلى الصوت الإيجابي المعبر، ومن الإحساس بالضعف وعدم القوة وعدم الجدارة إلى فهم أن التصميم على مواجهة القوة بإعادة وصف المجتمع كونه يعاني من الاضطهاد بدلا من القول بالاستفادة من معاناتهم. وطبقا لاتجاه فريير فإنه يحرر المضطهدين نهائيا من وحشية النظم التي يستفيدون منها.

وفى كثير من المواقف فإن هذه الاتجاهات التي تمارس بواسطة أورلاندو فالس بوردا **Orlando Fals Borda** والكثير من مروجى ومبتنى الفعل فى المجتمع تتضمن محاولة اتخاذ بعض أنواع تحالفات المستفيدين الطبيعيين - أعضاء المجتمعات المحتلة، الاتحادات، الجماعات الدينية، وغيرها، وبناء قواهم وتواصلهم. وفى مواقف أخرى يتضمن العمل خلق الظروف التي من خلالها يتم تنفيذ عمليات تعليم الكبار والمشروعات العامة، وغيرها مما يأتى بالناس معا، لذلك فإنهم يستطيعون تنظيم أنفسهم، وتتخذ

عمليات بحوث الفعل عن انعكاس الذات Self- reflection والنقد الاجتماعي وتصميم أجندة وبرامج التغيير أماكنها في هذا الإطار. وفي مواقف أخرى مثل تلك التي تمارس فيها عملية تقييم المشاركة الريفية Participatory Rural Appraisal (Chambers,1997) فإن العوامل الخارجية تظهر بالإضافة إلى مجموعة من الأساليب والتقنيات التي ترقى وترفع من مستوى الحوارات متعددة الجوانب في المجتمع وبين أعضاء التنظيمات، حيث تؤدي نتائج هذه الحوارات إلى خطة للعمل وجهود للتغيير.

وفي المجتمعات الفقيرة في الجنوب غالبا ما تعادى الحكومات هذه الجهود وتعرقلها، ولكن ربما تساعد المؤسسات متعددة الأنشطة والمنظمات غير الحكومية الناس المحليين على أن يكافحوا ضد حكوماتهم. ومع ذلك فليس من المعقول أن يصبح هؤلاء الخارجيون من أصحاب القوة جزءا من المشكلة كما هم أيضا جزء من الحل.

الجنوب في الشمال "The "South" in The "North":

عندما يكون الجنوب فقط في الجنوب، فإن العالم يبدو وكأنه غير ظالم. إن هذا النوع من بحوث الفعل بقدر ما يحدث في الجنوب يحدث في أي مكان آخر؛ نظرا لأن البناءات الظالمة في الرأسمالية تظهر أن الغالبية العظمى من الناس في المجتمعات الغنية يعيشون في أوضاع بائسة. ويشير مصطلح "الجنوب" أيضا إلى مناطق فقيرة في الشمال: إنها كلمة رمزية Code تعبر عن الفقر وعدم التمكين. ونتيجة لذلك توجد العديد من أنشطة بحوث الفعل في الولايات المتحدة في أبلاشيا Appalachia (Belenky, Bond, & Weinstock, 1997; Graventa,; Hinsdale, Lewis, & Waller, 1995; Horton 1990) وفي المناطق غير الصناعية في الشمال الشرقي

(Readon, 1997; Schaffit & Greenwood, 2003) وفى جميع العشوائيات الحضرية (Benson, Harkavy, & Puckett, 2000). وتمثل هذه الأنشطة مزيجاً مركباً من جهود التنمية المحلية، وتنظيم المجتمع، وتنظيم العمل، وشبكات العلاقات بين المجتمعات وبناء التحالفات، وتفعيل حقوق الإنسان وحركات مساواة المرأة، والدفاع عن هؤلاء الذين يقعون تحت خط الفقر.

ويرى ميلس هورتون Myles Horton أسس مركز هايلاندر للبحوث والتعليم بولاية تينيسى أن الناس يملكون القوة، ولكنهم لا يعرفونها أو لا يؤمنون بها. لذلك عمل هورتون على تجميع الناس معا وشجعهم على أن يشتركوا فى عرض مشكلاتهم وتحليلها معا. وقد سهلت مساهمته هذه من إجراء الحوارات، وإضافة خبراته إلى هذا المزيج من خبرات هؤلاء الناس، وتشجيعهم على تصميم أفعالهم وإجراءاتهم الخاصة. وقد شعر أنه لن يقوم بتنظيم الناس لأنهم كانوا قادرين على تنظيم أنفسهم عندما يقدم لهم قليل من الدعم. وهناك الكثيرون ممن عملوا فى نفس هذه المنطقة وكانوا يملكون العديد من أطر التدخل المهني والذين انخرطوا فى الجهود المبذولة لتحقيق الأهداف (Belenky, Bond & Weinstock, 1997; Maguire, 1994, 1996)

الخلاصة:

يقدم هذا العرض الجزئى لبحوث الفعل خلفية أساسية عن بعض وجهات النظر التى كان لها تأثير على تأليف هذا الكتاب. وقد ألقينا الضوء على تاريخ بعض ممارسات بحوث الفعل الأخرى فى الجزأين الثانى والثالث، ولكننا نكرر أنه لا يمكن وصف بحوث الفعل وتحليلها ككيان واحد. ومن الأفضل فهمها كمجال يوجد فيه خطوط فكرية متنافسة والتى تم تكوينها تاريخياً بشكل استقلالى. وقد حصرنا من وجهة نظرنا ثلاثة اتجاهات مختلفة

لتاريخ بحوث الفعل. وقد اتخذت بحوث الفعل الصناعية مكانا متميزا ويكمن ذلك ببساطة في أن مؤلفي هذا الكتاب جاءوا منها. وتعتبر بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة وغيرها من الاتجاهات السياسية المشابهة ذات أهمية خاصة ليس فقط بسبب أن أنشطتها الرئيسية هي الأكبر لارتباطها الواسع بكوارث من المشاركين، ولكن أيضا بسبب أنها تتعامل مع مشكلات الصراع الاجتماعي الكبيرة وذات الصلة. وقد أظهرت الاستقصاءات الإنسانية أو الاستقصاءات التعاونية أن بحوث الفعل تستطيع دعم عملية تكوين المعرفة من خلال استحضار أنواع المعرفة الواضحة والضمنية والانفعالية معا لتحسين المنظمات والرعاية الاجتماعية للأفراد.

لقد قلنا الآن الكثير ما يكفي لإرساء ووضع اتجاهنا في مجموعة من السياقات التاريخية والتنظيمية ذات الصلة، ولكن يتمثل المشروع الرئيسي لهذا الكتاب في عرض ما نأمل أن تصل إليه بحوث الفعل، وليس مجرد عرض لما هي عليه الآن.

الهوامش

(١) تشير التيلورية إلى اتجاه المنظمة الصناعية، والذي يتضمن الحد الأقصى لتقسيم العمل في العملية الإنتاجية من خلال تقسيم المهام في تخصصات ضيقة والتي تتكامل تحت إشراف إدارة عليا ومهندسي إنتاج يقومون بعمل كل التصميمات والأفكار. وقد أطلق عليها التيلورية؛ نظرا لأن فريدريك وينسلو تيلور هو الذي ارتقى بممارسة ما سمي "بالإدارة العلمية" عام ١٩١١.

(٢) انظر على سبيل المثال، فالس بورد Fals Borda, 1969

الفصل الثالث

حالات بحوث الفعل من واقع الممارسة

قصص من ستونجفجوردين موندراجون،

وبرامج للتوظيف وأماكن العمل بجامعة كورنيل

Action Research Cases from Practice

**The stories of Stongfjorden, Mondragon, and Programs for
Employment and workplace Systems at Cornell University**

نعرض في هذا الفصل لثلاثة نماذج من عمليات بحوث الفعل (AR) أحد هذه النماذج في مجتمع صغير والثاني في مجموعة من المنظمات الصناعية والأخيرة في جامعة كبرى. وتضع هذه النماذج تصورا مسبقا لمناقشات أكثر تجريدا وتفصيلا لبحوث الفعل التي نتناولها في الجزء الثاني. ويتمثل هدفنا من سرد هذه الحالات في إظهار مدى التشوق والإثارة من إجراء بحوث الفعل وكذلك تحدياتها ودرجة تعقيدها. ومن المهم أيضا أن نوضح أنه حتى المشروعات التي تفشل في تحقيق أهداف فعل مرغوبة، فإنها تخلق فرص تعلم ثرية. وتمثل هذه الأمثلة لبحوث الفعل في بيئات مختلفة، حتى يمكننا التركيز على الخصائص والسمات المتنوعة لبحوث الفعل في المواقف المتنوعة. وقد استهدف مشروع ستونجفجوردين تعزيز التنمية المحلية في مجتمع ريفي صغير في النرويج، بينما ركز العمل في مدينة موندراجون على المشكلات التنظيمية في الجمعيات والمؤسسات التعاونية بمدينة الباسك بإسبانيا. وأخيرا استهدف نموذج العمل بجامعة كورنيل إعادة صياغة العلاقة بين البحث ومدلوله في مدرسة علاقات العمل والصناعة.

وقد قامت كل هذه الحالات على أساس المعايضة الطويلة للمؤلفين في هذه الأماكن والمناطق المحلية. وتطور بحوث الفعل حول عمليات ردود الأفعال النوعية في سياقات معينة؛ لذلك تعتبر هذه الحالات نقطة انطلاق مناسبة. ونركز هنا على كيفية تطور هذه المشروعات وتغيرها على مدار الزمن وكيف أعقبت العمليات الانعكاسية (عمليات ردود الفعل) بدرجات مختلفة، وذلك الكشف عن النماذج المتميزة من هذه المشروعات. وأيضاً استخدمنا هذه الحالات لتبنيه القراء للتأكيد القوي لبحوث الفعل على قصص الحالة في كل اتجاهات بحوث الفعل.

سترونجفجوردين: تنمية قرية في غرب النرويج

من خلال الإبحار جنوباً على طول الساحل النرويجي مرورا بالساحل الغربي للوصول إلى البر، يستطيع أى شخص أن يرى ممراً مائياً قصيراً وضيقاً يصل إلى ثلاثة أميال في الداخل. وتحاط سترونجفجوردين بالجبال المنخفضة التي تنزل منها شلالات مياه إلى أسفل. ويمكن رؤية بعض المنازل المتفرقة مع بناء صناعي ومدرسة صغيرة ومحل بقالة وملعب للتنس ومسقط مياه، ويوجد مصنع للقوى يقوم بتحويل مياه الشلال إلى التوربينات. ويحيط بهذا الممر بعض المزارع الصغيرة. ويسكن هذه القرية ٢١٧ نسمة معظمهم في سن أكبر من ٤٠ سنة.

وكانت القرية منفصلة عن أرض النرويج حتى بدايات الستينيات من القرن العشرين. وعلى الرغم من أن الطريق يربط المنطقة السكنية بمركز المدينة فقد ذهبوا إلى أن الطريق الرئيسي يحتاج إلى أماكن متعددة لعبور المراكب. فالاتصال القائم على استخدام البحر كان هو السائد، ولكن في وسط الستينيات قرر السكان تحسين وتطوير محاور الطريق الخاص بهم لذلك

أضافوا وأقاموا العديد من الأميال على الطريق على التضاريس الجبلية الصعبة، حيث ربطوا القرية بالطريق الرئيسى العام للمدينة. وقد جسد بناء هذا الطريق أو ما أطلق عليه "طريق الناس" مدى تماسك المجتمع وقدرته على حل مشكلاته المرتبطة باهتماماته العامة. وقد لفت هذا النشاط الانتباه القومى كمثال لإمكانية تغيير مجتمع صغير للقرارات العامة ببساطة بالقيام بعمل الأشياء والجهود المرتبطة بشئونهم الخاصة.

وقد تم اكتشاف ستونجفوردين بواسطة رجل إنجليزى أرسقراطى كان يصطاد أسماك السلمون هناك فى نهاية القرن التاسع عشر. وفى أحد أيام الصيف المبكرة تأثر هذا الرجل الذى كان يعمل أيضا رئيسا لهيئة الألومونيوم البريطانية بمشهد شلال المياه الموجود أسفل الممر المائى. وكرجل أعمال صناعى رأى فى الحال طاقة كامنة، وهذه هى العملية التى قادت إلى اكتشاف أول منجم للألومونيوم فى النرويج. وقد حصل على حقوق استخدام شلال الماء، وقام ببناء محطة للقوة الهيدروإلكترونية، وبدأ فى إنشاء مصنع لصهر الألومونيوم. وقد تم الانتهاء من محطة الطاقة عام ١٩٠٨، وتم استكمال مصنع صهر المعادن عام ١٩١٣. وقد تم تأسيس المدينة التى توجد فيها الشركة على طراز المجتمعات الصناعية الإنجليزية. وتم الانتهاء من ملعب التنس الذى كان على صورة الملاعب الموجودة فى مدن الطبقات العليا. وقامت الإدارة ببناء منازلها على الجانب المشمس من المدينة، بينما تقع أحياء العمال فى الظل، وقد قامت الشركة ببناء البنية الأساسية مثل المدارس والمستشفيات والمساعدات الفنية، وبسرعة أصبح لدى القرية واحد من أفضل نظم التعليم العام والرعاية الصحية فى غرب النرويج ككل.

وقد واجهت عملية التصنيع فى سترونجفوردين العديد من الصعوبات. وقد جاء التحدى الأول أثناء الشتاء الأول لعمل مصنع صهر

الألومونيوم. فلم يولد شلال المياه القوة الكافية لاستمرار عمل المصنع. ونتيجة لذلك تم إنشاء أول محول للجهد العالي الكهربائي لتوصيل المجتمع بنظام توزيع القوة الكهربائية في المجتمع الرئيسي. وقد استمر إنتاج الألومونيوم بالمصنع حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وتعني نهاية الحرب العالمية الثانية أيضا إغلاق مصنع صهر الألومونيوم، وقد تم منح العاملين وظائف في مصنع آخر لصهر الألومونيوم يبعد حوالي ٢٠٠ ميل شمال ستونجفجوردين. وهنا توجد قصة قوية ومثيرة جدا حول كيفية ترك الأسر للقرية في نفس القارب للإقامة والعمل في مصنع صهر الألومونيوم الجديد. وبعد بضع سنوات حتى بعد أن حصل منتج السكاكين المحلية على التسهيلات المطلوبة وبدأ في إنتاج السكاكين والآلات الحادة للأغراض المنزلية، وكذلك صناعة مستلزمات الطعام، بدأ بالفعل انخفاض موارد وثروات ستونجفجوردين. وقد فقد عددا كبيرا جدا من الوظائف الصناعية وتدهورت حالة المنازل والخدمات العامة في القرية. وبدأت القرية وكأنها تعد لجنازتها عندما تفكك بناؤها الاجتماعي.

وفي أواخر السبعينيات من القرن العشرين بدأت الوزارة النرويجية لحماية البيئة واستخدام الأرض في إطلاق برنامج لتدعيم الأنشطة المحلية والتي تستهدف زيادة المشاركة المحلية في إدارة شئون المجتمع ومراقبتها. وقد شمل هذا البرنامج كلاً من المدن والأحياء والمحليات. وقد قامت جماعة الأرواح المحترقة **burning souls** (Philips, 1988) تحت قيادة سيدة قوية جدا بتطبيق هذا البرنامج مقابل مبالغ مالية. وقد دعمت هذه المهمة المحلية الإجبارية الحافز في التطبيق بدون اتباع الطرق الرسمية أو إرسالها خلال الحكومة المحلية. وعلى الرغم من ذلك فقد قبلت ستونجفجوردين كواحدة من ٦٠ موقعاً شارك في برنامج المنح (إعادة الحياة- التنمية).

وقد ارتبط مورتين ليفين Morten Levin وعدد من المشاركين من مدينة تروندهيم Trondheim - كخبراء خارجيين- بهذه المهمة المحددة Task force بقرية ستونجفجوردين من خلال مدير البرنامج القومي. وقد كون عالما الاجتماع مورتين ليفين Morten Levin وتور نيلسين Tore Nilssen فريقا من قادة بحوث الفعل وعمل مع إيفار بروكهوج Ivar Brokhaug كخبير ومهني في البحث. بالإضافة إلى ذلك فقد التحق بهم اثنان من الدارسين في العام الأول. وقد تضمن البرنامج قسم علم التنظيم وشئون الحياة Department of organization and work life science ومعهد البحث الاجتماعي في الصناعة في جامعة العلوم والتكنولوجيا بالنرويج.

ويعتبر الوصول إلى قرية ستونجفجوردين من موقع المكتب بمدينة تروندهيم صعبا ومعقدا. فالطيران إلى هناك يتطلب على الأقل استخدام ثلاث رحلات مختلفة من الطيران وتأجير سيارة. وتستغرق رحلة الطيران الجوى فقط حوالى ١٢ ساعة متواصلة بالإضافة إلى الرحلة البرية. وتتضمن الرحلة البرية عبور ثلاثة جبال من خلال طريق مختصر به يتسم بالانحدار الشديد والسقوط المستقيم إلى الممرات المائية. وفي البداية استخدم الفريق الطيران ثم بعد ذلك انتقل إلى السيارات كوسائل رئيسية للنقل.

وكان اللقاء الأول مع برنامج المهمة المحددة بناء ومنتجا. وقدم أعضاء برنامج المهمة المحددة وجهة نظرهم عن الموقف وأوضحوا بالتفصيل اهتمامهم بحماية قريتهم وتنميتها. واقترح الفريق إجراء مؤتمر بحث (انظر الفصل ٩ Pragmatic Action Research) للبدء في عملية التنمية. وكان لدى الفريق العديد من الأسباب والمبررات لاقتراح مؤتمر البحث كأول خطوة في هذه العملية. وفي ذلك الوقت كان الفريق ملتزما أيديولوجيا بهذا النوع من النموذج الاتفاقي (إجماع الآراء) لتنمية المجتمع

المحلى. وقد رأى الفريق أيضا أن القرية فى حاجة إلى حالة من الحراك الواسعة بقدر الإمكان ويعتقدون أن جهود التنمية يمكن فقط أن تنجح إذا شارك فيها أفراد المجتمع. وكان من السهل إقناع لجنة المهمة المحددة بأن مؤتمر البحث فكرة جيدة ومطلوبة.

وقد حاول الفريق عند التخطيط للمؤتمر الوصول إلى أكبر عدد ممكن من المشاركين، وفي نفس الوقت نحاول أن ننقل إليهم فكرة ما هو مؤتمر البحث. وقد تحققت المهمة الإيجابية الجديدة والتي تضمنت العديد من الناس أكبر كثيرا من الطالبين الأساسيين للمنح. وقد تكون فريق مؤتمر البحث من ثلاثة باحثين من معهد مورتين ليفين وباحث واحد من المعهد القومى للتخطيط الحضرى والإقليمى. وقد أدت هذه الزيادة فى أعداد الباحثين إلى وجود صراعات بين أعضاء فريق المؤتمر. وقد رفض الشخص الذى نظم المؤتمر الاندماج مع باقى الأعضاء الآخرين. وعلى الرغم من ذلك استمر مؤتمر البحث فى العمل بشكل جيد وأخبرنا بالكثير عن مدى قوة ونشاط التصميم نفسه.

وتشكلت العديد من جماعات المهام. وقد تحملت إحدى هذه الجماعات مسئولية بناء أعمدة إنارة جديدة على الطريق، وركزت جماعة أخرى اهتمامها على بناء أماكن لإقامة الصناعات والحرف الصغيرة. وخططت الجماعة الثالثة لإعادة بناء المنازل والطرق. وقد أعطيت الأسر المقيمة منذ فترة ماضية فى القرية بعض الأنشطة المحلية، حيث قامت المهمة المحددة بتنظيم العمل لتحديثه وتطويره بحيث يمكن استخدامه من أجل تحقيق أغراض المجتمع. وقد أنشئت حضانة للأطفال وتم أيضا إنشاء ورشة لإنتاج النسيج.

وقد قمنا بتنظيم مؤتمرين للمتابعة فى أول سنة بعد مؤتمر البحث. وكان الهدف من المؤتمر استعراض المشاركين فى المهام المحددة Task forces

للأعمال التي قاموا بها ومن ثم تحديد مدى تحملهم للمسئولية وفرص النجاح ومشكلاتهم مع المشاركين الآخرين؛ لذلك عقدت المقابلات التتبعية كأدوات لتعزيز جهود التنمية لأعضاء الجماعات وتشجيع التفكير الجمعي وتدعيم التعلم المتبادل بين الباحثين والناشطين. وبالإضافة إلى ذلك فقد عززت هذه المقابلات التتبعية من التزامات جماعة المهام المحددة والواضحة لأهدافهم ومراجعة خططهم لتنفيذ الأنشطة الأخرى. وكانت هذه المقابلات التتبعية ذات قيمة في إيجاد حلقات من التغذية الراجعة. لقد أتاحت الفرصة للبدء في عملية مراجعة الأهداف السابقة وذلك لتحديد ما تم تحقيقه منها وما هو متبقى ويحتاج إلى مزيد من العمل.

وبوجه عام فقد نجحت جماعة المهام المحددة في تحقيق أهدافها إلى حد بعيد. إن استهداف الجماعة لإعادة بناء الطريق المضاء أدى إلى سلسلة من التحركات البارعة التي ساهمت في بناء قوة مالية واقتصادية كبيرة للمقاطعة. فقد تم تغطية معظم تكاليف أدوات الإضاءة من هذه الميزانية، بينما تم إنجاز العمل بشكل جماعي. وقد أدى ذلك إلى بناء تقليد أو عرف قوى هو العمل الجماعي التعاوني في قرية ستونجفجوردين والتي ارتبطت بالمفهوم النرويجي عن *dugnad*، والموروث من ثقافة الفلاحة والصيد حيث كان الناس يتعاونون في حل قضاياهم ذات الاهتمام المشترك التي لا يستطيعون التعامل معها بطريقة عادية أو فردية. وفي البداية فقد تم إنجاز العمل بسرعة وبفعالية مع التدعيم الجيد من كثير من الناس. وقد انقلبت المهمة حيث خفت المطالب وتضمنت مجموعة من الالتزامات الفردية وبمرور الوقت تقلصت الجماعة تدريجياً بحيث انخفض عددها وأصبح عدد الذين يملكون الحماس قليلاً جداً.

وتم التعامل بسرعة مع بعض المهام الأخرى. فقد تم إصلاح ملعب التنس وكذلك رمز مكون الثروة الأول بالسرعة المطلوبة. ويستخدم القليل

من الناس الملعب فى ممارسة لعبة التنس بينما يستخدمه معظمهم كمنطقة لعب لأطفال القرية. وتعتبر أنشطة النظافة هى أكثر الأنشطة نجاحا بوجه عام. فقد تم تجديد المنازل والطرق وتحسنت النظرة إلى القرية بوجه عام.

ويعتبر بناء ميناء المراكب الصغيرة من المهام التى لم تحقق النجاح الكافى. ولتمويل هذا المشروع قامت جماعة المهمة المحددة بإنشاء شركة غير ربحية. فكل شخص يريد أن يركب قاربا عليه أن يدفع مقابلا ماديا (أجرة). ومن ثم قامت جماعة المهمة المحددة بالتعاقد مع أحد رجال الأعمال، ولكن هذا الشخص لم يستطع إدارة الميناء. فالآلات التى يمتلكها غير مناسبة للعمل وهو غير قادر على إتمام وظيفته بدون شراء أدوات وأجهزة حديثة. ونظرا لأنه يعيش فى القرية فقد خلق ذلك نوعا من التوتر. واعتقد البعض أن هذا الرجل قد خدع مالكى القوارب، ولكن البعض الآخر تفهم سوء تقديره للموقف وخطأ حساباته. وأرادت جماعة المهمة المحددة تحويل الأمر إلى المحكمة، إلا أنه قد تم حل المشكلة واستقرت قبل الوصول إلى ذلك.

وقد استمر الفريق فى العمل حتى عام ١٩٨٦. حيث ركزت الأنشطة بشكل أكبر فى المراحل الأخيرة من العملية على جهود رجال الأعمال وعلى العلاقات مع الكيانات السياسية والإدارية فى البلديات. وتوقفت بالتدريج السيدة المحلية الرئيسية التى كانت المحرك الرئيسى للمشروع طوال سنوات العمل. لقد كرس الكثير من طاقاتها ووقتها من أجل هذا المشروع، ونظرا لشعورها بأن جهودها أصبحت غير كافية فقد تخلت القيادة عن مسئولياتها وأعطتها لرجل أعمال آخر مبدع. وبدأ فى الإقدام على الصيد مركزا على صيد سرطان البحر مطورا تكنولوجيا وإستراتيجيات الصيد وأنشأ سوقا تجارية للبيع. وبدأ فى بناء قارب خشبى بتكنولوجيا عالية. وبدأ فى تربية

طيور التهيج (طائر من فصيلة الدجاج) Grouse. وبالإضافة إلى ذلك فقد نجح فى تنفيذ العديد من الأنشطة السياحية وأنشأ مخيما خاصا وأجر العديد من الكائنات للسائحين والزوار.

وكان لكل نشاط درجة عالية من الخطورة ولكن مع وعد بجمع الكثير من الأموال. ومن خلال المشروع قام رجل الأعمال المحلى بتطوير قدرات السوق والبدء فى التعاون مع المنظمات والمؤسسات فى الجيرة لزيادة وجودهم فى السوق الألمانية. وانتهى ذلك إلى نجاح هذا النشاط بدرجة كبيرة. وفى السنوات الأخيرة من المشروع فقد تعاوننا عن قرب معه واحتفظنا بالمعلومات عن أنشطته، ولكننا لم نصبح مشاركين بشكل مباشر.

والقضية الأخرى الكبرى التى تضمنتها السنة الأخيرة من المشروع هى جهود القرية لإقناع الحكومة المحلية بدعم عملية إعادة بناء الطريق والمرسى العام فى ستونجفجوردين. وكان للأنشطة المحلية اهتمام كبير بإعادة بناء المرسى العام (بناء رصيف طويل وكبير يتيح لعدد كبير من القوارب التى تستخدمها) فى الممر البحرى نظرا لأن المرسى القديم أصبح غير صالح تقريبا ولا توجد أموال متاحة وكافية لبناء مرسى أو ميناء آخر جديد.

وقد قاومت حكومة البلدية عملية إنفاق الأموال على مشروع تجديد الميناء مبررة ذلك بعدم وجود حركة مرور كافية تساعد فى تحقيق عائد أو ربح يغطى تكاليف التجديد. وقد انخفض عدد السفن الراسية فى الميناء بدرجة كبيرة جدا خلال هذه السنوات، وكان شعور الإدارة المحلية بهذه العملية ناتجا عن تغير وسائل النقل الرئيسية من السفن إلى الشاحنات العملاقة. ولكن نجد أن سكان قرية ستونجفجوردين رأوا أن نقص معدلات النقل البحرى فى الميناء هو نتيجة لسوء حالة الميناء؛ لذلك أصيبوا بالإحباط.

وقد اتصل أفراد المجتمع المحليون بوزارة البيئة لتلقى المساعدة وتلقى كل أنواع الدعم. ومن خلال مسئول الاتصال بالوزارة فقد طلب الفريق مساعدة الجماعة المحلية فى التفاوض على حل هذه المشكلة مع السلطات البلدية. وقد سافر الفريق إلى المجتمع وعقدوا العديد من الجلسات مع السلطات البلدية وكانت المناقشات تتسم بالحدة والجدية؛ نظرا لأنه كان لدينا المهارات الضرورية لإدارة وتكوين الحوارات بالإضافة إلى الدعم الصريح من الوزارة. وتم منح الأموال وتجديد الميناء. بعد ذلك توترت wound down ببطء علاقتنا بالحكومة المحلية. فقد توقفت المنح المقدمة من الوزارة وانسحبنا من ستونجفوردين بعد ثلاث سنوات ونصف.

وبمرور الوقت انتقل دور الباحثين إلى التعامل الأكبر. بدأ الباحثون كميسرين لمهمة إجراء مؤتمر البحث، وعملنا ذلك لعدة أشهر. وعندما انتقل المشروع تغير الدور إلى دعم جهود معينة وتشجيع ردود الفعل الجماعية للأنشطة المستمرة. وأثناء هذه المرحلة أحضر الفريق أيضا طالبين لدعم النشاط وإعطائهما الفرصة للتعلم عن بحوث الفعل. وخلال هذا العمل أصبح الباحثون قادرين على وصف وتحليل البناء الاجتماعى للقرية، وتعلم الكثير عن عدد ١٣ من جماعات التبشير المحلية، والتي تتكون من النساء المعلنات عن مزايا لعيد الميلاد، وبذلك يجمعون الأموال اللازمة لعملية التبشير محليا وخارجيا. وقد تعلم الفريق أيضا الكثير عن بناءات الأسرة، وإبراز العلاقات بينها، وكيف ارتبط السكان بالعديد من الأنواع الأخرى من شبكات العلاقات. وقد تضمنت هذه المرحلة المتوسطة عددا كبيرا من التحليلات ولو أنها تزاوجت مع تيسير أنشطة عملية التغيير المستمرة. وأثناء هذه المرحلة تحمل الباحثون مهمة إجراء مؤتمر البحث لمصنع السكاكين المحلى. وهذه الشركة كانت بمثابة النشاط السائد فى البلدية، وكان الهدف من البحث هو تكوين أسواق جديدة للمنتجات المرتبطة بالسكاكين. ونجح هذا النشاط بدرجة معقولة، حتى لو لم يظهر تطور مهم فى السوق لهذه الشركة.

وفى الجزء الأخير من عملنا تحمل الباحثون عبء تنفيذ دور مباشر وأكثر فعالية. لقد لعبوا دورا نشيطا وتقريبا نشاطا محليا مسيطرا فى التعامل مع جماعات المصالح الخارجية. وكان هذا الدور بغىضا وقد تضمن العديد من القضايا الأخلاقية. وللتفكير فى هذا الأمر، فإن الباحثين لا يملكون القوة للتفاوض مع الحكومة المحلية. لقد دخل الباحثون المشهد بحيلة ودهاء "أصدقاء خارجيين" (انظر الفصل ٨) قادرين على تحريك شبكاتنا المهنية لدعم أنشطة سترونجفجوردين. ويجب على الباحثين أن يلعبوا دور التعامل مع الصراع على الأقل فى الجهود الأولى وذلك لمساعدة الأطراف المتصارعة على إيجاد الحلول لصراعاتهم بأنفسهم.

وكان للباحثين فى سترونجفجوردين مشاركون أقوياء جدا "بحماسة متوهجة Burning Souls". وبعض من هؤلاء الأفراد توقف عن العمل، ولكن معظمهم استمر طوال المشروع. وهؤلاء الناس كانوا أربعة رجال وامرأة، وكان لديهم قوة داخلية وقوة على إنجاز العمل بتركيز شديد نحو تحقيق الأهداف. وقد عملت هذه الجماعة كوحدة منغلقة تماما. فقط فقد انضم أخيرا على هذه الجماعة المقاول المسئول عن أرض المعسكر ومدير شركة السكاكين. وكان مدير المصنع نشطا لمدة عامين، ولكن عندما احتاجت شركته إلى اهتمام كبير منه ترك الجماعة. وقد أصبح المقاول شخصا قياديا أثناء المرحلة الأخيرة من العمل. وعلى الرغم من أننا أحيانا كان لنا ارتباطات مع أعضاء آخرين من المجتمع المحلى فإن هؤلاء الأشخاص لم يصبحوا نشطاء رئيسيين. لذلك كان من المنطقى أن نعتقد بأن الجماعة الأساسية هى التى تعكس قطاعا ضخما من سكان القرية.

وطوال مدة المشروع تم بناء العديد من ميادين الاتصال المتنوعة. وقد بدأ الباحثون بمؤتمر البحث. وتبع هذا النشاط إجراء سلسلة من المقابلات

التي من خلالها كانت تجرى الأحاديث الرئيسية المعتادة وردود الفعل الجماعية عن تطور العملية. وقد خلقت هذه المقابلات المعرفة لكل من السكان المحليين عن إعادة هندسة وتوجيه أنشطتهم للوصول إلى الأهداف المرغوبة بطريقة أفضل، والباحثين الخارجيين لفهم التحديات التي تواجه تنمية المجتمع المحلي بطريقة أفضل.

وهناك قضيتان أصبحتا حجر الزاوية في جهودنا البحثية الفكرية. والسؤال الرئيسي الأول يرتبط بفهم البناء الاجتماعي المعقد. فالفريق مهتم بكيفية نشر المعلومات بسرعة في المجتمع. أساسا فإن القرية ككل تعرف كل شيء، حتى لو أنهم متأكدون من أن لديهم اتصالات مع عدد قليل فقط من الناس. ولعل التساؤل الأولى للبحث إذن يركز على العوامل المتكاملة في البناء الاجتماعي. ومن خلال عمل الطلاب اكتشف الباحثون في النهاية تأثير ١٣ من أندية التبشير، والكورس (فرق للترنيل) ومرفأ القوارب، وكل جماعات شرب القهوة. وأوجدت هذه الشبكات المتداخلة إلى حد بعيد إمكانات للتوزيع للفعال للمعلومات. وتم تسجيل هذه النتائج في أنشطة الطلاب.

ولعل أكثر الأبحاث المنشورة أهمية، والناجمة عن هذا العمل قد ركزت على فهم لماذا يصبح سكان معينون "نفوسا محترقة". كيف يمكن تفسير أن الشخص ينهض من أمام جهاز التلفزيون ثم يتحمل عبء ومسئولية قيادة نشاط التنمية المحلية؟ وقد تم صياغة الشكل الأولى لهذا التساؤل أثناء العمل في ستونجفورد. وقد أثمرت بعض المناقشات مع النشطاء المحليين عن فهم أولى لقضية الحراك. وقد شكل هذا الفهم الأولى تساؤل بحث لرسالة الماجستير (قام بها أحد الطلاب)، والتي ركزت على المراحل المبكرة لتنمية المجتمع المحلي. وفي النهاية فقد نشر هذا العمل بواسطة مورتين ليفين (١٩٨٨) تحت عنوان الحراك المحلي.

موندراجون: المشكلات التنظيمية فى التعاونيات الصناعية:

تعتبر جمعيات موندراجون التعاونية فى إسبانيا واحدة من أكثر النماذج نجاحا فى الديمقراطية الصناعية فى أى مكان، وهى موضع اهتمام ومناقشات العالم كله. وأصبحت هذه الجمعيات التعاونية كجماعة من مديرى الأعمال مركزا للمناقشات الكبيرة التى تركز على قدرة المنظمات الديمقراطية على المنافسة بنجاح فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة. (Bradley & Gelb, 1983; Kasmir, 1996; Thomas & Logan, 1982; Whyte & Whyte, 1991). ويتضمن المشروع الذى تم وصفه باختصار هنا إجراء بحث فعل لمدة أربع سنوات بواسطة فريق مكون من الجمعيات التعاونية وعدد من الباحثين المهنيين من الخارج، ونتج عنه عدد من الإصلاحات فى الجمعيات التعاونية وتأليف كتاب عن البحث بواسطة عدد من فريق البحث (Greenwood et al, 1992).

وتقع موندراجون فى إقليم الباسك بإسبانيا، وهو إحدى أكثر المدن كثافة سكانية وأكبر المقاطعات الصناعية فى إسبانيا. وهذا الإقليم يشتهر بحركة الباسك السياسية القومية، وبسبب أن سكان الباسك يتحدثون لغة لا ترتبط بأى لغة أخرى يتم الحديث بها فى العالم. وعند التركيز على الصناعة الإسبانية منذ القرن التاسع عشر، فإن إقليم الباسك كان من أكثر المناطق الجاذبة للهجرة الداخلية وبها عدد من السكان غير الباسكيين الذين جاءوا من بقية أنحاء إسبانيا يزدون عن ٢٤%. وبعد فترة طويلة من النمو، عانى الإقليم من انحدار صناعى كان نتيجة شيخوخة (تهالك) البنية التحتية، ومن ارتفاع تكاليف المشروعات التجارية والصناعية، وكذلك من زيادة المنافسة القومية والعالمية. وقد بدأ المشروع فى هذا التوقيت، وقد تراوح معدل البطالة فى الإقليم حول ٢٥%. موندراجون نفسها تعتبر مدينة صناعية عدد

سكانها ٢٧٠٠٠ نسمة، وبها أقل نسبة بطالة. وتقوم الجمعيات التعاونية بموندراجون بتوظيف نسبة ٥٠% من سكانها الفعّالين في المنطقة مع الأخذ في الاعتبار النسبة المنخفضة للبطالة.

وقد بدأت هذه الجمعيات التعاونية بجمعية وحيدة، واسمها الجور Ulgor، وقد أسست عام ١٩٥٦ بواسطة خمسة من القادة وثلاثة عشر من العمال المتعاونين. ويوجد الآن حوالي ٢٠٠ جمعية تعاونية تقريبا توظف أكثر من ثلاثين ألفا من العمال المالكين Workers-owners. وخلال فترة الركود العالمي، فقد بقيت هذه الجمعيات التعاونية هي الحل وهي القادرة على سداد الديون، وأنها قادت بنجاح التحول إلى المنافسة الفعّالة في الاتحاد الأوروبي. لقد قامت بصناعة الإنسان الآلي، ومحركات السيارات، وأشباه الموصلات، ولوحات التحكم في الحاسبات الآلية والثلاجات وغسالات الأطباق والمواقد الحرارية، وأفران المايكرويف والأجهزة الإلكترونية وأنابيب المياه وأيضا البيع بالتجزئة للأغذية، كما يوجد العديد من الجمعيات التعاونية الخدمية مثل الحراسة والطهي، وكذلك إدارة العديد من المدارس المتنوعة والتي تشمل الجامعات المعتمدة. وتصل نسبة صادراتها إلى ٣٠% من إجمالي منتجاتها.

وقد قامت هذه الجمعيات التعاونية على أساس مبادئ الديمقراطية الصناعية وتجسد مبادئ ملكية العمال ومشاركتهم. وللاستحقاق بهذه الجمعيات يقوم الشخص بدفع رسم دخول يوازي أجر عام. ويصبح ذلك أساسا لامتلاك الشخص حسابا استثماريا وجزءا من الحصة الشخصية في نجاح الجمعية. ويتلقى الأعضاء كدافعين حصة من الأرباح وزيادة في رصيدهم الاستثماري. إن كمية الحصة التي تعود على الأعضاء تعتمد على الإنجاز الاقتصادي المتوقع والمتطلبات الرأسمالية المستقبلية التي تقوم على أساس

خطة عمل الجمعية. وهذه الحصص والخطط يتم الإعلان عنها سنويا لكل الأعضاء. ويتم توزيع الحصص طبقا للتصنيف الوظيفي للوظائف التي يشغلها الأعضاء. وفي وقت الدراسة يتباين الدفع بحيث يكون من ٦-١، فالوظائف الأقل تحصل على سدس أجر الوظائف العليا^(١).

ونظرا لأن جدول أجور مديري هذه الجمعيات يقل كثيرا عن أجور نظرائهم في الشركات الخاصة، فإنه يتم اختيارهم من بين الأعضاء الذين تعدت عضويتهم أربع سنوات حيث يتم استدعاؤهم. إن بناءات الحكومة الداخلية الحكيمة توفر حرية المعلومات والمراجعات القوية والتوازن في صنع القرارات. ويمتلك النظام التعاوني أيضا نظاما للرعاية الصحية والتقاعد، وهيئات أساسية للبحث والتطوير، وبنكا تعاونيا رئيسيا وأعدادا كبيرة ومتنوعة من المدارس من المرحلة الابتدائية وحتى المستوى الجامعي.

وحتى يتم إعادة تنظيم وترتيب البناء ككل وتكوين شركة تعاونية مستقلة عموما في موندراجون، فإن جماعة فاجور Fagor التعاونية كانت أكبر الجماعات التعاونية وأكثرها شهرة، والتي تضمنت المؤسسة التعاونية ألجور Ulgor. وقد اتخذ بحث الفعل مكانه داخل جماعة فاجور.

وبدأ المشروع عندما قرر ويليام فوت وايت William Foote Whyte الأستاذ الشهير لعلاقات العمل والصناعة بجامعة كورنيل كتابة التاريخ الشامل والتحليل البنائي للجمعيات التعاونية. وبعد زيارة بحثية عام ١٩٨٢، لجمع البيانات لهذا الكتاب، فقد نظم حلقة نقاشية (سمينار) عن رؤيته أمام حشد كبير من المهتمين. وقد عرض العديد من الملاحظات النقدية عن ممارسات محددة داخل النظام، وقد أصابت وايت الدهشة عندما وقف المدير الإداري لفاجور جوزي لويس جونزالز Jose Luis Gonzalez وشكره ثم طلب منه تحديد كيف يستطيع أن يقدم لهم المساعدة لحل المشكلات التي حددها.

وعاد وابت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وانضم إلى ديفيد جرينوود، عالم الأنثروبولوجيا بكورنيل الذى يملك سنوات كثيرة من العمل الميدانى وخبرة بحثية تاريخية فى إقليم الباسك، فى المشروع. وقام الاثنان معا بالتعاون مع جونزالز حيث وضع الثلاثة خطة تمويل مقترحة لمدة عامين.

وحدد جونزالز أهدافا من هذا التعاون، وقد أخذ القيادة فى تحقيق ذلك، وكان الهدف هو تكوين وتطوير وظيفة للبحث الاجتماعى الداخلى لجماعة فاجور، والبدء بذلك على مستوى المقارنات المعقدة لما تحقق بالفعل فى البحث الاقتصادى الداخلى. وقد جسد هذا النوع من التفكير الفهم الشخصى لجونزالز للتوازن الضرورى الذى يحافظ عليه هذه التعاونيات بين الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية. ومع ذلك فإن هذه الدوافع الأساسية للبحث، وهويات المشاركين المحليين، وخطة العمل الواقعية للأنشطة كانت غير واضحة بالنسبة للخارجيين.

وبدأت عملية بحث الفعل بمجموعة من الزيارات المتبادلة، التى تبعها عام ١٩٥٨ مقرر دراسى صيفى قام به جرينوود لحوالى ١٥ عضوا من جماعة فاجور. وقد انتهى هذا المقرر بالكتابة المشتركة عن الدراسة الأولية عن الأزمات على مدار تاريخ جماعة فيجور. وعلى أساس هذه الدراسة قررت جماعة فيجور وإدارتها استمرار المشروع. ومن ثم فقد تبع ذلك العديد من المقابلات المكثفة فى المشروع، ومقرر صيفى آخر، وسلسلة من الجماعات المحورية (البؤرية)، وعملية كتابات تعاونية مطولة والتى من خلالها تم تأليف كتابى نتائج المشروع (Greenwood et al, 1990, 1992).

وتم سحب المشاركين التعاونيين أساسا من قسم العاملين المركزى لجماعة فيجور. إنهم لا يمثلون الجيل المؤسس، لكن يمثلون الجيل التالى من

الإدارة التعاونية. وقد عبر هؤلاء الناس عن اهتمامهم الأصيل والعميق بأن مستقبل الجمعيات التعاونية ليس له موارد مالية مضمونة. وبالتحديد فإنهم منزعجون من أن العديد من الأعضاء المشتركين الجدد غير ملتزمين بالقيم التعاونية، وتحت هذه الضغوط، لا يستطيع النظام أن يتوافق.

ولتحديد هذه الاهتمامات كون فريق بحث الفعل منظورا تحليليا، يركز على فهم الأنساق الثقافية كشبكات دينامية للمعاني والمقاصد التي تنتج كلا من معنى ومضامين الصراع والممارسات المعقدة وغالبا المتناقضة. لقد قرأنا الكتابين اللذين تم كتابتهما عن الجمعيات التعاونية بواسطة الخارجيين والداخليين وحددنا انتقاداتنا بدقة حولهما. وقد استكشفنا الاستخدام الثابت والمستمر للانقسامات الثنائية للنمط السلوكي الرغبة- الرفض في الجمعيات التعاونية مقارنة بالجمعيات التعاونية ذات المشروعات المألوفة.

وبمرور الوقت وبالتدريب على التفكير، فقد قمنا بتكوين فريق يضع الأساليب التي تسمح للباحثين المتعاونين بالتواصل المباشر وبشكل أكبر مع الواقع الذي يتعايش معه ويدركه أعضاء الجمعيات التعاونية والارتباط بالصياغات الثقافية المجردة التي ترجع إلى البناءات المؤسسية في سياقاتهم التنظيمية والتاريخية. وقد أصبح الهدف يتمثل في الوصول إلى الفهم الدينامي المتميز لوضع الجمعيات التعاونية وفعل ذلك من خلال الأدوات المستخدمة في عملية البحث، مثل تلك التي كانت مفيدة للجمعيات التعاونية المغلقة والمفتوحة، والإدارة الذاتية. وقد بدأ المشروع بتحليل المخاوف من افتقاد القيم التعاونية، ولكن تطور بالتدرج إلى القياس الكلي الذي وجهه مشروع بحث الفعل إلى المخاوف العميقة للأعضاء وآمالهم عن مستقبلهم التعاوني (الجماعي).

وكانت عملية البحث التي أجريت ذات طبيعة فريدة. وكانت البداية في شهر يوليو ١٩٨٥ بفتح حوار مع عدد هائل من التوقعات المتناقضة. وقد توقع

أعضاء جماعة فاجور بوضوح وفكروا فى أنهم يرغبون فى محاضرات أكاديمية عن الثقافة التنظيمية. وقد جاء جرينوود معتقدا أن معظم البحوث الاجتماعية قد فشلت فى إنتاج معرفة جديدة نافعة، وأنه لو أن هذه الجمعيات التعاونية هى تنظيمات تتسم بالإدارة الذاتية فإنها سوف تكون جماعة إدارة ذاتية ناجحة، ومثل ذلك يجب أيضا أن تكون قادرة على الإدارة الذاتية لعمليات البحث والتعلم. ولذلك رفض جرينوود الإعداد لمقرر محدد، وقام بتحرير قلق الأعضاء من خلال استخدام مجموعة من الأدوات للتعامل مع هذا القلق. وعلى العكس من ذلك كان هدفه يتمثل فى تطوير بحث ذى توجه عقلى Mindset، والذي من خلاله يستطيع الأعضاء تعلم أشياء جديدة عن أنفسهم، وإيجاد المعلومات غير البديهية، وتطوير خطط الفعل التى تربط هذه النتائج بالأفعال المناسبة. وكان جرينوود غير راغب فى تدريس أدوات البحث الاجتماعى حتى تصبح الجماعة راغبة فى تحديد المشكلات والاهتمامات التى يفكرون فيها معا. ويعتقد جرينوود أن البحث الاجتماعى التقليدى بافتراضاته العملية واعتماده على الفلسفة الوضعية السطحية لا ينتج نتائج نافعة وسوف يتم تبديد موارد هذه الجمعيات التعاونية بهذه الطريقة. وقد اعتقد أن أعضاء جماعة فاجور هم بالفعل باحثون، ولكنه ربما يكون قادرا على مساعدتهم على تعلم الاتجاهات اللامعيارية غير البديهية counterintuitive nonparametric نحو البحث الاجتماعى وتعلم أن يكونوا باحثين مزيفين Falsificationist. وقد اهتم بوجه خاص بأنه منتبه لتعقيد وتنوع المشهد؛ نظرا لأنه كان مدركا بأن الأعضاء ينوون العمل على تحقيق النتائج.

ونتيجة لهذه المعتقدات، فقد جاء جرينوود إلى السمينار بدون محاضرة معدة، وكان أعضاء جماعة فاجور قلقين فى أثائها (فى حينها). وكان تأثير هذه التوقعات غير المتكافئة mismatch قد أوجد مناخ "جماعة ت T-Group". ولم يكن جرينوود راغبا فى تعليم أساليب البحث حتى

تتحمل الجماعة مسؤولية القضايا التي يجب أن تدرسها، واحترام الأبعاد الأخلاقية للبحث التعاوني داخل الجمعيات التعاونية التي يكون فيها الأعضاء متساوين من حيث المبدأ.

وبعد الكفاح فترة من الزمن مع ديناميات السلطة الموجودة، اقترح جرينوود أن تبدأ الجماعة بالكشف عما ترغب في معرفته من خلال الكشف عن كيف يرى الآخرون التعاونيات. وقد انخرطت الجماعة في قراءات نقدية في أدبيات العلوم الاجتماعية للمهنية وكتب المستفيدين الداخليين في موندراجون. وقد كره الباحثون المتعاونون هذه الأدبيات؛ لأنهم يرون أنها لا تمثل ولا تمثل خبراتهم. وبناء على فكرة عدم التمثيل هذه نصحهم جرينوود بأن يتسموا بالتحكم في آرائهم وتحمل المسؤولية إذا كانوا يريدون الاستمرار في جهودهم التي تحقق أغراضهم. وقد بدأ تطور المشروع من هنا.

وخلال مدة من الزمن تعلمت الجماعة العديد من أساليب البحث الاجتماعي وطوروا وجهة نظرهم حول التعاونيات. وكانت النقطة المركزية في وجهة النظر هذه تتمثل في رؤيتهم عن الثقافة كعملية معقدة ودينامية. وفي هذا الخصوص ذهب الفريق إلى الاعتقاد بأن الثقافة التنظيمية في فاجور وضعت مصطلحات الصراع والتناقض في الجماعة، وأن قوة النسق لا توجد في غياب الصراع، ولكن في الأهداف الواضحة والعريضة وفي وضع قواعد المناقشة والحوار. ولا يوجد غياب لعدم الاتفاق الممتد (المستمر) عن كيفية تحقيق الأهداف المرغوبة بقوة.

وعندما كون الفريق بحثه وحدد تفسيراته، خضعت كل وجهة نظر جديدة لاختبار الواقعية من خلال البحث المستمر وجلسات التغذية العكسية مع أعضاء الجمعية التعاونية الآخرين. وقد أكد جرينوود وجونزالز على أن تكون الفرصة متاحة لإنهاء المشروع في أي وقت يكون الإنهاء فيه مفيداً.

ونظرا لأن الجمعيات التعاونية كانت قصة ناجحة، وأصبح هذا النجاح مشهورا، فقد قرر الفريق تركيز اهتمامه على التنوع والاختلاف والجدل وعدم الاتفاق داخل هذه الجمعيات التعاونية. وطوال عملية إجراء المسوح من خلال سلسلة طويلة من المقابلات مع الأعضاء الذين شعروا بأنهم أكثر ابتعادا (اغترابا) في النسق، ومن خلال الجماعات البؤرية Focus، ركز فريق البحث اهتمامه على عناصر الاختلاف في وجهات النظر، والبحث عن الصراعات والتناقضات داخل النسق، ومحاولة عدم الإحجام عن التعامل مع معظم الأسئلة التهديدية عن المستقبل المحتمل لنسق التعاونيات. وقد اقتربت العملية البحثية بشدة من الجماعات البؤرية التي يقوم الفريق بإخضاع معظم قيمها المهمة عن الحياة التعاونية إلى الاستجواب المفتوح: المشاركة والتماسك وحرية المعلومات.

وبحثت هذه العملية البحثية عن الصراع ووجدته، ولكن اكتشفنا أيضا أن صفة رائعة من المساندة داخل النسق، متضمنة الصفقات بين المتطوعين (المساهمين) الجدد. وبالتحديد فقد أصبح واضحا أنه لا توجد أزمات جوهرية للقيم التعاونية، وأن الافتراض الأولى للبحث نفسه كان خاطئا، وأن معظم تفسيرات العامة للمشكلات المدركة في الجمعيات التعاونية كان ببساطة خاطئا. ومع ذلك فإن الشعور بالقلق عن المستقبل لا يزال باقيا، وأن البحث قدم العديد من المعلومات عن حالة عدم الرضا مع العديد من أبعاد العملية التعاونية. وقد بدأ الباحثون المتعاونون بذلك في التطلع إلى العوامل الأخرى والتي يمكن أن تساعد في فهم التوترات الواضحة داخل النسق. وقد بدعوا بوجه خاص في أن يعكسوا أدوارهم الخاصة وممارساتهم كجزء من النسق الوظيفي التعاوني في خلق ظروف سلبية.

واعترف أعضاء الجمعية التعاونية بأن صياغتهم الأولية لمشكلات الجمعيات التعاونية كنقص في التزام الأعضاء الجدد بالقيم التعاونية كان

لخدمة أنفسهم. وقد أصبح واضحاً أنهم قد أقاموا جسراً من عدم الثقة مع الأعضاء الجدد والذين لم يشعروا بالالتزام فى هذه الجمعيات التعاونية مثلما كان شعور الأعضاء القدامى بهذه الجمعيات.

ونظراً لأن القرار كان إجراء مقابلات شاملة مع الأعضاء المتمردين، فقد بدأ الفريق فى ملاحظة أن العديد من الشكاوى كانت تنصب على ممارسات أقسام الموظفين (الأقسام الإدارية). وقد أعطى الأعضاء المتمردون أمثلة عن المواقف التى كانت فيها أقسام العاملين مذنبه فى تطبيق القواعد والقوانين على نحو غير معروف على أعضاء الجمعية التعاونية بدلاً من تجسيد المبادئ التعاونية والتعامل الشخصى المباشر مع الأطراف المتأثرة فى عملهم؛ لذلك بدأ أعضاء الفريق فى رؤية أنفسهم كجزء من المشكلة التى يرغبون فى حلها.

وتواصلت ردود الأفعال أيضاً على مستوى أوسع. وكان لدى الباحثين المتعاونين مادة كافية عن الحالة وشعور كافٍ بالوقت الذى كانت فيه ديناميات (تفاعلات) سلبية مهمة فى النسق للبدء فى التفكير فى عملية كبرى فى النسق. وقد لاحظوا أنه عندما يكون هناك مشكلات يعانى منها الأعضاء فى مكان العمل وشكاوى مقدمة، فإن المديرين المحليين وأقسام الموظفين تقوم بتحويلها مباشرة إلى الأجهزة الحكومية بدلاً من محاولة حلها فى مكان العمل. ونتيجة لتطور وجهة النظر هذه، فقد أدرك الباحثون المتعاونون الديناميات المؤسسية الخطيرة داخل نسق الجمعية التعاونية. وبدلاً من تحقيق ديمقراطية مكان العمل، فإن النسق التعاونى قد كون ميلاً قوياً لاستخراج واستخلاص كل الصراعات من علاقات العمل وعلاجها كحالات مثل قضايا الحكومة، وبالتعامل معها بواسطة النظام الحكومى (القواعد والتشريعات والإجراءات). وهذا ما يجعل الجمعيات التعاونية غير مستجيبة لمطالبه

الأفراد بالعدالة وتزداد البيروقراطية. ولعل المثال الأجمل كان نموذج السلوك التنظيمي و O-1 1- **Organizational Behavior** لكل من أرجيرس وسكون (١٩٩٦)، والذي استجاب للخطأ من خلال إعادة تقديم الظروف التي جعلت الخطأ يتكرر. وكانت تتمثل إحدى النتائج في بتر النمو المستمر وتطوير الديمقراطية في مكان العمل.

وقد وجد الدعم لوجهة النظر هذه من مقابلة إلى أخرى. وبدأ الباحثون المتعاونون في فهم أفضل للشكاوى المقدمة من الأعضاء عن التوتر الموجود عند العمل في بيئة عمل غير ديمقراطية، حتى يتم في نفس الوقت التصويت على خطة العمل السنوية، وأن يكونوا قادرين على استدعاء الإدارة، والمشاركة في الاجتماعات العامة لجماعة الجمعية التعاونية، التي غالبا ما تعيد بناء وتنظيم نظام الجمعية التعاونية ككل بأساليب أساسية. ولكي نضع ذلك بطريقة أخرى، فقد حدد الأعضاء بدقة التناقضات الموجودة بين معيشتهم كعاملين وبين معيشتهم كمديرين. وقد وجد الأعضاء الداخليون في فريق البحث أن هذه النتيجة تعتبر مقنعة؛ نظرا لأن أعضاء الفريق قادرون على سرد عدد هائل من الأحداث من خلال خبرتهم التي من خلالها زادت هذه التناقضات من واسطة أفعالهم كمديرين للتوظيف.

وهناك بعد آخر أكثر تجريدا من رد الفعل (الانعكاس) يميز أيضا هذه المرحلة من البحث. وأحد الطرق الرئيسية أن أدبيات موندراجون أوضحت أن نجاح الجمعيات التعاونية يرجع إلى قيم المشاركة القوية التي وحدت الأعضاء. وكل من عناصر ثقافة الباسك (التماسك والمساواة بين الناس وغيرها) أو ببساطة الثقافة التنظيمية القوية التي فرضها مؤسس هذا النظام ومعاونوه قد استخدمت في شرح وتفسير كيف ازدهرت المنظمات الصناعية الديمقراطية الرأسمالية الناجحة في شمال إسبانيا ولم تزدهر في

لندن وديترويت أو سنغافورة. وقد انتهى الباحثون المتعاونون من قراءة هذه التحليلات، وزاوجوها مع خبراتهم الشخصية وعملية البحث التى يقومون بتنفيذها، والتى أبطلت وجهات النظر هذه.

وأظهر تنفيذ بحوث الفعل فى الجمعيات التعاونية أن كل قيمة أساسية قد تمت مناقشتها والجدل حولها، وأن التوترات الجوهرية قد كثرت. ومع ذلك فقد أصبح واضحا أن أعضاء الجمعية التعاونية قد شاركوا مستوى عاليا من الموافقة على ما هو المستوى المثالى من الجمعية التعاونية الذى يحبونه، وما هو نوع قواعد العملية التى يجب أن تحكم حياة الجمعية التعاونية، لقد عانوا من توترات مهمة وشعور بخيبة الأمل من الفشل اليومى للنظام فى الوصول إلى مستوى هذه القيم. وكان لديهم أيضا العديد من الأساليب المتنوعة التى يتبعونها لحل هذه المشكلات. لذلك، فإن الثقافة التنظيمية لهذه الجمعيات التعاونية كانت قوية بحق، ولكن قوتها هذه لم تكن موجودة بشكل منظم. إن ثقافة الجمعيات التعاونية هى ثقافة النقاش والمنافسة والحوار حول مجموعة أساسية من المبادئ التنظيمية والنماذج الأخلاقية. ولقد جاء الباحثون المتعاونون لصياغة مفهومهم الخاص عن الثقافة التنظيمية القوية، التى تعتبر واحدة من الثقافات التى لا تضع الأفراد معا فى قالب موحد، ولكنها هى التى توفر حوارا مستمرا ومناقشة للوسائل التى تجسد قيما مهمة ومشتركة. وهذه النظرة للثقافة التنظيمية تعتبر جديدة تماما فى الأدبيات الأكاديمية والتوجيهية (الإرشادية) عن هذا الموضوع فى ذلك الوقت وكانت نتيجة مباشرة لمشروع بحث الفعل.

وعند الوصول لهذه النقطة اقترح جرينوود على فريق بحث الفعل أن يكتبوا كتابا ليخبروا الآخرين عن نتائجهم. وتعتبر هذه عملية طويلة وشاقة، سواء بسبب صعوبة كتابة الفريق، وبسبب أيضا أن كتابة هذا الكتاب تمثل

فكرة تهدد معظم أعضاء الفريق. وعلى الرغم مما اكتسبوه من كفاءة وثقة كفريق بحث، فإن أعضاء الفريق الداخليين ليسوا مؤهلين للكتابة للمستمعين الخارجيين. وفي كل نهاية للعملية وأثناء الجلسة الأخيرة لردود الأفعال، وافق المؤلفون (Greenwood et al., 1990, 1992) على أن عملية رد الفعل التي تم من خلالها كتابة المطالب، تعتبر الجزء الأكثر ثراء في خبرة التعلم ككل.

وبالتوازي مع الكتابة، فقد كان اتجاه بحث الفعل نحو حل المشكلة أيضا مؤسسيا وبطريقة محدودة داخل جماعة فاجور. وقد تلقى حوالى ٤٠ فردا تدريباً على هذه الاتجاهات طوال ثلاث سنوات في المشروع. وقد تم البدء في خمسة مشروعات تجريبية في جمعيات تعاونية محددة مع أعضاء من فريق بحث الفعل حيث الذين يعملون كقادة لفريق بحث الفعل في مواقع جديدة. وقد تم تحميل عدد من أعضاء الفريق بسرعة مسؤوليات الإدارة داخل النسق، وقد أصبح ثلاثة منهم مديرين عموم للجمعيات التعاونية في السنوات التي أعقبت المشروع مباشرة، وأصبح اثنان آخران مدربين رئيسيين في نظام التدريب التعاوني للأعضاء الجدد وإعادة التدريب للأعضاء القدامى. ويستخدم الكتاب الذي نبع من المشروع (Greenwood et al., 1990) الآن في مقررات التدريب. وقد أثمر أحد المشروعات التجريبية عن إعادة التنظيم الجوهرى لإحدى الجمعيات التعاونية التي أصبحت الآن الأكثر نجاحاً بين جميع الجمعيات في النسق.

وبشكل عام فقد أظهرت هذه الحالة أن بحوث الفعل تستطيع الارتباط برد الفعل التنظيمي، وتدريب الداخليين التنظيميين، وجهود التطوير التنظيمي، بينما تستطيع أيضا الوصول إلى الأهداف العقلانية التي تذهب أبعد من حدود حالة معينة.

Research and Extension

سعت برامج نظم التوظيف وأماكن العمل أثناء إحدى مراحلها التاريخية (PEWS) بقسمها الممتد في مدرسة علاقات العمل والصناعة بجامعة كورنيل إلى تعزيز اتصالاتها وسمعتها بين أعضاء هيئة التدريس في الأقسام الأكاديمية. لقد كانت تملك نجاحا محدودا بسبب الاعتقادات العميقة بين أعضاء هيئة التدريس بأن العمل "التطبيقي" غير مشوق فكريا. وقد انضم جرينوود إلى برامج نظم التوظيف وعلاقات العمل (PEWS) بفضل جهود أحد مؤسسيها وهو وليام فوت وايت William Foote Whyte. وعندما شارك في مناقشات البرنامج لاقى هجوما عنيفا من أعضاء البرامج من مختلف التوجهات الفكرية، ومن أعضاء هيئة التدريس بجامعة كورنيل. فأعضاء برامج أنساق التوظيف وأماكن العمل مهتمون بحاجات التنظيمات التي يتعاملون معها ومنقادون لها، بينما يهتم أعضاء هيئة التدريس بجامعة كورنيل بالكفاح نحو الحصول على قبول مجتمعات البحث المهنية التي ينتمون إليها والنماذج الخاصة بها. ونتيجة لذلك كان هناك انحياز في كفالة العمل. ولم يكن متوقعا من أعضاء البرامج أن يكتبوا كثيرا أو يفكروا على أسس نظرية، ولم يكن متوقعا من الأكاديميين أن يكتبوا أو يفكروا في إطار مصطلحات تطبيق المعرفة.

وأثناء المرحلة التي عمل فيها جرينوود مع برامج نظم التوظيف وعلاقات العمل (PEWS) فقد اقترح أن تحاول هذه البرامج إعادة توفيق أوضاعها من خلال محاولة دمج عمليات تركيزها على عملاتها مع أبعاد البحث العلمي، والتي يمكن أن تحقق الاستفادة بخبرات أعضاء هيئة التدريس واهتماماتهم. وعند تجريب بحث الفعل لنمذجة هذا الاتجاه، نفذت PEWS

مشروعاً تجريبياً بجوار إحدى المؤسسات الصناعية. وهذه المؤسسة واجهت مشكلات في تطبيق نظم صناعية جديدة (الوحدات الصناعية، والجودة الشاملة، وعمليات الضبط والتحكم الإحصائي، والإنتاج في الوقت المحدد).

وكتجربة لزيادة فعالية برامج نظم التوظيف وعلاقات العمل PEWS، فقد زود المشاركون المراحل المبكرة من عملية الإرشاد النموذجي بمنظور البحث. أولاً كسبت التعاقد مع المصنع. والجميل في هذه العملية أن جرينوود عمل كباحث اجتماعي مهني، وقد رافقه إلى المصنع فريق من PEWS (بيتر Peter ولازيس Lazex وأن مارتين An Martin) وذلك لمدة يومين كملاحظ مشارك. وأثناء هذا الوقت وبعد كتابة التحليل، فقد وضع تساؤلات وتتبع القضايا التي برزت من خلال هذه الملاحظات. وقد ساعد ذلك في عمل عملية تدخل قادرة على الوصول إلى الآخرين غير المنضمين مباشرة.

وبعد ذلك ارتبط جرينوود وفريق العمل بالأعضاء الآخرين لبرامج نظم التوظيف ونظم العمل PEWS بالإضافة إلى جان أرجينز كارلسين والذي كان زائراً لمدرسة علاقات العمل والصناعة وذلك لتتبع القضايا البحثية المرتبطة بالمصنع. وهذا أتاح الفرصة لموظفي PEWS لإعلام الآخرين عن مشكلات المصنع وعرض التساؤلات. وقد ساهمت الأسئلة والإجابات في تنقيح القضايا المثارة. وقد ظهر عدد هائل من التساؤلات البحثية بالتزامن مع قائمة من المعلومات الإضافية عن المصنع، والتي تحتاجها PEWS.

وأفادت هذه العملية في اتجاهين، أولاً مساعدة خبراء المصنع مع جرينوود وكارلسون على تحديد القضايا النظرية الكبرى التي جسدها أحداث المصنع. وقد ظهرت مجموعتان كبيرتان من القضايا وهما: الأثر التنظيمي للأنساق الصناعية الجديدة، ونماذج التغيير التنظيمي المتضمنة في الخلايا

الصناعية المخلفة. وفي المقابل ظهرت القضايا المرتبطة بالمعنى الاجتماعي الكبير للتصنيع الجديد. وقد أشارت إلى الصعوبات التنظيمية التي واجهت عملية نمذجة التغيير التنظيمي.

ثانياً حدد جرينوود وكارلسين ما هي محتويات أدبيات البحث حول هذه القضايا، والتي يمكن أن تفيد المصنع. وقد تضمنت هذا المحاولات داخل الأدبيات عن التعلم التنظيمي، ونماذج التنظيم، ونظم التصنيع الحديثة. وثالثاً وقد اقترحوا أن يطور فريق PEWS البيانات الأساسية المطلوبة لتحديد هذه الأسئلة بواسطة فرق الدراسة والفعل لتهيئة العاملين في المصنع. وقد أظهرت خبرة العمل من مثل هذه الفرق أن تكون واسعة الاطلاع بسرعة. وفي الغالب يصبحون طرفاً إيجابياً في عملية التغيير.

وأخيراً فقد قاموا بفحص وتنظيم مواد البحث المطلوبة. وهذه توفر عدداً من وجهات النظر النظرية والمنهجية الجيدة لفريق PEWS لنشرها في المصنع. وكما كانت قضايا البحث واضحة لجماعة بحوث الفعل كانت أيضاً واضحة لحاجات العميل. وقد كان نشر البحوث المقارنة بالمكتبة ومجال العمل والمرتبطة بعناصر نظم التصنيع الحديثة ممكناً. وكان هذا النوع من البحث مشوقاً للأعضاء الأكاديميين سواء للقيم التي يتضمنها البحث، أو تقديمه للمواد اللازمة للتعلم. وفي الواقع فإن برامج نظم التوظيف وعلاقات العمل PEWS والبرامج المرتبطة بها استمرت في مواجهة المشكلات في آخر ما توصلوا إليه حيثما كان يعيش العملاء. وقد ساهم الجزء الأساسي الذي بنى على أساس هذه الخبرات كأداة يتبعها طلاب المجتمعات الصناعية. ولكن توقفت المبادرة عند هذه النقطة.

ما الذي يمنع من التقدم إلى الأمام؟ تنظيمياً فإنها تحتاج إلى تغييرات كبرى سواء في برامج نظم التوظيف وعلاقات العمل PEWS أو في مدرسة

علاقات العمل والصناعة. فيجب أن يحقق أعضاء PEWS التوازن بين كل من التزاماتهم نحو العملاء مع متطلبات البحث من خلال تكريس وقت مناسب للقراءة والكتابة والاتصال بأعضاء هيئة التدريس المقيمين. أما أعضاء هيئة التدريس المقيمون فيجب أن يكونوا قادرين على استثمار الوقت من اكتشاف القضايا الكبرى في الحالة وتتبعها، وتنظيم الأدبيات ذات العلاقة بهذه القضايا، وربط أنفسهم بالمشروعات التي يعتبر الفعل فيها عنصرا أساسيا. وعلى الرغم من نقص الحوافز المقدمة لأعضاء هيئة التدريس الأكاديميين لبذل هذه الجهود كانت واضحة، فإنه من غير الواضح لماذا لم يتمكن المسؤولون عن الفعل تغيير البناء الذي يعملون به.

لذلك كان مشروع بحث الفعل الناجح الذي تم نشره داخل المنظمة، والذي قدم نتائج متميزة ومفيدة، كان قابلا لإعادة تطبيقه مع حالات أخرى، ولم يتم نشره بسبب التوزيع المشترك للعمل بين الأعضاء الأكاديميين وفريق العمل بجامعة كورنيل (وأي مكان آخر) وأن بحث الفعل جعل وظيفة الفريق الإضافية أكثر صعوبة واستغراقا للوقت من نمط السلوك المعياري⁽³⁾.

وبعد مرور عدد من السنوات ونتيجة لهذه العملية تحرك أعضاء هيئة التدريس بعنف نحو التخلص تماما من برامج نظم التوظيف وعلاقات العمل PEWS، وقد تركه الكثير من الموظفين الرئيسيين به، وقد زاد التصدع بعمق بين البحث امتداداته Extension. وبينما استمر PEWS بتوجهه الفكري، فقد كان واضحا ومؤكدا أنه أنجز شيئا صحيحا، وأنجزه بشكل جيد وحصل على المصادقية والثقة الخارجية ولا يضمنون نجاح أو بقاء بحوث الفعل في الكثير من المواقع الأكاديمية التي تكون فيها للبحوث الاجتماعية التقليدية ومفاهيمها سيطرتها وسيادتها.

الخلاصة:

على الرغم من أن ثراء الخبرات الثلاث لم تستدع فى مثل هذه العروض المختصرة، فإننا نستهدف تحديد خصائص ما يدور فى عقولنا عندما نستخدم مصطلح بحوث الفعل. وألفت هذه الحالات الثلاث الضوء على بعض التتوعات القائمة لبحوث الفعل. وتوجد اختلافات واضحة فى تركيز بحوث الفعل فى هذه الحالات. وقد بدأت حالة ستونجفجوردين من نقطة فعل، بينما قامت حالة موندراجون على أساس تصميم بحث تحليلى أكثر تجريدًا. أما حالة برامج نظم التوظيف وعلاقات العمل PEWS فقد نبعت من احتياجات ملموسة داخل جماعة ممتدة للجامعة لزيادة براعتها العقلية والفكرية وإرساء وتدعيم عملها فى الأدبيات النظرية والمنهجية ذات العلاقة بها. والنقطة المهمة هنا هى كيف شكل الحوار بين الباحثين وأعضاء الجماعات المحلية بالترجيح مواقف تعليمية متبادلة أثرت فى كل من البحث والأفعال. وقد انتقلت ستونجفجوردين من مجتمع فعال إلى مجتمع تعلم كيف يستطيع الوصول إلى القضايا التى ترتبط بتعبئة الموارد بفعالية، بينما تحولت موندراجون من بحث قوى يركز على الثقافة التنظيمية إلى تضمين الأفعال التى تحل التحديات التى تواجه جماعة فاجور. وقد حاولت برامج نظم التوظيف وعلاقات العمل PEWS تعديل الظروف السياسية، والتى تعمل فى إطارها من خلال إظهار نجاح عملية التكامل بين الأكاديميين وعناصر الممارسة.

وبحوث الفعل هى أنشطة معقدة ودينامية تتضمن أفضل الجهود لكل من أعضاء المجتمعات أو التنظيمات والباحثين المهنيين. وهى فى نفس الوقت تتضمن الإنتاج التعاونى للمعلومات الجديدة وتحليلها مع الأفعال التى تستهدف تحويل الموقف إلى الوجهات الديمقراطية. وبحوث الفعل تعتبر

متكاملة وأيضاً سياقاً قوياً، تنتج حلولاً عملية ومعارف جديدة كجزء من مجموعة متكاملة من الأنشطة. ونحن نأمل أن نكون قد أوصلنا الفهم بأن بحوث الفعل ليست طريقة مثل الطريقة كما تكون مفهومة بشكل تقليدي. إن بحوث الفعل هي وسيلة لإنتاج نتائج ملموسة ومرغوبة للناس المتضمنين فيها، وأنها عملية إنتاج معرفة والتي تنتج الفهم العميق لكل من الباحثين والمشاركين المحليين. إنها عملية معقدة لإنتاج معرفة فعل - Action-knowledge. وفي الحالات الثلاث التي عرضناها فإن الأهمية الكبيرة للمعارف والمبادرات الداخلية تميز بوضوح بحوث الفعل عن البحوث التقليدية التي ترتاب علمياً في المعرفة المحلية كاختيار Co-opt.

الهوامش

- (١) إنه من الصعب تمييز هذا البعد من الجمعيات التعاونية بدقة الآن. ولسنوات عدة كان الاختلاف من ١ إلى ٣ وبالتدريج امتد ليصبح ١ إلى ٦، على الرغم من أنه أحد الموضوعات الشائكة التي يناقشها الأعضاء. وفي الوقت الحاضر فقد تبنت الجمعيات التعاونية المتنوعة مقاييس (تدرجات) مختلفة. فالقليل من هذه الجمعيات سمح بمقدار ١ إلى ٢٠ اختلافاً، بينما البعض الآخر يتمسكون بالخط من ١ إلى ٦.
- (٢) إن أسلوب جماعة- ت **T Group Technique** قد تطور لتعزيز التعلم الدينامي للجماعة. ويتمثل الفكرة في تدريب الأعضاء على تحمل مسؤولية تعلمهم الشخصي وتنمية علاقاتهم الاجتماعية. وقد تم عرض مفهوم جماعات- ت في الفصل الثاني.
- (٣) هذه الخبرة قد كتبها جرينوود (١٩٨٩)

الجزء الثانى

العلم والمعرفة والممارسة فى بحوث الفعل

Science, Epistemology, and practice in Action Research

تنتمى بحوث الفعل إلى فئة عمليات بناء المعرفة التى يجب تعريفها على أنها جيل المعرفة العلمية. ويتركز جوهر مناقشتنا هنا على أن بحوث الفعل هى أقوى إستراتيجية بحثية مقارنة بالعلوم الاجتماعية التقليدية الأخرى. وتستفيد بحوث الفعل من جميع طرق ومناهج العلوم الاجتماعية ولكن هذه الطرق والمناهج تتكامل فى إطار إستراتيجية كبرى يلعب من خلالها المستفيدون المحليون دورا كبيرا ومهماً فى الوصول إلى المعرفة الجديدة، والتفاوض على مغزاها واختبار صدقها فى مواقف الفعل الواقعية. ويتم اختيار مشكلات بحوث الفعل على أساس القضايا وثيقة الصلة بالسياقات المحلية، حيث تبذل الجهود لحل هذه المشكلات مباشرة بواقعية، ولتقييم مدى كفاءة النتائج والتفاهات التحليلية التى تم الوصول إليها.

إن بحوث الفعل ليست مجرد بحوث سهلة أو كيفية، ولكنها تمثل مناهج بحثية متعددة ومركبة يتم اختبار صدقها فى الواقع أو فى أثناء الفعل. وبالمقارنة مع العلوم الاجتماعية التقليدية نجد أن بحوث الفعل ترفض سيطرة معرفة وعلم الباحثين المهنيين (المحترفين) على المعرفة العملية **practical knowledge** للمستفيدين المحليين. وتؤكد بحوث الفعل على قيمة وأهمية كلا النوعين من المعرفة والحاجة للماسة إلى وجودهما وتوافرها معا. وتقوم بحوث الفعل على أساس رفض الوضع المتميز لـ (معرفة أن **knowing that**) وتميز بدلا من ذلك (معرفة كيف **knowing how**) كطريق للمعرفة للصداقة والفعل الحكيم والسليم.

وبحوث الفعل بالضرورة متعددة التخصصات **multidisciplinary** متعددة المناهج والطرق، وتتسم بالشمول والتكامل لأنها تضع في اعتبارها المشكلات المعقدة ومتعددة الأبعاد التي يواجهها الناس في حياتهم اليومية. وفيما يتعلق بذلك فإن بحوث الفعل تعمل على تنسيق وتجميع أنساق المعرفة المتنوعة بحيث تزيد من قدرة الجماعات المتنوعة في المجتمع على العمل بأساليب سريعة وفعالة تختلف عن تلك الأساليب التقليدية التي كانوا يستخدمونها عندما كانوا يفضلون المعرفة المهنية عن معرفة المستخدمين المحليين، أو عندما كان يعمل المستفيدون المحليون دون الاستفادة من التدريب على إجراء البحوث العلمية. وتركز بحوث الفعل أيضا على تكوين معرفة التضامنية **Collaborative knowledge**، وعلى أهمية تطوير فهم متبادل لعمليات الاتصال بين العناصر الأساسية لأي مشروع أو خبرة.

وتقوم بحوث الفعل على أساس مقولة أن الواقع دينامي ومتربط ومتنوع، وعادة ما يكون أكثر تعقيدا من النماذج والمناهج المتعارف عليها. إن بحوث الفعل لا تميز المعارف المجردة على المعارف القائمة على أساس الأفعال والواقع. ففي بحوث الفعل فإن معرفة "كيف" **knowing how** أكثر أهمية من "معرفة أن" **knowing that** حتى لو كانت "معرفة أن" تتخذ مكانا في "معرفة كيف". وتؤكد بحوث الفعل على أن الوسيلة الوحيدة لفهم شيء ما تكون من خلال محاولة تعاونية وشاملة لتغيير هذا الشيء، ووضع بقاءه داخل اتجاه برجماتي وعملي جديد.

وتعتبر بحوث الفعل أقرب الاتجاهات العلمية الاجتماعية إلى تفعيل المناهج العلمية. وتتضمن بحوث الفعل صياغة المشكلة وتحليل البيانات وتصميم الفعل وتقييمه وإعادة صياغة الفروض، والتفسيرات، واتخاذ الإجراءات والأفعال في حلقة متصلة. وفيما يتعلق بذلك فإن المعارف

المرتبطة ببحوث الفعل يتم اختبارها فى إطار الفعل وفى السياق الاجتماعى المحيط، وبذلك فإن التوافق مع معايير المنهج العلمى فى إطار بحوث الفعل أكثر فعالية من الأعمال التى يتم تنفيذها فى العلوم الاجتماعية التقليدية فى المكتبات وفى قواعد البيانات أو التفسيرات التى يقدمها جميع المهنيين للمواقف موضع الدراسة.

وبناء على هذا الوضع فإننا نربط بحوث الفعل بالمناقشات الجارية حول مستقبل العلوم الاجتماعية التى ترى أن تميز خلق المعرفة يقوم على أساس السياقات التطبيقية والعملية.

(Mode 2 in the model of Gibbons, Limoges, Nowotny, Schwartzman, Scott, and Trow, 1994)

ويعتبر نمط ٢ "Mode 2" من التفكير حجر الزاوية فى بحوث الفعل والذى يتضمن الربط بين جهود الباحثين وأصحاب المشكلات لإيجاد أفكار جديدة، والبحث عن حلول للمشكلات الواقعية. إن الباحثين فى بحوث الفعل لا يعملون بمفردهم، ولكن يرتبطون بالمستفيدين المحليين فى بحث يقوم على أساس الفريق.

ولا يعنى العمل بالتضامن مع المستفيدين المحليين أن الباحثين فى بحوث الفعل هم مجرد أفراد عاديين مثل هؤلاء المستفيدين. حيث يجب أن يكون لدى باحثى الفعل قيمة أساسية مرتبطة بمكانتهم المتميزة كخبراء خارجيين، سواء قادمين جدداً على جماعات المستفيدين، أو لما يتمتعون به من خبرات وتدريبات مهنية وعلمية تميزهم عن هذه الجماعات. وتضع بحوث الفعل تركيزها الأقوى على التنوعات وعلى ربط القدرات المتنوعة لجميع المشاركين واحتياجاتهم بالنتائج التى تتعلق باحتياجاتهم ورغباتهم اجتماعياً وسياسياً وأخلاقياً. ويظهر باحثو الفعل تجاوبهم والتزامهم برعاية

المستفيدين المحليين، ولكن أيضا من الواجب عليهم مساعدتهم على تعليم أنفسهم كيفية إدارة البحث الاجتماعي، وكيفية استخدام طرق وأساليب معينة، وكيفية تحديد أحكامهم واستنتاجاتهم في سياق العالم الواقعي.

لقد رفعنا هذه القضايا من الترتيب القادم. وسوف نتناول في الفصل الرابع الأسس المعرفية لبحوث الفعل، ومن ثم ربط ذلك مع استخدام الطرق العلمية لبحوث الفعل في الفصل الخامس. وسوف نطور في الفصل السادس أكثر من مناقشة عامة عن طرق البحث العلمي الاجتماعي وخاصة في علاقتها ببحوث الفعل. ومن هنا ننتقل في الفصل السابع إلى أهمية المعرفة المحلية، والتضامن، وكيف يرتبط ذلك بالاستخدام القوي للنماذج القصصية في بحوث الفعل. وأخيرا نحاول في الفصل الثامن الكشف عن مكانة ووضع باحثي الفعل سواء كانوا باحثين خارجيين أو مشاركين في عمليات بحوث الفعل المحلية.

الفصل الرابع

الأساس المعرفى لبحوث الفعل

An Epistemological Foundation for Action Research

ماذا نعنى أن البحث الاجتماعى علمى؟ نعرض فى هذا الفصل الأسباب والمبررات التى تؤكد اعتقادنا بأن بحوث الفعل تمثل اتجاها علميا قويا فى البحث الاجتماعى. لذلك تلمسنا بعض القضايا التى تتناول الفلسفة العامة للعلم ومن ثم الآراء الوضعية المتباينة فى العلم مع الأشكال المعاصرة للفلسفات البرجماتية والتفسيرية. ثم أتبعنا ذلك بوضع خريطة مبسطة لمجموعة واسعة من القضايا. وهدفنا من ذلك هو توفير منظور كاف عن هذه القضايا لإلقاء الضوء على الأوضاع التى تشكل الأساس العلمى لبحوث الفعل من وجهة نظرنا.

وقد بدأنا بمراجعة العلاقة بين بحوث الفعل وبين النظرية العامة للأنساق. ثم تناولنا مساهمات الفلسفة البرجماتية فى بحوث الفعل وعمل بعض الارتباطات مع فلسفة ويتجينستينين (Wittgensteinian (Monk,1990 أيضا. وقد استنتجنا من خلال وضع مناقشاتنا فى سياق الاقتصاد السياسى والرجوع إلى ادعاءاتنا الأصلية أن لدى بحوث الفعل إمكانات كبيرة لكى تكون أكثر علمية من البحث الاجتماعى، وأن البحوث الاجتماعية التقليدية لا تتشابه مع البحوث العلمية فى معظم المواضيع والمواقف المهمة.

وافترضنا من خلال هذا العرض أن معظم القراء الذين يهتمون ببحوث الفعل لا يملكون الفهم القائم على الخبرة للعلم كشكل من أشكال

الممارسة. وهذا يخلق نوعاً من الصعوبة في فهم المناقشات التي تقف مع أو ضد بحوث الفعل كشكل من أشكال الاستقصاء العلمى S Inquiry. ولا توجد حلول بسيطة للمشكلات الناتجة اجتماعياً، ولكن من الأمور الحيوية للمهتمين ببحوث الفعل وكذلك للممارسين لها أن ينموا من فهم المتنوع والواقعي للعلم والممارسة العلمية.

تعريف البحث العلمى Defining Scientific Research:

ولتعزيز مناقشتنا في هذا الفصل من المهم أن نعرف البحث العلمى على أنه النشاط البحثى القادر على اكتشاف أن العالم منظم أو غير وفقاً لمدرجاتنا، مما يقودنا إلى توقع واقتراح وسائل أساسية لفهم هذا العالم والعمل من أجله. ويوثق البحث العلمى كلا من عمليات الفحص أو الدراسة والاستنتاجات التي تظهر من هذه العمليات بتفاصيل وافية لكل الجوانب والأجزاء المهمة بحيث تصبح قادرة على تقييم المعلومات المتوفرة وتفسيرها، وفحص النتائج والعواقب المترتبة على تعاقب الأفعال والإجراءات التي تتخذ. إن المعرفة العلمية ليست كيانا أو وجودا ثابتا، ولكن يجب فهمها على أنها معالجة مستمرة بين الباحثين الذين يكافحون من أجل إعطاء معنى للعالم الذي نعيشه. إن المعرفة العلمية في حالتها المستمرة من التحول والانتقال تبحث عن تحقيق أفضل إدارة وفهم ممكن لظواهر أو عمليات نوعية.

ونستخدم في مناقشتنا التالية مصطلحات الوضعية المنطقية Logical Positivism والتأويلية Hermeneutics. ولتحقيق الوضوح فمن المهم أن نحدد ماذا نعنى بهذين المفهومين:

- الوضعية المنطقية Logical Positivism تقوم على أساس المناقشة أو الحجة الوجودية Ontological argument بأن العالم قائم على افتراض

موضوعي Objectively given: وتقوم الجهود القائمة على المعرفة بتطبيق أساليب وتكنيكات موضوعية من أجل الوصول إلى الحقيقة.

• التأويل أو التفسير Hermeneutics يقوم على أساس الوضع الوجودي ontological position بأن العالم يقوم على افتراض ذاتي subjectively، ويحاول مشروع المعرفة التفاوض حول تفسيرات هذا العالم الذاتي (غير الموضوعي).

وتتمثل المشكلة الإستراتيجية المركزية التي نواجهها في هذا العرض في أن النصوص التقليدية في معظم المجالات (متضمنة العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإنسانيات) لا تعكس بدقة أفضل الممارسات أو الآراء الفكرية في هذه المجالات. وفي أغلب الأحيان تؤدي المحاولات والجهود المضللة التي تستهدف تبسيط الآراء ووجهات النظر العلمية لكي تكون مناسبة للدارسين المبتدئين والعروض التي تقدم في الفصول الدراسية إلى تشويه وتحريف الأطر العلمية والممارسات المختلفة في هذه المجالات بأساليب تصبح غير مقبولة لإكساب الخبرات للممارسين المهنيين. ويبدو هذا بوضوح في حقيقة أن القليل من العلماء الاجتماعيين الممارسين يرجعون إلى الكتب الدراسية المبتدئة للحصول على الإرشادات اللازمة للممارسة في مجالات عملهم. وهذا ليس بسبب أن هذه الكتب تعتبر بدائية فقط، ولكن أيضا وهذا هو السبب الأهم، لأنها نادرا ما تعكس أفضل الممارسات التي يحتاجونها.

وهذه المشكلة ليست مقصورة على العلماء في العلوم الاجتماعية فقط ولكن أيضا يعاني منها العلماء في العلوم الطبيعية. وعموما فإن التعليم المبدئي introductory instruction في العلوم يوفر للطلاب آراء مثالية وتاريخية للعلوم وآراء غير عملية Nonbehavioral سواء مجموعة الحقائق

العلمية أو مجموعة من الوسائل والطرق الأقل مشكلات. وغالبا ما تفتقد وجهات النظر هذه الاختلافات والتنوعات بين العلوم والأبعاد التاريخية والاجتماعية لها، ومن ثم المثيرات والأحداث السلوكية والإنسانية التي تتضمنها. ويمثل العلماء على أنهم عقول منفصلة عن الواقع تبحث عن الحقائق في عالم يتسم بالمظاهر المشوشة والخادعة، مع ممارسة العديد من المهام والأعمال التي تتسم بالتعقيد والإثارة عديمة الفائدة. وبكلمات أخرى فإن تطبيقات ومضامين البحث غائبة وخارج نطاق الاهتمام.

وبالإضافة إلى ذلك يتم تقديم القوانين والمبادئ على أنها حقائق محققة (مؤكد). ولدى التدريبات المعملية والمشكلات المتنوعة نوع أو اثنان فقط من الحلول. وعلى العكس من ذلك نجد في الممارسة العلمية للعلوم الطبيعية والأساسية أن لكل القضايا المعملية أو الفصلية حلا واضحا ومحددا. إن بيئة الفصل أو المعمل الدراسي تجعل العلماء عارفين وملمين بهذه الإجابات، وكذلك الطلاب الذين سوف يصبحون علماء يأتون لكي يعرفوا ذلك أيضا. وبالطبع فإن هذا لا يعتبر نوعا من الهراء. إن احترام مبادئ العمل العلمى المنظم، وعمل التقارير المادية والتعامل معها، وفهم القوانين التي تكون نتائجها مفهومة على نحو معقول، تعتبر كلها أجزاء مهمة من العلم. ولكن ممارسة العلماء بوجه عام لا تجعل العلم يعيش فقط في هذه الوسيلة الضيقة.

إن إنجاز العمل العلمى ليس طبقات منهجية مصورة ومكتوبة في كتاب دراسي، ولكنه عبارة عن تطبيق طرق البحث في المواضيع المعقدة في العالم الاجتماعى (Latour, 1987). وكما أشار أحد علماء الكيمياء في المحاضرة التي نعرض لها بالتفصيل في الفصل التالي إلى أن العلماء يعيشون في عالم مركب ومعقد اجتماعيا ملئ بالظواهر الدينامية مع وجود نقص وعدم كفاءة في الأدوات وطاقت وموازنات محدودة.

وقد عرفنا البحث العلمى على أنه نشاط استقصائى قادر على اكتشاف أن العالم غير منظم وفقا لتصوراتنا، بحيث يؤدى بنا إلى توقع واقتراح وسائل بديلة لفهمه. ويقوم البحث العلمى بتوثيق كل من عمليات الاستقصاء والمستخلصات والنتائج التى تظهر منها بتفصيل كاف لجميع الأطراف المهمة الأخرى لكى تكون قادرة على تقييم المعلومات وإعطاء التفسيرات المناسبة لها. إن الصروح المؤسسية الضخمة لما يطلق عليه "العلم" لا يمكن أن تؤدى إلى علاقة قوية بهذا التعريف للبحث العلمى.

النظرية العامة للأنساق (GST) :General System Theory

ارتبطت بحوث الفعل بأحد التيارات العلمية التى تضمنت مجموعة الأفكار والمفاهيم، والتى جاءت من اتجاه فكرى واسع ومتكامل يطلق عليه النظرية العامة للأنساق، والذى تم تعليمه بدرجات قليلة للطلاب الجامعيين خريجي كليات العلوم والهندسة. وتتبع أصول هذا التيار من علوم الفيزياء والكيمياء والبيولوجى والهندسة عام ١٩٢٠، وارتبط أخيراً بتطور نظم توجيه وإرشاد التصحيح الذاتى **Self-correcting guidance systems** للاستخدامات العسكرية، وقد أثرت النظرية العامة للأنساق تأثيراً فعالاً على العالم المحيط بنا. وعلى الرغم من ذلك لم تكن هذه النظرية مألوفة للعالم. ذلك لأن هذه النظرية مثل بحوث الفعل لم تكن نتاجاً لنظام أكاديمى معين فى الجامعات أو المعاهد العلمية. إنها مجموعة من الآراء التى اشترك فى صياغتها عدد كبير من العلماء والإصلاحيين الاجتماعيين ذوى الخلفيات المتنوعة والتيارات والأفكار السياسية المتعددة.

ويتضمن جوهر النظرية العامة للأنساق مجموعة من المفاهيم العامة والشاملة عن الطريقة التى ينتظم بها العالم. وبدلاً من قبول فكرة تجزئة

الكون إلى ذرات وجزيئات وغيرها بحيث ترتبط ببعضها فى تركيبات وبناءات أعلى ترى النظرية العامة للأنساق العالم (عضوى وغير عضوى، وثقافى واجتماعى) على أنه مركب من أنساق متفاعلة تتكامل عملياتها بشكل مختلف عن نفس الحالة الأساسية للكون لإنتاج عدد هائل من الأشياء التى نواجهها فى مجال خبراتنا. وتتصب وجهة نظر النظرية العامة للأنساق على أن الاختلافات بين الأنساق العضوية وغير العضوية والثقافية الاجتماعية يمكن فهمها على أنها نتائج الاختلافات فى الطريقة التى تتبعها أو تنتظم بها هذه الأنساق - الأنواع والنتائج واستقرار العمليات التى تتخذ مكانا داخل هذه الأنساق (العمليات التى تقوم بها هذه الأنساق)

ومع ذلك تتضمن النظرية العامة للأنساق مفاهيم متميزة ومركبة، فالممارسون يقومون بعمل تمييز أساسى بين الأنساق المغلقة Closed Systems والأنساق المفتوحة Open Systems. ويعتبر هذان النوعان من الأنساق طبقتين واسعتين تعملان بشكل متميز. ويتم حفظ وصيانة التوازن بين الأنساق المغلقة والأنساق المفتوحة بواسطة أنواع مختلفة من العمليات داخل هذين النوعين من الأنساق، وهذه الأنساق تستجيب بشكل مختلف ومتباين للاضطرابات والأحداث المغلقة فى البيئة. ويتم تفسير النسق فى النظرية العامة للأنساق على أنه مركب أو مزيج من المكونات والخصائص المغلقة أو المفتوحة وكذلك من خلال تاريخ العمليات التى تحدث داخله أو تؤثر فيه من الخارج.

وتختلف وجهة النظر هذه بشكل جذرى عن وجهة النظر الجزئية التى تعتبر رئيسية بشكل كبير فى الفكر الغربى حتى الوقت الحاضر. لا يوجد نسق يعمل منعزلا، ولكنه يوجد ويتجدد بواسطة البناءات والعمليات التى ترتبط بالأنساق الأخرى المشاركة له. ونجد أن وحدات التحليل فى النظرية العامة

للأنساق هي الأنساق وليست الأفراد. فالأنساق تعمل ككل متكامل وليست تنظيمات أو مؤسسات منفصلة. فالأفراد يعملون داخل أنساق وهذه الأنساق تخلق البيئات العملية التي تؤثر على أنماط سلوك الأفراد بوسائل وأساليب معقدة. إن العالم ليس خريطة طبقية مصورة دقيقة تبدأ بالحالة غير العضوية مروراً بالحالة العضوية ومن ثم تتأثر بالقوى الثقافية الاجتماعية. وبدلاً من ذلك فإن العالم يتكون من مجموعة من الأنساق المتعددة المركبة والمتفاعلة والعمليات المتعددة لكل نسق، والتي تلتقى وتتفاعل مع بعضها بأساليب ووسائل متعددة. وتتأثر العلاقات الاجتماعية والعمليات الاجتماعية بالعالم الفسيولوجي الذي بدوره يتحول ويتغير بواسطة الأنشطة الاجتماعية. إن الأمل الوحيد في فهم أي شيء يكون من خلال وضعه في سياق النسق الملانم له وتتبع العمليات التي يعمل ويتفاعل بواسطتها. وهذا بالضبط ما ناقشه سينج (1990) Senge تحت مسمى النظام الخامس **Fifth discipline**، وهو القدرة على فهم كيفية تفاعل العناصر والأنساق الفرعية المكونة للموقف الكلي.

وقد استخدمت النظرية العامة للأنساق في تفسير وشرح العلاقة بين الحالة العضوية وغير العضوية وتطور الحياة. وفي هذا الإطار يعتبر عمل لوينج فون بيرتالانفي (1966, 1968) Ludwig Von Bertalanffy أساسياً في هذا الخصوص. ومن خلال تطبيق هذه الآراء ووجهات النظر على الأنساق الاجتماعية بنيت العديد من النظريات المتنوعة عن الصراعات القومية (Rapoport, 1974) وجميع أساليب تحليل السلوك التنظيمي (انظر Argyris, 1985; Argyris & Schon 1996; Flood & Romm, 1996) حول هذه الأفكار. وأخيراً إسهامات جيريجوري باتيسون (1979) Gregory Bateson عن العلاقة بين العقل والطبيعة المعتمدة على هذا الاتجاه. ويرى باتيسون أن مشكلة الثقافة - والطبيعة قد تحولت جذرياً عندما فهمنا العلاقة على أنها تعبير

عن العمليات الموجودة فى كل مكان فى الطبيعة. ويرى باتيسون أن العقل جزء من الطبيعة ويعمل بالضرورة طبقا لمجموعة من العمليات التنظيمية الموجودة فى الطبيعة، ولكنها تمتاز بوسائل معينة فى النشاط العقلى. لذلك فالعقل جزء تام من الطبيعة وفريد ومتميز كنسق.

لماذا ترتبط النظرية العامة للأنساق ببحوث الفعل؟ فعندما نبدأ بنظرة النظرية العامة للأنساق للعالم نجدها تختلف مع ما يطلق عليه حاليا بالعلم الاجتماعى. فالعلوم الاجتماعية التقليدية ما زالت تقوم على تصورات علمية تتضمن مصطلحات العالم المقسم إلى أجزاء وطبقات تقوم على أساس تصورات العلماء للحقائق الاجتماعية وآرائهم حولها. وفى هذا الخصوص نرى كيف اختزلت التيارات المعاصرة لنظريات الاختيار المنطقى Rational choice فى بعض أنواع الأفكار السائدة لدى فلاسفة العلوم الاجتماعية عن أيديولوجيات الفردية والسوق الحرة. لذلك تمثل النظرية العامة للأنساق الانتقاد الأساسى لوجهات النظر هذه، ومن ثم للباحثين الاجتماعيين التقليديين الذين ينتمون إلى هذه الآراء والفلسفات.

والأكثر أهمية فإن اتجاه الأنساق يركز بالضرورة على بحوث الفعل فى جميع مظاهره وأشكاله. ويعتمد كل منهما بقوة على النظرة الترابطية والشمولية للعالم. ويمكن فهم الناس عندما توجد فقط داخل الأنساق الاجتماعية، وتملك هذه الأنساق الخصائص والعمليات التى تحدد وتقيّد السلوك الإنسانى، وفى نفس الوقت تتحدد وتقيّد بواسطة السلوك الإنسانى. فالأنساق الاجتماعية ليست مجرد بناءات ولكنها عمليات فى حركة مستمرة. إنها تتسم بالديناميكية والتاريخية. إنها تعمل داخل حدود ملموسة واضحة وقادرة على تحويل وتغيير ظروف الحياة المادية. وهى أيضا تربط بين البناءات الاجتماعية الفردية والأنساق البيئية الأكبر داخل نسق كبير متفاعل ومركب Macro System.

ويمكن ملاحظة العلاقة بين النظرية العامة للأنساق وبحوث الفعل نظرا لأنه يمكن فهم بحوث الفعل على أنها تمثل جهود تحويل المجتمع إلى أنساق أكثر انفتاحا، وأيضا نظرا لأن النظرية العامة للأنساق تحدد العلاقة بين أجزاء النسق كعناصر أساسية يعمل من خلالها النسق ككل. حقيقة يحاول بعض باحثي الفعل الموازنة بين زيادة الانفتاح وبين تحقيق الديمقراطية. (Flood & Romm, 1996) لذلك يعتبر أحد الاتجاهات أو المسارات في اتجاه تعزيز أو تدعيم بحوث الفعل هو النظرية العامة للأنساق. والمسار الآخر الذى يمثل الحركات الفلسفية الواسعة للبرجماتية والبرجماتية الجديدة.

الفلسفة البرجماتية وبحوث الفعل

Pragmatic Philosophy and Action Research

لا تعنى هذه النظرة النمطية للعلم التى تسود بين غير العلماء nonscientist أن العالم غير مدرك أو ليس لديه إدراك للمنظورات أو الآراء التى نوضحها هنا. إن كل العناصر فى أكثر وجهات النظر تعقيدا وإنسانية للعلم معروفة جيدا وتم توضيحها بفعالية بواسطة جون ديوى John Dewey (1976) ونشارلز ساندروز بيرس Charles Sanders Peirce (1950) وويلم جيمس William James (1948, 1995) وكورت ليفين Kurt Lewin (1935, 1948) والعلماء الأكثر معاصرة مثل إستيفين تولمن وبجورن جوستافسن Stephen Toulmin and Gustavsen (1996) وجميع الكتاب فى البرجماتية التقليدية. وبكلمات أخرى فإن أسس بحوث الفعل أصبحت معروفة منذ بداية القرن العشرين.

وتعتبر وجهة نظر جون ديوى بوجه خاص مهمة جدا فى عرضنا هذا؛ نظرا لأن فلسفته البرجماتية تضع اتجاه الفعل نحو العلم كنوع من الاستقصاء الإنسانى Human Inquiry وتجديد ارتباطاته الأصلية والفطرية

بالديمقراطية بطريقة تتفق مع آرائنا حول بحوث الفعل. ولد جون ديوى عام ١٨٥٩ ومات عام ١٩٥٢. وقد تبلورت إسهاماته الفكرية منذ عام ١٨٨٠ واستمرت حتى وفاته. وينظر إلى ديوى على أنه المؤثر الرئيسى فى التعليم العام بالولايات المتحدة الأمريكية وكذلك المحرك الرئيسى وراء واحدة من المساهمات الأمريكية المتميزة فى الثقافة الغربية. ومع ذلك رأى المؤرخ والمفكر روبرت ويستبروك (1991) Robert Westbrook جون ديوى على أنه كان دائما وما زال يمثل وجهة نظر الأقلية *Minority View*. ولا يوجد دليل قوى على أن هؤلاء الذين استشهدوا بأفكار ديوى قد عملوا بناء على هذه الأفكار. حقا إنه من الصعب أن نصدق أن الكثير منهم قد قرعوا ما كتبه.

ما هى إذن هذه الأفكار؟ ويعتبر تلخيص كتابة سبعين عاما من العمل الفكرى (أعماله المتكاملة التى تم وضعها فى أكثر من ثلاثين مجلدا) فى فقرات أو كلمات أمرا غير ممكن. ولكننا نحدد فقط القليل من النقاط الأساسية لاتجاهه التى ترتبط ببحوث الفعل وبالعلاقة بين البحث الاجتماعى والإصلاح الاجتماعى.

وكان ديوى يؤمن بقوة بالديمقراطية كعملية جماعية مستمرة للإصلاح الاجتماعى، والتى شاركت فيها كل المجتمعات على اختلاف مستوياتها. وقد وضعت هذه المناقشات كمقدمة لكتابه الجمهور ومشكلاته *The public and its problems* (1927/1991). ومن خلال وجهة النظر هذه كان دور التعليم يتمثل فى توفير التدريب الكافى لكل شخص فى المجتمع حتى يستطيع أن يسهم بوجهات نظره وخبراته فى عملية الديمقراطية الجماعية. وفى كتاب المدرسة والمجتمع *School and Society* (1900)، وفى كتاب الطفل والمنهج *Child and Curriculum* (1902) قدم ديوى مناقشاته على أساس العلاقة بين نظرية الديمقراطية والأفكار التربوية. وكانت النقطة المهمة هنا تدور حول أن الديمقراطية يجب أن تتطور من خلال المشاركة الفعالة للناس فى فهم وإدراك عالمهم وليس من خلال الحلول الموجهة إليهم من قوى خارجية.

ولعل أكثر سمة مميزة لاتجاه ديوى كانت تتمثل فى الرفض الراسخ والأكيد لفصل الأفكار عن الأفعال. فبالنسبة لديوى فإن أى شىء يتم صياغته فى فعل. لقد رأى الديمقراطية نفسها على أنها شكل مستمر من العمل الاجتماعى *social action*، ومزيج من الأشكال التنظيمية أو المؤسسية والالتزامات الأخلاقية التى تعمل تجاه زيادة قدرة جميع أعضاء المجتمع على الإسهام بأفكارهم وعقلهم فى تحقيق البصيرة والفهم والتطلع والوعى للجميع. وأعتقد أن المصادر الحقيقية للمعرفة هى فقط التى تؤسس الفعل وليس التفكير أو التأمل النظرى. فبالنسبة له فإن كل أشكال المعرفة التى تم اختبارها والبرهنة عليها كانت مثل الديمقراطية نفسها عبارة عن أنشطة تجريبية. وكان هذا الوضع واضحا فى آرائه هذه، والقائم على المنطق الذى تناوله فى نظريته عن الاستقصاء *Theory of Inquiry*.

وكانت إحدى نتائج ذلك تتضمن أن المدارس يجب أن تخلق البيئة التى يستطيع من خلالها الطلاب أن يواجهوا بأمن وحرية مشكلاتهم التى يمكن حلها فقط من خلال استخدام المهارات التى تم اكتسابها من خلال العلم والتاريخ والفنون. فلا يجب أن تكون المدارس عبارة عن مواقع أو أماكن يكون الطلاب فيها عبارة عن أوعية فارغة يتم ملؤها بأجزاء من المعرفة. وهذا يتطابق وينسجم مع رأى ديوى بأن الحكم أو التقدير العلمى ليس قائما على المعرفة المحدودة. ويعتقد ديوى أن كل الناس قادرون على الحكم والتقدير العلمى وأن المجتمع قادر على تحسين هذه القدرات وزيادتها بين جميع أعضاء المجتمع. وبالاتساق مع ذلك فقد عارض ديوى بقوة تقسيم التعليم العام إلى تعليم مهنى وتعليم أكاديمى، ورأى أن ذلك يمثل التمسك والحفاظ على عدم المساواة الذى يؤدى فى النهاية إلى إضعاف الديمقراطية ككل. إن كل شخص يستطيع أن يكون مشاركا فعالا فى إيجاد المعرفة

التجريبية. إنه يعتقد أن حرمان أى شخص من التعلم أو تقليده هو فى النهاية تحديد ونقص لقدرات المجتمع ككل.

وترتبط هذه الأفكار بوجهة نظر ديوى عن المدارس كبيئات للتعلم وكعملية للفعل والتى من خلالها يجب أن يصبح الدارس متعلما فعالا وليس مستمعا سلبيا. وعلى الرغم من ارتباط الكثيرين بأفكار ديوى فإن قليلا من الطلاب وصفوا حجم خبراتهم التعليمية وفقا لهذه الأفكار. وعموما فإن ديوى يعتبر نموذجا فكريا مقبولا ومرفوضا فى نفس الوقت. إن أفضل وسيلة لتخفيف حدة الإصلاح هى فى اختياره والحصول على الموافقة على القيام به، والعمل بطريقة مختلفة. وكان هذا هو قدر ديوى.

ولعل أهم سمات أفكار ديوى العزم والتصميم على التركيز على التنوع والصراع كعناصر أساسية فى المجتمع الديمقراطى. إنه يرى الديمقراطية على أنها عملية العمل من خلال الصراع وليست نحو الحل النهائى، ولكن نحو تحسين وتغيير الموقف. إنه ليس تواقا لتقليل الصراع فى المجتمع لأنه يحترم بصنق تنوع الناس وتنوع خبراتهم. إن هدفه يتمثل فى بناء زخم وعزم نحو الإصلاح الاجتماعى الديمقراطى وذلك بواسطة استحضار خبرات الصراع هذه جنبا إلى جنب مع العمل الديمقراطى للتخفيف أو الحد من المواقف الصعبة أو المشكلة. ويعتقد أن المجتمعات (بما فيها مجتمع المدرسة) كانت تعتبر مركزية وأساسية فى هذه العملية نظرا لأن المجتمعات تنقسم وتتوحد. إن مصلحتهم المشتركة فى إيجاد الحلول والإصلاح يمكن أن تسمح لهم بالعمل معا للتعامل مع هذه المشكلات

وقد ارتبطت آراء ديوى حول العلم ارتباطا أساسيا بأرائه حول المجتمع الديمقراطى. ويرى ديوى أن البحث العلمى ليس عملية منفصلة عن الفعل الاجتماعى الديمقراطى. إن المعرفة العلمية شأنها شأن كل أشكال

المعرفة هي نتاج دوائر مستمرة من الفعل وانعكاساته (ورد الفعل). (Dewey, 1991/1927) إن مركز الجذب يكون دائما في المحاولة الفعالة للمتعلم للفهم من خلال نشاط حل القضية أو المعضلة في ضوء الموارد أو المواد المتوفرة. وتعتبر الحلول التي تم تحقيقها هي فقط أفضل الوسائل الممكنة في ذلك التوقيت في ضوء الموارد أو المواد المتاحة في اليد، لذلك يطلق على هذه الفلسفة البرجماتية.

وقد أبقى ديوى الجوانب السياسية التي ارتبطت بمختلف الحركات الديمقراطية خلال حياته. لقد كان واقعا وصادقا حول المواقف التي واجهها. لقد فهم ديوى أن بناءات القوة الكائنة تفضل أن تملك الحكم والسيطرة وتنفيذ المهام الأساسية والاقتصار على التعليم المهني للشعب أو للعامة للعمل في خدمة هذه الطبقة وذلك في إيقاع طائش وغير متوازن. لقد أصبح يدرك الفصل الراديكالي بين المؤسسات الأكاديمية والمواقف الإنسانية التي كان يرغب في أن تتغير. وعلى الرغم من تأكيده على أن الخبرة هي كيان حيوى متكامل فقد عرف أن الممارسة التعليمية قسمتها إلى أجزاء صغيرة جدا وحزمة من التخصصات، وقد أضعفت هذه العملية من قدرة المواطنين على قيادة الديمقراطية والدفاع عنها. وبناء على ذلك كله فقد عرف أن العلوم الاجتماعية التقليدية أصبحت مرفوضة في توجهه نحو الفعل؛ نظرا لأن هذه العلوم قد جاءت لفصل الفكر عن الفعل، ولذلك أوجدت باحثين اجتماعيين أى علاجاً أو تعمل مع ترتيبات القوة القائمة.

وملخص ذلك أن ديوى اعتقد أن كل الناس علماء، وأنه لا يجب فصل الفكر عن الفعل، وأن تنوع المجتمعات الإنسانية يعتبر واحداً من أكثر مظاهر القوة لديها (لو استخدمت في العملية الديمقراطية)، وأن المؤسسات التعليمية بشكل عام وبأسلوب البحث التقليدي بها نادراً ما ترتقى بالعلم أو العمل الاجتماعى الديمقراطى.

وتقريباً تعتبر جميع الكتابات التى تناولت هذا الموضوع تتسق مع افتراضات النظرية العامة للأنساق، لأنها ركزت على الفرد فى المجتمع، وعلى المجتمعات فى بيئاتها كأنساق اجتماعية وديناميكية. إن تركيزه الصارم على العمليات بدلاً من تركيزه على النتائج، وإن الطريقة أو الوسيلة التى يستطيع أن يستجيب بها المجتمع للتغيرات المستمرة والمتلاحقة سواء من الداخل أو من الخارج أيضاً تربطه بالنظرية العامة للأنساق. إن برجماتية ديوى والتى تربط بين الفكر والفعل، وربطها أيضاً بين المعرفة والفعل والمجتمع والديمقراطية يبقياها الأكثر أهمية بالنسبة لبحوث الفعل.

الأسس المعرفية لبحوث الفعل

Epistemological Foundations of A R

ترتبط المقدمة السابقة عن كل من النظرية العامة للأنساق والفلسفة البرجماتية بشكل مباشر لبحوث الفعل. وتستهدف بحوث الفعل حل المشكلات المرتبطة بالسياقات الاجتماعية من خلال الديمقراطية حيث يتعاون الباحثون الاجتماعيون مع المشاركين المحليين من المواطنين فى جهود البحث عن الحلول المناسبة للمشكلات التى تهمهم والتعامل معها. ولتحقيق ذلك تعتمد بحوث الفعل على معطيات النظرية العامة للأنساق والعلوم الاجتماعية البرجماتية. وتستوجب التحديات التى تواجه بحوث الفعل القيام بالممارسة القائمة على أساس العلوم المتقدمة ومزج الأفضل من الممارسة العلمية مع الالتزام بعمليات التحول الديمقراطي فى المجتمع. وعموماً فإن بحوث الفعل ينظر إليها بعدم الاحترام من قبل العلماء الاجتماعيين التقليديين، الذين يرونها على أنها عرض غير علمي وغير منظم للقصص. ونحن بالطبع ننظر على هذه الانتقادات على أنها ذات طبيعة مرضية وتهدف على خدمة الذات self-serving.

ولنبدأ بتركيز بحوث الفعل على المشكلات الأكثر تعقيدا مقارنة بما تقوم به العلوم الاجتماعية التقليدية. إن بحوث الفعل تركز على سياقات محددة ويتطلب ذلك ألا يكون هناك انفصال بين النظرية والتطبيق (الفعل)، وأنها تلتزم بفكرة أن اختبار أى نظرية يجب أن يكون فى قدرتها على حل المشكلات فى مواقف الحياة الواقعية. إن هذا التركيز على عالم الخبرة مع تعقدها وتاريخيتها وديناميتها يعنى أن بحوث الفعل تحاول أن تتأى بنفسها عن العالم المثالى للبحوث الاجتماعية التقليدية باحتكاكها الحر **Friction-free** ومعلوماتها الكاملة (ص.٦٢) ويبدو لنا أن الباحثين الاجتماعيين التقليديين يحاولون تجزئة الواقع لكى يصبح سهل التناول أو التعامل معه، وأكثر مناسبة للمعالجة النظرية أو العلمية وأكثر مناسبة للإدارة المسيطرة، ولأن يجعل حياة العلماء الاجتماعيين أكثر سهولة ويسر لإدارتها.

إن بحوث الفعل لا تتقبل هذه الحلول الوسط. ونتيجة لذلك ووفقا لما قدمناه عن النظرية العامة للأنساق والبرجماتية فإننا نؤكد أن بحوث الفعل كشكل من البحوث العلمية تتسم بالخصائص الأساسية التالية.

- تعتبر بحوث الفعل سياقات تحدد وتحصر مشكلات الحياة الواقعية.
- بحوث الفعل هى استقصاء يتم من خلاله إنتاج الباحثين والمشاركين فى المعرفة مستخدمين عمليات اتصال تعاونية من خلالها تؤخذ كل مساهمات المشاركين بعين الجدية والاهتمام.
- تتعامل بحوث الفعل مع الخبرات والقدرات المتنوعة فى الجماعة المحلية كفرص جيدة ومتاحة لإثراء عملية البحث.
- إن بناء المعنى فى عملية الاستقصاء يؤدى إلى الفعل أو الإجراء الاجتماعى، أو أن انعكاسات الفعل تقود إلى إعادة بناء معانٍ أو مدلولات جديدة.

- إن صدق المعرفة التى تعتمد عليها بحوث الفعل يتم قياسه طبقاً لمدى قدرة الأفعال التى نبعث منها فى حل المشكلات (العملية workability) وفى زيادة تحكم المشاركين والمستفيدين فى مواقفهم الخاصة.

وبتناولنا للإطار النظرى لبحوث الفعل تظهر العديد من التساؤلات المهمة. ما منطق الاستقصاءات التى تبنى هذه الوسيلة؟ ما معايير الحكم على مصداقية المعرفة فى بحوث الفعل؟ كيف يمكن توصيل المعرفة المحددة بفعالية إلى الأكاديميين وغيرهم من الجماعات ذات العلاقة؟ لذلك يتمثل الهدف من المناقشة التالية فى تقديم الموقف أو الوضع المعرفى الذى يعزز مناقشتنا حول أهمية بحوث الفعل.

الاستقصاء السياقى المحدد لأهمية المشكلات المحلية:

Context- bound inquiry on important local problems

تركز بحوث الفعل على حل مشكلات الحياة الواقعية. ويتحدد تركيز الاستقصاء بناء على ما يعتبره المشاركون مهما بالنسبة لهم، وما يؤثر على حياتهم اليومية. لذلك ترتبط عملية الاستقصاء بالأفعال التى يمكن اتخاذها وتوفر الحل للمشكلة التى يتم دراستها. وبالطبع فإن الاستقصاء يسبق الأفعال. وتعتبر هذه وسيلة للحصول على المعلومات والمعارف الضرورية لتصميم الأفعال وإجراءات حل المشكلات والقضايا المرتبطة. ويعتبر الاستقصاء وسيلة لتطوير ردود الأفعال القائمة على أساس الخبرات القائمة عن الأفعال السابقة والتى يمكن فهمها وتوظيفها بأساليب ووسائل جديدة. وبالطبع ففى معظم مواقف حياتنا الواقعية فإن أى محاولة لحل المشكلات المهمة تتضمن بناءات وخبرات سابقة ولاحقة.

ونركز على أن عملية الاستقصاء ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحل المشكلات العملية. ولكن على الرغم من آراء وأفكار المنظرين الأكاديميين

فإن المشكلات العملية ليست بالضرورة بسيطة أو سهلة. إن التنمية الاقتصادية للمجتمع وتطوير بناءات تنظيمية جديدة في المنظمة، وتوفير المساكن لسكان المحليات، أو الجهود التعاونية لتقليل العنف في المجتمع المحلي تعتبر كلها مشكلات عملية، ولكنها في الغالب تتسم في معظمها بدرجة عالية من التعقيد وتصبح من عملية إدارتها.

وسواء كانت المشكلة ذات طابع اجتماعي أو مادي فإن نتائج بحوث الفعل يجب أن تكون واضحة وملموسة بالدرجة التي يستطيع أن يحدد من خلالها المشاركون أى الحلول الواقعية التي حددها بأنفسهم مناسبة للمشكلات التي يعانون منها. وهنا فإننا نعود ونرتبط مباشرة بالفلسفة البرجماتية. إن النتائج التي يتم الوصول إليها من خلال بحوث الفعل يجب الحكم عليها في إطار مصطلحات إيجابية الحلول التي تم التوصل إليها. وتعني الإيجابية *workability* أن الحل الذي أمكن تحديده هو الحل المناسب أو الواقعي للمشكلة الأساسية، وما الذي نحتاجه من مراجعة التفسيرات أو إعادة تصميم الأفعال. وهذه لا تعتبر حالة من التجربة العمياء المزدوجة التي تحدد عينات عشوائية ومستويات من الدلالة. ولكنها حالة من الحكم الاجتماعي الجماعي بواسطة المشاركين المزودين بالمعرفة على نتائج الفعل الاجتماعي الجماعي. إن الحكم الاجتماعي في حد ذاته هو نتيجة لنوع من ديمقراطية الحوار، والتي يعتبر من خلالها الباحث الاجتماعي فقط أحد المصوتين (له صوت واحد).

عمليات الاستقصاء الديمقراطي تربط المشاركين والمهنيين:

Democratic Inquiry Processes Linking Participants and Professionals:

إننا نضع بحوث الفعل في إطار العمليات الديمقراطية التي تعزز وتسهم في إيجاد معرفة جديدة كانت كامنة، وأمكن تحريرها وإطلاقها.

وبوضوح فإن عملية الاستقصاء تستهدف حل المشكلات المهمة للمشاركين المحليين، وأن المعرفة التي يتم إنتاجها من خلال عملية الاستقصاء يجب أن تزيد من ضبط المشاركين لمواقف حياتهم الخاصة. ويتسق ذلك مع مفهوم فريير (1970) Freire عن الضميرية Conscientization والذي يحدد عملية الاستقصاء على أنها تستهدف تشكيل المعرفة ذات العلاقة ببناء الفعل على أساس الفهم الحاسم والواضح للسياقات التاريخية والسياسية التي يتفاعل من خلالها المشاركون أو المستفيدون. ويجب أن يكون المشاركون قادرين على استخدام المعرفة، ويجب أن تدعم هذه المعرفة أهداف المشاركين.

ويشير العنصر الديمقراطي في عملية الاستقصاء إلى أن التبادلية والمشاركة بين الباحثين الخارجيين والمشاركين الداخليين لا بد أن تكون موجودة. إن بحوث الفعل هي عمليات اتصال يتعاون من خلالها كل من الجانبين للوصول إلى المعرفة من خلال عملية الاستقصاء. إن المعرفة المحلية والوعي التاريخي للمشاركين وخبرات حياتهم اليومية تتكامل مع مهارات الباحثين الخارجيين في تيسير عمليات التعليم والتعلم، والمهارات الفنية لإجراء البحث العلمي، والمعرفة المقارنة والتاريخية للموضوعات تحت الدراسة. وفي نفس الوقت فإننا نتفق مع رأي ديوى (1976) Dewey أن "في كل هذا لا يوجد فرق في النوع بين منهجيات العلم وبين تلك التي تتسم بالبساطة. ولكن الفرق هو في التحكم الكبير للعلم في تحديد المشكلة والمواد ذات الصلة بها سواء كانت محسوسة أو غير محسوسة (نظرية)"

إن ربط الباحثين الخارجيين بالمشاركين الداخليين في عملية الاستقصاء المترابطة يقلل من احتمالية اعتقاد فريجيان Fregian (1918/1956) ومنطق روسيليان (1903) Russellian من ضرورة وجود بعض الأنواع من المحكات الموضوعية الخارجية لتحديد ما نستطيع أن نعتبره حقيقياً أو أنه معارف ذات صلة. ويتمثل منطق الاستقصاء في

الارتباط بعملية الاستقصاء نفسها، لمحاولة الوصول إلى حل غير محدود يتسم بالضبط أو التحكم الإيجابي من خلال عملية الاستقصاء ويرتبط من خلالها الفعل ورد الفعل بشكل مباشر. ومن هنا يصبح الباحث الخارجى حتميا مشاركاً مع المستفيدين الخارجيين.

ومنذ سنوات مضت أجرى أحد الفلاسفة النرويجيين رسالة ماجستير بعنوان "الموضوعية ودراسة الإنسان (Skjervheim, 1974) man". تناولت أسس العلوم الاجتماعية. وطبقاً لوجهة نظر سكجيرفهم Skjervheim فإنه لا يوجد فى بحوث الفعل شك فى أن الباحث هو مشارك فعال فى عملية الاستقصاء. إن الاستخدام المقبول والنشط والواعى لهذا الوضع يميز بحوث الفعل عن العلوم الاجتماعية التقليدية التى تجعل دور الباحث الاجتماعى مبهماً بشكل عمدى. ويتم الاعتراف فى بحوث الفعل بحالة المشاركة الواضحة التى يمتلكها أى عالم اجتماعى فى أى عملية بحثية ويتم التعامل معها كمصدر ومورد مهم فى العملية البحثية. ويبنى تكوين معرفة جديدة على أساس هذه العلاقة المتبادلة. ومن جانب آخر تظهر المشاركة الفعالة للباحث العديد من التحديات المهمة للتكامل وردود الفعل المهمة. إن بحث الفعل ليس نمطاً من البحوث التى يتقبل من خلالها بعض الباحثين التعاون الاختيارى مع المشاركين المحليين الفاعلين أو المسيطرين على القوة. إن العلاقة الفعالة المتوازنة والتكامل وردود الفعل المهمة تعتبر من أهم أسس عملية بحوث الفعل.

التنوع كفرصة Diversity as An Opportunity:

يخلق إدماج المشاركين والمستفيدين فى عمليات البحث فرصة حقيقية للاستفادة من قدرات الأفراد. إننا نملك القناعة بأن البحث يتضمن الإبداع

الإنسانى والحلول المناسبة للمشكلات والقضايا، وكذلك الكشف عنها. إن المناقشات العقلية التي تؤيد تنوع الجماعات المتعاونة فى البحث من الباحثين والمشاركين ترى أن المجموعات الواسعة من خبرات واتجاهات المشاركين فى عملية البحث يمكن أن تسمح بتطوير الكثير من الحلول المبتكرة. وهناك العديد من الأمثلة التي يمكن الاطلاع عليها فى هذا الموضوع

(See, for example, Amabile, 1996)

والقضية الثانية والتي لا تقل أهمية عن السابقة تتمثل فى أهمية الوضع الأخلاقى فى تدعيم التنوع كحق سياسى فى حد ذاته. ومن الضروري بناء بحوث الفعل للوصول إلى القوة من الإبداع الكائن فى تنوع جماعات المشاركين، وليس إيجاد الحلول للمشكلات التي تقلل التنوع.

عملية الاستقصاء فى بحوث الفعل

The action research inquiry process

هل ترتبط الحتمية بالفعل

Is thus Inevitability Linked to Action

تظهر المعرفة ويتم تقييمها من خلال الفعل أو كنتيجة للأفعال. إن عملية الاستكشاف ليست عملية عقلية خالصة، ولكنها تتراجع إلى نطاق فكرى يبتعد عن الأفعال الإنسانية. وبالنسبة لديوى فإننا نفتتح بأن نفهم عملية الاستقصاء على أنها عملية ربط بين الأفعال وربود الأفعال فى عملية موحدة لخلق معرفة جديدة. وهذا يعنى أن منطق عملية الاستقصاء يعتبر فى حد ذاته قاعدة حقيقية ترتكز عليها المعرفة الإنسانية (Burke, 1944).

ومن خلال ربط الاستقصاء بالأفعال فى البيئات المحددة فإن بحوث الفعل تفهم المتطلبات الإنسانية كموضوعات ممثلة فى موقف كلى. إن الاستقصاء ليس أجزاء أو منفصلاً، بل يتم التعامل معه كميدان اجتماعى متماسك. وقد حدده ديوى (1976) Dewey على هذا الأساس أنه نسق بينى منظم يصور الموقف الكلى Holistic. ومن وجهة النظر هذه يعتبر المستقصى (المستعلم - الباحث) inquirer دائماً جزءاً أساسياً من عملية الحصول على المعرفة. وتتشكك بحوث الفعل فى الأبحاث التقليدية حيث يتخذ المستقصى (الباحث) حالة الحياد الزائف أو الموضوعية الزائفة فى السؤال أو الأسئلة تحت الدراسة.

إن عمليات بحوث الفعل لا تطالب بمعرفة حرية السياق. إن المفهوم التقليدى للتعميم Generalizability يسوى بين العام بما هو حقيقة شاملة، والسياق الذى لا يقاوم. وتقوم بحوث الفعل على أساس فكرة أن كل الاستقصاءات الدالة هى محددة السياق، إنها تختلف اختلافاً كبيراً عن مفهوم المعرفة العامة، وإن ما نعتقده هو الأكثر قوة وأكثر فائدة بالتأكيد.

إننا مقتنعون بأن المعرفة التى تتكون فى بحوث الفعل يمكن أن تكون أكثر أهمية وقيمة فى سياقات أخرى عن تلك التى تطورت، ولكننا نرفض فكرة أن تحقيق عملية تحويل المعرفة من موقع إلى موقع آخر يتم من خلال التعميم المجرد لهذه المعرفة. إن المعرفة المحولة من سياق إلى سياق آخر تعتمد على فهم العوامل المرتبطة بهذه السياقات فى الموقف الذى يتخذ فيه الاستقصاء مكاناً، والحكم على السياق الجديد الذى يفترض أن تطبق فيه المعرفة، وإجراء تقييم أو تقدير مهم عن أى السياقين لديه البناءات والعمليات الكافية، بحيث يصبح جديراً للارتباط بهم. وسوف نعود إلى هذه القضية فيما بعد.

ويرتبط المشاركون الداخليون والباحثون الخارجيون في بحوث الفعل في عملية تعلم تبادلية. ولعل عملية الاتصال هي الممكن الرئيسي لهذه العملية. إن أشكال الفهم الجديدة يتم إيجادها من خلال الحوارات والمناقشات التي تحدث بين الناس المشاركين في عملية الاستقصاء. ولكي يحدث ذلك فإننا نحتاج إلى العديد من المناقشات والحوارات المتبادلة التي يتم تحقيقها من خلال المعاشية الكاملة طوال الوقت، والمشاركة في الخبرات وتبادلها، والمشاركة في اتخاذ المواقف والأفعال. إن هذه الحوارات والمناقشات التي تعزز عملية الاتصال تتشابه كثيرا مع وصف ويتجينستين (1953) Wittgenstein ذلك على أنها عملية "ممارسة" أن اللغة تخلق المعنى نظرا لأنها تحدد الأفعال المفهومة لدى جميع المشاركين أو اللاعبين. إن المعرفة الجديدة التي حددناها على أنها ظهرت نتيجة عملية الفعل ورد الفعل هي التي تشكل تبعا لتلك اللغة ذات العلاقة بوصف الأفعال وعمليات التعلم التي نبعت منها. لذلك خلقت بحوث الفعل اللغة المشتركة بين الباحثين الخارجيين والمشاركين الداخليين، والتي حددت المعنى الذي تم بناؤه من خلال عملية الاستقصاء.

ونقودنا هذه المناقشات ليس فقط إلى فهم الوسيلة التي أوجدت بها عملية الاتصال معنى ودلالات مدعمة للفعل، ولكن أيضا لفهم العمليات المضادة. وفي بعض المواقف فإن النتائج أو الخبرات التي تظهر نتيجة الأفعال تبدأ في عمليات رد فعل جماعية والتي بالضرورة توجد معاني جديدة.

المصادقية والجدارة في استقصاءات بحوث الفعل

credibility and Validity in action research Inquiry

تعتبر المصادقية والجدارة في بحوث العلوم الاجتماعية التقليدية بمثابة أيقونة أو تعويذة للباحثين. وقد يعتقد هؤلاء الباحثون أنهم يجدون

ضالتهم وراحتهم وهم يتعاملون مع هذا الخضم الهائل من المعلومات المتناثرة والمتعددة فى هذه الأداة المنهجية الدقيقة والتي يفترض أن تحل هذه المشكلات المعقدة بدقة.

من المهم لفهم ما المتطلبات الضرورية لكي يعتقد أى شخص فى المعانى التى تم بناؤها من خلال بحوث الفعل. ونعرف الجدارة (Credibility) على أنها الأدلة والعمليات الضرورية والتي تزيد من ثقة شخص ما فى نتائج البحوث. ونستطيع أن نميز هنا بين نوعين من المعلومات والمعارف الصادقة (الجديرة). النوع الأول وهو المعارف ذات الصديق الداخلى Internal Credibility للجماعات التى كونتها. ويعتبر هذا النوع من المعرفة ذا أهمية بالغة وأساسية لبحوث الفعل نظرا للسمة الجمعية والتعاونية لعملية البحث. وتشكل نتائجها المباشرة فى تعديل أنماط الفعل اختبارا واضحا للصديق، وهذا الاختبار الذى تفتقده الكثير من أطر العلوم الاجتماعية التجريدية. ومن غير المحتمل أن يتقبل أعضاء المجتمعات أو المنظمات صديق النظريات الموضوعية للباحثين الخارجيين إذا لم يعترفوا بارتباطها بالمواقف المحلية أو بسبب أن المعرفة المحلية توضح أن هذه الأطر النظرية إما أن تكون مجردة أو أنها خاطئة فى سياق معين.

ويتضمن النوع الثانى من الصديق الأحكام الخارجية External judgment. والصديق الخارجى هو المعرفة القادرة على إقناع شخص ما لم يشارك فى الاستقصاء بأن النتائج قابلة للتصديق believable. وتعتبر هذه حالة معقدة. ونظرا لاعتماد بحوث الفعل على عملية الاقتران بين الأفعال وردود الأفعال، والتعاون فى إيجاد معرفة جديدة فى سياقات متنوعة فإن إقناع المشاركين الخارجيين بصديق هذه المعرفة يمثل تحديا صعبا. وغالبا ما يطلق على تقارير بحوث الفعل "مجرد إخبار قصصى

"Storytelling" وذلك كمحاولة يائسة للتقليل من أهمية المعرفة العامة التي تم الحصول عليها في الحالة الخاصة لبحوث الفعل. حقا إن القصص تعتبر أساسية بالنسبة لبحوث الفعل. ويتركز التعامل الأكبر معها في فهم قصص الحالات الفردية بوسائل يجب أن تملك تأثيرات عامة قوية. إن رواية القصص لا يتعارض مع إجراء العلوم الاجتماعية، إنها أساسية بالنسبة لها.

ونريد أن نركز على أن منطق الفكر العلمى يحتاج إلى أن أى حالة بحث فعل فردية تعارض النظرية الاجتماعية العامة يضعف من النظرية، ويحتاج إلى تطوير نظرية الجديدة بحيث يتم وضعها فى الحسبان. إن النظريات الحيوية (القابلة للاستمرار) لا تتضمن استثناءات، إذ يجب إعادة صياغتها وتكوينها لكي تتضمن الاستثناءات بأسلوب متماسك. لذلك فإن الحالات الفردية والقصص والكثير من كتاب بحوث الفعل لديهم قوة هائلة لتغيير وتبديل النظريات، بصرف النظر عن درجة تعقيدها أو الأهمية البالغة للفئة التى تنسب إليها.

وهذا هو جوهر قضية الصدق والجدارة فى بحوث الفعل. ويعتقد مجتمع البحوث الاجتماعية التقليدية بأنه يتم الوصول إلى الصدق من خلال التعميم والاقتراحات العامة والفروض العلمية وغيرها من الأنماط العامة، بينما تعتقد بحوث الفعل بأن المعرفة الصادقة هى التى يتم تكوينها وتشكيلها واختبارها من خلال الممارسة. وتعتقد البحوث الاجتماعية التقليدية بأن الباحثين والمهنيين المدربين هم فقط الذين يملكون الكفاءة فى اتخاذ القرار بشأن قضية الصدق أو المصادقية، بينما تركز بحوث الفعل على إرادة المستفيدين فى قبول النتائج التى تم الوصول إليها والعمل من أجلها وتحديد خصائص الصدق والجدارة.

الإيجابية Workability:

يرتبط التحدى الأول للمصداقية أو الجدارة فى عمليات بحوث الفعل بحل مشكلات بحوث الفعل فى إطار الظروف المحلية. وهنا يعتبر اختبار الإيجابية رئيسيا وضروريا. ويجب أن نقرر ما إذا كانت الأفعال التى يتم اتخاذها فى بحوث الفعل تنتج حلولاً للمشكلات. وهذا يتسق مع الخط الفكرى لديوى (Dewey's 1976) عن عملية الاستقصاء حيث يتم خلق المعرفة وبناء المعانى من خلال العمل فى البيئة والتفاعل معها. وقد طور جوهانسين (Johannesen 1994) مفهوما مشابها عندما حدد معايير الصدق فى بحوث الفعل. لذلك استعاره من الفكر البرجمائى مباشرة (Diggin's, 1994). ونحن نفهم أن عملية الاستقصاء نوع من التكامل بين الفعل ورد الفعل وأن اختبار النتائج الحقيقية الملموسة نوع من الإيجابية.

تكوين المعنى Making Sense:

والعملية الثانية والمكملة فى الاستقصاء تتمثل فى تكوين مفهوم أو معنى نتيجة النتائج الملموسة أو الحقيقية. كيف تستطيع النتائج أن تتكامل فى عملية بناء مفاهيمى (ذات معنى) والتى تخلق معرفة جديدة؟ وهنا نركز على كيفية بناء المعنى من خلال عملية تفكير مدروسة. وقد قدم كل من بيرجر لوكمان (Berger and Luckmann 1966) فى مرحلة مبكرة من هذه المناقشات فكرة أن المعرفة يتم بناؤها اجتماعيا. ولم يعكس موقفهما البنائى هذا بالقدر الكافى مدى جودة هذه المعرفة المكونة اجتماعيا، نظرا لعدم محاولتهما التدقيق أو الدراسة المتفحصة للنتائج التى تم الوصول إليها. ومن وجهة نظرهم فإن أى بناء يعتبر صحيحا أو خاطئا مثل أى بناء آخر، وهذا الوضع يتناقض مع بحوث الفعل⁽¹⁾. وفى بحوث الفعل نستخدم العمليات التى من خلالها مرت المناقشات والبراهين ببعض أنواع طرق القياس. ونستطيع أن نصف عمليتين

محتمتين للمناقشة هما موقف الخطاب (الكلام) المثالي لهابيرماس (Habermas (1984 والأسلوب التفسيري (التأويلي) لجادمر (Gadamer (1982).

يميز موقف الخطاب (الكلام) المثالي لهابيرماس (Habermas (1984 العملية بالتححرر من السيطرة والتسلط، حيث يقوم الفاعلون Actors بالمشاركة فى مناقشات وحوارات بناء المعانى والمفاهيم بدون أى إكراه أو إجبار. وفى هذا الموقف المثالى يقوم كل مشارك بجدية وأمانة بالحكم على المناقشات التى تعرض أمامه ثم يقوم بعد ذلك باستنتاج أفضل حكم من وجهة نظره نتيجة لهذه المناقشات. وتؤدى هذه العملية إلى فهم أن هذا الأمر يصبح حقيقة تشريعية عندما لا توجد مناقشات أخرى تقوم بالانقلاب على ما تم الاستقرار عليه.

وتبدو مصداقية هذا الخط من الحوارات والنقاشات كنتيجة لهذا الموقف المثالى عندما لا يوجد تفسير أفضل يمكن تقديمه. وهذا لا يعتبر أمرا واحدا أو شأنا واحدا، ولكنه عملية أكثر استمرارية، والتى من خلالها تتحدى باستمرار الخبرات والمناقشات الحديثة الأفكار المتعددة حول المعرفة الصادقة. ويمكن فهم المعرفة العلمية ببساطة على أنها المعالجة المستمرة الباحثة عن أفضل تفسير لظاهرة معينة. صحيح أن موقف الخطاب (الكلام) المثالى لهابيرماس يغرى الكثيرين بمنطقه الصارم والدقيق وتفكيره العقلانى، إلا أنه يتجاهل الانفعالات والقوى والتباينات كمحددات أساسية لجميع عمليات الاتصال، وهذا هو الانتقاد الذى كان واسع الانتشار.

(see, for example, Flood and Romm, 1996)

وقد قاوم جادمر (Gadamer (1982 فى إنتاجه الرئيسى الحقيقة والمنهج truth and method هذه التركيبات والأفكار البارعة لهابيرماس. لقد عالج موقف الخطاب (الكلام) المثالى لهابيرماس على أنه جزء من مثالية ساذجة. ودافع بدلا من ذلك عن حوار يتسم بمزيج أكثر تعقيدا وتفسيرات

متبادلة، وأخيرا (وليس آخر) آفاقا واسعة. ويحترم جادمر تاريخية المعرفة (المعرفة التاريخية) والتفسيرات (التفسيرات التاريخية) والخبرات التي يأتي بها المشاركون. وعلى العكس من هؤلاء الذين حاولوا أن يتحولوا من التأويل أو التفسير إلى مجرد لعبة مفزلية أكاديمية ركز جادمر على أن التفسير هو شكل ونموذج للعمل ككل وليس مجرد منهج للتفكير.

مصادقية التحول السياقي Transcontextual:

ما زالت توجد على مستوى واسع إمكانية نمذجة التحول السياقي للموقف، وهذا يمكن شرحه تاريخيا وسببيا. ويعتبر ذلك مهما جدا بسبب أنه يكون دقيقا هنا ذلك أن العلماء الاجتماعيين التقليديين يستشهدون بقانون التعميم، ويحاول نقل البحث الاجتماعي إلى نحو ما يروونه على أنه يتسم بالموضوعية، ويعيدا عما نفهمه على أنه بحث علمي.

وتتشابه وجهة نظرنا مع وجهة نظر فرنكويس جاكوب Francois Jacob (1982) عن الممكن والحقيق، والذي يرى أن كل موقف يحتوى على احتمالات كثيرة أكثر من تلك التي يتم العمل بها. ونحن نفهم أن كل المواقف الجارية يمكن أن تكون مختلفة أو لا تكون. ويتم تحقيق نتيجة معينة من خلال نقطة تقاطع الظروف البيئية، وجماعة من الناس والأحداث التاريخية المتنوعة، والتي تتضمن الفعل والمشاركين^(٢).

ومن خلال وجهة النظر هذه فإن كل تفسيرات المواقف الحالية تضع في اعتبارها بشكل واقعي اللحظات التاريخية، والأسباب الخاصة التي تعمل في منظمات خاصة، في سياقات محددة. وبهذه الطريقة من التفكير فإن النظرية لا تستطيع التنبؤ بالنتائج في موقف معين. إن النظرية تستهدف

تفسير أن ما حدث كان ممكنا وقد وقع، وتصميم السيناريو الممكن للمستقبل، وإعطاء أسباب جيدة لبعض الأشياء التي يبدو أنها ستكون محتملة في النتائج التالية. وهذه النقلة الأخير بالطبع تعتمد بدقة على مناظرة analogize النتائج عن الحالات والسياقات الأخرى بوسيلة مترابطة منطقيا.

وهذه الممارسات تمثل العلم في أفضل حالاته، وكان مثالنا السابق مأخوذا من نظرية النشوء والارتقاء البيولوجي. هل توجد هناك أمثلة في العلوم الاجتماعية؟ ونحن نعتقد أنه يوجد مثل هذه الأمثلة، ولكنهم يتجاهلون بها بوجه عام. وأحد هذه الأمثلة هو بناء التفكير على أساس العمل لماكس فيبر Max Weber. لقد قام ببناء العديد من النماذج الفكرية (المثالية) للتعامل مع القضايا المتنوعة والمعقدة التي درسها وهي: البيروقراطية والكاريزما والشرعية legitimacy والسلطة والدين والتحضر⁽³⁾. وقد خلق في كل حالة قائمة مجردة من خصائص التحول السياقي بعد دراسة جادة للعديد من الحالات التاريخية. ومن ثم فقد استخدم هذه الخصائص في تطوير إستراتيجيات تفسيرية.

ونادرا ما استشهد فيبر بعمله عن المدن، والذي يمثل مثالا نوعيا واضحا. لقد جمع كل الأدلة التي استطاع جمعها من كل أنحاء العالم عن ظاهرة المدن. وعلى أساس هذه القراءات الواسعة، قام بتكوين (بتطوير) مزيج من الخصائص والمميزات التي وجدها في كل مثال للمدن في أماكن مختلفة. ومن ثم فقد أخذ هذه القائمة من الخصائص والمميزات وربتها معا حتى أصبح لديه قائمة بكل الخصائص والمميزات التي وجدها في المدن حول العالم. وقد وضعت هذه القائمة الكلية من الخصائص أساس نموذجه المثالي للمدينة.

وهذه كانت فقط البداية، ومع ذلك فبتسلحه بهذه القائمة عاد فيبر إلى كل منطقة فى العالم فى كل سياق وذلك لاختبار أى من هذه الخصائص موجود وأيها غائب فى كل موقف. وعندما وجد تركيبات معينة من الخصائص موجودة أو غائبة فى الموقع، قام بإعادة فحص تاريخ هذه المنطقة لشرح وتفسير سبب الحضور أو الغياب. وبالتدرّج قام بتطوير ما أسماه "التفسير السببى للتاريخ"، والذى ساعده فى فهم أسباب غياب أو حضور خصائص معينة فى مواقف معينة، وبنى فوق خلفية للمعرفة العامة لظاهرة التحضر.

إن طريقة فيبر فى فحص واختبار مواقف وبيئات معينة من خلال جمع الخصائص من هذه المواقف، وكذلك وضع هذه الخصائص فى قوائم وتحليلها ومن ثم العودة إلى مواقف معينة، قد ساعدته فى فهم لماذا حضرت خصائص معينة أو غابت. وهذا هو كيف أن تطور المعرفة فى أحد مواقف بحوث الفعل يمكن نقله إلى المواقف الأخرى. إن بحوث الفعل لا تعمم من خلال التجريد وافتقاد التاريخ والسياق. إن المعانى التى تم خلقها فى أحد السياقات قد تم اختبار جدارتها فى موقف آخر من خلال رد الفعل الشعورى على الاختلافات والتشابهات بين الخصائص السياقية والعوامل التاريخية. إنها تنتقل من السياق الذى يكون الفهم فيه قد تحقق من خلال التحليل التعاونى للموقف الذى ربما تم تطبيق المعرفة فيه. وبناء على التحليل التاريخى والسياقى، تتم أحكام بحوث الفعل عن إمكانية تطبيق المعرفة من موقف إلى آخر. وهذه أيضا تعتبر طريقة مناسبة لتطوير اتجاهات بحوث الفعل من خلال التحليل العميق باستخدام الأساليب المتنوعة والعمليات فى سياقات متعددة.

لذلك فإننا نعتقد بأن الاهتمام المتزايد بالحالات والسياقات والتاريخ تعتبر جوهرية في تطور العلم بوجه عام. إنها تعتبر أكثر الطرق أهمية للتقدم نحو تطوير العلوم الاجتماعية التي تحترم تنوعات المواقف، بينما تعمل أيضا على تطوير فهم العمليات التي توجد في الكثير من المواقف والتي يمكن أن تستخدم في شرح وتفسير ما يحدث في كل حالة.

إعادة تصنيف عمليات بحوث الفعل

Readdressing the AR processes:

ونود أن نشير إلى أن الأفعال المرتبطة بحل المشكلات التي نتناولها هي النتيجة الأولى لعمليات بحوث الفعل. ونركز أيضا على أن عملية بناء المعنى ترتبط بحل المشكلات العملية تعتبر العنصر الرئيسى لتوليد المعرفة في بحوث الفعل. وأخيرا فقد ناقشنا المواقف التي يتحول فيها التعلم من سياق إلى آخر، وكيفية تطوير التفسيرات السببية والتاريخية لما يحدث في كل موقف محدد (معين).

ولكى نعكس لماذا لا يعتبر ذلك واضحا كما هو عادى، فإننا نعود إلى المناقشة المعرفية الواسعة والتي شكلت الستارة الخلفية. وعلى الرغم من ذلك فقد ركزنا على ديوى، فإنه من المهم أن ندرك ونفهم أن أفكار ديوى قد تطورت من خلال المناقشات والمعالجات مع الكثير من زملائه ومنهم تشارلز ساندرز بيرس Charles Sanders Peirce ووليم جيمس William James اللذان كانا يعملان أيضا في الإطار البرجماتى للفلسفة (الفلسفة البرجماتية). وكانا يتمتعان بشهرة واحترام كبيرين لوقت طويل من الزمن، ومن ثم اختفيا تماما. إن اختفاء البرجماتية كان موضوع العمل المهم والمثير

للجدل لريتشارد رورتى (1980) Richard Rorty "الفلسفة وانعكاسات الطبيعة" "Philosophy and Mirror of Nature"، وقد وجدت هذه التفسيرات المتعمقة لهذه القضية فى أعمال جون ديجينز John Diggins (1994) "عهد البرجماتية" "Promise of Pragmatism" وتستحق هذه الأعمال اهتمام أى شخص يهتم ببحوث الفعل لأن تحليلاتها توفر بناء تحليليًا وتاريخيًا للتحويلات والتقلبات التى تعاني منها بحوث الفعل.

وبالنسبة لرورتى (1980) Rorty وعلماء البرجماتية والتفسيرية المعاصرة Contemporary hermeneuticians (على سبيل المثال جادمر (1982) Gadamer وتيلور (1985) Taylor) وفلاسفة اللغة أمثال ويلارد كوين Wilard Quine بمدرسة فرانكفورت وويتجنستين Wittgenstein ومورتين هيدجر Mortin Heidegger وبعض الوجوديين Existentialists وبعض زملاء رورتى استهدفوا التبرؤ (إنكار) مما دعوه "المشروع المعرفى" Epistemological project. مع أن رورتى حدد هذا المشروع بوسائل متعددة وفى الأساس كان يعنى نقد مزاعم الفلسفة الحديثة لخلق (لإيجاد) نسق للتحليل يسمح للفلاسفة بالتمييز بين المعرفة الصحيحة وبين المعرفة الخاطئة- وجهة نظر الفلسفة كنوع من التجهيز (الإعداد) الذاتى لمحكمة عليا للمعرفة، والتى يجب أن يستسلم لها كل فرد.

وقد واجه رورتى المشروع المعرفى بواسطة التمييز بين الفلسفة المنظمة Systematic كبحث عن الواقعية المطلقة المحددة وبين خبراء الفلسفة والفلاسفة المتقفين، والتى رآها على أنها حوار مستمر يتضمن طرقاً ومناهج ومناقشات تحاول جذب الناس إلى حالة أو نوع من الاتصال الواضح. وقد دافع رورتى بوضوح عن ملاحظة أن الفلاسفة المتقفين (التويريين) يحيطون بالفلسفة المعاصرة وبالتحديد ديوى وويتجنستين

Wittgenstein ومورتين هيدجر Mortin Heidegger على سبيل المثال.
(Rorty, 1980, p.p.367-368)

وفى محاولته لتمجيد وتخليد كل من ديوى وويتجنستين وهيدجر أوضح رورتى أنهم أعطوا الصورة الكلاسيكية للإنسان نوعا من الهزل (المزاح)، هذه الصورة التى تضمنت فلسفة منظمة حيث بحثوا عن تصور شامل يتضمن مصطلحا نهائيا. إنهم كرروا نقطة أن

تأخذ الكلمات معناها من الكلمات الأخرى وليس بفضل الحروف المكونة لها، والاستدلال بأن المصطلحات اللغوية تحصل على أفضليتها من الشخص الذى يستخدمها وليس من تصويرها للواقع.. إن موضوع تهذيب الفلسفة هو الحفاظ على استمرارية الحوار بدلا من إيجاد الحقيقة الموضوعية. إن مثل هذه الحقيقة.... هو النتيجة الطبيعية للمحادثة الطبيعية. (Rorty, 1980, pp. 368, 277)

وتعتبر هذه المناقشات أساسية لبناء بحوث الفعل كما نراها. إن بحوث الفعل هى الوسيلة الأولى والرئيسية للحفاظ على "استمرار الحوار". وتستهدف طرق بحوث الفعل فتح آفاقا للمناقشة، لخلق مساحات واسعة لردود الفعل (الانعكاسات) الجمعية والتى من خلالها يتم تطوير مواصفات وتحليلات جديدة للمواقف المهمة، كأساس لأفعال جديدة. وهذا ما نعى به بالإنتاج التعاونى للتعلم.

وهذا يرتبط مباشرة بالمشروع الاجتماعى والفكرى الذى أعلنه هانز جورج جادامر (1982) Hans Georg Gadamer، وأيضاً تركيزه على خصائص كل أنواع المعرفة الإنسانية الموجهة بالممارسة التفسيرية والحوارية، والتى تتضمن الدليل القوى على أن هذه الأبعاد تقدم فى كل العلوم مثل العلوم الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية، وبالطبع أيضا الإنسانية

والفنون. وقد شدد على السمة الشرطية والمستمرة للتفسيرات وأشار إلى أن التفسير **hermeneutics** هو نوع من الفعل، واستخدام لغة رورتي (١٩٨٠) بعيدا عن الاحتفاظ باستمرار المحادثة. ذلك أن ممارسى بحوث الفعل لم يفحصوا بعناية عمل جادامر وكان من الصعب أن يفهم المفسرون المعاصرون الآخرون وأن يسهموا بحساسيتهم المفرطة للنقد غير اللائق بل القوى من الباحثين الاجتماعيين التقليديين الذين يخفون في مخابهم الأكاديمية.

وقد ارتبطت بقوة أيضا عناصر البرجماتية والانتقادات السياسية الديمقراطية في الترتيبات الاجتماعية **Social arrangements** الكائنة. وأحد أهم الموضوعات المهمة التي نبعت من تحليل ديجنز (1994) **Diggins** هو ارتباطه مع هنري أدامز **Henry Adams** والانتقادات القاسية من جون ديوي للتعليم. ومن خلال استشهاده ب خطاب أدامز إلى كانليف **R. Cunliffe** عام ١٨٧٥، فقد أعاد ديجنز إنتاج كلمات أدامز في وصف الأستاذ بجامعة هارفارد وتلاميذه:

إنهم يتخمون أنفسهم بالحقائق والنظريات الثانوية (الهامشية) حتى ينفجروا ومن ثم يحاضرون في كلية هارفارد ويعتقدون أنهم أصبحوا هم الطبقة الأرستقراطية في الفكر والعقل وينجزون أعمالا بطولية من خلال تفجير أنفسهم في كل العصور الأصغر، ويواجهون مجموعة جديدة من أنواع التعصب الفكرية وغير الضرورة والأصيلة.

(Henry Adams, quoted in Diggins, 1994, p. 307)

وكان ينظر إلى المؤسسات الأكاديمية على أنها مراكز للارتقاء بالمعرفة بدون الفعل، وردود الفعل بدون التزام. وهذا ما يتوازى مع انتقادات أدامز وديوي، ويربط الخلف بما هو متفق عليه بين البرجماتية وبحوث الفعل في تأكيدهما بأن الحقيقة ليست شيئا نحصل عليه، ولكنها عبارة عن هدف عملية لانتهائية من الاستقصاء الاجتماعي التضامنى.

وقد قام ديجنز (١٩٩٤) أيضا بتكوين ارتباط مقنع بين البرجماتية والتفسيرية والفلسفة اللغوية ومدرسة فرانكفورت والتحليلية Deconstruction. وعلى الرغم من أن هذا التجمع يبدو شاذًا فإنه لو أن أحدهم اتخذ موقف الناقد للمشروع المعرفي كعنصر أساسي، فإن جميعهم يسهمون بالعناصر الأساسية له. والأكثر أهمية بالنسبة لنا هو أن هذه المدارس تعتبر أيضًا مصدرًا رئيسيًا لكمية مهمة من الأساس الفكري والمعرفي لبحوث الفعل. لذلك فإن بحوث الفعل ليس بمفردها على جانب الطريق. إن بحوث الفعل تمثل البرجماتية الحديثة في البحث الاجتماعي، وهي محاولة للحفاظ على استمرار الحوار، وتحقيق الديمقراطية إلى أبعد مدى في المجتمع. وارتباطًا بالبرجماتية فإن بحوث الفعل قد قوبلت بمقاومة عنيفة من العلوم الاجتماعية الوضعية التي اتخذت البرجماتية بجدية والتي سببت نهاية العالم الأكاديمي كما هم عرفوه.

الاقتصاد السياسي والبناء الاجتماعي للعلم:

ويقع تحت ما قلناه مجموعة الأفكار عن علاقات القوة في مجتمعنا. وبحوث الفعل على وشك تحويل علاقات القوة في اتجاه الديمقراطية الكبرى. وعلاوة على ذلك فإن معظم الخبرات التي لدينا عن العالم هي عن السلطوية نظم الضبط والأوامر والبيروقراطيات والتخصصات الضيقة والفصل بين الفعل ورد الفعل والجزاءات ضد من يعارضون هذه النظم. وقد طرح جون ديوى القضية جيدًا عندما أكد على أن الحياة والتفكير والفعل تعتبر كلها جزءًا من كل كبير، ولكن الخبرة التي نمر بها يومياً تجعل العلم يبدو وكأنه مزيج من الذات الأنانية والمستقلة والتي تحطم بعضها بعضًا باستمرار.

ما الذي يجعل النسق الكلي المتكامل يبدو وكأنه يتكون من مجموعة من القطع الصغيرة المستقلة؟ والإجابة تقدمها بحوث الفعل وهي أن السبب

هو علاقات القوة، ولذلك فإنه بدون تحليل لعلاقات القوة فإن بحوث الفعل تعتبر غير ممكنة. إن الاقتصاد السياسى فى المجتمعات الرأسمالية، والعلم كنشاط، والمؤسسات الأكاديمية تعتبر كلها عناصر ضرورية فى أى محاولة لفهم المعضلات التى تسعى بحوث الفعل إلى التغلب عليها. إنها تفسر أيضا الجهود المستمرة التى تقوم بها نخب القوة لتهميش أنشطة بحوث الفعل فى المجالات الاجتماعية.

وتسعى بحوث الفعل بوضوح إلى تعطيل علاقات القوة الكائنة بغرض تحقيق الديمقراطية فى المجتمع. إنها تسعى أيضا إلى دمج التنوعات الكبيرة من المعرفة والخبرة التى يتمتع بها أعضاء المجتمع فى عمليات حل المشكلات الجماعية. وتؤكد بحوث الفعل على أن المجتمعات بسبب النظم السلطوية السائدة فيها تستخدم فقط القدر الضئيل من معارفهم وقدراتهم فى مواجهة مشكلاتهم المهمة. والسبب فى ذلك يرجع إلى أن رغبات القلة التى تملك مفاتيح الضبط والتحكم فى الاحتفاظ بهذا الضبط والتحكم، فقدان النخب الكبير لاحترام قدرات أفراد المجتمع العاديين. وبوضع هذه الاهتمامات والموارد تحت تصرفهم، تقوم هذه النخب بتكوين بيروقراطيات موالية لهم ويحافظون عليها، والتى تعمل على تصنيف المواطنين فى تصنيفات غير محدودة (مؤهلين وغير مؤهلين، مجرمين وعاديين، شواذ جنسيا وغير شواذ، ذكور وإناث، بيض وسود وصفر وحمرة،.. وغير ذلك) وطبقا لهذه التصنيفات يتم التحكم فى الموارد بواسطة النخب، ومن ثم يتصدقون ببعضها على الفئات الذين يتقبلونها، والتى تقبل سيطرتهم عليهم. وهذا النوع من التوزيع البيروقراطى فيما يطلق عليه زيفا الرعاية يخلق نوعا من العلاقة التراجعية بين الأفراد التابعين أو المرؤوسين وبناءات القوة، بحيث تعيق أى عصيان أو تضامن بين هؤلاء التابعين الذين يحصلون على هذه الموارد بسخاء.

ويؤثر الاقتصاد السياسى. على العلم والأنشطة الأكاديمية. ويحصل العلم الآن على أموال طائلة من الحكومات والشركات الكبرى، ويمكن أن تنتهى العلوم الاجتماعية التقليدية وتموت بدون الموازنات والتمويل الحكومى. وكما يريد الممولون فإنهم يقررون الموضوعات وطرق البحث ويخلقون عملية سياسية تتضمن المراجع الزميل الذى يضمن أن هذه الموضوعات تتوافق مع مثلى الرعاية، وأنه من المستبعد أن العلماء يتضامنون لتحقيق أغراض خاصة لهم. وهذا النوع من التمويل فى العلوم الاجتماعية يخلق نوعا من التفكير الاجتماعى والعلوم ذات التوجه الإحصائى. ونتيجة لذلك فإن هذه النظم العلمية ينتهى بها المطاف إلى توثيق عمل بناءات التحكم البيروقراطى. ونادرا ما ترتقى هذه التخصصات أو على الأقل تتخيل وجود عملية فعالة للتغير الاجتماعى، كما أنهم يهدعون من شعورهم بواسطة التأكيد على فكرة خدمة الذات Self-serving التى ينجزون بها العلم وأن الفعل الاجتماعى أو حتى التطبيق المتواضع لهذه المعرفة ليس مسئوليتهم. وعندما يقومون بالارتقاء بعملية الإصلاح، فإنهم فى الغالب يتلقون ثمنا سياسيا قاسيا وعسيرا. (انظر Price, 2004)

لذلك يوجد فصل حاد بين التغير الاجتماعى والإصلاح الاجتماعى وفقا لهذه الميكانيزمات، وأن كل جيل جديد من الطلاب الذين يلتحقون بالجامعة بعد تنافسهم الحاد مع الآخرين أمثالهم، فإنهم يتعلمون بسرعة قبول هذا الفصل. ونتيجة أيديولوجية الاحتفاظ بالقوة فى أياد قوية، بينما يتم توظيف عدد ضخم من الموظفين البيروقراطيين الذى يحملون الحد الأدنى من الشهادات الجامعية، كان ذلك ناجحا بشكل ملحوظ. فالموظفون المشاركون يفرضون النظام على أنفسهم والأيدى الممسكة بالقوة نادرا ما ترى.

وفى هذا السياق فقد تم تصنيف بحوث الفعل على أنها غير علمية، بسبب ارتباطاتها الاجتماعية والأخلاقية؛ لذلك تم حرمانها من التمويل والدعم

المؤسسى. وأيضاً تم تجاهلها أكاديمياً ومن البناءات البيروقراطية الأخرى لأنها نشاط جزئى يدخل أساساً ضمن أنشطة التخصصات الأساسية المتعددة. ومن خلال تقسيم هذه التخصصات وخلق اهتمامات بناءة تعتبر حارساً ضد أى غارات إقليمية أو مدارس وجامعات وغيرها من البيروقراطيات الأخرى التى تقتل المشروع الاجتماعى لتحقيق الديمقراطية، والذى يعتبر قلب بحوث الفعل. وأخيراً من خلال المطالبة بأن يكون البحث الاجتماعى منفصلاً عن السياق التطبيقي، فإن مالكي القوة متأكدون بأن العلماء الاجتماعيين لا يدرسون شيئاً مهماً يثير الجدل أو الخلاف فى المجتمع. وفى النهاية فإن الإجابة عن سؤال لماذا تعتبر بحوث الفعل مهمشة جداً تكون موجودة فى النقص العام فى الالتزام بالتغيير الاجتماعى الديمقراطى فى مجتمعاتنا وجامعاتنا وليست فى ضعف بحوث الفعل كشكل من الاستقصاء العلمى.

الخلاصة:

سوف نشرح بالتفصيل فى الفصول التالية من الجزء الثانى الإستراتيجيات المتنوعة لاستخدامات بحوث الفعل للحفاظ على الحوارات المستمرة، ونلخص فى مصطلحات عامة الخريطة التى تتوافق مع بحوث الفعل. ومن وجهة نظرنا فإن بحوث الفعل تقع فى مركز الحياة الإنسانية. إنها تتكون بواسطة الأفعال الاتصالية، والتى تتخذ مكانها فى بيئات الحوار التى تخلفها المجتمعات والتنظيمات الأخرى بغرض الإنتاج التعاونى للمعرفة الجديدة وتطوير خطط الفعل وتطبيقها، وتحقيق الديمقراطية فى المجتمع. وعلى خلاف المشروع المعرفى، فإن بحوث الفعل ترفض كلا من السلطة

غير المبررة والوضعية الواقعية كاتجاهات مناسبة للتعلم الاجتماعى والتغير الاجتماعى. وعلى العكس من الفعالية المحلية فإنها ترفض أيضا النسبية الخالصة والالتزامات غير المنتقدة نحو الجماعات التى تعمل. إنه شكل من المناقشة والاتصال المهم الذى ينتج معرفة جديدة وفى الغالب شاقة.

وتخلق بحوث الفعل المجال الذى من خلاله تلتقى كل قوى السلطة والمجتمع الواقعية والنسبية فى مواقف اتصال يتم بناؤها لفتح كل المواقف والأوضاع للفحص والتدقيق، وأيضا للمساهمات الإيجابية الفعالة من الجميع. إن بحوث الفعل تفتح المجال لكل الحوارات وتحافظ على استمرارها.

الهوامش

- (١) للمزيد عن النظريات الوجودية والمعرفية والمنهجية انظر
Guba and Lincoln, (2005)
- (٢) انظر الفصل الثامن لمزيد من المناقشة الكاملة.
- (٣) إن مصطلح النموذج (النمط) المثالي لم يتم معالجتها بطريقة فعالة في معظم أدبيات العلوم الاجتماعية. وطبقا لوجهة النظر المسيطرة فإن الأنماط المثالية هي شكل من النمذجة الأولية، والتي تكون فيها المتغيرات غير مصاغة في علاقة دينامية ببعضها البعض. ولعل المساهمة الأكبر للعلوم الاجتماعية الحالية قد وصلت افتراضيا إلى ما وراء الأنماط المثالية لخلق نماذج من المتغيرات التي ترتبط ببعضها ديناميا، والتي من ثم تنتج تنبؤات يمكن اختبارها. وليس فقط أننا لم نر دليلا على تفوق هذه الطرق فإننا نعتقد أيضا أن هدم ارتباطات وعلاقات العلوم الاجتماعية بالبيئة والتاريخ يعتبر جزءا من الترويض المعاصر لتحليل العلوم الاجتماعية.

الفصل الخامس

المنهج العلمى وبحوث الفعل

Scientific Method and Action Research

لقد لاقى التوجه العلمى خلال العقود المعاصرة اهتماما واسعا لدى الباحثين الاجتماعيين^(١). ولقد أصبح بالنسبة لهؤلاء الذين ينشدونه يعتقدون أن مصطلح العلم يمنحهم الدعم الأيديولوجى والمالى ويمنح المكانة والنفوذ الاجتماعى للنظريات والنتائج والتوصيات النابعة من البحث. إن نشأة هذا الموقف "والثقة فى الأرقام" (Porter, 1966) والتى غالبا ما تدعّمه والانفصال طويل المدى بين الأبعاد الوضعية (اليقينية) Positivistic والمعيارية Normative فى البحث الاجتماعى تعتبر مشهورة (معروفة جيدا). ونتيجة لهذا الموقف فإنه إذا تم تصنيف بحوث الفعل (AR) على أنها غير علمية أو "ضعيفة Soft" فإن القوى المسيطرة، سواء على المستويات الأكاديمية أو فى المجتمع سوف تشعر بحرية فى إهمال نتائج هذه البحوث. وبالطبع يكون ذلك ملائما عندما تتعلق هذه النتائج على وجه الخصوص بانتقاد علاقات القوة الكائنة (الحالية)، وعندما تتطلب منهجية البحث تجاهل أو عدم الاهتمام بوظائفهم ومناصبهم ومكثباتهم، والارتباط من خلال التعاون البناء بعالم ما وراء مؤسساتهم ومعاهدهم.

وفقا لأهدافنا فى هذا الكتاب فإننا نتناول الظروف الاقتصادية والسياسية والثقافية التى تمنح المكانة الاجتماعية للعلم كما نداولها. وتتطلب فكرة سيطرة العلم فى حد ذاتها الشرح والتوضيح، ولكن تحديدها يأخذنا بعيدا

عن أغراض هذا الفصل والكتاب ككل. ونرغب في توضيح أنه لا يوجد لدينا أى شيء ضد العلم، إنه يستطيع أن يستمر ويتواصل كنشاط يستهدف إنتاج معرفة جديدة ويمكن أن يعمل كأساس للعمليات التحررية. وعلى أى حال فإن ذلك يعتمد على كيفية تجسيد العلم للواقع الاجتماعى وانتشاره.

ونقوم فى هذا الفصل والفصل التالى بعمل مطالبة بسيطة، ولكنها جريئة. ونحن نؤكد على أن بحوث الفعل أكثر قربا من ممارسات العلوم الطبيعية والبيولوجية أكثر من كل الاتجاهات السائدة فى البحوث التقليدية. ونؤكد على أن ذلك ليس بسبب أننا نريد أن نقر أو نضع بحوث الفعل تحت اسم العلم، ولكن بسبب أننا نريد أن نبين أن بحوث الفعل أكثر من كل أشكال البحوث التقليدية فى إنتاج معلومات صادقة وتفسيرات للظواهر الاجتماعية، وأن هذه المعلومات توجه مباشرة لأداء الفعل. وقد وضعت العلوم الاجتماعية التقليدية (علوم الاقتصاد والنفس والاجتماع، والسياسة، والأقل درجة منها علم الأنثروبولوجى) نفسها تحت الهيمنة الأكاديمية كعلوم اجتماعية. وقد تعاملت مع كل الأشكال الأخرى للبحث الاجتماعى على أنها شيء ما وشيء ما أقل، على سبيل المثال دراسات الإدارة والتخطيط وبحوث الفعل وغيرها. لذلك وبناء على هذه الحركة القوية، فإنهم ينظرون إلى هذه الممارسات الأخرى مثل بحوث الفعل على أنها بالضرورة غير علمية.

ونحن نوافق على أن تطبيقات بحوث الفعل تختلف جوهريا عن تلك الموجودة فى البحوث الاجتماعية التقليدية، ولكننا نرى أن بحوث الفعل تعمل وتتواصل بواسطة طرق وأساليب تقترب تماما من الوصول إلى نتائج بحث صادقة وقابلة للتطبيق، بينما نادرا ما تصل البحوث الاجتماعية التقليدية إلى نتائج صادقة يمكن اختبارها فى الواقع العملي^(٢). وسوف نشرح فى الفصول السابع والسادس عشر والسابع عشر أسباب وجود البحوث الاجتماعية التقليدية فى المؤسسات الأكاديمية وتهميشها لبحوث الفعل فى هذه المؤسسات.

هل تستطيع بحوث الفعل الوصول إلى نتائج ذات دلالة علمية؟

وهنا نبدأ بمراجعة الانتقاد الأساسى بأن بحوث الفعل ليست علمية. وقد وجه بعض زملائنا فى بحوث الفعل اهتمامهم إلى هذه القضية من خلال تقبلهم فكرة أن العلم فى حد ذاته غير إنسانى Inhumane واغترابى Alienating، وبذلك فهم فخورون بوصفهم غير علميين. ونحن لا نتفق معهم بشكل قوى ونرى بدلا من ذلك أن بحوثا الفعل تستطيع، وتعمل ويجب أن تصل إلى نتائج بحث اجتماعى صادقة وذات دلالة.

ومن وجهة نظر الدوائر الأكاديمية فإن بحوث الفعل، والبحوث التطبيقية، ومعظم البحوث الكمية تعتبر بوجه عام بحوثا غير علمية. وعلى الرغم من أن الباحثين فى العلوم الاجتماعية التقليدية أحيانا ما يعترفون بأن بعض بحوث الفعل تعتبر مفيدة، فإنهم يرون بوجه عام أن نتائج بحوث الفعل عبارة عن حكايات نادرة، تقوم على أساس الحكايات والروايات القصصية بدلا من الوصول إليها على أساس علمى. حقا فإن معظم الباحثين التقليديين يتصرفون كما لو كانوا يعتقدون أن العمل المفيد يعتبر تافها من الناحية العلمية. ومن وجهة نظر هذه الدوائر العلمية فإن العمل العلمى هو الذى يوازى الموضوعية والدقة، واستخدام الاختبارات الإحصائية، واستخدام التصميمات شبة التجريبية على الأقل والمكوث بعيدا عن العالم التطبيقى والواقعى. وفيما يتعلق بذلك فقد ألقوا كل ثقلهم وراء ما أطلق عليه كل من ناوتنى وسكوت وجيبونس (2001) Nowotny, Scott, and Gibbons نموذج ١ لإنتاج المعرفة Model 1 Knowledge Production - "المعرفة الموثوق بها Reliable Knowledge" عندما تنتج بحوث الفعل المعرفة فى السياق التطبيقى أو نموذج ٢ المعرفة Model 2 Knowledge والذى يعتبر قويا من الناحية الاجتماعية.

ونحن هنا لا نلحق الانتقادات التى تقال من شأن العلوم الاجتماعية. وقد وضعت العلوم الاجتماعية التقليدية لسنوات طويلة وخاصة فيما يتعلق بممارساتها العلمية موضع التساؤل. وتم توجيه النقد أيضا للعلوم الاجتماعية المعاصرة عن خطأ هذه العلوم فى تقبل أن تكون علوم الكيمياء والطبيعة كنماذج للعلم (Clifford & Marcus, 1985; Geertz, 1973; Porter, 1995; Rabinow & Sullivan, 1987). ولمواجهة بعض هذه الانتقادات، فإن الاستجابة الملائمة لها تتمثل فى إنكار العلم، والدفاع عن وجهات النظر التى تتحدى وجود المعرفة القابلة للتعميم. وقد حث البعض الآخر على إعادة هيكلة ممارسات العلوم الاجتماعية وتنويعها، مثال ذلك إجراء بحوث أكثر ارتباط بالواقع، ولكن بدون فهم أن الارتباط بهذا الواقع يحتاج إلى حدوث تغييرات جوهرية فى اتجاهات البحث الاجتماعى.

وقد ادعت الكثير من الانتقادات أن العلوم الاجتماعية أسيرة بعض الأخطاء التقنية والطقوسية فى إطارها النظرى. (على سبيل المثال: Barnes & Shapin, 1979; Mills, 1995) وعلاجها بالأدوية التى تتراوح بين التفسيرات أو التأويلات Hermeneutics، والبنائية Structuralism والتحليلية Deconstruction. وطبقا لوجهة النظر هذه فقد خرجت العلوم الاجتماعية عن الطرق والمناهج المناسبة لها. وتعتبر هذه قصة مأساوية، وأنها عادة ما ترى أنه ليس لدى العلوم الاجتماعية اهتمام كاف بأبعاد الظاهرة الاجتماعية والتى لا توجد فى العلوم (مثال ذلك: الذاتية التفاعلية Intersubjective والتفاهات Understandings واللغة). وبالطبع فقد نبعت الخطط والبرامج الأكاديمية من هذه الانتقادات، والتى تتضمن الكفاح من أجل القوة والتأثير فى المجال الأكاديمى، وهذا الكفاح الذى يزيد فى الشدة كما نرى فى المعارك بين الاختيار المنطقى لأصحاب الفلسفة الوضعية وبين القائمين بالدراسات الثقافية فى العلوم الاجتماعية.

ونحن لا نشكك أو نجادل في الحاجة إلى تغيير الأجندة (الخطط وبرامج العمل) ولكن هذا التاريخ المتصور Imagined للعلوم الاجتماعية لم يتطابق مع نتائج البحث في فروع العلوم الاجتماعية التقليدية ولا المواقف التي نمر بها. وهذا ليس مكانا لتبرئة أعمال إعادة الإصلاح والربط في العلوم الاجتماعية (انظر Maddoo Lengermann & Niemrugge-Brantley, 1991; Messer-Davidow, 2002; Ross, 1998) وانسحابهم بلغة غير مفهومة وغير ذي صلة، ولكن يعتبر جزءاً مهماً من القصة. والجزء الآخر من المناقشة الذي نرغب في التركيز عليه هو النابع من عدم فهم العلم نفسه.

إن البحث في العلوم الطبيعية والبيولوجية لم يتوافق مع الرأي الشائع في البحث العلمي بأن هذه الانتقادات تستخدم بغير علم. والأكثر من ذلك أننا نعتقد أنه يمكن تحقيق أفضل فهم للبحث في العلوم كشكل ناجح ومنظم من الحلقات المتكررة للاختبار وإعادة الصياغة والعلاقة الواضحة والصريحة بين التفكير والفعل. وبمعنى آخر فإن العلوم الطبيعية تختلف بحق اختلافاً جذرياً عن العلوم الاجتماعية المعاصرة، ولكن فقط بسبب أن لدى ممارسات العلوم الاجتماعية القليل الذي تفعله على أسس علمية.

وأحد الأفكار الخاطئة والتي تم استعارتها بشكل خاطئ من العلوم، هي أنه يجب أن يكون العلماء الاجتماعيون غير مرتبطين أو غير منخرطين (واقعيًا وعمديًا) تمامًا في الظاهرة التي يدرسونها. إن المعادلة التي تتضمن عدم الارتباط مع الموضوعية والتجريد ومتطلبات الممارسة العلمية تؤدي إلى إبعاد الباحثين أنفسهم بشكل منظم عن مجتمع بحثهم (المجال البشري لبحوثهم). إن تحقيق هذا الابتعاد والانفصال يجعل من الصعب، بل من المستحيل فهم الأفعال الإنسانية، ومن ثم فهم يركزون أكثر على فصل العلم عن الفعل. وهذه الحركة تفصل الارتباط بين التفكير والفعل الذي يتيح الفرصة لقياس النتائج، وجعل العلوم الاجتماعية التقليدية مختلفة تمامًا عن العلوم البيولوجية والطبيعية، ومختلفة تمامًا عن بحوث الفعل.

إننا لم نتناول القضايا الكبرى عن معنى العلم فى حد ذاته، وافترضنا ببساطة أنه من المفيد اعتبار أن العلوم الطبيعية والبيولوجية هى بالفعل علمية بالمعنى الدال للمصطلح^(٣). وتركيزنا هنا ينصب على متابعة التفاعلات المنظمة والمستقرة بين التفكير والفعل والتى تتشابه مع البحث فى العلوم الطبيعية والبيولوجية، والتى تبتعد كثيرا عن ما يتم من ممارسات فى العلوم الاجتماعية التقليدية.

ويتمثل جوهر المشكلة فى التركيز الكبير والهائل للعلوم الاجتماعية التقليدية على ادعائها بأنه لكى تكون علمية فإنها تحتاج إلى أن يفصل الباحثون بين كل العلاقات مع كل ما هو ملاحظ، وتجنب الاختيار Co-opted بواسطة تحيزاتهم الشخصية. ويوازن مثل هؤلاء العلماء الاجتماعيين بين الموضوعية والانفصال عن الظاهرة موضوع دراستهم وبين إظهار الافتخار بقدراتهم على فهم الكيانات الإنسانية الأخرى، وعن عجز مفردات مجتمعات البحث التى يقومون بدراستها عن تقديم التحليل العلمى لأنماط سلوكهم ومواقف حياتهم. وهذا الاعتقاد والممارسة يضعف من الدليل بأن العلوم الاجتماعية التقليدية تمارس المنهج العلمى بدقة نظرا لأن العلماء فى مجال العلوم الطبيعية والبيولوجية لا يفصلون أنفسهم عن الظاهرة التى يدرسونها لكى يكونوا موضوعيين. إن الطريقة التجريبية تحتاج العكس تماما- إنها تحتاج إلى الارتباط وإن كان على أساس مصطلحات محددة. إن المنهج العلمى وأنواته التجريبية تعتبر شكلا من التطبيق على العالم وداخله، على الرغم من أنه لم يوجه نحو التغير الاجتماعى الديمقراطى.

إن النظر إلى التغير الاجتماعى بهذه الطريقة ليس فكرة جديدة، وإنما تم حظره، كما تحولت الاهتمامات الاجتماعية للعلماء الاجتماعيين وأنشطتهم العلمية بعيدا عن الإصلاح الاجتماعى. ويعتبر كورت ليفين عالم النفس الذى

تحدثنا عنه سابقا (الفصل الثانى)، والذى اقترح مبكرا بحوث الفعل، هو الذى تعامل مع النظرة إلى البحث الاجتماعى على أنه مرتبط علميا واجتماعيا. وكما حددنا سابقا فإن وجهة نظره عن الحالة أو الموقف تتلخص غالبا فى عبارتين متكررتين هما "لا يوجد شىء عملى مثل النظرية الجيدة" و"أفضل وسيلة لفهم شىء ما هى محاولة تغييره". وقد بين بوضوح وجهتى النظر هاتين خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى، استجابة للأفكار المبكرة لأشهر الفلاسفة البرجماتيين فى المجالات الديمقراطية والتعليمية، وهو جون ديوى.

ونقدم عرضا متكاملا لهذه المناقشة فى الفصل السادس. إن ما يهمنا عن ليفين وديوى فى السياق الحالى هو اتجاههما نحو البحث الاجتماعى الذى يتفق مع الوسيلة التى يفكر ويتصرف بها العلماء المعاصرون حيث فهم ليفين بوضوح العلاقة بين بحوث الفعل والطريقة العلمية.

وبدلا من الجدل حول بحوث الفعل والمنهج العلمى فى بأسلوب مناقشات نموذجى (وهذا يكون من خلال آراء متعددة) فإننا نتعامل مع هذه الحالة من خلال السرد المتسلسل الذى يقدم الأمثلة على ما ندعيه وننادى به^(٤). وغرضنا من ذلك هو توضيح المعانى المتضمنة فى مناقشاتنا بأن بحوث الفعل هى أكثر قدرة على الوصول إلى نتائج صادقة مقارنة بتلك التى تتوصل إليها البحوث الاجتماعية التقليدية^(٥) ومن ثم دراسة لماذا انحرفت البحوث الاجتماعية التقليدية عن هذا الطريق.

العلوم الطبيعية والبيولوجية كحلقات متكررة من التفكير والفعل:

إن التسلسل الذى نسرده هنا حدث لجريينود منذ ٢٥ عاما مضت. إن إعادة حكايته للقصة فى الغالب كان كافيا بأن وسيلة القصص، وتذكره لها كان أكثر ارتباطا بإعادتها مقارنة بتسلسلها الأصيل. إنه لم يوثق هذا التسلسل

مع أى شىء آخر عن تدوين المحاضرة، نظرا لأن ردود الفعل طوال السنين هى التى تجعل فقط المعانى الكبيرة أكثر وضوحا. وما زال جرينوود يشعر بأنه أصبح حقيقة فى السلسلة التى شارك فيها.

وقد حدث فى هذا التوقيت أن أصبح جرينوود رئيسا لقسم البيولوجى والمجتمع بجامعة كورنيل. وكان البرنامج يدرسه الطلاب خلال الأربع سنوات الجامعية الأولى فى نظام التعليم العالى بالولايات المتحدة، وكان هذا التخصص متعدد الفروع والكليات قد تم تصميمه للربط بين العلوم البيولوجية والطبيعية مع العلوم الاجتماعية والإنسانية. لقد أتاح الفرص للطلاب نوى الاهتمام الأكبر بالعلوم الأساسية (البحث) باكتشاف العلوم الاجتماعية والإنسانية بشكل علمى منظم. وقد كان جرينوود مسئولاً عن المقررات الرئيسية وذات المستويات المرتفعة، والتى تضمنت مراجعة العلاقة بين البيولوجى والمجتمع وأيضا مناقشة العلم والمنهج العلمى.

وبتدريس هذه المقررات مرات عدة، اكتشف جرينوود أن طلاب الدراسات العليا المتميزين، والذين لديهم خلفيات علمية قوية فى الرياضيات والطبيعة والكيمياء والبيولوجى لديهم القليل جدا عن وسيلة الفهم السلوكى والواقعى للمنهج العلمى. إنهم يكونون معقدين بشكل كافٍ فى استخدامهم اللغة المناسبة لوصف قواعد المنهج العلمى، ولكنهم لم يفهموا المنهج العلمى كشكل من إنتاج المعرفة وسلوك انعكاسى. وبدلاً من ذلك فقد استخدموا أفكارهم عن المنهج العلمى أساساً على أنه وسيلة للدفاع عن القيم العلمية التى تتمثل فى الحقيقة والموضوعية والتعميم.

وانعكاساً لذلك فقد أدرك جرينوود أن ذلك ليس مفاجأة بحق نظراً لأنه من خلال السنة الثالثة فى الجامعة وجد أن الطلاب يقومون بعمل علمى روتينى فقط فى المقررات التمهيدية الأساسية التى درسوها. فقد كان لديهم خبرات قليلة جدا فى العلم كشكل من الاكتشاف والتفسير فى الجلسات المعملية.

وعلى الرغم من أن هذا الموقف قابل للفهم، فإن جرينوود وجده غير مقبول من المتخصصين فى البيولوجى والمجتمع. ومعظم هؤلاء المتخصصين الذين يتم إعدادهم للعمل فى مجال الطب أو أى تخصص آخر فى مجال الرعاية الصحية، والتى يقتصر فهمهم فيها للمنهج العلمى على أنه نوع من السلوك الذى يجب أن يكون له نتائج موجهة إلى الآلاف من المرضى. وقد نظر حوله لإيجاد وسيلة ما للتعامل مع المشكلة. لقد عرف أنه على الرغم من العلاقة الجيدة مع الطلاب، كعالم أنثروبولوجيا ثقافية، فإن آراءه حول المنهج العلمى لم تجد إلا مصداقية قليلة جدا لدى الطلاب. لذلك قرر دعوة عالم الكيمياء الفائز بجائزة نوبل من كورنيل لإلقاء محاضرة فى الفصل الدراسى عن المنهج العلمى. وقد قام بتنفيذ هذا الاختيار بسبب أنه يعرف هذا العالم ومن جانب آخر بسبب أن هذا الأستاذ كان معروفا عنه أكثر الأساتذة علما والتزاما^(٦).

وقد استغرقت المحاضرة التى ألقاها هذا العالم الكيميائى حوالى ٥٠ دقيقة، وكان الطلاب جالسين على حافة مقاعدهم طوال المحاضرة. ولعل مكانة هذا العالم وقدرته على مخاطبة الطلاب بما يناسب مستواهم جعل الدرس ذات فعالية لدى الغالبية العظمى من الحاضرين. وكان من الواضح فى البداية أن الطلاب يتوقعون محاضرة نظرية وعالية التجريد من هذا العالم البارز علميا وفكريا. وكانوا يوازنون بوضوح بين العلم العظيم والتجريدات العظيمة، والقوانين العامة والنظريات الكبرى. وأن ما حصلوا عليه من هذه المحاضرة كان شيئا مختلفا. وقد اختار هذا الكيميائى أن يصف أنشطته كعالم، وأن يجذب الطلاب إلى عالمه من خلال المنظور السلوكى، وخاصة من خلال مبادئ الباحث فى تغيير مشروع البحث العلمى.

وقد بدأ محاضراته بتحديد أن أول قضية فى أى بحث علمى ترتبط بتحديد مشكلة الدراسة. وقد شرح أن هذه ليست عملية بسيطة. وكان واضحا

من استجابات الطلاب أنهم لم يطلب منهم من قبل أن يفكروا فى كيف يجد العلماء حلا للأسئلة التى توجه إليهم، ومن المحتمل أن يكون ذلك بسبب أن الطلاب قد أعطوا بوجه عام مجموعة من الأسئلة الممكن فهمها لكى يتناولوها فى النشاط الفصلى. وقد أوضح الكيميائى أن هناك العديد من المشكلات فى العالم، وأن هناك العديد من المقترحات الكثيرة فى الأدبيات والكتابات العلمية. وبعض منها يدخل فى اهتمامات وتساؤلات الباحثين والبعض الآخر لا يدخل. وقد رأى أن ما يهتم به الباحثون فى جزء منه له مرجعيته الشخصية والتاريخية. وأيضاً هناك بعض المشكلات التى تحتاج إلى أدوات وموازنات غير متاحة، والبعض الآخر يتعلق بعناصر الخبرة السابقة التى تجعل هذه المشكلات جذابة أو غير جذابة. وأحياناً الإتيان بشيء شاذ من خلال الملاحظة التى تولد عملية تساؤليه ومراجعة للأدبيات تتسبب فى النهاية فى قيام مجموعة من الناس باتخاذ قرار بأن هذه المشكلة جديرة بالدراسة.

وكان واضحاً أيضاً فى هذه النقطة أن الطلاب قد استمعوا إلى أفكار جديدة عليهم. ولم يأخذ معظمهم بعين الاعتبار مصفوفة الأفكار والخبرات والبناءات التنظيمية والتاريخية التى تقدم السياق الذى يسأل من خلاله العلماء الأسئلة. ومع ذلك فقد تطابقت عبارات العالم الكيميائى جيداً مع الدراسات التى قام بها العديد من العلماء فى فلسفة العلم (Kuhn, 1962) ومع الدراسات الاجتماعية فى العلم (Barnes, 1977; Barnes & Shapin, 1979; Latour & Woolgar, 1979; Rabinow, 1996; Traweek, 1992; Zabusky, 1995). وتوجد بعض الاعتبارات القليلة المقنعة لعملية التحديد العلمى لمشكلة البحث. وكان الاستثناء يتمثل فى الدراسة التى أجراها باول رابينو (Paul Rabinow, 1996)، والتى حددت قضيتها الرئيسية فى العلاقة بأحد الاكتشافات المهمة الخاصة بعنصر DNA. وهذا الموضوع قد اتخذ الآن الاهتمام المركزى فى مجال الدراسات العلمية والتكنولوجية.

وتميل عملية اختيار المشكلة إلى أن تتبلور فى تصنيفات تحت عناوين الإبداع الفردى والنبوغ وغيرها، محولا العلم إلى قصة من البطولات Heroes الإنسانية، والتى، كما لاحظنا، هى عبارة عن قصة تتضمن التسلسلات الهرمية والأخلاقيات السلطوية، وقصة لعدد قليل من القادة والكثير من الأتباع. وقد حدد المحاضر أن هذه العملية تفجر الإبداع فى الفرد أو الفريق فى التفكير التقدّمى للمشكلة وتحديدّها بشكل كافٍ لذلك يستطيعون دراستها. فالفرد والفريق يعملان فى سياق اجتماعى محلى، ومن خلال الحوارات العلمية والاتصالات والاحتكاكات المستمرة حول العالم، والتى تضع المشكلات فى شبكة معقدة من الجوانب الاجتماعية والعقلية والمكانية.

وقد سأل الكيمائى الطلاب عن كيفية معرفة أى شخص أن المشكلة المختارة جديرة بالدراسة. ومرة أخرى ارتبك الطلاب. وقد حدد أن هناك الكثير من الاختبارات العقلية والموضوعية للنتائج التى تظهر من أشخاص معينين (عينة مجتمع البحث)، ولكن لا يوجد ضامنون بأن المشكلة فى حد ذاتها جديرة ببذل الجهد نحوها. وعلى أى حال يصبح الباحثون أو فريق العمل ملتزمين نحو دراسة المشكلة كحالة تتسم بخصائص الأولويات الفردية والبدئية والمفهومة بعمق والموارد المتاحة المطلوبة، والتى تشمل الأموال. وفى الغالب توجد أيضا نتيجة سلسلة من الأعمال السابقة، والتى تشكل من خلاله نشاط معين للارتباط.

وعندما يتم تحديد المشكلة وتقرير أن هناك أهمية كافية لدراستها، فإن القضية الثانية التى تشغل الباحثين تتمثل فى تصور كيفية دراستها. ويجب أن تسأل الجماعة نفسها حول البيانات التى يجب أن تتوفر لدراسة المشكلة المختارة. وقد حدد الأستاذ بدقة صعوبات تحديد البيانات من خلال إظهاره أنه ليس من الواضح تحديد ما هى البيانات التى ربما تكون مرتبطة

بالمشكلة موضوع الدراسة. ومن وجهة نظره فإن هناك العديد من الجهود القيمة التى تذهب نحو محاولة تقرير ما هى البيانات التى ترتبط بشكل مناسب بالمشكلة والتى يقتنع بها الباحثون الآخرون.

ومرة أخرى بدت الدهشة على الطلاب. فالغموض الذى يحيط بعملية تكوين البيانات، وكمية المعالجة الاجتماعية التى تعتمد على فريق البحث العلمى، واعتماد الباحثين المحليين على شبكة واسعة من العلاقات ومحددات الأدوات والتمويل المحلى، كل هذه الأبعاد العلمية لم تبينها لهم المقررات العلمية الأساسية التى يدرسونها. لقد درسوا النظر إلى المنهج العلمى أساسا على أنه المواجهة الفردية لعالم من الحقائق، والصياغات الفردية للفروض وإستراتيجيات البحث والتجريب والتقارير. إنهم استمعوا إلى وجهة نظر فردية وراديكالية وبطولية حول العلم، وأنهم استمعوا إلى البطل العلمى الذى أعطاهم قصة غير بطولية عن العلم، ومع ذلك فإنه مليء بالاحترام العميق لنشاط العلم.

وقد بدا عليهم أنهم مبهورون ومندهشون من فكرة أن البيانات يتم تحديدها أيضا، إلى أى مدى، بواسطة نوع من التجهيزات والمعدات المتاحة فى موقع البحث. إن ما فى متناول اليد يلعب دورا ما فى تحديد ما هى البيانات التى يعتقد أن ذات صلة والطريقة التى يمكن بها جمع هذه البيانات. وقد رأى أن الطلاب غير مرتاحين بهذا، كما لو كان شكلا من الخداع بسبب مثالية العمليات العلمية التى يألّفونها.

وقد ركز عالم الكيمياء أيضا على عدد كبير من القرارات عن كيفية توثيق المعلومات التى تم جمعها وتنظيم الأنشطة بين فريق الباحثين لجعلها أكثر كفاية ومعقولة. والفكرة أن عالم الكيمياء الحاصل على جائزة نوبل كان يعمل كقائد فريق، وحصل على منح وموازنات ككاتب ومؤلف، وناشط

اجتماعى فعال فى جماعات تنظيمية وتحريضية، كان مدهشا ومفاجأة للفصل. وهذا التفاهم الذى يتم لتصميم النشاط الذى لا يتسبب فى انتهاء جماعة الباحثين من الموارد قبل أن يتم الانتهاء من جمع البيانات، والتي يجب أن تكون أيضا جديدة. وبالطبع فإن هذا ليس خطأ الطلاب بسبب أنه دائما ما يلبي عدد قليل جدا الحاجة إلى كتابة المنحة أو الموازنة المطلوبة، وجمع الموارد وإدارة التجارب فى إطار الموازنة.

ومن خلال تأكيده على التماسك الفكرى والاجتماعى لجميع عناصر العملية العلمية، فقد رأى عالم الكيمياء أنه من الصعب تقرير متى تكتمل عملية جمع البيانات. وقد حدد أن تقرير كمية المعلومات الكافية غالبا ما يكون موقفا برجمائيا وليس دائما ما يكون قابلا للتبرير فى مصطلحات مجردة. وربما يكون هذا القرار قائما على جهد وتعب، والبحث عن الموارد المالية والمادية والمؤقتة، أو الشعور بأن هناك بيانات كافية لقول أشياء أخرى يعتقد أنها عن المشكلة. وقد أدرك الطلاب أن وجهة النظر هذه أكثر غموضا عن عملية الانتهاء من جمع البيانات فى العملية العلمية أكثر مما يتوقعون.

وعند هذه النقطة انتقل عالم الكيمياء إلى المرحلة الثانية لصياغة الفروض أو التساؤلات. وقد أشار إلى أنه على الرغم من أن هذا النشاط يسترشد أساسا بمدى الإحساس بمشكلة معينة وربما بالفروض، وعندما يتم جمع البيانات وفحصها، وتصبح القضية كيف يمكن حساب مصفوفة أو توزيع أو بناء البيانات التى فى المتناول. وفى العلوم الطبيعية والبيولوجية فغالبا ما يتم هذا الجزء من العملية من خلال النشاط الجماعى. ويتم غالبا صياغة العديد من الفروض المتنوعة من خلال نشاط العصف الذهنى من خلال التفاعل الذى يتأثر بقراءة الأدبيات والمناقشات خلال البريد الإلكتروني، العلاقات التفاعلية بين الأشخاص والوحدات المتنوعة، وغيرها من التفاعلات الأخرى.

ومن ثم سأل عالم الكيمياء الطلاب بالفصل كيف سيعرفون أنهم قد قاموا بصياغة فروض كافية. وقد ارتبك الطلاب لأن صياغة الفروض كشكل من السلوك كان واضحا أنهم لم يناقشوها فى مقرراتهم العلمية. وكانت الإجابة الواقعية والهادئة لعالم الكيمياء فى أن صياغة الفروض تكون زائدة over عندما لا تفكروا فى أى فروض كثيرة أو عندما تكونون متعبين جدا عند القيام بها. وقد اعتقد الطلاب فى البداية أنه يمزج، ولكن أصبح واضحا أنه لا يمزج. إنه كان يرغب فى أن يفهم الطلاب إن العلم ليس هو النشاط الذى يتخذ مكانه فى العالم المثالى الميتافيزيقى مع معلومات كاملة وتامة، وموارد لانتهائية يتم الصرف منها، وجود كيانات إنسانية كاملة العقل والمنطق. إن العلم هو نوع من النشاط الإنسانى الذى يمزج مجموعة من التفاهات البرجماتية بين كل العناصر الموجودة فى لحظة محددة.

فقد أراد عالم الكيمياء من وراء الجوانب البرجماتية فى الموقف أن يعمق الموضوع. ونحن نعتقد أنه رأى أنه لا يوجد وسيلة عقلية أو منطقية لمعرفة متى يكون أى شخص أنواعا بديلة من التفسيرات لتنظيم المعلومات فى تساؤل أو قضية. إن العالم أكثر تعقيدا مما نستطيع أن ندركه، ولذلك فإننا دائما ما نحاول أن نفترق من هذا التعقيد من خلال سلسلة من التسويات غير الكاملة. وعندما تكون متدربا فى معهد متخصص بواسطة مجموعة من العلماء فإن ذلك يزيد من احتمال أن يكون لديك تأثير قوى فى الحكم على كم عدد الفروض التى تعتبر كافية. إن الميل نحو التعقيد والخصائص الأخرى لهذه المجموعة، من المحتمل أن تربي عالما صغيرا على مستوى قياسى معين. ومهما يكن هذا الحدوث، فقد أشار عالم الكيمياء إلى أن هناك من لا يعرف كيف يرتبط كل ذلك، والوسائل الممكنة لكيفية حساب البيانات التى تم صياغتها. إن العلم مهما بلغت قوته فإنه لا يمكنه أن يتفوق على الظروف الإنسانية.

ومن خلال كلامه المحير تماما انتقل عالم الكيمياء إلى الخطوة التالية، وهى اختبار الفروض أو التساؤلات مقابل البيانات. إن إجراء التجارب قبل البنائية Restructured مع وجود حلول ضعيفة ومحدودة فى المعمل لم تعد الطلاب بشكل جيد لما قاله. ومن خلال خبرة الطلاب، كان لكل الألغاز إجابات محددة، وقد حصلوا على درجات لحلهم هذه الألغاز مع مجموعة من الموارد وفى كمية محدودة من الزمن. لقد عرفوا أن الإجابة كانت موجودة، وأنهم اكتشفوها ببساطة. إن ممارسات التدريبات العلمية لم تعدهم لأقل من النظرة المحددة لعالم الكيمياء.

وقد أشار إلى أن ترجمة الفروض إلى افتراضات قابلة للاختبار ومطابقة البيانات بالفروض تعتبر أنشطة معقدة وغامضة وخلاقة. وتحتاج سلسلة التعريفات والافتراضات إلى ربط المعلومات والفروض، وهذه السلسلة التى يتم بناؤها تعتبر قادرة على إقناع الآخرين بأن عمليات البحث والتفكير العلمى تعتبر ملموسة وواقعية ولذلك يتم تقبل نتائجها. وإجراء ذلك فى المواقف المعملية غالبا ما يكون من خلال عمليات جماعية مع عصف ذهنى سريع مع كثير من الأخطاء وخاصة الأنشطة^(٧).

وعندما تقوم الجماعة بوضع التساؤلات أو الفروض فى قوائم وتصنيفات، فإنها تستطيع التفكير فى المقابل فى جمع البيانات وتنظيمها، وقد قال المحاضر إن أفضل نتيجة ممكنة هو أن لا تلغى الجماعة كل التوضيحات أو التفسيرات التى وضعتها فى صورة مبدئية. والأمل هو أن يكون هناك على الأقل واحد متروكا. وفى الغالب فإن ذلك لا يحدث وأن الجماعة يجب أن تتعود على عملية صياغة الفروض بسبب أنه لا يوجد أى من الفروض متروك واقفا. وبديلا لذلك فربما لا تقدم البيانات الأساس للاختيار من بين التفسيرات البديلة، وأن التجربة تحتاج إلى إعادة صياغتها.

وفى هذه النقطة فقد أظهر الطلاب ارتياحهم بسبب أن هذه البداية تبدو أنها مثل نوع العلم الذى حدوده معه. وفى نهاية هذه العملية كان للجماعة تفسيرات صحيحة وصادقة. ولكن لم يكن عالم الكيمياء من بينهم. وقد شرح لهم أنه إلغاء بعض الفروض لا يعنى أن الفروض المتبقية يمكن البرهنة عليها.

ولعمل هذه المناقشة فلم يبذُ عليه أنه معارض لهم. وقد أشار إلى أن هذه العملية الأولية لصياغة الفروض تعتبر غير محددة، وإن الإحساس بأنه يوجد دائما إمكانية لوجود فروض لم تفكر الجماعة فيها وفى أن الموارد المالية والبشرية محدودة، وهنا أصبح متوافقا. ولو تم ترك أحد الفروض بعد الانتهاء من تطبيق عملية الاختبار، فإنه من الممكن أن يقول شخص ما إن التفكير فى الافتراضات على الأقل أحدهم ضعيف. وربما يكون ضعيفا أو غير صحيح فى المستقبل، وربما يتم صياغة الفروض الأفضل للأخذ فى الاعتبار البيانات مستقبلا. لذلك فلا نستطيع القول إن التوضيح أو التفسير المتبقى صحيحا، ولكنه يعتبر ببساطة واحدا من هؤلاء الذين يتم التفكير فيها.

وقد انتهت الخمسون دقيقة. وقد بدا فصل جرينود مشرقا، وكان هناك تقدير واحترام للمحاضرة، وبدلا من السرعة المألوفة فى الخروج والصخب والضوضاء فقد غادر الطلاب الفصل بهدوء وصمت. وقد قدم عالم الكيمياء محاضرة رئيسية، ولكن الأكثر أهمية أنه نقل رأيه عن العلم كشكل من الفعل الإنسانى، والذى يتضمن التعقيد والغموض وديناميات الجماعة وبعض الامتيازات Concessions البرجماتية لبعض الحدود التى يفرضها الوقت والموارد المتاحة. وبدلا من النقل من العلم أو النقل من غموضه، فقد ساعدتنا وجهة نظره على فهم أن العلم هو وسيلة للتصرف ووسيلة للعمل والتفاعل ترتبط بالعالم الإنسانى والعالم المادى، والذى ينتج عنه تحسينات

ملحوظة في فهمنا لكيفية عمل هذه العوالم وفي قدرتنا على تغيير حالة هذه العوالم. وتتركز الممارسات العلمية الجيدة على الدوائر الراسخة من التفكير والعمل.

وإلى حد بعيد لم يذكر عالم الكيمياء عند أى موضوع أنه كان يتنبأ. وعلى الرغم من أنه كان واضحا أن التفسير أو الشرح الجيد يمكن أن يستخدم في توليد فكرة مسبقة عن الوسيلة التي يجب أن يتم بها تنظيم البيانات لو كان الشرح مفهوما، إنه لم يركز على التنبؤ في حد ذاته كعنصر أساسى في العلم، ولكنه بالأحرى ركز على الشرح. ولكن وجهة نظره المتعلقة كانت في الغالب تعادل بين العلم وبين التنبؤ. ونحن نعتقد أن عالم الكيمياء كان صادقا عندما ركز بعمق على أن التنبؤ يعتبر محكا أساسيا للعلم.

وقد سعى عالم الكيمياء إلى توضيح مجموعات أو منظومات من البيانات. ويعتبر التنبؤ بمنظومة متوقعة من البيانات تحت ظروف معينة وسيلة قوية لاختبار التفسيرات، ولكن الهدف هو عمل التفسير الذى يعطى فهما ومعقولية. والوسيلة الأخرى للتنبؤ، والتي تستخدم استخداما بناءً تكون عندما يصمم المهندسون، عند محاولتهم حل مشكلة معينة، جهازا أو أداة يتنبأون بأنه سوف يحل مشكلتهم. وهنا يكون التنبؤ عبارة عن رؤية يملكون من خلالها نتيجة نموذجية، والتي توجه عملياتهم التتموية.

والتنبؤ أداة تستخدم في هذه الجهود، واستخدماتها تتنوع وفقا للظروف. وتحت بعض الظروف فإن التنبؤ في الشعور العادى يعتبر خارج التساؤلات، كما في الدراسات التاريخية في النشوء والارتقاء^(٨). وتحت الظروف الأخرى فإن التنبؤ يتخذ شكل التعميمات الإحصائية عن قطاع ضخم من السكان، ولا يستطيع أن يصور بدقة ما يحدث في أجزاء معينة من هذه القطاعات من السكان. وفي مواقف أخرى فإن النشاط التنبؤى يأخذ شكل

التدخل في الظاهرة تحت الدراسة لتغيير حالتها في اتجاه مرغوب. وهذا بالضبط ما تفعله الدراسات التجريبية في العلم، وما تستهدف تحقيقه بحوث الفعل في العالم الاجتماعي.

وقد تطابقت وجهة نظر العالم الكيميائي بشدة مع خبراتنا عن العلماء والمهندسين في العمل. إنها وضعتهم كفاعلين إنسانيين، وكمركز في أنشطة البحث الاجتماعي والتي تعتبر علما. وقد جعل من الواضح أن العلماء والمهندسين ليس لهم أدوار في النظم المجردة والمثالية والمحددة تماما. وقد نقل عالم الكيمياء للطلاب أن المنهج العلمي هو شكل من السلوك الاجتماعي، شكل ليس سهلا ولا مضمونا، ولكنه شكل يستخدم القدرات الإنسانية لافتراض تساؤلات ومحاولة اختبار هذه التساؤلات من خلال استقصاء اجتماعي وعقلاني. وقد أكد على الحاجة إلى الاعتراف بالفجوات المهمة والعيوب في أي عملية من هذا النوع، كما أكد أن الحكم الإنساني والإبداع والتفاعل الاجتماعي يعتبرون جزءا جوهريا ومهما في العملية.

وقد أكد مرارا وتكرارا على أن العلم هو نشاط جمعي يتم تنفيذه بواسطة أعضاء فرق البحث داخل مجتمع علمي كبير. وهذا المجتمع الكبير يقدم المادة العلمية التي يبني على أساسها البحث بدرجة ما، وأيضا الموارد التي تستخدم في تنفيذ البحث. ويقوم فريق البحث والمعمل بتكوين نسق اجتماعي معقد من الناس الذين يتفاعلون في الظاهرة ويسهمون بأفكارهم في الحدود البرجماتية بواسطة الموارد الأساسية المتاحة والعلاقات الإنسانية الدينامية المتضمنة.

العلم هو بشر في فعل Science is Humans In Action:

هناك الكثير مما نتعلمه من خلال هذه القصة، ولكننا نريد أن نركز على الأبعاد الثقافية والاجتماعية للنشاط العلمي، والذي نظهره من خلال هذه

الوسيلة من عرض الأسلوب العلمى. فليس فقط ما يخرج به العلماء من نتائج ويحصلون على موازنات ومنح ويكتبون تقاريرهم على أساس تعاونى، ولكن أيضا المعامل الذين يعملون من خلالها تعتبر أنساقا اجتماعية تتضمن فريق عمل وتوزيع العمل على الأعضاء (Adams, 2004; Latour, 1987; Latour & Woolgar, 1979; Zabusky, 1995). وتتميز أنشطة هؤلاء العلماء غالبا بالجهود التعاونية لحل المشكلة لأنهم يعملون فى جماعات ويستخدمون كلا من التسجيلات (السجلات) الحالية والتي تجعلهم أيضا يكتبون سجلات البيانات عن الآخرين. ويعتبر العصف الذهنى هو النشاط الشائع فى هذه الجلسات، وغالبا ما تكون عملية جمع البيانات أيضا نتاجا لجهود فريق العمل. وغالبا ما تتخذ عملية صياغة التساؤلات والفروض مكانا متميزا فى الجماعة مع الأشخاص الذين يسألونهم واحدا تلو الآخر. إن العلم الجيد هو عبارة عن نشاط اجتماعى بارز، كما يظهر ذلك بوضوح فى مجال الدراسات العلمية التكنولوجية.

وغالبا ما يكون العلم أيضا عبارة عن نشاط تدخلى *Interventionist activity*. ومعظم التجارب هى عبارة عن شكل ما من التدخل المصمم للكشف عن المبادئ والأسباب التى تقلقهم وتتسلط عليهم بوسيلة ما وتوقع كيف سيغيرونها كنتيجة لهذا التدخل.

والعلم هو نشاط استرجاعى *Iterative* ودينامى يتضمن دوائر الفعل وردود الفعل. إن كمية الوقت التى تستغرقها النتائج متعددة المرجعية *Cross-referencing* مع التوقعات، واختبار وإعادة اختبار ملائمتها أو كفاءتها، والتعامل مع البيانات للوصول إلى تأثيرات أفعال معينة فى علاقتها بالتوقعات عن كيفية التصرف فى البيانات يعتبر من أهم الخصائص السائدة للعلم. إن دوائر الفكر والفعل حول كل منهما يتكرر كما يحدث بشكل ضرورى فى بحوث الفعل.

وتتشابه بحوث الفعل بدرجة كبيرة فى استخدامها لدوائر الفعل والفكر واختبار التفاهمات التعاونية التى تتولد من خلال الأفعال التى تعتبر بالتالى جزءا من الدائرة التالية من التفكير والتخطيط. وفى المقابل فإن العلوم الاجتماعية التقليدية التى تتفصل عمديا عن عالم الفعل ليست مثل ذلك.

وهذه الأحوال ليست كما يتم عرضه، ولكن دعوة لإعادة التفكير فى تاريخ وتطور البحث الاجتماعى. إن خبراتنا فى الدوائر التعاونية للتفكير والفعل فى بحوث الفعل تتطابق مع عرض عالم الكيمياء لخبراته كعالم. ونحن نشجعك على أن تتوقف وتتعجب من سبب سيطرة العلوم الاجتماعية التقليدية على مجتمعنا، وادعائها بأنها غطاء العلم، ومع ذلك فإنها لا تشبه ما يفعله العلماء.

الخلاصة:

لقد طورنا فى هذا الفصل مقارنة علمية منظمة بين أسلوب المنهج العلمى الذى ينتشر فى العلوم البيولوجية والطبيعية والدوائر الاسترجاعية (المتكررة) للفعل ورد الفعل التى تميز بحوث الفعل، من خلال استخدام المحاضرة القصصية عن العلم كمحور مركزى Centerpiece. وقد أشرنا إلى أن العلوم الاجتماعية التقليدية لا تشبه العلوم البيولوجية والطبيعية ولا بحوث الفعل، حيث إنها تفصل بين العلاقة بين الفعل ورد الفعل. وفى الفصل التالى سوف ننقل إلى المناقشات الفلسفية التفصيلية عن بحوث الفعل كشكل (كنموذج) من العلوم الاجتماعية.

الهوامش

(١) ربما يكون موضوع أن الاتجاهات التفسيرية واتجاهات ما بعد الحداثة فى البحث الاجتماعى فى الجيل الحالى قد حولت خلفياتها على أساس مكانة العلم، ونحن نعتقد أن مثل هذه المحاولات قامت على أساس الفهم الفقير والنمطى للعلم، ولذلك بنيت تراجعها على أساس وصفها بأنها متقدمة. وكانت بعض الاستثناءات لكل من Fuller (2001); Latour & Woolgar (1979); Rabinow (1996); Zabusky (1995)

(٢) أحد ردود الفعل الشائعة على مناقشتنا من القراء المهتمين ببحوث الفعل كانت تتمثل فى رؤيتهم ذلك على أنه أخبار سيئة. وظاهريا كجزء من عملية بعدهم عن العلوم الاجتماعية التقليدية فقد أصبح بعض الممارسين بعيدين عن فكرة العلم أيضا. ونعتقد أن ذلك خطأ. فكونك علميا ليس معناه أنك تسير فى اتجاه غير إنسانى. ويكون الفعل الاجتماعى أقرب احتمالا لأن يكون غير إنسانى عندما يقوم على أساس ممارسات بحث فقيرة وفهم ضعيف للمواقف المحلية. ونحن نعتقد أن الصفات غير الإنسانية والسلطوية للبحوث الاجتماعية التقليدية تعتبر عناصر تعوقها عن الكشف عن معظم المشكلات الاجتماعية وإيجاد الحلول لها.

(٣) إن القراء الذى يرفضون هذه النقطة يحتاجون إلى قراءة ليست أبعد **no farther** نظرا لأننا نرفض النسبية الراديكالية التى ترى أن كل المعرفة على حد السواء مخترقة وبها خلل.

(٤) نظرا لأن أحد الانتقادات لبحوث الفعل من الباحثين الاجتماعيين التقليديين، والتى تتمثل فى أننا مجرد رواة للقصص فقط، فإننا نعتقد أن رواية القصة مع الأخلاقيات الحادة جدا للعلماء الاجتماعيين التقليديين تعتبر مناسبة هنا.

(٥) وهذا الادعاء هو تكرار قريب للرأى الذى اعتنقه كل من كريس أرجيريس وروبرت بوتنام وديانا سميث (١٩٨٥) فى "علوم الفعل". ولهؤلاء الذين يهتمون بالآراء حول هذه القضايا النابعة من اتجاهات متنوعة عليهم أن يقرعوا الفصل الخامس عشر عن "علوم الفعل والتعلم التنظيمى" والكتابات المركزة لكريس أرجيريس.

(٦) كان المحاضر هو روالد هوفمان **Roald Hoffman**، وهو أستاذ فى الخطاب الإنسانى بجامعة كورنيل. وقد تحمل جرينوود المسئولية الكاملة لأى ترجمة غير دقيقة للخطابات التى عرضها هوفمان.

(٧) أحد الأبعاد المرتبطة بالعلم كشكل من الفعل، والتى لم يتم تناولها فى المحاضرة هو الكمية الواضحة من الأخطاء والصعوبات التجريبية والإصلاحات التى يجب القيام بها فى أى عمل علمى. ويعلم معظم العلماء ذوو الخبرة أن العلم هو مزيج من قليل من الفهم العميق والاكتشافات وكمية هائلة من الروتين والملل، وغالبا العمل المعملى المحبط. فالإصلاحات والإيجابيات أو السلبيات المضللة والارتباكات والفوضى تعتبر كلها جزءا من الروتين اليومى للعمل العلمى.

(٨) أحيانا ما يستخدم مصطلح الأداء الاسترجاعى **retrodiction** ليشير إلى محاولات بناء التوقع عن العمليات الماضية خارج الصياغة النظرية، ومن ثم مقارنة النتيجة المتوقعة مع ما حدث تاريخيا. وهذا يبدو لنا ببساطة على أنه معنى آخر للتنبؤ، وإن كان نوعا مفيدا.

الفصل السادس

البحث فى العلوم الاجتماعية الأساليب، ونماذج العمل، واستراتيجيات البحث فى بحوث الفعل.

يدور اتجاهنا الفكرى حول بحوث الفعل (AR) على فهمها كإستراتيجية بحثية تستفيد من العديد من الأساليب المستخدمة فى البحوث الاجتماعية التقليدية، ولكن مع اختلاف طريقة وعملية البحث ككل وتميزها. ولتحديد موقفنا بدقة فإننا نضع الآن بحوث الفعل داخل منظومة واسعة من ممارسات العلوم الاجتماعية بصفة عامة. وبالطبع فسوف ندعو باحثى الفعل الذين يعتقدون أن بحوث الفعل هى بحوث مختلفة تماماً عن علوم البحث لتحديد آرائهم مكتوبة والاستجابة بطريقتنا لمناقشة هذه القضايا.

إن فكرة أن بحوث الفعل منفصلة عن كل اتجاهات البحث الاجتماعى المتاحة لا يمكن تبريرها عملياً، منذ أن أظهرت لنا الكتابات المتعددة فى أدبيات بحوث الفعل مدى تطور العديد من طرق وأدوات البحث العلمى التقليدى. ومفهوم بحوث الفعل كممارسة بحث مستقلة يعتبر أيضاً مضللاً من الناحية التاريخية. لقد بدأت العلوم الاجتماعية نفسها كنوع من الارتباط الاقتصادى السياسى، والذى استهدف الإصلاح الاجتماعى. ولكن عندما انقسمت العلوم الاجتماعية إلى مجموعة من العلوم والمعارف التقليدية المتنوعة الموجودة حالياً وتعرضت للمضايقات والتطهير Purges، نظراً لأن مذهب الفعالية الاجتماعية أدان بقوة ما فعلته العلوم الاجتماعية من انفصالها عن الفعل. لذلك تعتبر بحوث الفعل أكثر قرباً من شكل العلوم الاجتماعية

الأصلية وتوجيهاتها من **autopoietic** العلوم الاجتماعية التقليدية. ونحن نرى هذه العلوم الاجتماعية التقليدية على أنها اشتقاق فقير، حتى وإن كانت علوم متطورة ومعقدة نظرياً ومنهجياً، ونحن نعتقد أن بحوث الفعل هي الوريث الشرعى للعلوم الاجتماعية الأصلية.

والعيب الآخر الذى ظهر من اعتبار أن بحوث الفعل نوع منفصل عن البحث العلمى فى أنه سمح لباحثى الفعل الذين أكدوا على تميز وتفرد وعزلة بحوث الفعل بالادعاء بأنهم أصبحوا غير مؤهلين لاستخدام الطرق الكمية والكيفية الموجودة فى البحث العلمى بوجه عام. ونحن نعتقد أن هذا وضع خطير لأننا نعتقد أن باحثى الفعل يجب أن يكونوا على كفاءة عالية فى جميع أساليب البحث الاجتماعى الرئيسية، والنظريات وأيضاً الطرق القليلة وأشكال **Forms** العمل (مثل المؤتمرات البحث، ومؤتمرات الحوار والمصفوفات المتنوعة)، والتي تترافق بقوة مدارس معينة فى بحوث الفعل. وقد أصبح لدى باحثى الفعل تدريباً شاملاً أكثر من زملائهم الباحثين الاجتماعيين التقليديين. والتدريب على بحوث الفعل كاتجاه متميز للبحث يربك هذا المتطلب.

البحث الاجتماعى التقليدى وبحوث الفعل:

ولكى ننظم مناقشتنا نبدأ بالمقارنة بين البحوث الاجتماعية التقليدية وبحوث الفعل. ونحن نتحدث قليلاً جداً عن البحوث الاجتماعية التقليدية على أساس أنها مألوفة لدى القراء، ولكننا نستخدم هذه المقارنة لإلقاء الضوء للتشابهات والاختلافات بين البحوث الاجتماعية التقليدية وبين بحوث الفعل.

وقد وجدنا أنه من المفيد الحديث عن التنوعات البحثية كإستراتيجيات بدلاً من محاولة تقليصها فى مجموعة افتراضات وأساليب وأهداف معينة.

وكل أنواع البحث تتضمن حداً أدنى من التكنيكات الفردية، ونماذج العمل، وإستراتيجيات البحث الثابتة في مجموعة من الافتراضات الأساسية (المسلمات) المعرفية والنظرية والمنهجية.

إن ما نناقشه في الجزء التالي أمكن الوصول إليه من الكتب الأخرى التي تدخل تحت عنوان "الطريقة Method" أو "المنهجية Methodology". وهناك تعريف قياسي للمنهجية في كتاب سكواندت (Schwandt 1997a) على النحو التالي:

[المنهجية هي نظرية] كيفية التقدم أو السير في البحث أو الاستقصاء. إنه يتضمن تحليل المبادئ والإجراءات في مجال بحث (استقصاء) معين، والذي بالتالي يحكم استخدام طرق محددة. إن دراسة المنهجية تتضمن الموضوعات الرئيسية في فلسفة العلوم الاجتماعية (مثل التحليل والتفسير والنظرية السببية وغيرها) والأنثروبولوجيا الفلسفية (دراسة الطبيعة الإنسانية). (p. 93)

ومهما يكن فقد كانت مثل هذه التوجهات الفلسفية نحو المنهجية تتسم بالشمولية والغموض المبالغ فيه، والتي تفصل أيضاً المنهجية عن القيم. لذلك فقد فضلنا الابتعاد عن هذه الأفكار حول المنهج Method والمنهجية Methodology ونقوم بتنظيم مناقشتنا بشكل مختلف.

ونعتمد هنا على ثلاثة مفاهيم نستخدمهم للمقارنة بين بحوث الفعل والبحوث الاجتماعية التقليدية وفي التحديد الدقيق للخصائص الرئيسية لبحوث الفعل. وقد اخترنا أن نعرف الممارسات الواقعية في البحث الاجتماعي على أنها "أساليب Techniques" (على سبيل المثال الأساليب القياسية للعلوم الاجتماعية توجد في كتب وأدلة المنهجية التقليدية)، إن الارتباط بهذه الأساليب في بناء مجالات التعلم "كنماذج عمل Work Forms"، وإن العملية الشاملة لقيادة هذه الأساليب ونماذج العمل في بحوث الفعل في مشروعات

البحث تعتبر إستراتيجيه بحثية. وبذلك فإننا نستخدم مصطلح إستراتيجية البحث لتحديد الاتجاه الذى نتناوله ككل، والذى يتضمن التكنيكات والأوضاع المعرفية والقيم المدافعة أو المجسدة فى عملية البحث (الاستقصاء). وفى النهاية قمنا بعمل مقارنة مختصرة عن الأساليب ونماذج العمل وإستراتيجيات البحث فى البحوث الاجتماعية التقليدية وبعوث الفعل.

البحوث الاجتماعية التقليدية:

الأساليب Techniques:

تعتمد البحوث الاجتماعية التقليدية على الأساليب التى تتركز بطريقة أو بأخرى على المعارف التى تفترض الفصل الحاد بين الباحث وموضوع البحث. ومن المؤكد أن يكون هذا الفصل ممكنا بل مرغوبا. ويتم إعطاء الباحث المكانة الأعلى والأكبر على جميع مفردات البحث (الأشخاص موضوع البحث) من خلال تميزه بالتدريبات النظرية والعملية والتعليم الذى يسمح أيضا للباحث التقليدى بتفسير ما يذهب إليه فى الموقف بمستوى أكثر عمقا عن أى مستفيد خارجى يفترض استطاعته. وهذه الاستقلالية فى التفسير بالنسبة للباحث ليست أقل حقيقة فى الفلسفة البنائية الاجتماعية عنها فى الفلسفة الوضعية.

نماذج العمل Work Forms:

إن رؤية البحوث الاجتماعية التقليدية تخلق مجتمعات محكمة من الباحثين الاجتماعيين المهنيين ويحول بقية العالم إلى موضوعات للبحث. ويمكن رؤية هذه الأفكار بوضوح فى نماذج العمل التى تجسد هذا النوع من البحث. وليس من المفترض أن يكون للمستفيدين المحليين أى تأثير على اختيار موضوعات البحث وأساليبه ولا فى صياغة فروضه وجمع بياناته وتفسيراته أو عرض نتائجه بعد طباعتها. ويقود الباحثون التقليديون سواء

كانوا أفراداً أو فريقاً، كل أبعاد العملية العلمية للبحث. ومن خلال إبعاد المستفيدين المحليين من نماذج العمل والنماذج المعرفية، فإن الباحثين التقليديين يملكون النتائج نظراً لأن البيانات قد تم انتزاعها من مجتمع البحث، ويكون فقط لهذه البيانات معنى ودلالة عندما يتم التعامل معها بواسطة المتخصصين المهنيين في البحث.

إستراتيجيات البحث:

توجد ردود فعل مستمرة في البحوث التقليدية بمقدار تقدم واستمرار العملية البحثية. ويتم توجيه هذه العمليات بشكل أساسي نحو الارتقاء بالحد الأقصى لكفاءة وفعالية عمليات جمع البيانات وتحليلها والدفاع بقوة عن هذه العمليات. ولو كان هناك مساهمة في ردود الفعل هذه بين الجميع، فإن المساهمة تكون من نظرائهم من الباحثين المهنيين المدربين. وفي نهاية المشروع يقدم العلماء الاجتماعيون التقليديون رد فعلهم في معان ومضامين كبرى يعتقدون أنه من الممكن استخلاصها من المشروع، وأيضاً من خلال سياق مجتمع المهنيين المناظرين. ولا يوجد أى إلزام عليهم لعرض النتائج على مفردات مجتمع البحث ويفترضون بشكل عام أن معظم هؤلاء ليس لديهم اهتمام بهذه النتائج ولا قادرين على فهمها، ومن المهم بشكل خاص بالنسبة لنا أن العلماء الاجتماعيين البنائيين لا يوجد لديهم أى مشكلة في اتخاذ العلاقة الفوقية على مفردات مجتمع البحث كأمر مسلم به.

إستراتيجيات بحوث الفعل:

الأساليب:

إن كل طرق العلوم الاجتماعية المعروفة قابلة للتطبيق في كل مشروعات بحوث الفعل، ما دام أنها توضع في سياق التوافق مع قيم البناء الديمقراطي والمشارك للمعرفة. وفي إطار وجهة النظر هذه فجميع الكتب في

العلوم الاجتماعية التي تناولت المنهجية تعتبر مصدرا رئيسيا للأدوات التي يتم الاختيار منها.

نماذج العمل:

نشأت بحوث الفعل بواسطة كل من أساليب العلوم الاجتماعية ونماذج العمل التي تزيد من القدرة على البناء التعاوني لساحات التعلم. ويرجع باحثو الفعل بشكل منظم إلى الأدبيات والتطبيقات التي تناولت للتغير والنمو التنظيمي (انظر: Cummins & Worley, 2001) وإلى ما حددناه بالفعل على أنه الأساليب التي تم إنتاجها في بحوث الفعل نفسها (مثل مؤتمرات البحث، ومؤتمرات الحوار، والمصفوفات المتنوعة). وقد تم تحديد هذه الاتجاهات في كتاب ليفين وكليف (٢٠٠٠) على أنها نماذج عمل لبناء ميادين التعلم. وفي بحوث الفعل فإننا نجعل نماذج العمل والطرق العلمية تتفاعل طوال مشروعات بحوث الفعل لخلق فرص تعلم طبيعية لكل من الداخليين والخارجيين. وتستخدم الطرق والأساليب الفنية للعلوم الاجتماعية في تشكيل الخيارات في بناء ميدان التعلم، وتستخدم طرق البحث التحليلية في فهم عملية التعلم التي تتبع من أنشطة التغيير الواقعية ولادعم عملية بناء المعنى. إن العملية الجدلية بين التغيير وانعكاساته التي تقوم على أساس منهجية العلوم الاجتماعية تمثل الديناميكية الأساسية لإستراتيجيات بحوث الفعل.

إستراتيجية البحث:

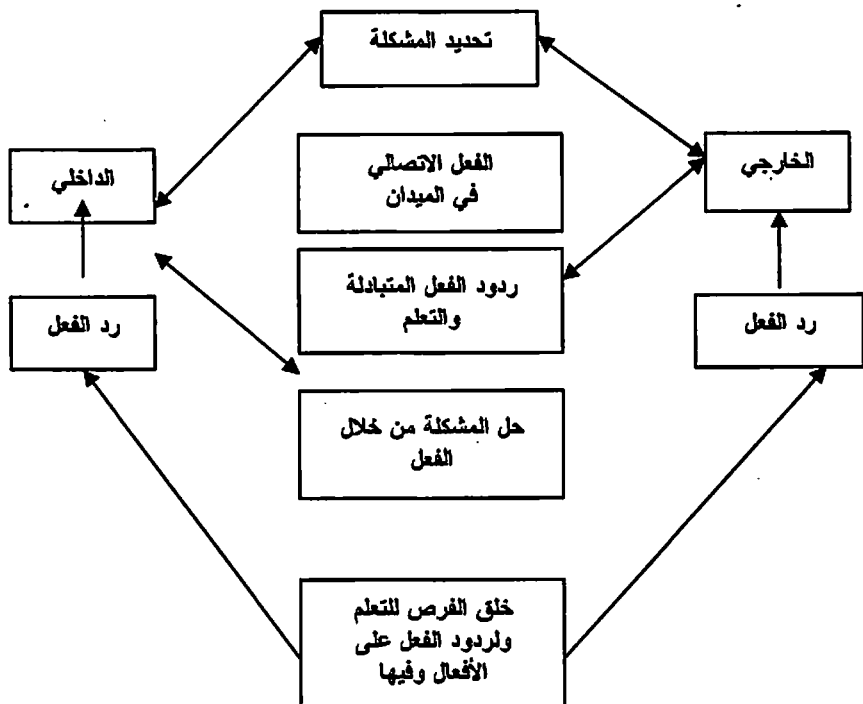
عندما نقوم بإنشاء مشروعات بحوث الفعل فإننا لا نختار فقط الطرق أو المناهج ولكننا يجب أيضا أن نخطط تخطيطا شموليا للتغيير الاجتماعي ولعمليات التعلم التي تحدث طوال فترة المشروع. وتستهدف عمليات بحوث الفعل توفير بيئة تعليمية لكل من أصحاب المشكلات والباحثين المهنيين. إن بناء المعرفة، والذي من المتوقع أن يحقق مكاسب لكلا الجانبين، يقوم على

أساس طرق البحث فى العلوم الاجتماعية المتاحة ككل وأيضا معارف وخبرات جميع المستفيدين فى عملية جيدة الإدارة للإنتاج التعاونى للتعلم. وهذه التبادلية تمثل قيمة ديمقراطية أساسية فى بحوث الفعل، وتعطى بشكل خاص صوتا للمشاركين وترسخ قيم حرية وحقوق وواجب المشاركين لتحمل جزءا من عملية بناء المعرفة. إنها تمنح الملكية والتمثيل المشترك فى تصميمات الفعل والمعرفة المشتركة.

نموذج الإنتاج التعاونى The Cogenerative Model:

يمكن التفكير فى بحوث الفعل على أساس أنها عملية تتكون على الأقل من مرحلتين منفصلتين تحليليا. تتضمن المرحلة الأولى توضيح قضية أو تساؤل البحث الأولى بينما تتضمن الثانية بدء عملية التغيير الاجتماعى وعملية بناء المعنى Meaning واستمرارهما. وهذا لا يعنى أن عملية تحديد المشكلة عملية نهائية، وفى الحقيقة فإن الإشارة الجيدة إلى التعلم الذى يتخذ مكانه فى مشروع بحوث الفعل يكون عندما يتم إعادة تشكيل التساؤلات الأولية لى تتضمن أبعادا مكتشفة حديثا.

ويمكننا توضيح نموذج الإنتاج التعاونى من خلال الشكل رقم (٦-١)، والذى نتبعه بمناقشة العناصر التى تكون نموذج الإنتاج التعاونى.



شكل رقم (٦-١) نموذج الإنتاج التعاوني لبحوث الفعل

ويتضمن هذا النموذج جماعتين رئيسيتين فاعلتين. جماعة الداخلين وهما محور اهتمام أى مشروع لبحوث الفعل. إنهم أصحاب المشكلات ولكنهم غير متجانسين. أو متساوين، وعلى أى حال ليسوا جماعة نموذجية. إنهم ببساطة أصحاب المشكلات. أما الخارجيون فهم الباحثون المهنيون الذين يسعون إلى عملية تعلم تعاونية تستهدف حل المشكلات المحلية، ويقدمون المساهمات إلى المحاضرات والمقالات العلمية. وكلا الخارجيين والداخلين متساوون ومختلفون. إنهم مختلفون نظراً لأن معظم الداخلين يتعايشون مباشرة مع نتائج أى نشاط تغيير فى المشروع، بينما يغادر معظم الخارجيين. والاختلاف الآخر يتمثل فى أن للخارجيين التأثير الرئيسى والمركزي على كل ما يركز عليه النشاط البحثي.

تحديد المشكلة :Problem Definition

يجب أن يكون لأى تساؤل أو مشكلة أهمية عظيمة للمشاركين أو للعملية التى سوف تذهب إلى أى مكان nowhere. وعندما يتحقق ذلك فإنه سوف يكون له قوة إضافية من خلال استخدام نماذج من المعارف المهنية ذات العلاقة فى المجال، كما فى حالة الثقافة التنظيمية فى مشروع موندراجون (انظر الفصل ٣).

ونحن هنا نناقش أن عمليات بحوث الفعل تتعامل مع حل المشكلات المرتبطة بالمشاركين. وفيما يتعلق بذلك فإن عملية البحث ككل تتبع من المطالب التى تظهر خارج المجال الأكاديمي. وهذا ما يختلف مع العلوم الاجتماعية التقليدية، والتى من خلالها يتم تحديد مشكلة البحث بغرض إحداث التطورات فى فروع العلوم بقدر ما ترغبه القوى الاجتماعية الرئيسية. ومع ذلك فإن المهنيين فى بحوث الفعل لا يقبلون تماما بنوع من التهور أى صياغة للمشكلات يقدمها المشاركون المحليون. ونحن نرى أن عملية تحديد المشكلة هى أول خطوة فى عملية التعلم التبادلى بين الخارجيين والداخليين. ولتسهيل العملية التى من خلالها يتم توضيح معرفة الداخليين فى علاقتها بمعرفة المهنيين الخارجيين، ويجب أن تسمح إجراءات ووسائل الاتصال ببنية الاتفاق التبادلى بين الطرفين على المشكلة. وتشمل هذه الإجراءات قواعد الحوار الديمقراطي الذى يتضمن الانفتاح والدعم المتبادل واقتسام فترة البث air time. إن أول تعريف عامل working definition للمشكلة تحت الدراسة يأتى من الحوار، والذى من خلاله تنتج معارف كل من الداخليين والخارجيين فهم متبادل وجديد من خلال اتصال كلا الطرفين.

ميادين الاتصال :Communication Arenas

إن القدرة على إيجاد مجال لعمليات التعلم والتى تنتج تفسيرات وتصميمات للفعل يثق فيها المشاركون تعتبر أساسية لعملية الإنتاج التعاوني

فى بحوث الفعل. ولتحقيق هذا الهدف فإن ساحات الاتصال بين الجماعات الفاعلة يجب تصويرها بوضوح كما فى شكل (٦-١). وهناك العديد من المواقع التى يواجه فيها الفاعلون بعضهم البعض فى جلسات مادية بغرض إجراء بحوث الفعل. ويمكن من خلال الساحة إجراء المقابلة بين اثنين أو أكثر من الناس، وجلسة بناء الفريق، ومؤتمر البحث، ومقابلات قيادات تنفيذ المهام، واجتماعات قيادات الجماعات، أو مقابلة العامة فى المجتمع. والنقطة الرئيسية هنا هى أن ساحة إجراءات الاتصال تتخذ مكانها فى البيئة الإنتاج التعاونى للتعليم والبحث التى تم بناؤها.

إن التحدى الرئيسى الذى يواجه أى مشروع بحث فعل هو تصميم ساحات مناسبة للاتصال حول المشكلات الأكثر أهمية للمشاركين المحليين. ويجب تصميم الساحات بحيث تتلاءم مع الاحتياجات المطلوبة لموضوع المناقشة. ولا يوجد اتجاه لتحديد حجم واحد مناسب لكل الأغراض. فإذا كان الغرض هو اجتماع كل أعضاء المنظمة فى عملية تطور تنظيمية، فإنه من الذكاء بوجه عام جمع كل الأعضاء فى حجرة واحدة لوضع الخطط لمشروعات جديدة. ومن ناحية أخرى فإن التعامل مع الصراعات التى تحدث بين مديرى أى منظمة من الأفضل أن ينصب على شكل جماعة القيادة. ويعتمد اختيار أو بناء الساحة المناسبة على المهارات المهنية للميسرين فى بحوث الفعل وخبراتهم، وأن الاختيارات المناسبة والجيدة تعتبر حيوية لأى مشروع ناجح من مشروعات بحوث الفعل.

وفى هذه الساحات فإن الاتصال بين الداخليين والخارجيين يهدف إلى إنتاج التعلم وفتح عملية لعرض ردود الأفعال حول الأجزاء المتضمنة. وتعتبر هذه المناقشات وردود الأفعال هى المحرك لحلقات التعلم المستمرة. ويقترح التركيز المبدئى على المشكلة تصميم ساحة للحوارات والمناقشات. وتنتج عمليات الاتصالات المتتالية التفاهات التى تساعد فى التحرك نحو حل المشكلة، وتكوين خبرات جديدة لكل من المشاركين الداخليين والباحثين المهنيين.

إن المحادثات والمناقشات التي تأخذ مكانها في هذه الساحات ليست متوازنة. فالمشاركون الداخليون يملكون فهما واسعا لظروفهم المحلية أبعد كثيرا عن ما يستطيع أن يصل إليه أى خارجي، وخاصة إذا لم يكن يقيم في مجتمع محلي معين أو منظمة معينة. وأيضا فإن الباحث الخارجى يأتي بمهاراته وآرائه التي غالبا ما تكون غير موجودة في السياق المحلي، والتي تتضمن معارفه عن كيفية تصميم عملية التعلم وإجرائها وعملية إدارة ردود الفعل.

إن عدم التناسق في المهارات والمعرفة المحلية يعتبر من القوى المهمة في الإنتاج التعاوني لتفاهات جديدة كنوع من الارتباط بين كل الأطراف لتكوين مفهوم واضح عن الموقف. وأيضا توفر النماذج الديمقراطية في بحوث الفعل العملية التي من خلالها تطلق الحرية للخارجيين للضبط لذلك يستطيع الداخليون أن يتعلموا ضبط وتوجيه عملياتهم التنموية الخاصة بهم. وهذه النماذج تترقى أيضا بتطور قدرات الداخليين للإبقاء على حواراتهم الداخلية الأكثر تعقيدا مع مجموعة أكثر تنوعا من المشاركين عن أن يكون لديهم الحالة بدون هذه المجموعة من خبرات التعلم.

إن مواقف عدم الاتساق بين الداخليين والخارجيين (Markova & Foppa, 1991) تقع في مركز التبادلات الاجتماعية المعقدة. ويقوم الخارجى بتصميم جلسات التدريب التي تجعل إمكانية تحويل المعرفة ممكنة، ويستخدم تأثيره في توجيه العملية التنموية. وعلى الرغم من عدم امتلاك الباحث الخارجى للوضع الرسمي في الهرم التنظيمي، فإنه يبذل الجهود للتأثير من خلال توقعات المشاركين الذين يلعبون الدور الأكبر في تصميم عمليات التغيير وإدارتها. إن التعامل بأمانة وانفتاح مع قوة هذه التوقعات الممنوحة للباحث تعتبر التحدي المركزي في عمليات التغيير في بحوث الفعل. ولهذا تأثير كبير على تطور عمليات التعلم المحلية، ومن السهل إساءة استعمال هذه القوة.

وفى بداية عملية البحث يتخذ الباحث الخارجى القرارات ويعلم المشاركين المحليين ويدربهم على أساليب التعامل مع المشكلات التى تعتبر مهمة بالنسبة لهم. وفى نفس الوقت يكون الباحث الخارجى مستجيبا لتشجيع المشاركين الداخليين على اتخاذ المواقف المناسبة لضبط العملية التتموية. إن التزام الباحث الخارجى نحو إطلاق الجماعة قريبا من النهاية، أحيانا يكون صعبا لتحقيق المتوقع منه، ولكن فى الغالب يكون ذلك أسهل فى تحقيقه من تنمية قدرات المشاركين المحليين على ضبط وتوجيه العملية التتموية المستمرة طبقا لاهتماماتهم.

ولكى يصبح المشاركون لاعبين فعالين فى عملية التغيير فلا بد أن يتدربوا على القوة ويمارسوها. إن عدم الاتساق الأولى بين الباحثين الخارجيين والمشاركين الداخليين يمكن أن يصل إلى التوازن فقط عندما يتم تحويل المعرفة والمهارات من الباحثين المهنيين إلى المشاركين الداخليين ونقل المعلومات والمهارات من المشاركين الداخليين إلى الباحثين الخارجيين. وفى النهاية لتعزيز هذه العملية فلا بد أن يضطلع بها المشاركون المحليون. ولا تستطيع عمليات بحوث الفعل تحقيق التزاماتها الديمقراطية إذا لم تزد القوة الدافعة لهذه العملية من ضبط وتحكم المشاركين الداخليين على الإنتاج المستمر للمعرفة وعلى الفعل. إن التدريب المعيارى فى بحوث العلوم الاجتماعية التقليدية ونظام المكافأة الأكاديمية ككل يركز بقوة على إعادة التدريب على ضبط التحكم فى كل من تصميم وتنفيذ أنشطة البحث، والتعامل مع هذا التحكم كسمة مميزة للكفاءة المهنية.

إن الكفاح من أجل حل المشكلات المحلية «المهمة بشكل أرضية لتفاهات جديدة، ومن هنا فإن حلقات التغذية العكسية المزدوجة تظهر فى الشكل (٦-١). ذلك يمكن القول إنه، من خلال الأفعال التى يتم اتخاذها كنتيجة لعمليات الإنتاج التعاونى، يتعلم المشاركون أشياء جديدة عن المشكلات

التي تواجههم، وغالبا ما يراجعون تفاهماتهم ويعدلونها بوسائل أساسية. إن نتائج هذه العملية الجماعية للفعل وردود الفعل تدعم إيجاد تفاهمات مشتركة جديدة. ولعل أكبر هذه الأرصديات المشتركة هي الاتصالات المثمرة فيما بينهم، والاحتمال الأقوى والأكبر هو أن إضافة مزيد من الفهم العميق يمكن أن ينمو من خلال الأفعال وردود الأفعال القائمة على أساس هذه المعرفة المشتركة. وهذا من الممكن أن يفتح تباعا أساليب جديدة لصياغة مشكلات بحوث الفعل، وكذلك نتائج التعلم المستمر لكل الأطراف، والتي تتضمن الباحثين المهنيين.

التغذية العكسية Feedback:

تعتبر دوائر التغذية العكسية متشابهة لكل من المشاركين الداخليين والباحثين الخارجيين، ولكن تختلف إلى حد بعيد اهتمامات كل منهما، وكذلك التأثيرات التي تحدث لهم Experience من عملية الاتصال. بالنسبة للمشاركين الداخليين فربما يكون مهما لهم أن يحسنوا من قدراتهم المعرفية وعلى أداء الفعل، بينما بالنسبة للباحثين الخارجيين تكون من خلال عمليات ردود الفعل، والتي تنتج المعاني (نشرات وفهم عميق) لبحوث المجتمع. وكل من هذه العمليات الانعكاسية هي عبارة عن تغذية عكسية في عمليات الاتصال، وبالإضافة إلى أن تشكيل ساحات للحوارات الجديدة يستهدف إما إعادة تحديد المشكلة الأولية أو تحسين قدرات حل المشكلات المحلية. وكل الدوائر مثل ذلك تستمر طوال حياة المشروع.

خلق الميادين Creating Arenas:

إن التحدي الأكبر لبحوث الفعل هو إيجاد أول سؤال جيد، والذي يشارك فيه على الأقل جزئيا جميع الأطراف المتضمنة، وخاصة في البداية.

إن التدريب التقليدي للباحثين الأكاديميين يجعلهم مناقشين ومجادلين خبراء مع العديد من أشكال الممارسة في إدارة النماذج النظرية Conceptual Models. ويمكن أن يخلق هذا موقف من السيطرة على الاتصال، والذي يضعف عملية الإنتاج التعاوني. وهذا الموقف هو ما أطلق عليه براثين (1973) Brathen "النموذج الاحتكاري Model monopoly". لقد حدد هذا الموقف وحلله، والذي يسيطر أحد جوانبه، خلال مهارات الاتصال وتناول أنواع معينة من النماذج النظرية، والتي تزيد باستمرار من البعد بين الداخليين والخارجيين. وبالإضافة إلى ذلك فإن المكانة الاجتماعية المهنية وسنوات التدريب الرسمي ربما تقنع الناس على تقبل مجموعة من وجهات النظر بسهولة. وعندما يحدث ذلك فإن هناك تهديدا خطيرا لعمليات بحوث الفعل بسبب أنها تصرف الانتباه عن وجهات النظر المحلية، والتي تعتبر مركزية ورئيسية للبدء في أى عملية بحوث فعل. إن باحثي الفعل المهرة هم الذين يطورون من قدراتهم على التحديد الدقيق للنماذج المحلية وفهمها وأن يكونوا متأكدين من أنهم مرتبطون بقوة في عملية الاتصال.

لذلك فإن بحوث الفعل هي عبارة عن إستراتيجية لإدارة التنوعات المختلفة من الأساليب ونماذج العمل الموجهة نحو التغيير في عملية تصميم مقصودة للإنتاج التعاوني للتعليم، والذي يكشف عن المشكلات الضاغطة، وتصميم إستراتيجيات الفعل التي تقوم على أساس البحث في المشكلة، ومن ثم تطبيق النماذج الحرة للفعل التي تظهر وتقيمها. وبينما تتسم توجهات الباحثين الاجتماعيين التقليديين نحو حركة التتوير المهني، فإن توجهات بحوث الفعل تتجه نحو تحقيق أهداف اجتماعية معينة، وليس إلى إنتاج معرفة التي تشبع فضول أو تقابل بعض الاحتياجات المهنية الأكاديمية.

ما بحوث الفعل التى ربما لا تنفذ :What AR may not do

على الرغم من تركيزنا على أن أى نوع من أساليب البحث الاجتماعى وعملياته قابلة للاستخدام فى بحوث الفعل، فإن هناك بعض القيود على كيفية تعامل باحثى الفعل معها. فبعض من الأساليب والطرق تعتبر غير مقبولة إذا تضمنت الحرمان المتعمد لجماعة ما من المستهدفين من الدعم أو المعلومات التى تؤثر عليهم بوسائل مهم. إن العمليات التى يتم ضبطها تماما بغرض تحقيق التقدم فى العلوم الاجتماعية المهنية أو لإشباع فضول الباحثين الخارجيين بدون أى فائدة للمستفيدين المحليين، غير مسموح بها فى بحوث الفعل. وربما لا يطالب باحثى الفعل من المستفيدين المحليين بما لا يستطيعون تحقيقه لأنفسهم. ولو أن الكشف عن الاهتمامات والأهداف يعتبر جزءا من بناء الساحة أو الميدان، فيجب على الباحثين الخارجيين أيضا الكشف عن اهتماماتهم وأهدافهم فى الموقف. وربما لا يصادر باحثو الفعل أو ينتزعوا الملكية الفكرية التى تم إنجازها فى عمليات بحوث الفعل. إن كل النتائج عبارة عن ملكية مشتركة فى هذه العملية التعاونية، وأن أنواع التفاوض المعقدة (المركبة) حول تداول هذه النتائج التى تم إنتاجها، سواء فى المجالات العامة أو فى مجالات النشر تعتبر شرطا ضروريا فى بحوث الفعل.

بحوث الفعل ليست مجرد بحوث كيفية:

لقد أكدنا منذ البداية على أنه من الخطأ أن نفكر فى بحوث الفعل على أنها بحوث "كيفية Qualitative"، ومع ذلك يقع العديد من باحثى الفعل وغير باحثى الفعل فى هذا الخطأ. إنه من الواضح بالنسبة لنا أن حصر بحوث الفعل فى اتجاه البحوث الكيفية يعتبر غير مقبول تماما وغير متسق

مع طبيعة مشروعات بحوث الفعل نفسها. ويجب أن تستخدم بحوث الفعل البحوث الكيفية والبحوث الكمية أو مزيجا من الأساليب والطرق التى يتضمنها كلاهما حينما تسمح الظروف أو طبيعة موضوعات البحث التى يتناولها فريق باحثى الفعل حسب الحاجة. فإذا كانت المهمة التى يتم التعامل معها تتضمن العد والمعاينة والتحليل العاملى، وتحليل المسارات، أو تحليل الانحدار، فإن هذه الأساليب تستخدم. أما إذا كانت الموضوعات مرتبطة بقضايا الرأى وقصة أو تاريخ المجتمع أو المعانى المنطقية الكلية للحوارات والمعالجات، والبناءات الثقافية للمواقف الإنسانية محور اهتمام بحوث الفعل فإن البحث التعاونى هنا يتطلب استخدام الطرق الكيفية المناسبة. إن تحليل قواعد البيانات القائمة على أساس النصوص (الرسمية وغير الرسمية، وتكنولوجيا المعلومات المساعدة) وتحليل القصص، وتواريخ الحياة، والسير الذاتية، والجماعات البؤرية والمقابلات بكل أنواعها وتحليل الوثائق وغيرها من الأساليب التى يمكن استخدامها، والكثير منها يمكن تعلمه واستخدامه بواسطة الأعضاء غير الأكاديميين فى فرق بحوث الفعل.

ولا يوجد أى منطق للدعاء بأن بحوث الفعل أكبر من مجرد كيان منهجى واحد أو آخر. إن بحوث الفعل هى عبارة عن إستراتيجيات بحث متعددة الطرق، وكما فهمنا منذ فترة بعيدة أنها مزيج من الطرق المتعددة قد تم تحديدها سياقيا. وبينما يبدو هذا الصوت كمبدأ، فإنه يضع باحثى الفعل فى موقف صعب، بسبب أنه بينما يوجد تحسينات مهمة فى عملية تطوير الإجراءات والدفاعات المعرفية عن البحوث متعددة الطرق، فإن المناقشات المعرفية والمنهجية للبحث متعدد الطرق مازالت غير مكتملة النمو.

لذلك نضع بحوث الفعل أعباء ثقيلة على الباحثين الاجتماعيين المهنيين. ولعل من السخف القول إنه يجب على باحثى الفعل أن يكونوا على

أعلى درجة من الكفاءة فى جميع طرق البحث الاجتماعى، وهذا دائما ما يكون مثاليا. إن أى شىء لا تعرفه، وأى نقص فى كفاءتك وعدم القدرة على التعلم بسهولة لا نستطيع نقله إلى المستفيدين المحليين لاستخدامه فى الميدان. لذلك يجب على باحثى الفعل الواقعيين الانفتاح على كل الطرق، وأن يبذلوا الجهد لتعلم الكثير عن هذه الطرق، وأن يتعلموا أن يكونوا مؤيدين لنشر هذه الطرق فى مشروعات بحوث الفعل كلما كان ذلك ضروريا.

إن الحياة مع الوعى بطبيعة حدودنا يعتبر واحدا من المظاهر الرئيسية لوجودنا كباحثين فعل مهنيين. إن المتاعب التى ربما نواجهها نجدها أفضل كثيرا من ثقافات الإشباع الذاتى للخبرة المهنية فى العلوم الاجتماعية التقليدية، والتى يكون فيها السيادة والتفوق البسيط يمنح المكانة والمكافآت المهنية. إن إجراء بحوث الفعل يعتبر ممارسة راسخة تتسم بالتواضع.

إن بحث الفعل هو بحث وليس بالضبط عملا "جيد Good"، وغالبا ما يخطر الناس فى عمليات مشاركة وتغيير ديمقراطى، مدعين أنهم يقومون بإجراء بحوث فعل، ولكن البعض يتطلع باختيار عنصر البحث فى مشروعاتهم، فالمشاركة والتضامن فى الغالب موجودة، ولكن لا توجد أغراض محددة للبحث وراء عملية جمع البيانات وتحريك الجهود. إن الباحثين الاجتماعيين التقليديين ينظرون إلى تقارير ومشروعات بحوث الفعل وغالبا ما يدعون اهتمامهم بها. (انظر: Sorensen, 1992)

وليس مدهشا لو أطلق على شىء ما أنه بحث، ومن ثم فيجب أن نعتقد أنه بحث. إننا نتوقع أن المعرفة التى تم إنتاجها من خلال عمليات بحوث الفعل يكون لديها "بناء يعرض المادة الخام الكاملة داخل المناقشات والعمليات المحلية، والتى بواسطتها يتم إعادة ترتيب وتكثيف عملية الوصول إلى نتائج موثوق بها" (Cronbach & Suppes, 1969). وهذا يتضمن عملية

واضحة وشفافة لتحليل البيانات، والتي تؤدي إلى نهاية إلى معرفة موثوق بها، وهدف أساسي من إنتاج المعرفة العلمية. ويجب أن تكون عملية البحث مقنعة للأشخاص الذين يدخلون في اتصالات مع البحث. لذلك فإن العمل الجيد لا يجعل المشروع كمثال لبحوث الفعل. فلا بد أن يكون هناك فعل وبحث في علاقة قوية بين كل المشاركين في ميدان (ساحة) إنتاج تعاوني لمشروع يستحق أن يطلق عليه بحث فعل.

وهنا يوجد توتر داخلي. فمشروعات الفعل تدين بولائها الأول للمستفيدين المحليين ولقضاياهم. ولكن لكي تستمر بحوث الفعل في التطور وأن تستمر إستراتيجيات وعمليات التعلم لبحوث فعل فعالة في النمو فلا بد أن تتخذ العمليات والنتائج شكل المعرفة الموثوق بها، والتي يمكن أن يساهم فيها بفعالية الممارسين والباحثين والمستهدفين المحليين في أى مكان.

وبينما قد يبدو ذلك غير ممكن، فإنه بالتأكيد لا يحدث. إن عدم الإمكانية الواضح لإعادة توفيق أو إصلاح هذه الأهداف هو أساسا نتاج للأساليب التي اتبعتها العلوم الاجتماعية التقليدية لعقود عديدة من الزمن. وفي الممارسة فإن موضوعات وتعقيدات وأساليب وتفسيرات وإستراتيجيات مشروعات بحوث الفعل تقترب من جميع القضايا الرئيسية في العلوم الاجتماعية، والتي تتضمن القضايا المعرفية الكبرى والقضايا النظرية، والقضايا المنهجية، والتي يتم مناقشتها بانتظام. ولكن الفرق أن بحوث الفعل لا تتواصل مع هذه القضايا من خلال المجال الأكاديمي، ولكن تتعامل مع هذه القضايا في السياق التطبيقي مع المستفيدين المحليين الذين يتسمون بحسن الاطلاع. إننا نوجد معرفة قوية اجتماعيا من النوع الدقيق، والتي تطالب النماذج والأشكال الكبرى في العلوم الاجتماعية بأن تكون هدفا ضروريا لتحديث محاولات ومساعي العلوم الاجتماعية في القرن الحادي والعشرين.

القدرة على التشغيل (الإيجابية) والشرح

Workability and Explanation

بينما تستخدم العديد من الأساليب فى بحوث الفعل، وبعض العمليات التى تتخذ مكانها أيضا فى بحوث الفعل وتعتبر مألوفة بالنسبة للباحثين الاجتماعيين نوى الخبرة، فإن النهايات (الأهداف) تتشابه عندما تأتى إلى التشغيل - مثال ذلك فالحكم على كفاءة التفسير طبقا لكيفية عمله بشكل حسن عندما يعمل يكون وفقا للسياق المحلى. إن البحوث الاجتماعية التقليدية لا تظهر أى اهتمام لعملية التشغيل (الإيجابية) ككل. وبدلا من ذلك فإن الاختبارات المهنية المحكمة (الاحتمالات الإحصائية، والمدى والتكرارات) تستخدم للوصول إلى جودة النتائج. وهنا فإن الفجوات الواسعة بين بحوث الفعل والبحاث الاجتماعية التقليدية تكون بسبب تركيز بحوث الفعل على إنتاج معرفة جديرة بالثقة واستخدامها فى تصميم الأفعال وتوجيهها وتقييم النتائج. إن الإيجابية تعتبر هدفا رئيسيا فى أى مشروع لبحوث الفعل، وبصفة خاصة من وجهة نظر المستفيدين المحليين.

ويبدو التركيز على الإيجابية بالنسبة للبحوث الاجتماعية التقليدية يعتبر ضد العقلانية. ونعتقد أن ذلك على العكس تماما. فالافتراض بأن النظريات الكبرى وصقل الطرق المفضلة والبارعة، والتى ليس لكل منهما إيجابية (تشغيل) فإنها تبدو لنا بقوة على أنها إنجاز فكرى (عقلى). ولكن بنفس المعطيات فإن ما يعمل فى السياق لذلك ليس مفهوما، تماما. ولكن بطريقة أخرى فإن التشغيل (الإيجابية) الناجحة لا تخلق تلقائيا فهما معقولا عن لماذا يعمل شيئا ما: إنه يظهر فقط أنه فعل.

لذلك عندما يتم الوصول إلى حل ناجح (أو حل غير ناجح) لمشكلة معينة، فربما تبقى مجموعة من الاضطرابات (الارتباكات) التفسيرية للحل

من أجل إعطاء معنى واضح (مفهوم) للنتائج القابلة للتطبيق والاستفادة منها سواء محليا أو لباحثي الفعل فى أى مكان. وبكلمات أخرى فإن الإيجابية (التشغيلية) هى موضوع (نقطة) البيانات الأساسية، ولكنها ليست النقطة النهائية فى عمليات بحوث الفعل. ومع ذلك فإنها تظهر أنك تقدم حلا عمليا لمشكلة معينة. ويحتاج الانتقال من الإيجابية (التشغيلية) إلى المعرفة الموثوق بها التى أمكن الإسهام فيها من خلال مشروعات بحوث الفعل إلى إخضاع النتائج القابلة للتطبيق للتحليلات العاملية (Counterfactual) للبحث عن الأدبيات ومعرفة حالات الاتجاهات الأخرى التى أظهرت نفس النتائج. وفى الحالات الأخرى التى يمكن أن توجد - المسئولية الواضحة للمهنيين فى بحوث الفعل - ومن ثم فإن التفسيرات المحلية لبحوث الفعل عن لماذا تم اتخاذ الفعل ولماذا كانت التأثيرات التى قاموا بها تتعارض أو تتباين مع التفسيرات الممكنة الأخرى التى ربما أخذت فى اعتبارها النتائج. وبهذه الوسيلة فإن التفاعلات بين الحالات التى تم إيجادها تعتبر المظهر الرئيسى فى تطور الجانب المهنى فى بحوث الفعل.

ومع ذلك فربما يبدو أن هذا فقط يفيد باحثى الفعل، وليست هذه هى الحالة. وعندما يرتبط كل من المستفيدين المحليين والباحثين المهنيين فى انعكاسات متبادلة ومناقشات عن هذه المصادقية الواسعة، يكون لديهم الدعم الكافى للعملية. ويحتاج الباحثون المهنيون إلى فهم ما يمكن تعلمه، وكيف يمكن توصيله إلى جميع السياقات المتنوعة فى المجتمع. ويحتاج المستفيدون المحليون إلى أن يكونوا قادرين على الدفاع عن نتائجهم، وتقاهماتهم مع الأشخاص الخارجيين حول دعم مشروعاتهم، وتمويلها، أو أن التفاهم يكون ضروريا لاستمرار العملية التى انخرطوا فيها. وكل منهما يحتاج إلى مد هذه التفاهمات إلى ما وراء السياق الحالى.

الخلاصة:

لقد رأينا أن بحوث الفعل ليست طريقة، ولكنها وسيلة للقيادة التضامنية لعمليات البحث الاجتماعى لتعزيز عمليات التغير الاجتماعى التحررية. وقد أكدنا على أن بحوث الفعل تستطيع تقريبا أى أسلوب بحث يوجد فى أى من العلوم البحتة، والعلوم الاجتماعية والإنسانيات عندما يكون أى من هذه الأساليب مناسباً سياقياً للإدارة التضامنية لعمليات البحث. إن البحوث الكمية والبحوث الكيفية والطرق البحثية المختلطة والحوارات المحكمة كل ذلك من الممكن أن يكون جزءاً من مشروعات بحوث الفعل. أما الأساليب البحثية التى لا تستخدم فقط فى مشروعات بحوث الفعل هى الأساليب التى لا تساعد بفعالية المستفيدين الداخليين أو تضرهم. ونحن نرى أن الوصول إلى بحوث فعل تتسم بالكفاءة يتضمن تعلم مجموعات كبيرة من أساليب البحث ونماذجها وتعلم كيفية إدارة وتسهيل عمليات البحث التعاونية والمساعدة فى عمليات توثيق وتركيب النتائج ومضامين الفعل. وأخيراً فإننا نشير إلى أن القابلية للتطبيق (الإيجابية) والمصادقية بين جميع عناصر السياق تعتبر مظهراً أساسياً لعمليات بحوث الفعل.

الهوامش

(١) خصص كل من ليقين وكليف (٢٠٠٠) قسم كامل لهذه المناقشة.

الفصل السابع

إنتاج المعرفة فى بحوث الفعل

أنواع الجدول بين المعرفة المحلية والمعرفة القائمة على البحث العلمى

يتناول هذا الفصل أكثر المناقشات تكاملاً عن عملية توليد (إنتاج) المعرفة فى بحوث الفعل. وبالعودة إلى نموذج الإنتاج التعاونى فى الفصل السادس فإن القضية الحيوية والمهمة فى عملية إنتاج المعرفة فى بحوث الفعل تتصادم بين المعتقدات *insights* المحلية وبين تلك التى تأتى من الخارج ودمج هذه المعتقدات فى فهم عام ومشترك يمكن أن يكون كأساس لحل المشكلات العملية. وهذان هما الشكلا الأساسيان للمعرفة، سواء كان كل منهما مرتبطين أو غير مرتبطين. إن إحدى الوسائل لفهم العلاقة بين المعرفة المحلية والمعرفة الخارجية هى إدراك الارتباط بينهما كحالة جدلية. إن اقتراح أو التأكيد على أحد هذين الشكلين (افتراض) يواجه بالعديد من التساؤلات والاقتراحات المضادة (افتراض عكسى)، ونتيجة لهذه المواجهة الودية بين وجهات النظر المتباينة يبدأ الفهم (دمج وجهتى النظر) فى الحدوث تدريجياً.

لذلك فمن المهم توصيف وتنظير العملية الجدلية لتكوين المعرفة كسياق محدد وارتباط قوى بعملية حل المشكلات العملية أو التطبيقية. وتواجه المعرفة المحلية بالمعرفة القائمة على أساس البحث العلمى، ويتم تقييم فهمها (إطارها) النظرى على أساس مدى قدرتها على تكوين المعنى والفهم للأحداث اليومية الجارية. ومن خلال منظور المعرفة محددة السياق *context-bound knowledge* فإن المعرفة المحلية تتشكل وتتكون بواسطة

الأفكار والاستبصارات القائمة على البحث العلمى والمعرفة النظرية. ولكن يجب أن يكون لهذا المنظور الخارجى القدرة على شرح وتفسير الظواهر المحلية المحددة، والتى تساهم فى رضا وإشباع سكان المجتمع المحليين (المستفيدين المحليين). وتكمن العملية الجدلية بالطبع هنا فى ما الذى يتخذ مكانه بقوة هنا فى بناءات التعلم. وهذه العملية تم تناولها فى الفصل السادس فى مناقشاتنا حول بناء النموذج.

وبهذه الخلفية فإننا نتحرك قدما لمناقشة أسس تكوين وبناء المعرفة فى بحوث الفعل. وعلى الرغم من الميل إلى افتراض أن المعرفة القائمة على بحوث الفعل تعكس الإجماع، فإنه فى بحوث الفعل لا توجد قاعدة تتادى بأن المعرفة القائمة يجب أن تعكس الإجماع بين الباحثين وبين المشاركين المحليين. وفى المقابل فإنه من الضرورى بناء معرفة جديدة تعكس التنوع المعرفى بين المشاركين المحليين والباحثين الخارجيين. وهذا بالضبط ما يجعلنا مدركين وواعين للطبيعة الجدلية والدينامية لهذه العلاقة. إن عملية الإنتاج التعاونى للتعلم هى معالجة متموجة وحلقة جدلية مستمرة.

وفى كل وجهة نظر يتم فهم الحقيقة لكى تكون أفضل معرفة منطقية ويمكن قبولها بواسطة جميع العناصر المكونة لمنطقة محددة فى العملية التعاونية، ودائما ما تكون مؤقتة ومشروطة بالخبرات الجديدة، والتى تغير وتبدل النتائج السابقة للجهود التى تم القيام بها. إن الأوضاع الجديدة التى تم اتخاذها بواسطة أفراد أو جماعات فاعلة يمكن أن تتحدى أو تدعم المعرفة القائمة بالفعل. وتستطيع أن تدفع هذه الحركة أكثر إلى هذه العملية الجدلية.

وللانتهاى من هذا الفصل، فإننا نتعامل مع كيفية التواصل أو الكتابة عن إنتاج المعرفة فى مشروعات بحوث الفعل. ونحن نرى أن معظم أو كل الكتاب قد وقعوا فى أخطاء فادحة مرتبطة بالعلاقة أو التفرقة بين المعرفة المحلية

والمجتمع العلمى. وغالبا ما نجد أيضا وصف الحالات بدون الاعتماد على النظرية، أو إعطاء القليل سواء لمجتمع البحث أو لممارسة السكان المحليين، أو نجد النصوص المكتوبة بلهجة علمية تخفى فيها العناصر المرتبطة ببحوث الفعل. إن وجود الصوت الذى يحافظ على العناصر الأساسية لبحوث الفعل يعتبر نوعا من التحدى إلى حد بعيد. إن الاستخدام المتطور للقصص يعتبر جزءا من الحل، وأيضا يصف بالتفصيل دوائر التعلم التجريبية.

المعرفة المحلية والمعرفة القائمة على البحث العلمى الاجتماعى:

يتسم الباحثون الاجتماعيون المهنيون وأعضاء المجتمع وتنظيماته وشبكاته فى بحوث الفعل بالتعاون الفعال فى كل خطوات وعمليات البحث. فكل منهم يساهم بالأنواع العديدة من المعرفة والأفعال والإجراءات فى المشروعات التى تجمعهم وتربطهم. وليس لدى العلوم الاجتماعية التقليدية أى مشكلة فى فكرة الباحثين الاجتماعيين الخبراء، ولكنهم يرفضون بوجه فكرة أن الناس المحليين غير المدربين فى نظريات ومناهج العلوم الاجتماعية التقليدية يستطيعون تقديم مساهمات فعالة فى عمليات البحث الاجتماعى، سواء على مستوى الشكل أو الجوهر. وتقوم بحوث الفعل على أساس تأكيد أن جميع الناس لديهم معارف واسعة ومعقدة وذات قيمة عن حياتهم وبيئاتهم وأهدافهم. وهذه المعارف تختلف عن المعارف العلمية، ذلك لأن المعرفة التى يتم اكتسابها يوميا تتجسد فى أفعال الناس وتصرفاتهم وتواريخ حياة عميقة فى أوضاع ومواقف متنوعة، والأساليب التى تتعكس عنها. وهذا النوع من المعرفة يختلف عن الكثير من المعارف العلمية التقليدية وذلك بسبب أن المعرفة العملية والتفكير العلمى والمعرفة الضمنية Tacit تعتبر خصائص مركزية ومهمة. (Carr, & Kemmis, 1985; Schwandt, 1997b)

إن بحوث الفعل تركز على المعرفة المنتجة على أساس تعاوني، والتي تقف بين المعرفة، القائمة على التفكير أو المنطق العلمي للعالم وبين المعرفة المبنية على أساس علمي. إننا نؤكد تفوق أو سيادة أى نوع من المعرفة، ولكننا نؤكد على أن المعرفة السائدة هي التي تجمع بين جميع أنماط المعرفة في دراسة جميع المشكلات المعقدة وإيجاد الحلول المناسبة لها. وهذا ما أطلقنا عليه مصطلح العلاقة الجدلية **Dialectical relationship** بين المعرفة المحلية والمعرفة المهنية. وتسعى بحوث الفعل إلى إقامة جسر بين هذه المعارف من خلال التكامل بين الممارسين والمهنيين من العلماء في نفس عملية إنتاج المعرفة والتي نطلق عليها مصطلح تعلم الإنتاج التعاوني **Cogenerative Learning**. ومن خلال هذه العمليات التعاونية فإن جودة البحث العلمي سوف تتعزز وتزداد نظرا لأن المشاركين المحليين يستطيعون أن يسهموا بمعارفهم المحلية وتحليلهم لها في البحث، ويستطيعوا أن يلتزموا بفعالية بالأطر العلمية التفسيرية الخارجية. وبذلك يمكن أن يزداد التفكير العملي الذي يوجه أفعال المشاركين الداخليين أو المحليين ويعمل على إعادة تشكيل هذه الأفعال من خلال توصيل المعرفة العلمية وتحويلها للاستخدام في التعامل مع مشكلات الحياة اليومية.

إننا لا نرى أى اختلافات جوهرية في المعنى بين المعرفة المحلية والمعرفة العلمية، فكلاهما عبارة عن بناءات اجتماعية، ولكن كلا منهما وضع ضمن أنظمة مختلفة. إن النظرية المحلية هي سياق محدود وتقدم تفسيرات وخبرات ملموسة في سنوات محدودة من العمليات المحلية. وهذه العمليات وصفها بشكل متكامل كل من بيرجر **Berger** ولوكمان **Luckmann** في مؤلفهما البناء الاجتماعي للواقع **The social construction of reality** (1966). وقد أظهر المؤلفان بوضوح أن عمليات البناء الاجتماعي تخلق الفهم على مستويات مختلفة من النظريات الأولية أو البدائية اليومية وحتى النظريات

العلمية المنهجية. وتتميز هذه النماذج من المعرفة بواسطة بناء العمليات الاجتماعية ومحتواها، والتي شكلت الظروف التي ساهمت في بنائها.

ويمثل الهدف الرئيسى لبحوث الفعل فى إنتاج معرفة تمثل الجسر بين هذين النوعين من المعرفة. هذا هو الوضع الذى يتطابق تماما مع ما صرح به جون ديوى بأنه لا توجد فروق جوهرية بين ما يطرحه الناس العاديين من معارف وأفكار لحل مشكلاتهم التى يعانون منها وبين ما يطرحه العلماء لحل مشكلاتهم العلمية.

ونحن نعتقد أن الناس المحليين يعملون بمهارة على أساس معرفة صادقة مناسبة، ذلك أن أنساق المعرفة المحلية تتسم بالتمايز والدينامية ولا تحتاج إلى تدريب رسمى أو منظم، إنه من المناسب للناس أن يقدموا المبررات والتراخيص اللازمة للفعل القائم على تحليل جيد. لذلك تعتبر مشاركة المستفيدين المحليين ضرورية فى أنشطة أى بحث اجتماعى. وقد رفضنا بوضوح فكرة أن المعرفة الصادقة يمكن إنتاجها فقط بواسطة الأشخاص الخارجيين الذين يتسمون بالموضوعية ويعتمدون على الطرق الموضوعية التى تقلل من عاملى الخطأ والتحيز.

فليس من الضرورى أن نشير إلى أنه عندما يتخذ المستفيدون فى المجتمع إجراء أو فعلا معينا فإن ذلك يؤدى إلى تحقيق النتائج المرغوبة لهم بنجاح. وبالنظر أو التفكير فى أى شخص باستثناء العلماء الاجتماعيين المدربين على أنه ممارس اجتماعى هاوٍ أو غير محترف فإنه يعتبر غير مقبول فى الفكر الأكاديمى العلمى. وبالتحديد بسبب أن المستفيدين المحليين يتخذون الأفعال والإجراءات الضرورية من وجهة نظرهم فى بيئاتهم، وبالتالي فإن الأخطاء المترتبة على ذلك تعتبر واضحة ومهمة بالنسبة لهم وغالبا ما تظهر بسرعة. وكذلك نجد أن الباحثين الاجتماعيين التقليديين الذين

يهتمون بالربط بين البحث والفعل فنادرًا يعرفون ما إذا كانوا فى الموقف الصحيح أو الخطأ. كما أنه نادرًا ما يكون للنتائج التى توصلوا إليها تأثيرات ملموسة، ونادرًا ما يكون للنتائج العملية لبحوثهم تأثيرات مباشرة عليهم.

وعلى الرغم من أهمية المعرفة المحلية، فإن أدبيات بحوث الفعل لم توفر الكتابات الكافية عنها. وقد كرر بعض باحثى الفعل مصطلح المعرفة المحلية، حيث يزون أن هذا المصطلح يشير إلى المعرفة الحقيقية على العكس من المعرفة الزائفة والطبقية التى يفرضها الخارجيون المسيطرون. والبعض الآخر يتعامل مع المعرفة المحلية على أنها حقيقة تتضمن مزيجًا من التحليلات والمعلومات بعضها مفيد والبعض الآخر غير مفيد، بعضها مساعد ومعين والبعض الآخر ربما يكون خاطئًا وخطيرًا. وتعتمد وجهة النظر المتاحة عن المعرفة المحلية جزئيًا على نسق معتقدات وآراء باحثى الفعل عن الطبيعة الإنسانية، والظروف الإنسانية التى تسبق بوجه عام أنشطة بحوث الفعل. وتعتمد أيضًا بشكل جزئى على خبرات باحثى الفعل فى الميدان على الاستفادة من المعرفة المحلية فى الفعل، ونتائج توظيفها فى عمليات التغيير.

وتعنى المعرفة المحلية لبعض باحثى الفعل ببساطة المعرفة الداخلية، أى المعرفة التى يمتلكها الناس فى المجتمعات أو فى التنظيمات. ويفهم البعض الآخر المعرفة المحلية على أنها المعرفة المنظمة الأكثر تفصيلاً وتعقيدًا فى الموقف والمجتمعات المحلية. أما وجهة النظر الأخرى فترى أن المعرفة المحلية تنتمى أساسًا إلى الناس داخل المجتمع أو المنظمة، ولكن يستطيع أيضا الناس الخارجيون عن المجتمع تطوير وتكوين أنواع مختلفة من المعرفة المحلية من خلال البحوث الإثنوجرافية **Ethnographic** الأنثروبولوجية القائمة على أساس الارتباطات والعلاقات المحلية خلال

مراحل زمنية طويلة نسبيا. ولكل وجهة نظر من وجهات النظر هذه نتائج مختلفة ومتباينة، سواء كانت أيديولوجية أو منهجية.

ويتركز فهمنا للمعرفة المحلية على النظر إليها على أنها التفكير العملي في الفعل وردود الفعل المحلية للمشاركين المحليين نحو أفعالهم. ونستطيع القول إن هذا المفهوم عن المعرفة يعود إلى مفهوم *phronesis* لأريستوتل *Aristotle*، والذي يشير إلى القدرة على استدعاء الفعل أو الإجراء الذي يتطلبه أى موقف. (Toulemin, 1996,p.207) وكما حدد كل من إيكيلاند (1992) *Eikeland* وشواندت (1997b) *Schwandt* ذلك على أنه نمط مختلف من المعرفة يستخدم في العصر الحالي لتطوير نظريات اجتماعية علمية. ولعل من أهم اهتمامات بحوث الفعل هو توفير وإيجاد عملية بحثية تلقى الضوء على التفكير العلمى القائم على التركيبات والتشكيلات المحلية والمعنى المبني على أساس اجتماعي. (Berger & Luckmann, 1996) لذلك تحاول بحوث الفعل إقامة جسر بين المعرفة المحلية والمعرفة العلمية من خلال التعلم الإنتاجي التعاوني في عملية تؤدي إلى تكوين معرفة محلية جديدة وتفاعلات علمية جديدة.

ليس من المهم أن نحدد أى وجهات النظر التي يتبناها باحث الفعل عن المعرفة المحلية، لأنه من الواضح بشكل عام أن للمعرفة المحلية يتم فهمها في بحوث الفعل بشكل مختلف عن العلوم الاجتماعية التقليدية. وعلى الرغم من ظهور العديد من الحركات المعاصرة مثل البنائية الاجتماعية *Social constructivism* وأشكال تحليل المقال أو الخطاب *Discourse analysis* والتركيز القوى على البحوث الكيفية، فإن سيطرة العلوم الاجتماعية التقليدية حفظت للباحثين الحق والقوة لتكوين البناءات أينما وجدت المعرفة. ولم يطلب معظم الباحثين التقليديين هذه القدرة أو الحق في تكوين وحدات منفصلة من

المعرفة الموضوعية **Objective Knowledge**، والتي تتسم بأنها مترابطة وتخضع للمقارنات والمقارنات الرسمية والفرضيات والتركيبات العلمية والتظير خارج سياق المعرفة المحلية. وحتى إذا كان العالم الاجتماعي التقليدي ليس منتما إلى الوضعية المنطقية فإنه يحتفظ بحقه فى أى تكوين والتعبير عن ما يفكر فيه الناس، وكيفية تفكيرهم، وما يتضمنه هذا التفكير بدون التدقيق فى تصوراتهم ومفاهيمهم عن المعرفة المحلية للمستفيدين المحليين. إن تحديد ما هو صحيح أو مهم أو غير مهم يتم من خلال قرارات الباحثين الاجتماعيين المهنيين وليس لتخمينات الهواة قليلة الخبرة.

ويوجد هذا التصور عن إنتاج معرفة البحث الاجتماعي نوعا من التناقض بين إنتاج المعرفة فى البحث العلمى وإنتاج المعرفة المحلية، لأن المعرفة المحلية يتم بناؤها داخليا أى داخل المجتمع ويتم نقلها من خلال تنوعات واسعة من الوسائل المحلية ويتم ترجمتها وتوصيفها فى بناءات قصصية واسعة ومتنوعة. ونحن نعرف من خلال الإثنوجرافى والأنثروبولوجيا الوصفية وكذلك خبرات بحوث الفعل أن البناءات القصصية أو الروائية للمعرفة المحلية غالبا ما تكون هى العناصر الأساسية فى عمليات البناء والتعلم والتطبيق. ونظرا لأن بحوث الفعل تعطى اهتماما وتمييزا خاصا للمعرفة المحلية، فإنها تهتم بالدور الذى تلعبه التقارير القصصية فى عملية البحث تماما مثل تركيزها على كتابة نتائج البحث. إن معظم علماء الفلسفة الوضعية وكذلك هؤلاء الذين يعتمدون على أساليب البحوث الكمية يصفون التركيز القوى لبحوث الفعل على المنهج القصصى على أنه غير علمى وغير قادر على إنتاج المعرفة العلمية الصحيحة.

وقد ناقشنا بالفعل فى الفصل الرابع قضية الشرعية أو المصادقية **validity question**. وهنا نريد أن نركز على أن قضية الشرعية أو

المصادقية تحدث بعض المناقشات غير البناءة بين الباحثين فى البحوث الاجتماعية التقليدية والباحثين فى بحوث الفعل. فالكثير من علماء البحث الاجتماعى التقليدى يساوون بين المعرفة المحلية وبين المعلومات غير الصادقة أو على الأقل المعلومات الذاتية غير الموضوعية. إنهم يعتقدون أن الناس غير المدربين لا يستطيعون إنتاج معرفة صادقة بسبب افتقارهم للمنهجية والتدريب، وعدم التزامهم بالموضوعية بالإضافة إلى النزعة الشخصية فى عمليات التفسير. وفى المقابل يميل بعض بحوث الفعل إلى مساواة المعرفة المحلية بالمعلومات الصادقة، ويعتقدون أن المواطنين غير الملوثين (المتأثرين) بالرأسمالية هم فقط الأقدر على رؤية الأشياء بوضوح. عموما لا يوجد رأى مقنع من كلا الرأيين. فلو اعتقد أى شخص أن الناس المحليين هم دائما على صواب أو على خطأ، أو ليس هناك حاجة إذن للنظريات والمناهج وغيرها- فإن هذا يشير بوضوح إلى التركيز على المناقشات الجدلية غير البناءة وليس على كيفية إجراء البحث الاجتماعى.

ونترك الآن جانبا هذه المناقشات الجدلية ونركز على المدى والوسائل التى تم من خلالها بناء المعرفة المحلية تاريخيا ومدى استطاعتها للتحرك قديما وما تعتمد عليه أو تؤثر فيه وقدرتها على التفسير، وتعلم كيف استطاعت نتائج البحث القائمة فى جزء منها على المعرفة المحلية أن ترتبط أو تتصل بفعالية إلى ما هو أبعد من المواقف المحلية التى تم إنتاجها فيها. لقد تم إيجاد (خلق) معرفة جديدة من خلال مناقشة خطوط التباين fracture lines بين المعرفة المحلية والمعرفة المهنية.

عملية إنتاج المعرفة:

إننا نعتقد أن بحوث الفعل بالإضافة إلى قدرتها على إنتاج المعرفة الصادقة والفعل الاجتماعى الفعال فإنها أيضا تعتبر تجسيدا للأفكار

الديمقراطية في ممارساتها الأساسية. وتكمن هذه الممارسات الديمقراطية في عمليات البحث ونتائجه. ففي بحوث الفعل يجب أن تكون عمليات البحث ديمقراطية بحيث تكون مفتوحة وتتسم بالمشاركة الفعالة والعدالة بين جميع المشاركين فيها. وبالإضافة إلى ذلك فإن نتائج بحوث الفعل يجب أن تؤيد وتعزز اهتمامات المشاركين لذلك تزيد المعرفة التي تم إنتاجها من قدرتهم على التحكم في مواقف حياتهم الخاصة. ونحن نلخص هذا المعنى المزدوج للممارسة الديمقراطية بالإشارة إلى بحوث الفعل على أنها الإنتاج المشترك (التعاوني) للبحث **Cogenerative research**.

إن الجهود الرئيسية التي بذلت لجعل البحث ديمقراطيا أحدثت تغييرا في دور البحث والباحثين. إن الديمقراطية مطلب لا يمكن الارتقاء به إذا لم يكن المشاركون - أيا كانت طريقة اختيارهم - قادرين على الإسهام في عملية بناء المعنى. وفي نفس الوقت فإن الباحثين المدربين لا يستطيعون إعطاء معنى للحياة الاجتماعية المحلية بدون تأمين روابط اتصال مع المشاركين المحليين. إن التوتر الدينامي والمستمر بين المعرفة الداخلية والخارجية تعتبر أساسا لعملية الإنتاج التعاوني للمعرفة.

ونحن نعتقد في بحوث الفعل أن عملية الاتصال ككل يمكن أن تكون أكبر وأعظم من مجموع الأجزاء. فالباحث الخارجي يتم مساعدته بشكل كبير في تعلم أشياء لم يكن يعرفها من قبل، أو يتحقق له الإدراك بشكل مباشر من خلال الحوار مع الداخليين، وأيضا من خلال المشاركة في ممارسة الأفعال والإجراءات وفهمها. وكذلك يعيد الداخليون تشكيل وتقييم معارفهم الخاصة كاستجابة لتساؤلات الباحثين الخارجيين. ويحقق كلا الجانبين الفهم المطلوب من خلال التفاعل فيما بينهم. وكلا الجانبين لديهم شبكة معقدة من الأهداف والاهتمامات والتفسيرات للبناءات والعمليات التي يرتبطون بها. ويمكن أن يكون كل ذلك متاحا أو على الأقل جزئيا لكل منهما من خلال عملية الإنتاج التعاوني.

الحفاظ على الاختلافات :Maintaining Differences

وفى بحوث الفعل يتم التعامل مع الباحثين الداخليين والخارجيين على أساس أنهم متكاملون بسبب أنه من المتوقع أن يتصرف كل منهم طبقا لخلفيات وأسس علمية ولكل حقوق متساوية للاستماع والإنصات إليهم. ومن المهم أيضا أن الباحثين المهنيين فى بحوث الفعل لا يحاولون أو لا يطالبون بأن يكونوا باحثين داخليين. فالباحث المهني لابد أن يكون دائما باحثا خارجيا، حيث يشغل موقعه فى مواقع مؤسسية ومهنية تضع من ضمن متطلباتها معايير مهنية وأخلاقية للتصرف.

ويتمثل التحدى الذى يواجه عملية الإنتاج التعاونى للمعرفة فى هذا الموقف غير المتوازن فى اغتنام الفرصة من الاختلافات بين الجانبين. فالباحثون الخارجيون والداخليون يوجدون معا الأرضية المناسبة لتعلم جديد لكل المشاركين، حيث تعتبر الاختلافات بينهم واحدة من المساهمات الرئيسية التى تتضمنها العملية. ويعتبر تقليل الاختلافات أمرا ضارا وغير مرغوب فيه فى بحوث الفعل. إن عملية تعلم تقييم الاختلافات وبناء أفعال وإجراءات شاملة تأخذ فى الاعتبار الخلفيات أو الأرضيات المشتركة لدى المستفيدين يعتبر عملية مركزية فى بحوث الفعل. لذلك لا تستهدف التركيبات (الحوارات) synthesis فى العملية الجدلية التقليل الاختلافات بين المشاركين.

بحوث الفعل تأخذ وقتها AR Takes Time:

تبنى أى عملية لبحوث الفعل على الاتصالات والأفعال بين الأجزاء التى تتضمنها، ومن خلال أدبيات البحث وخبرات الحياة اليومية فكلنا يعرف أن الارتباط أو الانخراط فى حوارات شيقة متبادلة يتطلب وقتا لتعلم كل طرف وأيضا إيجاد لغة مشتركة ومقبولة لجميع الأطراف. وبناء على ذلك

فإن عمليات بحوث الفعل تتطلب استثمار الوقت بشكل يدعم ويشجع الاتصالات والتفاعلات، والتي تكون أرضية مشتركة من الفهم. لذلك ليس هناك أى معنى لأى عملية فى بحوث الفعل تتسم بالسرعة، وأى اتجاه لبحوث الفعل يعد بنتائج سريعة يجب التعامل معه بدرجة كبيرة من الشك. ووفقا للمقولة الشائعة والقائلة إن أى شخص لا يعرف متى يبدأ أو ينتهى مشروع بحث الفعل، فإنه يعتبر خارج العلاقات الاجتماعية، بل ويمكن استنتاج أن العلاقات الاجتماعية قد تفككت أو انتهت.

حل المشكلة التطبيقي المحدد السياق

Practical context-bound problem solving

من المهم التركيز على أن إنتاج المعرفة فى عملية بحوث الفعل يتم من خلال محاولات شعورية أو واعية لحل مشكلات عملية واقعية. وعلى ذلك فإن الإيجابية فى هذه الحلول توجد الجسر الذى من خلاله يتم بناء المعرفة. وفى هذا السياق لا توجد أى إستراتيجية فى بحوث العلوم الاجتماعية الأخرى تربط بقوة عملية إنتاج المعرفة بالممارسة اليومية للأشخاص الفاعلين الذين تتضمنهم عملية إنتاج المعرفة كما فى بحوث الفعل. ومن جانب آخر فعلى سبيل المثال نجد أن إنتاج المعرفة فى الهندسة لا تختلف بشكل حاد وكبير، حيث لا تعتبر أى تطورات هندسية صحيحة إلا إذا ساهمت التكنولوجيا المبتكرة أو الخلاقة أغراضها بالكفاءة المطلوبة.

اختيار الأساليب الفنية ونماذج العمل

Choice of techniques and work forms

لا يوجد حجم واحد مناسب لكل بحوث الفعل، وعندما يتساوى فى الأهمية كل من المعرفة المحلية، والقصصية واتجاه الإنتاج التعاونى للمعرفة

فلا يوجد خطة عمل لدمجهم فى نموذج واحد فى عمليات بحوث الفعل. فالمعرفة المنتجة فى بحوث الفعل ترتبط بسياق العمل. ويتم اختيار أساليب ونماذج العمل لكى تلائم المشكلات التى يتم التركيز عليها فى سياق معين. لذلك يعتبر الإنتاج التعاونى أو المشترك إطار عمل للتفكير فى كيفية اختيار الأساليب والنماذج الملائمة - وليست مجرد إجراء بسيط. ويجب أن تتوافق تماما وضروريا مع تطور التنوعات الكبيرة لأساليب وبرامج البحث.

إن تصميم مجالات الاتصال هذه (انظر الفصل السادس) واستخدام عمليات جماعة معينة يجب أن يكون ناتجا بشكل دائم عن تقدير (وتقييم) موقف معين. لذلك عندما يكون لدى الحى أو الجيرة اهتمام كبير بأمر حياتهم الاجتماعية والاقتصادية، فإن الأساليب الفنية القائمة على بناء الإجماع أو الاتفاق العام ربما تكون هى الملائمة. إن استخدام منهجية مؤتمر البحث **Search conference methodology** (انظر الفصل التاسع: بحوث الفعل البرجماتية) ربما تكون مفيدة وملائمة. وبالمقابل فى الموقف الذى تظهر فيه الصراعات بين الجماعات الواضحة، سواء كانت هذه الصراعات ظاهرة أو كامنة، على سبيل المثال فيما يتعلق باستخدام الموارد الطبيعية فربما تكون إستراتيجية الصراع **Conflict- bridging strategy** هى الأكثر فائدة. إن الممارس الأكثر مهارة فى بحوث الفعل يجب أن يكون قادرا على قراءة المواقف المحددة أمامه وإعطاء معنى لها، واستخدام بصيرته ومهارته فى اقتراح طرق تصميم عملية بحوث الفعل فى كل حالة، حيث يوجد تآلفات أو مجموعات متحدة من المعرفة المحلية والعلمية، والفاعلين والعمليات المتنوعة. (ص. ١٠٩)

ونحن نتعاطف مع أى رفض لفكرة تلائم اتجاهها معيناً لبحوث الفعل نظراً لأن إنجاز بحوث الفعل تعنى الارتباط بعملية متفق عليها تتضمن

الأفعال المتبادلة وردود أفعالها. ويفكر الممارس المهني الماهر باستمرار في الخبرات الميدانية ويبحث عن كل ما هو ضروري للمساعدة في عملية التغيير ويحتفظ بالتحرك نحو كل ما يمكن تعلمه وتعبه. إن هذا المزيج (الخليط) من الأساليب ونماذج العمل والمستفيدين المحليين يعتمد على السياق بما يتلاءم مع العملية، والتي تتضمن سواء الانعكاسات وردود الأفعال على الفعل **Reflection-in-action**، أو الانعكاسات وردود الأفعال الناتجة عن الفعل **Reflection-on-action** : انظر أيضا الفصل رقم ١٥ علم الفعل والتعلم التنظيمي. وهذا هو الشكل الجوهرى فى تطبيق بحوث الفعل.

كتابة (تسجيل) بحوث الفعل **Writing Up AR**:

يتمثل التأثير الثانوى لتطبيق مفهوم الجدلية كأسلوب لوضع تصور لإنتاج المعرفة فى بحوث الفعل فى توضيح وتحديد ديناميات عملية إنتاج المعرفة. إن المعرفة لا يتم بناؤها مرة واحدة، ولكنها تنتج من تعاقب وتوالى المواجهات الجدلية (المناظرات العلمية، وجهات النظر المتعارضة للوصول إلى تركيبات جديدة)، حيث تنتج فى كل مرحلة المعرفة التى تعتبر أفضل ما هو متاح فى وقت معين، حيث تعتبر مفهومة ومتقفا عليها بين الباحثين الخارجيين والأشخاص الداخلين المشاركين فى عملية إنتاج تعاونية، ولكن تعتبر هذه المعرفة مؤقتة وقابلة للتطوير والتحسين وفقا بواسطة التحديات والمتغيرات الجديدة. وما دام يتم تشجيع عملية الارتباط أو الاندماج بين الأشخاص الفاعلين فإن الجدلية تعتبر العامل الرئيسى فى إنتاج المعرفة.

وبتناولنا لطبيعة عملية إنتاج المعرفة فى بحوث الفعل نجد أن عملية الصياغة أو الوصف لا تتوافق مع أساليب العلم التقليدية. إن عملية التغيير التى تنهض بالمعرفة يجب أن تتقل جيدا وبشكل واضح من الداخل. ولفعل

ذلك يجب أن تنتقل المشاركة في العملية والتصورات العلمية في المشروع وتطورها بواسطة مختلف المستفيدين من أوضاع ومواقع الفاعلين فيها.

وتحتاج بحوث الفعل إلى نوع من الكتابة يعكس بصدق الطبيعة الدينامية والمتطورة لهذه البحوث، والتي تعيد للقارئ صياغة العناصر الأساسية في دوائر التعلم التجريبي. فربما لا يكون القارئ في حاجة إلى فهم كل نتائج التعلم، ولكنه يحتاج إلى توصيل واضح لمعظم تاريخ التعلم في المشروع. وهذا يتطلب دمج النمط القصصي داخل دوائر التعلم التجريبية.

والقصص أو الروايات كما نراها بشكل عام هي أكثر الأساليب الواعدة لوصف التجارب والخبرات في بحوث الفعل. وهذا لا يعنى بالطبع أن يقوم باحثو الفعل بصياغة القصص التي لا تدعم العلاقة بين النظرية والممارسة. حقا إن التحدي هنا يتمثل في إيجاد علاقة ارتباطية مقنعة بين النظرية والممارسة. إن أكثر الحلول وضوحا لهذه المشكلة يتمثل في إيجاد نص مكتوب له معنى متفق عليه بين الممارسين والعلماء. وهذا لا يمنع أننا نحتاج إلى الكتابة في النشرات والمقابلات المختلفة التي تتراوح بين الدوريات العلمية والجرائد العادية. والمهم هنا أن هذه النصوص يتم بناؤها بشكل عام في صورة نموذج قصصي يتسم بالشفافية والوضوح عن المشروع الفعلي. وبالطبع فإن هذه النشرات أو المقابلة هي محل خلاف كما سنوضح ذلك لاحقا. ونتيجة لكل ذلك تتخذ كتابة بحوث الفعل في الغالب شكل دراسات الحالة Case Studies مع عمل مناقشات مفصلة للعمليات التي قامت بها الجماعة لإنتاج المعرفة التي ارتبطت بها وعملت من خلالها. ونتيجة لذلك تتبع معظم بحوث الفعل الكتابات القصصية المتعددة الأساليب البنيائية والبلاغية.

معظم العلماء الاجتماعيين فيما عدا أصحاب المذاهب البنائية وما بعد الحداثة، ينتمون إلى الفلسفة الوضعية ولديهم نظرة ضيقة هو ما يضع معايير

مهنية ذات معنى. ويرون أن القصص يصعب فهمها ويصعب التحكم فيها وربما تثير بعض المخاوف. وبكل أسف من وجهة نظرنا مع رواج وزيادة استخدام نماذج الاختيار العقلاني أو المنطقي فإن دفاع ومقاومة العلماء الوضعيين قد أدت إلى زخم - صحيح بالتناغم مع عودة غير المحافظين إلى نظام العولمة - وأن بيئة العلوم الاجتماعية التقليدية غير مفضلة تماما للتحليل القصصي.

وقد حصلت بحوث الفعل على معظم قوتها من خلال القصص ذلك أن القصص بصفة خاصة تستدعي وتبوح بتواريخ محددة وعمليات والتزامات وكفاح ومعارك وهزائم وانتصارات، وهذا يعتبر جوهر الإنتاج الجدلي التعاوني. فمن خلال القصص ربما نصل إلى العديد من الأنواع، وكل قصة تشير إلى موقف معين ومجموعة معينة من الارتباطات بين العناصر (الناس والتنظيمات والأحداث). ولكن كتابة القصص لا تتعارض مع إنجاز المساهمات العلمية. وكما بذلنا جهدا كبيرا في الفصلين الرابع والخامس في القول إنه لو تطورت القصص في مشروعات بحوث الفعل أخبرتنا القصة أنه عند الاختلاف مع معظم التعميمات في العلوم الاجتماعية، فإن معظم التعميمات خاطئة أو يجب تعديلها لكي تغطي الحالة. والقصص تعتبر قوية علميا.

على سبيل المثال فإن عملية التعميم السائدة بين النظريات الاقتصادية هي أن التعاونية لا يمكن أن تتنافس بنجاح مع إدارة الأعمال غير التعاونية. وقد أظهرت دراسة موندراجون (Greenwood et al, 1992) Mondragon أن التعاونية تعتبر أكثر نجاحا من المتنافسين المباشرين فيها. وقد أكدت ذلك الأحداث المتلاحقة بوضوح. لذلك تعنى القصة لموندراجون أن التعميم عن اللاتنافسية في التعاونية كما تحددت غير صحيحة وغير صادقة.

وخلال الخمسة عشر عاما الماضية فإن إعادة تقييم القصصية قد تطورت من خلال الاعتراف بأن البحث الاجتماعي هو مجموعة من

التفاهات المبنية على أساس اجتماعي نتج عنها عدد من البناءات المنطقية. وهذه البناءات لها خصائص قصصية، وهذه الخصائص القصصية نفسها يجب تحليلها لفهم كيفية أن تحليل هذه المقالات والمعالجات قد ساهم في إيجاد معان محلية، وأصبح مقنعا وسائدا.

ولم يمر وقت طويل حتى أظهر ما كتبناه عن أنه اتجاه يتسم بالغموض الواضح وتم صرف النظر عنه. ولكن عانت العلوم الاجتماعية التقليدية من العديد من الأزمات في أعمالها. ومن خلال حصولها على المنح فقد كان من الواضح أن جزءا كبيرا من الناس قد فقد الإيمان بالمحاولات التي قامت بها العلوم الاجتماعية التقليدية. حيث وجدوا أنها غير منطقية وتخدم نفسها، ويتم فهمها على أنها تافهة أو خاطئة. إن الجهود المزعجة التي قامت بها هيئة علماء الاجتماع الأمريكيين والهيئة الأمريكية الأنثروبولوجية في السنوات السابقة للمطالبة بالقيم المدنية لنظمهم تعتبر رد فعل دفاعي عن فقد هذه العلاقة.

قصص التعلم التجريبي **Narratives of experiential learning**

تعتبر القصص كما نراها وسيلة مهمة وقوية لتسجيل (بطريقة عميقة ومنظمة) الخبرات الناتجة عن الأنشطة التي تتم في مشروعات بحوث الفعل. ولكنها تعتبر غير كافية وحدها في صياغة نص جيد يربط بين الأفكار وأنواع الفهم المختلفة في بحوث الفعل، فنحن نحتاج إلى أدوات أخرى. ودعنا نبدأ بتلخيص العناصر الحيوية والجوهرية في بحوث الفعل. الأنشطة التي تدور في دوائر حول التجريب الفعال، وانعكاسات النتائج، وإعطاء معنى لما تم لصنع أو إيجاد هذه النتائج. وهذه البناءات أو التركيبات للمعنى، والتي هي بالفعل تجسد التكامل بين أصحاب المشكلة من الداخل والباحثين

الخارجيين نقود إلى القيام بأفعال جديدة متاحة وممكنة، والتي تعتبر أفضل مقابلة أو إشباع ممكن لأهداف المشروع. وفي هذه الوسيلة يمكن تصور عمليات بحوث الفعل على أنها سلسلة من العمليات التي تختبر وتتعلم من النتائج وتوجد فهما عميقا يقود إلى أفعال جديدة. وهذه هي العملية التي من خلالها يتعاون الخارجيون والداخليون في إنتاج المعرفة التي تقود إلى هذه الأفعال الجديدة. وعند تسجيل أو كتابة بحوث الفعل من المهم التركيز على هذه الحلقات المتعاقبة من التعلم. فبعض هذه الحلقات يعتبر قصيرا وبسيطا والبعض الآخر طويلا ومعقدا، والبعض له تأثير قليل على المشروع بينما للبعض الآخر تأثير مهم وجوهري في تحديد النتائج والوصول إليها.

وسوف نحدد عملية تسجيل بحوث الفعل من وجهة النظر هذه الحكم الواعي أى من سلسلة التعلم تضع محددات الحالة الجارية للمشروع وأيها لا تحدد. وفي النموذج القصصى يجب أن تكون هذه السلاسل هي الوسيلة التي من خلالها تتواصل الأحداث في المشروع، بطريقة واضحة وشفافة ولديها بنية ومساحة كافية تمكن من القراءة المتعمقة والنقدية. ومن خلال وجهة النظر هذه يكون لدى القارئ الفرصة لكي يتخذ قراره أو حكمه الشخصى على عملية البحث، وعلى نتائجها الملموسة والعملية، بل ويساهم فى أدبيات البحث التي وردت فى هذا النص.

ومتابعة لهذه التوصية فإنه من الواضح أن نصوص بحوث الفعل تقع فى منطقة تتقاطع خط النشرات العلمية القائمة على أساس البحوث التقليدية. فالمعرفة التي تم إنتاجها فى المشروع يتم نقلها إلى القارئ بحيث تتبع نفس المنطق الأساسى الذى تحقق فى المشروع الحقيقى. وهذا يسمح للقارئ أن يرى كيفية مساهمة السياق السياسى والاقتصادى فى نتائج المشروع. ومن وجهة النظر هذه فإن هذا النوع من النص الملتوى (الحلزونى) هو الأقرب

لتطور الحياة الواقعية عن الكتابة الخطية، وسوف يشكل بالتالى فهما أكثر ثراء وفهما واضحا لبحوث الفعل.

النشرات التقليدية Conventional Publications

يمكن إنتاج النشرات البحثية التقليدية عن بحوث الفعل عندما يتعلم الباحث شيئاً ما عن الاهتمام النسبى للمشاركين المحليين، ولكن ربما تكون هذه هى القضية الرئيسية فى أدبيات البحث. ومع ذلك فنحن نعتقد أن نتائج البحث التى تكونت على أساس صلب ومتين مقارنة بنتائج معظم العلوم الاجتماعية التقليدية بسبب الارتباط لمدة طويلة من الزمن وتتمية الفهم المشترك مع الداخليين فى بحوث الفعل.

الكتابة التفصيلية Joint Writing:

يمكن أن تحدث الاتصالات بالمجتمع العلمى من خلال التعاون بين الداخليين والخارجيين فى بحوث الفعل. (انظر؛ Mondragon case in Chapter 3, and Levin, 1988, Levin et al., 1980a, 1980b) وعلى الرغم من أن هذه العملية معقدة وتوجد العديد من القضايا الجديدة حول التأليف والخصائص العقلية وغيرها، فإنه لا خلاف على أن الداخليين والخارجيين يستطيعون أن يرتبطوا ويتصلوا معا مع مجتمع البحث المهنى.

وهناك خيارات عديدة فيما بينهم. أحيانا يتم إنتاج تقريرين أحدهما خاص بالمستفيدين والآخر لممارسى بحوث الفعل. وأحيانا يتم إنتاج تقرير للمستفيدين فقط وهكذا. وتعتمد هذه البدائل على سياق المستفيدين وأهدافهم فى المشروع.

ردود فعل الداخلين :Insider Reflections

يعتبر التعاون فى إنتاج التقارير مع الباحثين الخارجيين أحدث وسائل تقديم العلمانيين Laypeople لأسلوب لكتابة كأداة للتعلم الانعكاسى. إن عملية الكتابة، والتي تتضمن العديد من أدوات التفكير العلمى (العمل مع البيانات، والتحليلات، والاستنتاجات) يمكن أن تأتى بأبعاد جديدة لإنتاج المعرفة المحلية. وعلى الرغم من أن هذه الوسيلة لبناء العملية الانعكاسية أو عملية ردود الأفعال لا يمكن أن تكون بديلا عن التفكير العلمى (الواقعى) اليومى، فإنها يمكن أن تكون أداة مفيدة جدا للمجتمعات والتنظيمات المحلية فى ترتيب أمورهم. ويزيد الداخلون أيضا من تفكيرهم العلمى من خلال مشاركتهم الخبرات وأنواع التعلم من الأفعال التى يقومون بها كأعضاء فى فريق بحث الفعل. وكل هذه العمليات تجرى بشكل مستقل عن جهود الباحثين الخارجيين، ومع ذلك تعتبر جزءا من عمليات بحوث الفعل.

How good is good enough to call project AR

نكون واعين فى عملية الكتابة هذه وفى خبراتنا الفصلية بأنه عندما نؤكد على المثاليات فى بحوث الفعل فإننا نغالى فى الحالة ونجعلها تظهر أن هناك معايير عالية وفوقية يجب أن تخضع لها بحوث الفعل. إن بحوث الفعل ليست عمليات مثالية تحدث مثل الاقتصاديات الكلاسيكية الجديدة فى بيئة من المعلومات التامة، وكذلك الظروف والأوضاع الأخرى غير الموجودة، والتي لا يصدقها العقل. إنه عملية واقعية تحدث فى سياقات زمنية حقيقية مع ناس حقيقيين وبها كل الأحداث الطارئة والعيوب والإيجابيات والسلبيات الموجودة فى أى عملية إنسانية. وربما تكون الجدليات فى بعض الأحيان تعتبر صوتا جذابا، ولكنها فى الغالب كخبرة قائمة تعتبر مجهدة ومنهكة ومضعفة.

وبالضرورة فإن معظم عمليات بحوث الفعل تبدأ مع تحديد دقيق لمشكلة معينة واهتمامات تعاونية محدودة، بدون وجود كل الأجزاء ذات العلاقة على مائدة واحدة. إن مفتاح نجاح الممارسة في بحوث الفعل هو تصميم ومساندة عملية تستطيع أن تظهر ردود الفعل والانعكاسات المهمة من خلال عمليات الاتصال والقيام ببعض عمليات حل المشكلة الناجحة كوسيلة شاملة وواسعة كلما كان ممكنا. ومع تحقيق بعض النجاحات الأولية، فإن المشكلة في صورتها الأولية يتم تنقيحها وإعادة تكوينها، تماما كما يحدث في الفروض التي يتم تنقيحها وإعادة تكوينها في البحوث المعملية (انظر الفصل الخامس)، ويمكن تغيير تركيب الجماعات الأولية كرد فعل أو نتيجة لمجموعة كبيرة من مشكلات أعضائها على نحو أكثر ملاءمة. إن المدى الذي تبتعد به عمليات بحوث الفعل عن المثالية يعتمد على الموارد والطاقات والمهارات وغيرها من عناصر الموقف الذي يتخذ المشروع مكانا فيه.

ونحن نركز على هذه النقطة بسبب أننا نجد في الغالب باحثي الفعل وأولئك الذين يتوقفون إلى إجراء هذه البحوث يكونون مدافعين بقوة عن مشروعاتهم. إننا لا نستطيع أن نحسب عدد الأوقات التي نتحدث فيها عن المشروع بمقدمة مثل "حسنا، مشروعنا ليس مشروع بحث فعل حقيقي ولكن.....". "نعتقد أن هذا التوجه العقلي أو الفكري هدام جدا" إن مشروعات بحوث الفعل تتسم بالتعقيد وبطول الوقت يتم بناؤها من خلال خطوات صبورة (متمهلة) في عملية البناء التعاوني للمعرفة، وتنمية الوعي المتبادل، وتعتمد أيضا على العديد من الأحداث في السياق المحلي والتي من خلالها يكون لدى المستفيدين درجة تحكم ضعيفة. ومن وجهة نظر النضج، فإن مشروعات بحوث الفعل لا تصل إلى درجة المثالية. ونحن غير آسفين عن ذلك بل ونسارع في تحديد أننا لا نرى أن مشروعات البحوث الاجتماعية التقليدية غير مليئة بالأخطاء والتسويات. وكما يقولون "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر".

الخلاصة:

ناقش الموضوع الرئيسى فى هذا الفصل عمليات إنتاج المعرفة فى بحوث الفعل على مستوى نسق التعلم. وفى الفصل السادس من الكتاب قدمنا نموذج الإنتاج التعاونى، وناقشنا إيجاد (تكوين - خلق) المعرفة والتعلم على المستوى الاجتماعى والفاعلين، وقد انتقلنا فى هذا الفصل إلى المستوى التحليلى لمعرفة.

الفصل الثامن

الصديق الخارجى The friendly outsider

من بحوث الفعل كإستراتيجيات بحثية إلى
المهارات التى نحتاجها لكى نصبح باحثى فعل

ركزت رؤيتنا فى الفصل السابق على المستفيدين المحليين، وهنا نركز أكثر على الباحثين المهنيين. وكما هو دائما فى بحوث الفعل، فكلاهما يرتبط معا خلال عمليات إنتاج التعلم التعاونى.

لا تحاول أن تقهر العالم الجامح العنيد

Not trying to overcome an Unruly World

كما حددنا سابقا فإن بحوث الفعل هى عملية إنتاج تعاونى، والتى من خلالها يفهم الباحثون المهنيون والأعضاء المهمون فى التنظيمات والمجتمعات المحلية، أو التنظيمات التى يتم تكوينها للمشاركة بوجه خاص فى بحوث الفعل المشكلات ذات الاهتمام المتبادل ويسعون إلى حلها. إن بحوث الفعل هى عملية اجتماعية، والتى تشكل من خلالها كل من المعارف المهنية والمعارف المحلية ومهارات العملية ومهارات البحث والقيم الديمقراطية الأساس لإنتاج المعرفة والتغيير الاجتماعى.

وقد حاول الباحثون التقليديون عمل فصل جاد بين تصميم البحث الذى حدده بشكل مسبق من بداية البحث والسعى للتحكم أثناء البحث

(الملاحظة بعناية لأى انحرافات تخرج عن الخطة الأصلية) وتحليل نتائج البحث، والتي تم تكوينها ووضعها فى تقرير بعد الانتهاء من إجراءات البحث. ونادرا ما يتحمل الباحثون التقليديون مسؤولية الوصول إلى نتائج بحث قابلة للتطبيق اجتماعيا، أو يصبحون ضمن عمليات تطبيق أبحاثهم. ويدعى بعضهم أن بحثهم مفيد بسبب أن كل التحسينات والمميزات فى المعرفة الاجتماعية تعتبر مفيدة، أو بسبب أن الموضوعات التى يقومون بدراستها تعتبر مهمة اجتماعيا.

وتقودنا هذه التصرفات إلى الاعتقاد بأن العالم يبدو أمام الباحثين التقليديين، وكأنه مكان جامح وعنيد يحاول أن يخدعهم ويضعهم فى معتد ما هو غير حقيقى أو لا واقعى. وتتمثل الاستجابة لهذا العالم الجامح والعنيد فى القيام بكل ما يستطيعون للتحكم فى هذا الجموح من خلال الاعتماد على أساليب موضوعية لجمع البيانات ومعالجتها ومن خلال الانضباط الذاتى. وتعتبر أساليب البحث ذات أهمية كبيرة فى تحقيق التحكم والموضوعية للباحثين لذلك يستطيع أى باحث آخر الوصول إلى نفس النتائج باستخدام نفس الأساليب.

ويرفض باحثو الفعل هذه النظرة القائمة على العديد من الخلفيات. وعلى الرغم من أن الكثير من باحثى الفعل يعترفون بأنه من السهل أن نعتقد بما هو أفضل للعالم فإننا لا نقبل فكرة أنه من الممكن فصل عملية البحث عن أبعادها الإنسانية، أو فصل العملية عن النتائج. إن بحوث الفعل تبحث عن وضع عمليات البحث ونتائجها فى علاقة قوية (قريبة) ممكنة، وبناء البحوث على أساس احترام القدرات الإنسانية والثقة التامة فيها. وتركز بحوث الفعل أيضا على القيم الديمقراطية وعمليات الإنتاج التعاونى للمعرفة الذى يتم من خلال جهود المستفيدين لزيادة ضبط مواقف حياتهم والتحكم فيها.

خلق الإمكانيات بدلا من تعزيز الحدود

Creating possibilities rather than reinforcing limits

جاءت الخيالات والأوهام المسيطرة على البحوث الاجتماعية التقليدية، لأسباب سياسية وتاريخية واقتصادية جيدة جدا، جاءت من لغة التنظيمات البيروقراطية. وهذه التنظيمات تبحث باستمرار عن الضبط والموضوعية والتصنيف والتكرارية، وكل هذه تعتبر مظاهر جوهرية للعقليات البيروقراطية والسلطوية. ولكن قبل أن نذهب بعيدا تحت هذا الخط فمن الجدير أن نذكر أن البيروقراطية- على الرغم من الأيديولوجيات المضادة للبيروقراطية فى المجتمعات والمحاقل العلمى- تعتبر تجسيدا لمحاولات تشييد تنظيمات وبناءات عامة ومعايير لاتخاذ القرار على أساس فكرة أو عقيدة مجردة وهى العدالة الاجتماعية. وبدلا من اتخاذ القرارات الخاصة بتوزيع الموارد العامة على أساس خلفيات شخصية، افترضت البيروقراطية ضرورة وجود معيار موضوعى لتصنيف العملاء والمشكلات، والتى من خلالها يكون توزيع الثروات والموارد العامة أبعد من مجرد وصولها على أساس شخصى. ومن خلال تطوير وتكوين معايير وطرق موضوعية تفترض البيروقراطية اتخاذ القرارات التى تتسم بالعدالة الحيادية فى القضايا المهمة وتوزيع الموارد الاجتماعية بعدالة. ونتيجة للفشل الكبير لهذه المحاولة فقد أصبحت الحاجة ملحة للتركيز على الابتكارات الدولية، ومستغلى الحروب، وسياسات توزيع الأموال الحكومية، ولكن مع ذلك تركت أثرا يصعب محوه من العلوم الاجتماعية التقليدية.

ويقع تحت الأيديولوجيات والممارسات البيروقراطية مجموعة من الأفكار التى تتسم بالخداع الذاتى للبشر، وأن هذا العالم الجامح العنيد يجب وضعه تحت الضبط العقلى. لقد تعلم البيروقراطيون أن يضعوا أنفسهم

بمعزل عن الآخرين، مستخدمين أفكارهم العقلانية فى حل المشكلات التى يتفاعل فيها الآخرون شخصيا وانفعاليا. وقد تقبلوا أيضا الاختلافات الراديكالية فى القوى الاجتماعية والقدرات العقلية، ومع البيروقراطيين الذين يملكون القوة والموارد، ويصبح عملاؤهم متفاعلين ونشطين فقط بقدر ما يقومون به من ضغط للمطالبة بمساعدتهم. وتعكس الأيديولوجية البيروقراطية نسق معتقدات أساسيا وممارسات مهنية للبحث الاجتماعى التقليدى.

ويرفض باحثو الفعل هذا الإطار بمختلف خلفياته النظرية والمنهجية والسياسية والأخلاقية. فبالنسبة للخلفيات النظرية، يؤكد باحثو الفعل على أن هؤلاء الذين يواجهون المشكلات الاجتماعية لديهم الكثير من المعلومات والقدرات التحليلية اللازمة لحل مشكلاتهم. ويرجع باحثو الفعل المعرفة الأكثر وزنا وقيمة إلى الناس المحليين أكثر من الباحثين التقليديين أو البيروقراطيين. ويتشكك باحثو الفعل بعمق فى تفوق وسيادة المعرفة المهنية عن جميع أشكال المعرفة وأن "الأب والأم يعرفان أفضل"

ومنهجيا يرى باحثو الفعل أن اتخاذ القرار المشترك حول طرق، وتحليل الحالة التعاونى وتعليم الأساليب التحليلية لجماعة المشاركين فى البحث يؤدى إلى نتائج بحث قوية، بناء على جودة وكمية البيانات التى تم جمعها وعمق تحليل هذه البيانات وجوهرته. وسياسيا يرى باحثو الفعل أنه يجب أن تكون نتائج البحث محققة للنفع والفائدة للمشاركين المحليين فى الوصول إلى ضبط المتزايد لمواقف حياتهم الخاصة، ويجب أن تتأثر تساؤلات البحث بكل الأطراف التى يتضمنها البحث. أما أخلاقيا فيرفض باحثو الفعل أن يكون البحث عبئا على الكائنات الإنسانية الأخرى. ونحن لا نعتقد أن البحث الاجتماعى هو حق مهنى. إننا نحاول ترقية وتعزيز طرق البحث، والتى تزيد من قدرة الباحثين غير المهنيين على تعزيز ضبطهم وتحكمهم فى حياتهم وفى مواقفهم الاجتماعية.

فبحوث الفعل إذن هي عمليات تدار بصورة تعاونية من الأطراف المهمة بالموضوع وليست أسلوبا يطبقه الباحثون المهنيون على الناس الآخرين. وهذا يعنى أن باحثى الفعل يصورون عمليات البحث بأساليب متفردة (فريدة) واستخدام هذه التصورات والمساعدة فى المحافظة على استمرارية هذه العمليات فى التحرك فى اتجاهات مفيدة بدون فرض اتجاه معين من أعلى. وأحد هذه التصورات لهذا النوع من العمليات الذى يعكس أفضل تصور للخبرات الجماعية لبحوث الفعل قد تم وضعه بواسطة العالم الفرنسى فرانسوا جاكوب François Jacob (1982) فى كتابه الممكن والواقعي The Possible and the Actual.

ويعتبر جاكوب Jacob (1982) واحدا من البيولوجيين التطوريين الرئيسيين فى الجيل المعاصر، والذى لم يكتب عن بحوث الفعل. وقد حاول توصيل معنى واضح للخصائص التى تنسم بالانفتاح والتنوع والدينامية لعمليات التطور والنشوء Evolutionary processes وانتقد النزعة الحالية لتقليص التطور إلى نوع ما من القدر أو عملية تفاؤلية موجهة. وقد كتبت هذه النهاية عن التطور كعملية تقوم على حوار متواصل بين الممكن والواقع.

وقد بنى تحليل جاكوب Jacob (1982) المجال الحيوى والكيميائى والفيزيقي على وجهة النظر القائلة إن كل ما هو موجود فى أى لحظة فى التاريخ دائما ما يحتوى على العديد من الأشياء الصغيرة جدا، ويصبح أكثر إمكانية مما كان موجودا. وعلى الرغم من أن هذه الفكرة تعتبر غريبة فإنها تبدو منطقية تماما، فقد لاحظ جاكوب أن الحالة العضوية والفيزيكية الكيميائية تعتبر قادرة على إنتاج عدد هائل من التركيبات المحتملة، (P. 117)

إن أسباب وجود تركيبات معينة أو عدم وجودها لها أساس تاريخى. وهنا يتدخل التاريخ بسبب أنه فى أى مرحلة من مراحل تطور الأرض توجد

شروط معينة. وخلال هذه المراحل وتحت هذه الشروط نجد فقط قدرات حيوية أو فيزيقية كيميائية معينة تعمل تاركة بعض الإمكانيات التي لا يمكن المساس بها أبداً في عمليات التطور المستمرة. وبكلمات أخرى إن ما يحدث ببساطة هو الذي يحدث، وليس كل شيء يحدث. وعندما يمر الوقت تعمل فقط بعض الإمكانيات الجديدة التي تم إنتاجها في المراحل التالية. (أو الأحداث المختارة، في المحادثة البيولوجية)

وقد جاءت هذه المناقشة بالتوازي مع عمل لاتور Latour (1987). ولعل من أهم ما دعا إليه لاتور أن الحقيقة تصبح حقيقة عندما يقرر الفاعلون أنها تعتبر واقعا. وقد تم نقل وتوصيل هذه الفكرة مجازا بالصندوق الأسود المغلق، والذي يعنى أن وقت وكيفية إغلاق الصندوق يعتمد على أهمية وقوة المشاركين الفاعلين والسياق الذي تم من خلاله إغلاق الصندوق. وعندما أغلق الصندوق فإن الحقيقة تصبح واقعا. ومع ظهور مجموعة جديدة من المشاركين الفاعلين يعاد فتح الصندوق، حيث يتم إنتاج حقائق وإمكانيات جديدة.

وتبين وجهة النظر هذه أن العلاقة بين الممكن والواقع (الحقيقى)، تعتبر علاقة تاريخية وطارئة، وأن تاريخ العملية في حد ذاته يعتبر عاملا سببيا Causal agent. وطبقا لجاكوب Jacob والتطور البيولوجى فإن عالما ليس أفضل من كل العوالم الأخرى. ولكنه بالأحرى عالم محتمل أو ممكن ويعتبر أمرا واقعا تاريخيا؛ مبتعدا عن الآخرين غير الواقعيين. وهذا ما يعنيه بدقة مفهوم التطور على الرغم من المحاولات المتكررة لترويض الفكرة وجعلها عملية تكنولوجية مباشرة. (انظر: Greenwood, 1985)

ونحاول أن نناقش هنا ما يسمى بالعمليات التطورية المستترة أو العمياء، والتي لم تطرأ على الإدراك الذاتى. فعندما نتعامل مع الكائن الإنسانى يصبح الموقف أكثر تعقيدا لأن الحوار بين الممكن والواقعى

(الحقيقى) يستمر فى العمل، ولكن القدرة الإنسانية على تصور البدائل الماضية والمستقبلية تفتح مدى واسعا جدا من العلاقات بين الممكن والواقعى. ذلك أن العلاقة بين الماضى والمستقبل، فى الأمور الإنسانية تمثل خليطا من الإمكانات الفيزيائية والكيميائية والحيوية والظروف التاريخية وتتوسع رؤى الماضى واحتمالات المستقبل التى تترك الكائن الإنسانى على أنهم يحددون أفعالهم التى يتخذونها.

ومثل القوى التكنولوجية وضد التطورية Antievolutionary حاولت نظم الضبط البيروقراطى وأصحاب القوى الكائنة الوصول إلى ضبط العلاقات بين الماضى والمستقبل، والتى تم تصورها على أن تكون قادرة على تحديد الاتجاه الذى يتخذه المستقبل. ومقابل ذلك تهدف بحوث الفعل بالتحديد إلى إعادة فتح الحوار بين الممكن والواقع وتواجه محاولات أصحاب القوة وعوامل بيروقراطيتهم للادعاء بأن المستقبل محدد سلفا. لذلك يكمن الاعتقاد الجوهرى لبحوث الفعل فى أنه يوجد العديد من احتمالات المستقبل أكثر من التى يتم فتحها فى البداية، لذلك توجد جهود مهمة فى كل عمليات بحوث الفعل لإعادة تحليل الماضى وتصور ما يحدث ضد النتائج المحتملة الأخرى، والانحرافات المتوقعة فى المستقبل والناجمة عن عدم القيام بالفعل الذى يتسم بعدم الوعى الذاتى، وكذلك ما هى الأفعال الأخرى المرغوبة أكثر، لمستقبل قد يكون مفيدا ومتاحا.

ولكى تكون باحث فعل يجب أن تعتقد بأن هناك مواقف أخرى أفضل ممكنة أكثر من تلك الكائنة حاليا. ويهدف باحثو الفعل إلى إعادة فتح إمكانات واحتمالات التغيير، وتعزيز الشعور بالمسؤولية نحو المستقبل، والتركيز على أن المؤسسة الإنسانية ليست مجرد أنساق للضبط والتحكم، إنها تمثل محور التغيير. وتتمثل إحدى نتائج هذا المنظور فى أن باحثى الفعل

لا يطبقون أساليب فنية فى المواقف. وبالأحرى فإننا نقوم بإحضار المعرفة والمهارات لجماعة من الناس الذين يتعاونون فى إطلاق العنان لإمكانات الإدارة الذاتية للتغيير. وبالتقريب تدور كل اتجاهات بحوث الفعل التى ناقشناها فى هذا الكتاب بطريقة أو بأخرى وبلغات شديدة الاختلاف حول الرؤية الأساسية.

الارتباط بالنظرية والفهم المحلى؛ كفاءة علمية وتقنية (فنية) وغير حدسية.

Linking theory and local understanding; Being scientific, counterintuitive and technically competent

تعتبر الخبرة المعرفية expert knowledge فى البحوث التقليدية هى أساس المكانة والمنزلة المرتفعة للباحث، وقدرته على فرض كل أشكال الضبط والطرق والأساليب فى موقف البحث. وكما أشرنا فى الفصلين السادس والسابع بأنه يجب أن يكون لدى باحثى الفعل الخبرة المعرفية، ولكن ليس على أساس التعامل معها كمصدر واحد فقط. ولكننا ننظر إليها على أنها مساهمة منا فى الموقف الاجتماعى، والذى نشارك من خلاله كقوى إنسانية مساهمة.

إن المعرفة المطلوبة فى باحث الفعل هى معرفة قوية وثرية. ولمساعدة جماعة المتعاونين لحل بعض أنواع المشكلات الاجتماعية التى تواجههم، يجب أن يكون لدى باحث الفعل بعض أنواع التقدير الأساسية والجوهرية لبعض القضايا النوعية المتضمنة. فلو كانت المشكلة تلوثاً صناعياً، فيجب أن يتوفر لدى باحث الفعل المعلومات الكافية عن الصناعة، والتلوث، وبعض من الحلول الممكنة أو أن يتعلمها. وعلى العكس من حالة الباحث الاجتماعى التقليدى الذى يتشكك رسمياً فى المعرفة المحلية، ومع

ذلك فإن هذه المعرفة البيئية أو المحلية ليست فقط المسئولية الوحيدة للخبير المهني. ويستطيع باحث الفعل أو يجب عليه الاعتماد على المعرفة المحلية بدرجة كبيرة.

إن لدى المشاركين المحليين المهمين تعاملًا كبيرًا وواسعًا مع المعلومات (أو الوصول إلى تلك المعلومات) عن ما الذي يؤدي إلى استمرار المعاناة الطويلة من المواقف التي يمرون بها. ويحاول باحثو الفعل البحث بفعالية عن هذه المعرفة كعنصر مهم في عملية البحث. وهذا ما يتعارض بقوة مع ادعاءات الباحثين الاجتماعيين التقليديين بأن قدرتهم على تطبيق طرق وأساليب البحث يجعل هذا النوع من المعرفة غير مهم ويعتبر غير صادق علميًا ومصدرا اختياريًا للمعرفة.

ونظرًا لاحتمال تطبيق نتائج مشروعات بحوث الفعل في مواقف إنسانية معينة، فيجب أن يتحكم ويسيطر (بخضع) باحثو الفعل على المنهج العلمي. وربما يملك باحثو الفعل مستوى عاليًا لمقابلة (تحقيق) ذلك، بسبب أن الباحثين الاجتماعيين التقليديين نادرًا ما يتحملون مسئولية تطبيق نتائج بحوثهم في المواقف الإنسانية.

ويجب أن يكون باحثو الفعل المهنيون خبراء في استخدام المنهج العلمي مع إصرارهم على المحاولات المنظمة لاكتشاف التفسيرات غير المتوقعة، والتي غالبًا ما تختفي عن الرؤية بواسطة الافتراضات والعناصر الأخرى في التوجيهات التعليمية والأنساق الاجتماعية. وتعتبر هذه واحدة من أهم المساهمات التي يقدمها باحثو الفعل لمواقف بحوث الفعل. إن القدرة على توجيه أسئلة غير بديهية لتقريب القضايا من الباحثين الخارجيين والسؤال عن التفسيرات الهادئة يعتبر الدور الذي يجب أن يجب أن يعرف باحث الفعل كيف يقوم به بشكل جيد.

وأيضاً يجب أن يقوم باحثو الفعل بإعداد مجموعة من الأطر العملية التحليلية للعمليات التى يقومون بها بينهم- تضع فى اعتبارها وجهات النظر الاقتصادية السياسية والبناءات الاجتماعية، والإستراتيجيات المنطقية، وعمليات التغيير، والأيدولوجيات. ويعتبر هذا الإطار التحليل مهماً جداً فى تصور العلاقة بين الماضى وكل أشكال المستقبل المتوقعة. وقد تم فى العلوم الاجتماعية تطوير وبناء وجهات نظر علمية ومناهج يمكن أن تساعد فى جعل هذه البناءات واضحة بحيث يجب على باحثى الفعل الاطلاع عليها.

إن لكل الناس وجهات نظرهم عن كل الأحداث والقضايا التى تكرت، وتعتبر مثل هذه الآراء أدوات ضرورية للحياة، وتشكل جزءاً مهماً من المعرفة المحلية. ويضيف البحث فى العلوم الاجتماعية بعض الأساليب الفنية وهياكل للمقارنة، والتى تعتبر بوجه عام غير متاحة أو غير مرغوبة غالباً فى أنساق المعرفة المحلية. وبتحليلنا هذه القضايا حول العالم وخلال مراحل زمنية طويلة، فقد طور باحثو الفعل وعيهم وإدراكهم حول إلى أين تتوافق أنساق المعرفة داخل مدى واسع من التنوعات. ويفيد هذا السياق Contextualization الواسع بحوث الفعل بسبب أن العديد من الجماعات التى تعاني من مشكلات حادة وخطيرة تشعر بالحيرة بوجهة نظر معينة حول هذا الموقف، ولديها وقت صعب وخطير لتطوير عدد من الأفعال البديلة. وبوضع الموقف أو الوضع المحلى فى سياق هذه المقارنات الواسعة، يستطيع باحثو الفعل مساعدة الجماعات المحلية لتوسيع وعيها وإدراكها للموقف وبعض الاختيارات الملائمة له فى المستقبل.

ومن خلال اعتقادنا القوى بأن وجهات النظر القائمة على الاقتصاد السياسى والبناء الاجتماعى والأنساق الأيدولوجية، والتى يأتى بها باحثو الفعل إلى مواقف المحلية تعتبر ذات أهمية بالغة، فنحن لا نعتقد بأنه لا يوجد

اتجاه واحد صحيح لكل هذه الموضوعات يحتكره المهنيون. ولنا، نحن المؤلفين، وجهات نظرنا حول هذه القضايا والأحوال ولكننا ندرك بأنه يوجد العديد من الأنواع المختلفة من تحليلات الاقتصاد السياسى (الماركسية، والماركسية الجديدة، والكلاسيكية الجديدة، والإصلاحية، والتطورية، والنقابات المهنية، وغيرها) وتماما كما فى حالة البناءات الاجتماعية (البارسونية، والبنائية الوظيفية، وغيرها) والأنساق الأيديولوجية (البنائية).

لذلك لا يوجد نظام واحد صحيح للتحليل، فبعض الاتجاهات لا تقدم أى مساهمات ذات معنى أو دلالة فى بحوث الفعل. إن جميع الأطر التى لا تظهر دور القوى الاقتصادية والاجتماعية أو الاتجاه النفعى العام للتاريخ ليس لها مكان فى بحوث الفعل. إن تحليل علاقات القوة، ودور الأيديولوجية واتجاه التاريخ يعتبر ضروريا ومنشطا حيويا لكل مشروعات بحوث الفعل، ويجب أن يكون على رأس أى أجنحة بحثية كظاهرة إشكالية يجب التعامل معها.

ممارسات ومهارات باحثى الفعل

Practice and Skills of Action Researcher

ومن هنا نقوم الآن بوصف موقف باحثى الفعل المهنيين فى مصطلحات واضحة حتى نصبح أكثر تحديدا.

المعرفة الآن Knowing Now ، والمعرفة الضمنية Tacit Knowledge ، وانعكاسات الفعل Reflection-in-Action ، والانعكاسات على الفعل

Reflection-on-Action

نتاجر الدراسات الأكاديمية بفكرة ضيقة عن الكفاءة والخبرة، والتى تحد من القدرات العقلية والتدريبية. وتتحدى بحوث الفعل هذا الوضع القائم

على أفكار ومقالات فلسفية تقليدية طويلة عن المهارات والكفاءة والمعرفة. وقد اقترح جيلبرت ريل (Gilbert Ryle (1949 أن هناك تميزاً ورفقاً مهماً بين أن نعرف ماذا **Knowing what** ومعرفة كيف **Knowing How**، فمعرفة ماذا هي النشاط الرئيسى فى الحياة العقلية التقليدية فى الأكاديميات، والتركيز على القدرة على معرفة لماذا توجد قضية معينة وما هو تعريفها. فالخبير الكفء هو الذى يعرف ما الذى يعبر به شخص ما عن أفكاره، وليست فى معرفة كيف فعل أى شىء بالتفصيل.

وقد رفض ريل (Ryle (1949 هذا الإطار وحث على أن الذكاء يكون أكثر ظهوراً من خلال الطريقة التى نعمل بها وليس الطريقة التى نفكر بها. إن "معرفة كيف" تظهر بوضوح- فى الأفعال العقلية التى تطبق- القدرات والإمكانات التى يمتلكها شخص ما: إنها تظهر من خلال تطبيق المعرفة فى السياق المتاح. إن تحديد (تعريف) الكفاءة والخبرة هى معرفة كيفية عمل شىء ما بطريقة مناسبة.

وقد توقع ريل (Ryle (1949 الجهود الأخيرة التى قامت على أساس موضوع الكفاءة. على سبيل المثال أظهر الفيلسوف ميشيل بولانى (Michael Polanyi (1964 أن الكفاءة يتم الوصول إليها من خلال الأبعاد الضمنية للسلوك الإنسانى. إن معرفة الكيان الإنسانى يساعد فى أكبر مما نستطيع حصره فى كلمات، والمعرفة الضمنية (غير المعبر عنها) تعتبر المفتاح الأساسى فى الفعل الإنسانى الكفء.

وقد ركز بولانى (Polanyi (1964, 1966 على كيف يكون الأطفال قادرين على تعلم الكلام. فإذا حددنا أنفسنا فى وجهة النظر بأن المعرفة هى فقط القدرة على تعبير عن اللغة، ومن ثم وبالتحديد فإن الأطفال سوف يصبحون غير قادرين على تعلم الكلام. وقد حل بولانى هذه المشكلة من

خلال برهنته على أن اللغة تتقل فقط جزءا مما ندركه ونعرفه أما الأجزاء الأخرى من معرفتنا، وهى تمثل الجزء الأعظم (الأكبر) فنعتبر عنها من خلال أفعالنا. لذلك يتعلم الأطفال أساسا من خلال المعرفة الضمنية، والتي فى النهاية تسمح لهم بالارتباط بمجتمع متحدثى اللغة لذلك فهم دائما يحتفظون بالبعد الضمنى أيضا.

وبناء على هذا الإطار فإننا نتصور الأنشطة المعقدة التى تقع تحت الأفعال العقلية مثل المهارات الإنسانية والتركيبات المعقدة من معرفة كيف، والمعرفة الضمنية وغيرها من أنواع المعرفة الأخرى (معرفة ماذا، واللغة... وغيرها) إننا نعتقد أن المعرفة الأكاديمية التقليدية (معرفة ماذا) عن بحوث الفعل تعتبر ذات أهمية فى الممارسات المستقبلية، ولكننا نؤكد على أن المعرفة ليست كافية لتدريب الممارسين فى بحوث الفعل.

ومن خلال هذا الإطار فإننا نلح على أن المهارات تعتبر عنصرا أساسيا وجوهريا فى بحوث الفعل، وأنها تظهر فقط خلال الأفعال العقلية، وليست فقط من التصورات العقلانية السلبية أو المجردة. وفى نفس الوقت فإننا ركز على أنه يجب بناء المهارات وتطويرها. ولا نعتقد بأن كل المهارات هى ذات خصائص فطرية إنسانية. فمن خلال الحياة يطور كل الناس مهارات جديدة وتدعيمها. إن الهدف الرئيسى لهذا الكتاب يتمثل فى تعزيز وتشجيع تكوين المهارات لممارسى بحوث الفعل. ونقوم المهارات فى بحوث الفعل بالتأكيد على السيادة العقلية للمفاهيم (التي نقول بها بعض النظريات) ولكن المهارات تعبر عن نفسها فى الأفعال المتاحة لتعزيز عمليات بحوث الفعل، وإن التركيز على العمليات والمهارات يعتبر عنصرا جوهريا من تعلم بحوث الفعل. (ص. ١٢٢)

وفيما يتعلق بهذا الموضوع فإننا نؤيد بقوة وجهات النظر عن الممارسة الانعكاسية التي طورها دونالد سكون (Donald Schon 1983, 1991). وقد قدم سكون في عمله هذا مفهوم الممارسة الانعكاسية Reflection Practice لتحليل الوسيلة التي بواسطتها تتكون الكفاءة وتتطور بواسطة التدريب. وبالتركيز على تحليل عدد من التفاعلات بين المدرس والتلميذ فقد كون (طور) إطاراً تصورياً يلقي الضوء على الانعكاس الارتباطي وتطبيقاته في تطوير وبناء المهارات المهنية. فالمهارات لا تتقل ببساطة خلال مجموعة من المفاهيم تقدم من الأستاذ إلى التلميذ، ولكن بالأحرى خلال التفاعلات بينهما وجهودهم التعاونية لحل مشكلات معينة معا خلال أفعالهم.

وقد جاءت مناقشات سكون (Schon 1983, 1987, 1991) مباشرة على نفس الخط مع أفكار بولاني (Polanyi 1964, 1966) عن المعرفة الضمنية، ولكن ذهب أبعد من ذلك حيث ركز على كيفية تعليم هؤلاء الممارسين المهنيين. وقد تأثرت اهتمامات كل منهما بقراءاتهما لجون ديوى ونظرية التحليل النفسى وخبرتهما الطويلة فى الاستشارة (الإرشاد) المؤسسية. وقد تمثلت استجابة سكون فى تحديد عمليتين انعكاسيتين، الأولى هى الانعكاس - فى - الفعل Reflection-in-action وهى القدرة على ارتداد (mirror) العملية الانعكاسية فى الفعل نفسه، والتي تعتبر وسيلة لتقدير (تقييم) الأفعال فى عملية الأداء (acting). أما الثانية فهى الانعكاس على الفعل Reflection-on-action، والتي تتكون من العمل خلال الخبرات التى تم الوصول إليها من الأفعال بعد وقوعها. وتتعرز كلتا هاتين العمليتين عندما يرتبط المهنيون مع الناس الآخرين فى التفاعلات التى تستخدم فيها الانعكاسات التبادلية لتعزيز الفهم. وقد طور سكون مناقشاته حول الانعكاس - فى - الفعل Reflection-in-action أكثر شمولاً عن آرائه عن الانعكاس على الفعل Reflection-on-action.

ونتيجة لذلك فعند تقديم سكون وتطويره لإطاره هذا، فقد ميز العلاقة بين المدرب والمتدرب **Master- apprentice relationship** كوسيلة رئيسية لتحسين المهارات المهنية. إن العمل مع مدرب خبير واتباعه خلال العمليات اليومية والارتباط معا في عملية انعكاسية، يستطيع المتدرب الوصول إلى مهارات المدرب، كما يتم تجسيدها وتفسيرها من خلال الأفعال. وهذا يتم من خلال عمليات الجوار التي تتم بين المدرب والمتدرب.

وإحدى النتائج هي الأفعال المهارية التي لا تتكون بشكل منفصل. ونحن نتفق على أن الخطوة الأولى المنطقية في اكتساب المهارات هي جمع المعرفة العقلية من خلال قراءة المحاضرات والقراءات الفصلية، والطريق عادة ما يكون مفتوحا لطلاب الجامعة. ولكن تعتبر هذه مرحلة أولية فقط من عمليات طويلة ومتعددة. إن تكوين مهارات الخبرة في بحوث الفعل هي عملية تتضمن مراحل عديدة.

وخلال العديد من السنوات أجرى ليفين العديد من برامج الدكتوراه لتدريب طلاب الدراسات العليا على بحوث الفعل. وقد تمحورت الفكرة في كل هذه البرامج التدريبية على الدمج بين المعرفة النظرية ومهارات الممارسة في معرفة كيف. والوسيلة الملائمة لتحقيق ذلك كانت في عمل الطلاب مع الباحثين الخبراء. وقد تم إجراء هذه المشروعات مع الطلاب في مرحلة التخرج في كلياتهم الجامعية. لقد شاركوا في تحمل مسؤولية وارتبطوا معا بقضايا البحث. وقد أضافت هذه المزاوجات بين المدرسين والطلاب واتحادات وتجمعات إضافية في بناء الجماعة التي تخلق (توجد) مجتمعا من باحثي الفعل الذين يتعاونون معا في عمليات التعلم وتطوير المهارات.

وتعتبر هذه العلاقات أكثر تعقيدا من المزاوجة بين المدرب والمتدرب **Master-apprentice dyad**. وقد حدد دزيفوس ودريفسوس

Dreyfus and Dreyfus (1986) خمس مراحل فى تطور مهارات الخبير، المبتدئ novice والمبتدئ المتقدم advanced beginner والكفء competent والبارع proficient والخبير expert. ويتم اكتساب المهارات الإنسانية تدريجيا من خلال مستويات متنوعة، ويعمل الممارسون بشكل متميز فى كل مستوى من هذه المستويات. ويتبع المبتدئ القواعد التحليلية التى تطبق بدون الاعتراف الكافى بالسياق، وكما هو الحال بالباحث التقليدى يشعر المبتدئ بالانفصال عن العملية. وبالتدرج تنتقل القدرة على قراءة السياق (البيئة) وفهم التطبيقات المحتملة للأفعال من مستوى المبتدئ إلى مستوى المبتدئ المتقدم. وبناء على خبرة التى يمتلكها الشخص كأساس لهذا التطور فإن تاريخ الأفعال يعتبر أكثر أهمية كمصدر للتعلم من أشكال الاتصال الواضح والتحليلى الذى يتم فى الدراسة الأكاديمية.

إن لدى الممارسة الكفاء القدرة على التحول والانتقال بين السياق الحر (على سبيل المثال التحليل) والمكونات السياقية فى مواقف تدخل نوعية (معينة)، ولكن نجد أن اشتراكه فى النشاط محدد بمحاولته التأثير فى النتائج. وأخيرا يؤسس الخبير نشاطه المهنى على أساس الاشتراك الكامل فى الموقف المحلى وتقديم العديد من الاقتراحات على أساس المعلومات التى اكتسبها بالخبرة عن الاختيارات المناسبة القائمة للأعمال السابقة، تخمين أو معرفة كيف، كما نفهمه نحن، لا يكون نتاج لتخمين واسع أو طموح غير طبيعى، ولكنه نوع من القدرة التى نستخدمها جميعا فى كل الأوقات مثل المهام التى نؤديها بشكل يومي (Dreyfus and Dreyfus, 1986, p.29). هذا وقد وضع دريفوس ودريفوس (Dreyfus and Dreyfus, 1986) مخططا تم تلخيصه فى جدول (٨-١).

وسواء قبلنا أو لم نقبل النماذج النوعية لتنمية المهارات لسكون Dreyfus and Dreyfus (1983, 1987, 1991) أو لدريفسوس ودريفسوس (1986) فإننا نريد أن نوضح أن كل المهارات تعتبر عنصرا أو مكونا مهما عظيميا في معيار الكفاءة الضروري لكي يصبح الباحثون ممارسي فعل جديدين. وتتضمن الممارسة المهنية أكثر من مجرد القواعد الواضحة والمحددة التي يتم نقلها بتجريد من الجلسات الأكاديمية. إن المعرفة هي عبارة عن سياق محدد تلعب فيه المعرفة الضمنية والتخمينية أدوارا مهمة، وإن الوصول إلى (اكتساب) المهارة يتحقق أساسا من خلال الانعكاسات من وعلى الفعل. إن التعلم من خلال الخبرة الشخصية يعتبر عنصرا جوهريا في تنمية مهارات ممارسي بحوث الفعل ولا يوجد بديل عنها.

جدول (٨-١): مراحل اكتساب المهارات

مستوى المهارة	المكونات	المنظور	القرار	الالتزام
مبتدئ	السياق الحر	لا يوجد	تحليلي	منفصل
مبتدئ متقدم	السياق الحر وموقفي	لا يوجد	تحليلي	منفصل
كفاء	السياق الحر وموقفي	مختار	تحليلي	فهم منفصل وقرار الانضمام إلى النتائج
ماهر/بارع	السياق الحر وموقفي	التمرس	تحليلي	فهم شامل وقرار منفصل
خبير	السياق الحر وموقفي	التمرس	تخميني	منضم

الصديق الخارجي Friendly outsider:

وبالإضافة إلى التوجهات العامة لتكوين المهارة التي حددناها، فإننا نأمل في أن نحدد باختصار مهارات معينة محددة يجب أن يجيدها بفعالية

باحثو الفعل. ويجب أن يعرف كيف أن يكون خارجيا صديقا. ويعتبر هذا الدور حيويا فى بحوث الفعل نظرا لأن المنظور الخارجى يعتبر عنصرا أساسيا فى البدء فى عمليات الجماعة المحلية نحو التغيير. ولكن يعتبر هذا الخارجى شخصا ودودا وصديقا. فيجب أن يكون قادرا على أن يعكس للجماعات المحلية الأشياء والأمور المهمة المرتبطة بهم، والتي تتضمن نقد وجهات نظرهم أو عاداتهم بأساليب وطرق داعمة لهم وليست انتقادات سلبية أو مستبدة. إن باحثى الفعل الجيدين هم الذين يحققون التوازن بين النقد والتأييد من خلال أفعال وإجراءات متنوعة، تتضمن التغذية العكسية المباشرة وردود الفعل أو الانعكاسات المكتوبة، وإجراء المقارنات بين الحالات والاستشهاد بحالات من الأدبيات المهنية عندما يكون هناك حالات أو فرص متشابهة أو عمليات حدثت.

ويجب أن يكون الصديق الخارجى أيضا خبيرا فى فتح خطوط وقنوات للمناقشة، كنوع من التعليم الأرسطى. وغالبا ما تكون التنظيمات أو الجماعات المحلية إما مرتبطة بمواقف تتسم بالقسوة، أو أنهم يتسمون بالتشاؤم من إمكانية التغيير. وتستخدم العديد من الوسائل التى ناقشناها فى الجزء الثالث لإعادة فتح إمكانية التغيير. إن مرونة عملية التغيير والفرص المتاحة له يتم تحديدها وشرحها للناس المحليين، بالتزامن مع تشجيعهم بنوع من الدعم الأخلاقى وتقديم المعلومات من الحالات الأخرى، والتى تتشابه فى المشكلات الكائنة لهؤلاء الناس، بحيث يصبح التغيير عندهم أمرا ممكنا.

ومن الأدوار الرئيسية الأخرى للصديق الخارجى تحديد المعرفة الضمنية التى توجه السلوكيات والتصرفات المحلية بوضوح تام. وقد يكون ذلك فى شكل ردود فعل نقدية أو تعليقات تدعيمية عن مدى وحدود الكفاءات المحلية. إن الخارجى غير المتعود على الجماعات أو الأحداث المحلية، فإنه

يتخذ مكانا مثاليا لملاحظة هذا النوع من المعرفة الضمنية وغالبا ما يكون غير مرئي للداخلين. وغالبا ما يتخذ ذلك شكل تشجيع الناس المحليين على إدراك أن لديهم مستودعا مهماً وقيماً من المعرفة التي ترتبط بحل المشكلات التي يواجهونها. وأحياناً ما تتخذ شكل النقد لبعض طرق التفكير المحلية، والتي تجعل الجماعات تغلق أو تدور في حلقة غير منتجة نحو القضايا التي يعانون منها بدون حلها.

ويرتبط بهذا الدور دور آخر، وهو الحديث مع المحليين غير القادرين على الكلام. وبسبب تاريخ هؤلاء المحليين معاً وبسبب بنائهم الاجتماعي وعلاقتهم الاقتصادية، أو ببساطة بسبب القيم والآداب العامة لديهم، فإنهم يكونون في الغالب غير قادرين على الحديث إلى بعضهم بعضاً بالأشياء غير المريحة التي يدركونها بوضوح. وهذا هو حال الجماعات الإنسانية في أى مكان (Argyris & Schon, 1996). ولا تعطى أى جماعة إنسانية تعمل مع أى عضو أى تغذية عكسية واضحة وأمينّة مع أى من الأعضاء الآخرين، ولكن تحتاج عمليات التغيير تنمية تغذية عكسية مفتوحة وكثيرة لإنتاج إمكانيات الفعل في مناطق اجتماعية معينة.

وفي هذا السياق لا يتحدث الصديق الخارجى في كل حالة عدم قدرة على الكلام. فالجهود لا بد أن تركز في البحث عن الاتفاقات الضمنية وفحصها وليس مناقشة أشياء بعينها، فأنواع الصمت المحلى هي التي تكون معوقات التغيير الإيجابي في القضايا التي في المتناول. وهذا الحكم يجب أن يتخذه باحث الفعل بعناية. فالتغذية العكسية الكثيرة جداً يمكن أن نعوق الجماعة؛ والقليل جداً يمكن أن يمنع الجماعة من التقدم إلى الأمام.

ومن الأدوار الأخرى للصديق الخارجى مساعدة الناس المحليين على الوصول إلى الموارد المحلية المتاحة لمشروع التغيير وتخزينها. وعلى

الرغم من أن الناس المحليين أكثر خبرة عن الباحث الخارجى بالمشهد المحلى، فإن تاريخهم يوضح أنهم قد يغفلون عن بعض الموارد المهمة اللازمة للتغيير. وربما تكون هذه ببساطة حالة من عدم تقديرهم بأنهم يملكون مخزونا من المعرفة، والتي تقريبا لم يفكروا فى استخدامها. وربما يكون ذلك حالة من التأكيد على أن الشخص المحلى أو الجماعة المحلية يجب أن يكونوا متضمنين داخل العملية على الرغم من تاريخهم الذى يتسم بالعلاقات السيئة أو عدم الثقة. وأحيانا ما تتخذ هذه شكلا من تركيز الخارجى على وجود شكل من أشكال المعارضة السياسية الحزبية أو أنواع أخرى من الجماعات الأيديولوجية. أو ربما تحتاج إلى أن يركز الخارجى على التوازن فى النوع والعرق والطبقة فى جماعات العمل.

ويعتبر أحد الموارد الرئيسية للخارجى للقيام بكل هذه الأدوار يتمثل فى أن يصبح خارجيا تماما. إن الخارجى يرتبط بالعالم الخارجى - الجامعات، والولايات، والمؤسسات القومية والدولية؛ الاتحادات، والجماعات الإنسانية، والخبراء المهنيين - ربما يعطى قيمة عملية مهمة للمشروع المحلى. وفيما يتعلق بذلك يعتبر الخارجى أيضا موردا للمشروع المحلى، ويجب عليه أن يوزع هذه العلاقات بفعالية. وهذه الارتباطات الخارجية تضيف شرعية أكيدة إلى آراء الباحث الخارجى، ومن ناحية أخرى يمكن إدارة وتوجيه هذه الشرعية بدقة نحو تعزيز فرص وإمكانيات التغيير المحلى.

مهارات عملية الصديق الخارجى

The friendly outsider's process skills

يعتبر الصديق الخارجى مدربا أو مديرا فنيا وليس مديرا أو رئيسا. إن الجماعات المحلية التى تواجه بالصعوبات والمعوقات تحتاج إلى شخص ما يخبرها بما يجب أن تفعله. فالمدرّب يعتمد على أناس محليين لديهم

الموهبة ويساعدهم على تحسين مهاراتهم وإستراتيجياتهم. والرئيس يتولى التوجيه والإدارة والتحكم فى الجماعات المحلية التابعة والعمل من أجلهم، هذا بالإضافة إلى أنه يضعفهم فى معظم الحالات وعادة ضمان أن أى تغييرات تم حدوثها لن تستمر فى إنتاج تغييرات محلية جديدة على المدى البعيد.

الثقة بالذات والتكاملية Self-confidence and integrity

يجب أن يكون لدى الباحث الخارجى ثقة بالنفس فى المواقف الاجتماعية، ويجب عليه أن يظهر التكامل فى الفعل ورد الفعل. وربما يحتاج الخارجى إلى أن يعبر عن شكوكه عن ما يجب فعله وكيفية فعله، ولكن يجب أن يكون لدى الخارجى نوع من التفاوض عن نفسه وعن المتعاونين أو المشاركين معه. وبدون أى شكل من الغطرسة أو التكبر يتم التعبير عن هذه الثقة بعقل مفتوح، وعدم الاهتمام بالحفاظ على مظاهر السيطرة على السكان المحليين، والاستعداد للاحتقال والتعجيد بقدرات وأفعال الناس المحليين، وتقدير إمكانيات التغيير المتاحة محليا. ويتضمن هذا أيضا القدرة على تقدير وتقييم مهارات الآخرين لتوضيح هذا التقدير بمهارة. ويهتم الخارجى بنجاح المشروع المحلى ويجب أن يكون المجتمع وثقا من ذلك. ويكون الناس المحليون جيدين جدا عندما يشعرون بإخلاص هؤلاء الذين جاعوا إليهم من الخارج.

إن الباحث الخارجى لا يتمنى أن يكون محليا أو وطنيا. إن بناء عملية التعلم التعاونى لا تتضمن أن يفقد شخص ما بصيرته المهنية وقيمه الأخلاقية. إن فى عملية إنتاج التعلم التعاونى فى المجتمع من المهم إدراك الحاجة إلى التكاملية، نظرا لأن التكاملية تعتبر الأساس الذى نستطيع من خلاله بناء التعاون. إن استبعاد شخص ما لا يعتبر إستراتيجية ملائمة للتعاون، والنّى تبنى على أساس التنوع والقدرة على التعلم والعمل معا.

وللتكاملية بالطبع أهمية بالغة للناس الداخليين كما هو الحال بالنسبة للخارجيين. ويمكن أن يحتل التعلم التعاوني مكانا مهما فقط عندما يقوم على أساس التكامل بين المشاركين والعمليات الارتباطية بينهم.

المخاطرة Risk taking:

يجب أن يكون الباحث الخارجى أيضا متخذًا للمخاطرة. وإذا لم يكن الخارجى غير قادر على المخاطرة بالفشل الشخصى بتعزيز الجماعات المحلية التى ربما تفشل أو تتجح، فإنه يصبح غير قادر على تقديم الدعم الأخلاقى الضرورى والثقة للناس الذين يحاولون إقناع أنفسهم بالقيام بالمخاطرة أيضا. لقد تدرب معظم الأكاديميين والبيروقراطيين على تجنب المخاطر، ويحاولون دائما النظر إلى الأفضل، فليس المهم ما يحدث. ولا بد أن باحث الفعل مستعد على الانخراط (مشارك فى مسئولية) نجاح أو فشل المشروعات المحلية، ككيان إنسانى وكمهنى يتحمل بعض المسئولية عن حياة الكيانات الإنسانية الأخرى.

التجاهل أو السخرية Irony:

وأخيرا يعتبر المزاح أداة مهمة لباحث الفعل المهنى. فالشخص الذى يتسم بالصرامة الدائمة والقسوة ويحمل كل هموم العالم على كاهله لا يزيد من قوة أى شخص آخر. إن للدعابة والمزاح دورا مهما فى عمليات التغيير الاجتماعى. وذلك نظرا لأن مشروعات بحوث الفعل تحاول أن تخرج بعض الأعمال والمعاملات الاقتصادية المعتادة خلال فترة معينة، وتحاول أن تصل

إلى نتائج قد تكون غير مرغوبة، ولكنها إيجابية. وفي مثل هذه السياقات والأحوال فإن قوة هذه الدعابات والضحكات تعتبر جديرة بالاهتمام نظرا لأنها تسبب توقف الفكر التقليدي والمألوف في أى لحظة وتستطيع أن تتجاوز هذا الفكر إلى فكر يتسم بالانفتاح نحو التغيير في جو يتسم بالمرح والدعابة.

إن الأحاديث الصارمة والعبارات المازحة تركز على التأكيد في كلمات على الحقائق أو المواقف، والتي تكون بالضبط عكس ما يفهمه المستمعون عن هذه المواقف والحقائق. إن المزاح أو الدعابة نوع من الإحلال أو التحول، النظر إلى العالم على العكس أو على النقيض في أنه غالبا ما يحدث على الفكاهة، ولكنه في نفس الوقت قادر على فتح أنماط من التفكير لإمكانيات جديد.

ويستدعى المزاح والفكاهة أيضا المعرفة الضمنية؛ لأنها تحدث الناس إلى الاستجابة الإيجابية وأن يكونوا نشطاء فعالين. إنها تستطيع أن تسوى أيضا بين الأوضاع والطبقات، من خلال استعادة المشاركين كمعلقين ومعقبين على الواقع المحلي بدلا من الاحتفاظ بحق إصدار الأحكام للمهنيين الخارجيين وأصحاب القوى الداخليين.

ويوجد ارتباط قوى بين الدعابة والمزاح وبين تحقيق وعي جاكوب (1986) Jacob's عن عالم الممكن مقابل عالم الواقع. إن الدعابة والمزاح يتطلع إلى العالم من تفضيل الممكن، وجعل الواقع فقط واحدا من النتائج الممكنة. إن استخدام الباحثين الخارجيين للدعابة والأشكال الأخرى من إحلال المزاح والتعليق أو التعقيب يمكن أن يقنع جماعات المشاركين المحليين بالقيام بعمليات العصف الذهني ومناقشة الأفكار التي تعتبر جزءا مهما جدا في التنبؤ باحتمالات المستقبل الجديدة.

الأمن والحماية Security:

وبالإضافة إلى إرادة مواجهة تعقيدات التعلم فإن العدد الكبير من اتجاهات البحث الاجتماعى، يجب أن يكون لدى باحثى الفعل شخصية مميزة وتوجهات فكرية، والقدرة على أن يمثلوا أنفسهم (يكون لهم شخصياتهم المميزة) فى سياق الجماعات أو المستفيدين المحليين. ويجب على باحث الفعل أن يؤمن نفسه بشكل كافٍ من التجاهل والشك، وأيضاً يكون قادراً على الدفاع عن جوانب فهمه وآماله. ويجب أن يحدث ذلك بدقة ويحتاج إلى القدرة على التجاوب والتكامل والشمول.

ويتضمن القيام بهذه الوسيلة العقل المفتوح والتطلع بشكل محترم إلى خبرات ومعارف الآخرين، وإلى درجة معينة من الدعابة التى تسمح بتطوير العمليات بدون أى ضغوط. ويحتاج أيضاً القدرة على الانفتاح الحقيقى على الآخرين بالطريقة التى رأى الأكاديميون أنها صعبة.

الصبر Patience

إن التعامل مع المجهول أو غير المؤكد بأسلوب يتسم بالصبر والأمن يعتبر واحداً من أهم مميزات باحثى الفعل. إن المشروعات المعقدة مع تنوع المستفيدين فى مواقف صعبة بدرجة كبيرة لا تخضع لتعديلات أو تدخلات سريعة أو وصفات سحرية. وفى كثير من مراحل ونقاط بحوث الفعل لا يكون واضحاً إلى أين يذهب المشروع، وإذا ذهب إلى أى مدى أو لو ذهب إلى النجاح بأى وسيلة. ولا يجب أن يكون باحثو الفعل قادرين فقط على تحمل هذه الشكوك، ولكن يجب أن يكون قادراً على مساعدة المستفيدين المحليين على مقاومة هذه الشكوك والإحساس بالخطورة والارتباك التى غالباً ما ترتبط بها.

لذلك تعتبر مستويات باحثى الفعل عالية تماما. فباحثو الفعل يجتازون العديد من التدريبات فى البحث الاجتماعى ويملكون الثقة والالتزام بالديمقراطية، والاستعداد للعيش بدرجة من الشك، والإحساس الواضح للحدود المهنية للباحث، والأسباب الشخصية الجيدة لى يصبحوا مرتبطين بالمستفيدين المحليين فى مشروعات معينة. إن تكوين العلاقات التى تتسم بالثقة مع الناس فى الميدان لا يمكن أن تتم إذا لم تحضر الشخصية الحقيقية "Real" Person.

باحث الفعل اللاقى :Becoming action researcher

تناولنا فى الجزء الرابع من هذا الكتاب تعليم باحثى الفعل بالتفصيل. وهنا نركز باختصار على الجوانب المركزية والمهمة.

المهارات الاجتماعية :Social Skills

تولى العلوم الاجتماعية التقليدية اهتماما قليلا نسبيا للمهارات الاجتماعية للباحث. وهذا ما يتطابق مع سيطرة أفكار الفلسفة الوضعية بأن المعلومات مستقلة عن الباحث. وقد اتخذت الكثير من البحوث الوضعية مكانا بدون أى نوع من العلاقة الاجتماعية بين الباحثين والمستجيبين (المبحوثين) أثناء عملية المسح أو جمع البيانات. وكل ما هو مطلوب من الباحثين هو إتقان المهارات الفنية (التقنية) لى يصبحوا قادرين على إعداد أدوات جمع البيانات وتوزيعها أو إدارتها وجمع البيانات، واستخدام الأساليب الإحصائية، واستخدام الأساليب المنهجية للقيام بعمليات التحليل الضرورية، وكذلك كتابة تقرير البحث.

ويستطيع الطلاب التدريب على كل هذه المهارات مستقلين عن أى علاقة بالميدان. وفى الحقيقة فإنه من الشائع أن يترك الأساتذة الطلاب الجدد للتعامل مع مجموعة البيانات التى جمعها الأساتذة، وتوجيه نشاط الطلاب فى نفس اتجاه اهتمامات الأستاذ. ويعتبر كل ذلك خارج سياق **Decontextualized** البحث وخارج سياق التدريب.

وفى ميدان البحوث الكيفية يحتاج تدريب الطلاب على إجراء المقابلات أو المشاركة فى البحوث الإثنوجرافية (الأنثروبولوجيا الوصفية) العميقة توجيه بعض الاهتمام إلى الارتباط بالناس فى بيئاتهم وحياتهم. ولا يمكن أن تصبح قائما بمقابلة كيفية بدون مهارات التجاوب وبدون القدرة على الاستماع وربط الشخص المقابل بالعملية الانعكاسية (رد الفعل). وفى الأعمال الإثنوجرافية كما فى بحوث الفعل هناك حاجة ماسة وضرورية للارتباط مع الناس المحليين والعيش معهم.

التخطيط والتلقائية :Planning and Spontaneity

يعتبر تخطيط التدخل فى بحوث الفعل مهما جدا ويجب أن يكون تفصيلا كلما كان ذلك ممكنا. وهذا يعطى للباحث الفرصة لكى يصبح معدا للطريقة أو الوسيلة التى تتطور أو تسير بها عملية البحث. ولا يوجد أى مبرر لعدم وجود أى تفكير حقيقى أو واقعى خلال عملية البحث والتخطيط لها.

ولكن نادرا ما تتناسب الخطط مع العملية الواقعية كما تتطور. ودائما ما تصعد (تسير) المشروعات فى اتجاهات غير متوقعة، ويجب على الباحث التوافق معها فى صعودها أو سيرها. فلو انسحب المشاركون من المشروع أو ظهر الصراع بين المشاركين وبعضهم أو بينهم وبين الباحثين، أو تغيرت

الميزانية، أو أن القوانين والتنظيمات الرسمية أعاقَت النمو في الاتجاهات المرغوبة، فإن العملية تحتاج إلى إعادة تقييمها وتعديلها أحيانا بصورة أقل وأحيانا بتعامل أكبر. ويمكن التحدى لباحث الفعل في قدرته على قراءة الموقف الواقعي أو الحقيقي من أجل فهم ما يمكن التّضحية به، وكيف يمكن مساعدة الجماعة من خلال اتخاذ أفعال جديدة ملائمة.

وكثير من هذه القرارات يتم اتخاذها بشكل فوري، ونظرا لأن هذه الأفعال يلزم القيام بها في الوقت الحقيقي والمناسب، فإن تكوين المفهوم أو الإدراك وإيجاد الاستجابات المناسبة يبنى على أساس المعرفة الضمنية والمهارات المرتجلة Improvisation. ويمكن بل يجب أن تحدث ردود الفعل على الأفعال التي تم اتخاذها، ولكن لم يحدث أى تفكير مباشر بشكل فوري. إن الناس الذين لا يتسمون بصفات أو لم يتدربوا على تحمل هذه المواقف بالتحديد لا يجب أن يرتبطوا ببحوث الفعل.

الخلاصة:

بينما مستويات ومعايير باحثي الفعل تعتبر عالية وتعدد أشكال المعرفة الأساسية، ونحتاج إلى المهارات بشكل كبير، فإن نفس النظرة التفاضلية للقدرات الإنسانية تجعل واضحا لنا أن الناس يستطيعون التدريب على أن يصبحوا باحثي فعل أكفاء.

الهوامش

- (١) السخرية (التجاهل) هو الاعتراف المتزايد بوصفه عنصراً أساسياً في أعمال الفكر،
انظر: Rorty (1980) and Flood and Romn (1996)

الجزء الثالث

التطبيقات المتنوعة لبحوث الفعل

تحرير الوجود الإنساني

نقدم في هذا الجزء من الكتاب عرضا تفصيليا لاتجاهنا حول بحوث الفعل (بحوث الفعل البرجماتية) ثم نصنفه (Contextualize) من خلال سلسلة الفصول وطرح بعض التنوعات الكثيرة الأخرى لبحوث الفعل. لا يعنى ذلك أننا نقوم بوضع خريطة كاملة عن ممارسات بحوث الفعل، ونستخدم اتجاهنا لبحوث الفعل كنقطة مرجعية للمقارنة وبيان الفروق. ومع ذلك يؤكد الجزء الثالث على أن مصطلح بحوث الفعل يمثل مظلة تغطي تنوعات واسعة من الممارسات والمواقف الأيديولوجية. وبعد مناقشة اتجاهنا فى الفصل التاسع نقوم بمراجعة الاتجاهات الليبرالية فى بحوث الفعل فى الفصل العاشر، وبحوث الفعل التعليمية فى الفصل الحادى عشر؛ والتقييم التشاركى (التعاونى) فى الفصل الثانى عشر؛ والتقييم الريفى التشاركى فى الفصل الثالث عشر؛ والاستقصاء الإنسانى والاستقصاء التعاونى والاستقصاء فى بحوث الفعل فى الفصل الرابع عشر؛ وأخيرا نعرض لعلوم الفعل والتعلم التنظيمى فى الفصل الخامس عشر. وكما هو الحال دائما فالخريطة ليست جغرافية. ويوجد العديد من الاتجاهات أكثر مما قدمنا؛ فحدود المساحة فى هذا الكتاب، وكذلك خطة العمل به فى المقدمة جعلت هذه العروض أقل ما يمكن أن يقدم للقارئ عن الاتجاهات التى يرى أنها مهمة وشيقة بالنسبة له.

الفصل التاسع

بحوث الفعل البرجماتية

Pragmatic Action Research

يقدم هذا الفصل عرضاً أكثر تنظيمًا لاتجاهنا، بحوث الفعل البرجماتية، والذي يتضمن ثلاث حالات تعرضنا لها في الفصل الثالث "بحوث الفعل الخبرات والطرق". وعلى الرغم من أن عرض هذا الحالات تضمن وصفا لبعض ممارساتنا، فإن لم تشرح أو تفسر كيفية فهم اتجاهنا في بحوث الفعل أو تقدم معلومات كافية تسمح للقارئ بمقارنة كيف نعمل بالمقارنة بالاتجاهات الأخرى في الفصول من العاشر وحتى الخامس عشر. نحن لا ندعى أى تفضيل أو تمييز لممارستنا. وكما تلاحظ من قراءتك للفصل الثالث أن الحالات تضمنت عناصر النجاح وعناصر الفشل. ونظرا لأن الوسيلة التي مورست بها أبحاث الفعل والمعارف القيمة تم الوصول إليها بصورة تعاونية، بينما الحلول المحددة لحل جميع المشكلات لم نستطع تحقيقها.

وقد تضمنت الحالات الثلاث التي تناولناها في الفصل الثالث - نمو القرية في غرب النرويج، والنقابات الصناعية في موندراجون بإسبانيا، وتقسيم علاقات العلم والصناعة في جامعة كورنيل - تنوعات واسعة في أشكال ونماذج العمل وأساليبه. وفي كل سياق مختلف بالتركيز على مشكلاته الخاصة فقد طورنا بحوث فعل مختلفة تتناسب وطبيعة هذه المشكلات في السياقات المختلفة. ولا يوجد في الحالات الثلاث توافق تام بين الصياغات الأساسية وبين تطور المشروع، أحيانا يكون ذلك حقيقيا في كل مواقف

البحث والتدخل، ولكن ليس تماما في بحوث الفعل. ومع ذلك ففي بحوث الفعل البرجماتية فإن إعادة التصميم المستمرة والمقصودة للمشروعات لتعزيز التعلم التعاوني خلال استمرار العملية يعتبر المبدأ الأساسي للممارسة. ويتمثل التصور الذي يحكم ممارستنا في أن تفاعل الباحث الخارجي الصديق مع الجماعات المعقدة والمتنوعة والمشكلات المحلية التي يعانون منها في اللقاءات والاجتماعات متعددة الجوانب والأبعاد ينتج عنه إنتاجا تعاونيا وواضحا للأفكار والاختيارات والأفعال. ومثل هذه المشروعات لا يمكن أن تحدث أو أن تكون منتجة في ظل الإجماع الفردي أو المتطرف الذي يخضع له كل فرد. وعلى العكس من ذلك وتبعا لوجهة نظر رورتى (1980) Rorty عن البرجماتية الحديثة، فإننا نهدف إلى الحفاظ على المناقشات المستمرة بين الأطراف ذات العلاقة.

ونجد أنه في كل المواقف التي نصفها ومع كل المشاركين معنا، فإن الباحثين والمشاركين المحليين يطورون معا فهم عام حول إلى أين يسيرون وما هي الأفعال التي يجب أن يقوموا بها. ونحن كباحثي فعل نقاوم وضع هذه الصياغات الأولية في خطط صارمة. وتعتبر عمليات بحوث الفعل ككل، من وجهة نظرنا، عمليات طارئة حتى يتم حل المشكلات على الأقل بما يرضى المشاركين المحليين، أو تكون الموارد المالية والطاقة قد استنزفت، أو تدخلت بعض الأحداث لتغيير اتجاه العملية، أو إنهاؤها.

وهذا لا يعنى القول إن العملية تفتقد المنطق والدقة، فبحوث الفعل كما نراها تتخذ شكل مجموعة منطقية ومنظمة من الأنشطة التي تستهدف الوصول إلى نتائج مرغوبة وقابلة للقياس في الفعل، وبناء الخطط في ميادين التعلم، والاختيار المنظم للأساليب الموجهة بواسطة جميع إستراتيجيات بحوث الفعل. ويتم توجيه اتجاه مشروعات بحوث الفعل بواسطة التعلم الذي

يتم الوصول إليه من خلال العملية، وليس بواسطة مجموعة المعايير ذات الأولوية أو التوقعات المفروضة على الموقف أو على الفاعلين فيه. ومن خلال نظرتنا للحالات النابعة من خبراتنا، فإننا نشعر بأن هذا الاتجاه البرجماتي ينتج مجموعات من الخصائص العامة الشائعة في معظم المواقف والتي تتضمن.

- بناء ميادين وساحات للحوار والتعلم المتبادل كنموذج للعمل. فقد جاهدنا خلال عملنا على بناء الميادين التي يستطيع فيها كل من الباحثين والمشاركين الاتصال من خلال علاقات حوارية. وهذه الميادين تخلق المساحة التي يتخذ فيها التعلم المتبادل مكانا متميزا.
- الإنتاج التعاوني للبحث. تظهر عملية البحث كنتيجة لامتزاج الخبرات وردود الفعل المتبادلة عن هذه الخبرات المشتركة بين المشاركين المحليين والباحثين، والتي تقود إلى معرفة جديدة مؤكدة.
- الاستخدام المتعدد للطرق والأساليب ونماذج العمل. وكما أوضحنا سابقا أننا نرفض فكرة أن بحوث الفعل هي عبارة عن نظرية خاصة أو مجموعة محددة من الأساليب. إن الأعداد الكبيرة من النظريات والأساليب والنماذج التي تطورت في العلوم الاجتماعية والإنسانية يمكن استخدامها في عمليات بحوث الفعل، لو أن المشاركين رأوا أنه من المناسب اكتساب المهارات الضرورية التي يحتاجونها معا.

وتمثل هذه العناصر الثلاثة المركز الرئيسي في ممارستنا لبحوث الفعل البرجمائية. إن الخطط والأساليب ونماذج العمل وعمليات التعلم التعاونية تعتمد على الحكم الذي يصدره المشاركون في كل موقف من المواقف الملموسة لبحوث الفعل. وهذا ما ينسجم مع المناقشات المعرفية والعلمية لبحوث الفعل، والتي استنبطناها من الفلسفة البرجمائية (الجزء الثاني

من هذا الكتاب)، ومن هنا فإننا نعتقد أن بحوث الفعل تمثل أفضل فهم وممارسة كما هو مستخدم في المواقف الفلسفية للبرجماتية (أو البرجماتية الجديدة) في البحث الاجتماعي.

ويخلق لنا هذا الاتجاه العديد من المشكلات عندما يأتي لوصف ممارستنا في فصل واحد. ولأنه يعتبر مناسباً للمواقف المحلية، فإننا لا نستطيع أن نصوره في مصطلحات وصفية. وبالإضافة إلى ذلك فإن القارئ يحتاج إلى مدخل أو مقدمة للعناصر والمكونات التي نضعها في اعتبارنا وبعض الأساليب التي نستخدمها، ونماذج العمل التي نفضلها، وكل إستراتيجيات بحوث الفعل المتوفرة. وما يتبع ذلك من مراجعة بعض المفاهيم الرئيسية والأدوات ونماذج العمل، والتي تنتشر في عمليات بحوث الفعل البرجماتية. ونظراً لأننا ناقشنا بالفعل بالتفصيل التعلم التعاوني والاتجاه البرجماتي لاختيار الأساليب في الفصول من السادس، وحتى الثامن فإننا نركز هنا على اتجاهنا لبناء ميادين الحوار.

بناء ميادين الحوار Constructing Arenas of Dialogue:

يعتبر العنصر الرئيسي والجوهري بالنسبة لنا في بحوث الفعل البرجماتية هو إيجاد الميادين التي تسهل وتيسر المناقشة والبحث التعاوني والإنتاج التعاوني للتعلم. وتعتبر المواجهة بين المستفيدين المحليين والباحثين هي حجر الزاوية التي يبنى على أساسها التعلم المتبادل. ونظراً لأننا لم نبدأ بأسلوب محدد الأولوية، ونحاول أن نجعل اتجاهنا ملائماً للمواقف المحلية والفاعلين فيها، فإن عمليات بحوث الفعل بوجه عام تمتلك مرحلة حوار مفتوحة مكثفة وبطيئة. وفي بداية هذا الحوار مع المناقشات التمهيدية الصبورة فإن اتجاهنا يختلف عن كل اتجاهات بحوث الفعل الأخرى.

ونعتقد أن واجباتنا كباحثين مهنيين تتمثل فى مساعدة الجماعات على اختيار الأساليب والنظريات المناسبة للعمليات التى يهتمون بها. إننا لا نعتمد على وصفات معينة يجب أن نتبعها دائما. ومثل هذه الوصفات تقلل من ثقة الباحثين المهنيين فيما يجب أن يفعلوه، وتعرقل بوجه عام نمو القوى وتطورها لدى جماعات المستفيدين المحليين.

إننا نواجه المشكلات المحلية بكل ما نملكه من مهارات ومعارف. إن ما لا نعرفه وما ينقصنا من مهارات يعتبر ضارا لمشروع معين، ونتمنى دائما أن نكون أذكاء وأكثر مهارة وأفضل متدربين. ولكننا ندافع فى مواجهة هذه الشكوك المعرفية والوجودية كباحثى فعل مهنيين بشكل مباشر، وبدلا من ذلك نلتزم بمجموعة محددة من الصيغ التى تضعف من متطلبات شخصياتنا. ويعتبر ذلك جزءا ضروريا فى تكاملنا كباحثين.

وفى نفس الوقت، فإننا لا ندافع دفاعا أعمى عن الأسلوب الذى نعمل به. إننا نعتقد أن المهارات الأساسية فى بحوث الفعل تدور حول القدرة على فهم السياقات المادية والاجتماعية وتفسيرها، لاتخاذ القرار حول تحديد الميادين المناسبة للحوار، والتى تقود العمليات التفاعلية، وتساعد المشاركين على اختبار معارفهم فى الفعل، والتى تتعكس فى النتائج. لذلك يجب أن يكون لدى باحثى الفعل القدرة على التفسير والتفكير حول عمليات التعلم التعاونى، والتى تتضمن الاختبار الفعال للمعارف الناتجة.

ويتمثل الهدف السياسى والأخلاقى لبحوث الفعل فى تحقيق نتائج ليبرالية. فليس من السهل التدقيق حول ما إذا النتيجة الليبرالية ربما كما نحب، ولكننا لا ندافع عن تقليل هذه المسئولية بصيغ أخرى. إن تحديد النتائج الليبرالية فى ممارستنا لبحوث الفعل تعتبر جزءا واضحا فى عملية الإنتاج التعاونى للتعلم.

وكنقطة انطلاق فمن الممكن أن نبدأ المناقشة حول النتائج الليبرالية من خلال تقديم تعريف مبدئي لها على أنها " النتائج التي يتم الوصول إليها عندما يحقق المشاركون تحكما أكبر في المواقف التي يمرون بها كجماعة" إننا لا نشير إلى الحرية الشخصية أو الوصول إلى القوة الفردية بواسطة الجماعة، ولكن إلى زيادة قدرة المشاركين المحليين على تحديد موقفهم الجمعي الخاص بهم وإدارته.

إن هذا النوع من الحرية ليس نتيجة قابلة للقياس المجرد. ففي المواقف شديدة الإكراه ربما يكون المكسب أو الربح البسيط هو تحرير القوى، بينما في المواقف المفتوحة ربما لا تكون التغييرات الكبيرة ذات أهمية بالنسبة للمشاركين المحليين. إننا نعتقد أن التغييرات ينبغي أن تكون حقيقية وواقعية وذات معنى بالنسبة للمشاركين المحليين كجماعات. ولا ينبغي على باحثي الفعل أن يقرروا ما إذا كان الناس لديهم الخبرة في النتائج الليبرالية، بل يجب علينا أن نطرح هذه القضية للمناقشة بين جماعة بحوث الفعل والحفاظ على استمرارية الحوار حولها.

البحث Searching:

على الرغم من أننا ندفع بقوة نحو البرجماتية والأساليب والطرق المتعددة ونماذج العمل، ونوظف العديد من الأساليب المتنوعة ونماذج العمل في ممارستنا، فإن هناك اتجاهًا واضحًا ومحددًا بشكل جيد نحو الإنتاج التعاوني للمعرفة يعتبر مناسبًا تمامًا لاتجاهنا البرجماتي لبحوث الفعل. ويسمى البحث Searching. ونعرضه هنا بشكل تفصيلي، ليس لأننا نعتقد بأنه يجب استخدامه في كل مواقف بحوث الفعل، ولكن لأنه اتجاه قوى ولديه قدرة مثبتة ومبرهنة على إنتاج نتائج مهمة، ولأن عرضه بالتفصيل يعطى للقارئ وجهة نظر أكثر واقعية لأسلوبنا في التفكير حول بحوث الفعل.

ويشير البحث إلى نوع محدد من عملية الإنتاج التعاوني للتعلم. وتتمثل الفكرة الرئيسية والجوهرية في البحث في إيجاد الموقف الذي من خلاله يرتبط الأشخاص العاديون بعملية إنتاج المعرفة المنظمة (من وضع الخطط وحتى تنفيذها) القائمة على التجريب العلمي المنظم. ويتم مساعدة المشاركين على التعلم بواسطة الفعل وبواسطة البحث وتجريب وسائل جديدة للتفكير والعمل.

مؤتمرات البحث Search Conferences:

يتمثل مؤتمر البحث في العمل من أجل التخطيط والتصميم المشترك. والهدف من أساليب وتكنيكات مؤتمر البحث هي السماح للتخطيط التعاوني وتصميم الأفعال الهادفة إلى حل المشكلات التي ترتبط مباشرة بالمشاركين. إنها عملية تعاونية للاستقصاء وإيجاد خيارات تعليمية لهؤلاء المشاركين، والانتقال من الخطة إلى تنفيذ الأفعال.

وفي الغالب يكون مؤتمر البحث عبارة عن مقابلات متعددة الأيام لجماعة كبيرة نسبيا من الناس (١٥-٤٠) في نوع ما من الجلسات مفتوحة حرة (Retreating Setting). ويسبق الحدث التخطيط لمؤتمر البحث الذي يبدأ بتحديد المشكلة بواسطة جماعة التخطيط مع الاختيار الواعي للمشاركين وإعدادهم. وعند بداية الانعقاد يبدأ المؤتمر بمناقشة الباحثين لوجهات نظرهم حول تاريخ الموقف الذي وجدوا أنفسهم فيه. ثم يحددون المشكلات التي اتفقوا عليها من خلال عملية خلاقة تنتج العديد من خطط الفعل المتنوعة لحل هذه المشكلات. وفي المرحلة النهائية في البحث يختار المشاركون من بين خطط الفعل البديلة، ويتخذون قرارات جماعية حول ما يجب أن يفعلوه. لذلك يحدث مؤتمر البحث نوعا من التكامل بين التخطيط وحل المشكلة الخلاقة،

والأفعال الملموسة والواقعية فى نفس العملية. وهذا التكامل له خصائص فريدة، وهو عبارة عن منهجية مميزة لتنفيذ وتطبيق بحوث الفعل.

وتخلق مؤتمرات الفعل العديد من ميادين الحوار المتنوعة. إن بناء الأحداث طوال الوقت الذى يستغرقه البحث تعتبر محددة بوضوح مسبقا. وتسير العملية قدما طبقا لمنطقها الداخلى وبالتوجيه والإرشاد المستمر من القائمين على إدارة البحث. ودائما ما ينجح مؤتمر البحث من خلال استتفار واستثارة طاقات وقدرات المشاركين على تحديد مشكلاتهم وحلها، وإلى حد بعيد يعتبر عملية تيسير البحث مهارة. إن إحضار الناس معا وتوفير الفرصة لهم للتفكير فى مستقبلهم ووضع الخطط المناسبة له يحرر بشكل أكيد وحتمى طاقاتهم الإبداعية والخلقة، والتى تصبح قنوات وعناصر بناءة فى عملية مؤتمر البحث. وإلى هذا الحد لم نشارك أو نتحمل مسؤولية فشل مؤتمر البحث، وفى الغالب فإننا نرى أن أفعال وإجراءات التتبع لا توفى بمجموعة التوقعات المرتفعة فى مؤتمر البحث.

وتتكامل خمس عمليات أساسية فى مؤتمر البحث. الأولى أنه يخلق مناقشات تستهدف إسهام مختلف المستفيدين فى تفسير التاريخ. والثانى أنها تطور وتكون رؤية عامة للمستقبل وما سوف يحدث لو أن المستقبل لم يوجه أو يخطط تخطيطا خلاقا. والثالثة أنه يدمج المشاركين فى نشاط مبدع وخلاق بوصفهم باحثين عن خطط عمل للوصول إلى النتائج المرغوبة. والرابعة أنه يسهل الاتفاق على أولويات حول القضايا المطروحة. والخامسة أنه يربط التخطيط لجماعات الفعل وبين أفعال نوعية محددة. إن نتيجة مؤتمر البحث الناجح تتمثل فى مجموعة من قضايا الفعل والخطط التى يرغب المشاركون فى النضال الجماعى لتحقيقها.

الجزور التاريخية للبحث :Historical Roots of Searching

نبعت مؤتمرات البحث من التقاليد الديمقراطية الصناعية فى المملكة المتحدة والدول الإسكندنافية وأستراليا. ويرجع التطور النظرى والمنهجى للبحث إلى الباحثين الرئيسيين فى معهد تافيستوك Tavistock بلندن، وهما فريد إيمرى Fred Emery وفيليب هيربست Philip Herbst (انظر الفصل الثانى). وقد تشابهت كثيرا خلفياتهما المهنية مع علماء النفس الاجتماعى المدربين إكلينيكيا، حيث عملا داخل نفس شبكة البحث الدولية. وقد استقر أحدهما فى جنوب هيميسفير Hemisphere والآخر استقر فى الشمال، حيث شكلا معا فكر وممارسة البحث بشكل متوازٍ. وفى المشهد الأسترالى لعب مارلين إيمرى دورا حاسما فى وضع الإطار المفاهيمى لعملية البحث وتطورها (Emery, 1082, 1993).

وتتمثل الطريقة الأخرى لوصف كيفية تطور البحث فى أنه نشأ من الشبكات الدولية التى ركزت على حركة الديمقراطية الصناعية. وكان الاهتمام الأعظم خلال تشكيل الديمقراطية الصناعية منصبا على كيفية تكامل الخطط المشتركة فى أفعال جماعية للتغيير. وكانت العقبة الرئيسية لمعظم نماذج بحوث الفعل فى ذلك الوقت تتمثل فى سيطرة العمليات التى يقوم بها الخبراء، وهى المشكلة التى ألمحنا إليها فى مناقشتنا لكورت ليفين فى الفصل الثانى. وغالبا ما يتم التخطيط لعمليات التغيير وتنفيذها بواسطة باحثى الفعل. وأن المشاركة الفعلية للمشاركين المحليين كانت محدودة.

وكانت القضية الأخرى التى ظهرت خلال هذا الوقت تتعلق بفشل التحديثات الاجتماعية Social Innovations فى الانتشار الفعال للجماعات الواسعة. فمعظم التجارب لإحداث التغييرات الاجتماعية المحلية كانت ناجحة، ولكن فى معظم الأحيان كان هذا النجاح مقتصرًا على الموقع أو

البيئة المحلية التي طبقت فيها. إنها لم تنتشر بشكل تلقائي بواسطة المميزات التي أضافها التحقيق الفعال للنتائج المرجوة. وقد أدى ذلك إلى الاهتمام بوسائل انتشار عمليات مشاركة نطاق واسع من طبقات المجتمع.

وكان أول إعلان أو تصريح لكل من إيمري وأوسير Emery and Oeser (1958) عن اهتماماتهم جاء في دراسة عن انتشار إعادة الهيكلة الزراعية بأستراليا. وبعد وقت طويل تبعها كتابان منشوران آخران، والتي نبع من خلالهما مؤتمر البحث كفكرة. وقد قدم هيربست (Herbst 1980) في مجلة المستقبل الإنساني Human Futures تصورا عن اتجاه مؤتمر الفعل وتوصيل ونقل الخبرات من أول مؤتمر بحث عقد في جزيرة سكجيرفوي Skjervoy شمال النرويج (Engelstad & Haugen, 1972 & Herbst, 1980). وقد أصبح لهذا البحث أهمية بالغة نظرا لأن قدم الخبرات والمنهج الملائم لجماعة واسعة من الباحثين في معهد البحث في أوسلو، ولأنه أيضا حقق نتائج إيجابية في المجتمع المحلي.

وكان إسهام كل من مارلين إيمري وفريد في البحث كانت أول ورقة عمل تم نشرها في جامعة أستراليا القومية عام ١٩٧٤. وقد أصبحت منشورات إيمري وهيربست هي المحاور التي تطورت من خلالها مؤتمرات البحث، والتي قدمت خطا مفتوحا من التطور نتج عنه الانتشار الواسع والممارسة الجيدة لمؤتمرات البحث في الوقت الحالي. (Emery, 1998, Martin, Hemlock, & Rich, 1994; Martin & Rich, 1994; Weisbord, 1992)

الخبرات النرويجية Norwegian Experiences.

لاقى الفكر العام لمؤتمر البحث المكان الملائم في البيئة النرويجية عام ١٩٧٤. وكانت هناك مناقشة عامة حول مشاركة العاملين في

الديمقراطية الاجتماعية. وقد خلق الظهور المميز لبحوث الفعل فى الديمقراطية الصناعية أرضا خصبة لاتجاهات المشاركة فى التغيير الاجتماعى. وفى هذا السياق فقد تطابق الفكر المرتبط بمؤتمرات البحث مع قضايا التخطيط المشترك ونشر عمليات التغيير.

على سبيل المثال فى هذا التوقيت ترك باحثو الفعل الذين كانوا يعملون فى معهد البحث بأوسلو نموذج الخبرة للتغيير الاجتماعى التقنى Sociotechnical Change (Elden, 1979) وحاولوا بدلا منه تجريب نماذج مؤتمر البحث لتعزيز جهود التغيير فى الشركات والجماعات المتعددة فى نفس الوقت. وقد أصبح مؤتمر البحث أكثر ملائمة فى هذا الموقف وأدى إلى أول محاولة عظيمة لاستخدام أسلوب تخطيط الجهود فى بلدية جزيرة سكجيرفوى Skjervoy. ويعتبر فيليب هيربست واحدا من أكبر النرويجيين الذين ارتبطوا بالشبكات الدولية، قد أثر بنقله فى هذا البحث الأول. وقد ركز هذا البحث على تحديات التنمية الاقتصادية وتنمية البلدية، وكان يركز على الأسلوب الراديكالى فى البيئة النرويجية، بسبب أنه أسس الأنشطة التنموية على المشاركة الشعبية الواسعة.

وقد أصبح تطبيق مؤتمر البحث فى مشروعات تنمية المجتمع المحلى واحدا من أهم أساليب التنمية التى استخدمت فى النرويج، وأصبح البحث هو العنصر الرئيسى والجوهرى فى بعض برامج تنمية المجتمع المحلى المدعمة حكوميا. وفى هذه النقطة بالتحديد انضم أكثر من ٦٠ مجلسا بلديا إلى جهود تنمية المجتمع، وغالبا ما يبدأ العمل فى هذه المشروعات بمؤتمر البحث. وكان النجاح فى الوصول للنتائج كافيا لكى يكتب قسم المفوضية الداخلية دليلا لكيفية إجراء الأبحاث (Brokhaug, Levin, & Nilssen, 1986). وعلى الرغم من عدم اتباع كل المتخصصين لبرنامج العمل المقترح فى الدليل، فإن

كل عناصر منهجية البحث قد انتشرت وصورت مؤتمر البحث على أنه طريقة مقنعة للكثير من المشاركين.

وبينما يستمر انتشار البحث في مؤسسات المجتمع كان هناك تطور مواز في المؤسسات الصناعية. وقد تم تبني مؤتمر البحث كأداة للبدء في عمليات التغيير في الصناعة. وقد حقق تبني هذه المنهجية نجاحا في مختلف المؤسسات الصناعية. وقد ارتبط الباحثون والمستشارون بوجه خاص بمعهد البحث بأوسلو لتركيز مزيد من الاهتمام على البحث كوسيلة للبدء في عمليات التغيير (Hanssen Bauer & Aslaksen, 1991, p.202). وقد زادت هذه الخبرات النرويجية من طموح مارفين ويسبورد Marvin Weisbord المستشار الخاص بالولايات المتحدة الأمريكية، والذي قضى جزءا من عام ١٩٨٧ في تعلم البحث من الممارسين النرويجيين. وأخيرا فقد أخذ هذه المعرفة وتبناها بأسلوبه الخاص في الاستخدام بإدارة الأعمال والإدارة العامة بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقد طور معهد البحث بأوسلو نموذج عمل يقوم على أساس مؤتمر البحث، والذي يتخلص من معظم البناءات الصارمة في مؤتمر البحث وأيضا يغير دور الميسرين. وبناء على التفكير اللغوي النموذجي لهايبرماس (Habermas 1984) فقد كونوا ممارسة ميسرة تتشابه كثيرا مع الحوار الديمقراطي (Gustavsen, 1985; Palshugen, 2000, 2002). وهذا النمط من المؤتمر قد منح مصطلح حوار المؤتمرات Dialogue Conferences، وهذا الاسم يشير إلى أن العنصر الحيوى يتمثل في الكفاح من أجل فتح اتصالات بين المشاركين. وقد استخدم هذا النموذج بقوة في الصناعة النرويجية، والتي يرتبط فيها العمال والإدارة في أنشطة تنموية متبادلة.

الخبرات الأسترالية Australian Experiences:

لعب كل من فريد ومارلين إيمري دورا رئيسيا فى تطور مؤتمرات البحث فى أستراليا، حيث كانت تستخدم مؤتمرات البحث بشكل كبير. ويعتبر فريد إيمري اللاعب الرئيسى والمحورى فى تطور اتجاه مؤتمر البحث بالتوازي مع دوره فى تطور حركة الديمقراطية الصناعية (التي ناقشناها فى الفصل الثانى). وقد لعبت أيضا زوجته مارلين إيمري فى البيئة الأسترالية دورا لا يقل أهمية، وبمرور السنين قدمت كتابات رائعة عن البحث أكثر مما قدم فريد.

وقد تم مواجهة العديد من التحديات فى أستراليا بالتوازي مع تلك الموجودة فى النرويج. ولم تتم بالفعالية المطلوبة عمليات تنمية التغيير الاجتماعى ومن ثم انتشارها. وعندما كانت تتم عملية التطوير، فقد مالت أشكال العمل الديمقراطى الجديد إلى القليل أو الكثير من التباطؤ والكل فى أى مكان توجد فيه. وقد نشرت مارلين إيمري دراستها المهمة عن البحث عام ١٩٨٢، والتي تضمنت العديد من المناقشات التفصيلية عن عمليات تعلم المشاركين. وقد ناقشت أيضا الأبحاث المتعددة الجوانب كوسيلة لاكتساب زخم كبير من المعلومات للتخطيط التعاونى (المشارك). وهذه الإستراتيجية بالغة الأهمية وتم تجسيدها فيما سمي فيما بعد بالبحث الأسترالى Searching Australia ، خطة طموحة لجعل البحث جهدا قوميا واسعا للتغيير الاجتماعى (Emery & Emery, 1974).

وفى عام ١٩٨٩ نظم الباحثون الأستراليون مؤتمرا دوليا سمي "وضع العمل فى أستراليا" "Work Place Australia" وكان واحدا من أهم مقومات نجاح هذا الحدث قضاء المشاركين أسبوعا داخل مؤتمر البحث. وقد تم تنظيم مؤتمرات بحث متعددة (٢٠ مؤتمرا) شملت الأجانب والمحليين معا. ومع

ذلك فإننا لا نستطيع أن نحكم على فعالية برنامج البحث المتعدد هذا، فهذه الجهود أوجدت وعيا دوليا عن البحث كمنهج للتصميم التعاوني. حقا فقد ظهرت نتائج نجاح هذا المؤتمر في الأنشطة اللاحقة التي قام بها الباحثون الأستراليون الذين سافروا خلال القطار المهني إلى دول أخرى بأساليب مؤتمر البحث. على سبيل المثال فقد قدمت مارلين إيملر بناء وتنظيما في الولايات المتحدة الأمريكية لتعليم الناس كيفية إجراء مؤتمرات البحث.

استخدام مؤتمرات البحث في الولايات المتحدة الأمريكية:

كان أول من أدخل البحث في الولايات المتحدة الأمريكية الباحثين بمعهد تافيسستوك. ففي البدايات المبكرة من مرحلة الثمانينيات من القرن الماضي انضم كل من فريد إيملر وإيريك تريست إلى مدرسة وارتن لإدارة الأعمال بجامعة بنسلفانيا. وخلال هذه المرحلة عمل تريست في مشروع بحث فعل كبير في جيمس تاون بنيويورك، وقد دعى إيملر للعمل مع جماعات الأمريكيين الأصليين في مناطق نائية بنيويورك. وقد نتج عن هذا النشاط الأخير بحث يركز على مستقبل الهنود الحمر.

وقد جاء التأثير الأقوى في الولايات المتحدة من خلال استشارة مارفن ويسبورد Marvin Weisbord. وفي أحد كتبه "أماكن العمل المنتجة (1987) Productive Workplace" قام بجمع العديد من الأمثلة العملية لمؤتمرات البحث التي تم تنفيذها في مدى واسع من الثقافات والمؤسسات. وقد أوجد ويسبورد استشارات مهمة في إدارة الأعمال وذلك بتركيز اهتمامه على تدريب المستشارين على عمل مؤتمرات البحث. وبين جهوده التدريبية وكتاباته أصبح له تأثير مسيطر في الولايات المتحدة الأمريكية على تنمية التفكير عن مناهج وطرق البحث. ويمثل مؤتمر البحث لويسبورد (١٩٩٢) أسلوبا خاصا في البحث تم وضعه ليناسب مع بناءات القوة الموجودة في إدارة الأعمال بالولايات المتحدة الأمريكية. وأحد الجوانب الرئيسية التي

يتميز بها اتجاه ويسبور د عن تلك التى ناقشناها سابقا تتمثل فى قبوله عوامل ثبات معينة **Certain parameters** مسبقا، ويوافق على الدفع بمناطق معينة من عدم الاتفاق إلى الخلفية. لذلك فهو يستخدم البحث بصفة أساسية كمنهج لتشكيل رؤية مشتركة واستخراج بعض القدرات الخلاقة للمشاركين. وهناك أيضا تركيز أقل فى اتجاهه على كيفية مساندة الأفعال التنموية الأساسية خلال عملية البحث. وبينما بعض من هذا نبعث من الممارسات الخاصة بويسبور د، ومع أن مناقشة القوة والبحث قد تم تناولها فى رسالة الدكتوراه لأن مارتين (2000) **Ann Martin** فإن تحديات التصميم التنظيمى وبناءات القوة تميل إلى إلغاء البحث من الولايات المتحدة الأمريكية عموما.

ويدور التيار الآخر من الأنشطة القائمة على البحث حول جامعة كورنيل. وقد اكتشف البرنامج الذى قامت به مدرسة علاقات العمل والصناعة بجامعة كورنيل، والذى يسمى أنساق التوظيف ومكان العمل "Employment and Workplace Systems"، والذى وضعه أساسا وليم فوت هويت **William Foote Whyte** الباحث الذى استخدم الاتصالات مع مورتين ليفين وجامعة النرويج للعلوم والتكنولوجيا بمدينة تروندهيم **Trondheim** (Whyte, 1994, P.307)، ويتناول اتجاه هذا الاتصال نجد أن اتجاه جامعة كورنيل ارتبط تماما بالاتجاه النرويجى وجسد ذلك ارتباطا قويا بين التقاليد النرويجية وبين الأكاديميات الأمريكية أكثر مما فعل ويسبور د.

مؤتمرات الفعل كعمليات تغيير بنائية

Search Conferences as structured Change Processes :

على الرغم من أن لدينا تفضيلات واضحة، فإننا نركز على أنه لا يجب أن يتساوى البحث مع أسلوب واحد فقط؛ فلا توجد وسيلة واحدة صحيحة لإجراء مؤتمر البحث. فالممارسون يختلفون فيما بينهم وفقا

لاتجاهاتهم ومهاراتهم. وبالإضافة إلى ذلك نجد أن الباحثين الجيدين هم الذين يطورون باستمرار اتجاهاتهم ويبدلونهم كلما تعلموا أكثر عن العملية التي يخرطون فيها ويكتسبون مهارات أكثر. ولا يجب أن نمح أيا من الممولين لهذا المنهج شرف فرض الاتجاه الذين يرونه صحيحا من وجهة نظرهم. وبالتأكيد نحن لا نتفق مع مارلين إيملر (١٩٩٣) بأنه يوجد وسيلة واحدة لإجراء مؤتمرات البحث.

الاختيار التعاوني Co- Optation:

يعتبر الاختيار التعاوني للبحث مشكلة حقيقية. إن البحث مثل بحث الفعل للفين وبحث الأنساق الاجتماعية التقنية من قبله كان هو النمط السائد. وإلى حد بعيد وضعت بعض العمليات في الوقت الحالي تحت عنوان مؤتمرات البحث، والتي أغفلت التركيز المهم والضروري على التغيير الاجتماعي الليبرالي التشاركي. وكان بعض من هذا نتيجة التخطيط الفقير والنقص في فهم ما هي حقيقة البحث. ومع ذلك جاء بعض من هذه أيضا بسبب التكرار المتزايد لاستخدام مؤتمرات البحث لخلق "فترات سحرية" للمشاركة بواسطة إيهامهم بالمشاركة في عمليات التغيير الواقعية، بينما يتركز الاهتمام الرئيسي للعملية على تقليل الضغوط الداخلية من أجل التغيير. ولمساعدة باحثي الفعل للكفاح من أجل التعامل مع هذه المشكلة وأيضا لمد القارئ بإرشادات تفصيلية كثيرة عن عمليات البحث فإننا نناقش الآن العناصر الرئيسية لمؤتمر البحث كاتجاه نابع من ممارستنا الخاصة.

متى تصبح العملية بحثا When is A Process A Research:

من وجهة نظرنا يجب أن تتوفر ستة عناصر رئيسية لكي تتخذ عملية الجماعة خصائصها على أنها بحث:

(١) خلق تاريخ مشترك وترك كل مشارك يفهم كيف يبدو للعالم طبقا لجماعة المشاركين الآخرين.

(٢) خلق رؤية مشتركة حول ما هو المستقبل المرغوب أو الحلول المناسبة للمشكلات المحورية للجماعة.

(٣) خلق وجهة نظر حول ما يمكن أن يكون عليه المستقبل لو لم يتم فعل أى شيء؛ وأحيانا ما يتكامل هذا المنظور داخل العمل نحو المستقبل المرغوب.

(٤) خلق خطط العمل المنصبة على المشكلات المحورية.

(٥) خلق عملية تحديد أولويات جماعية والتي من خلالها يختار المشاركون بين البدائل المتاحة لخطط العمل.

(٦) البدء بأنشطة تغيير واقعية وبناء عملية متابعة تستهدف متابعة ما تم المشاركة فى تحقيقه وتعلمه.

وهذه العناصر الستة تختلف فى المحتوى والبناء. إن العمل على تطوير التاريخ يعتبر مختلفا كثيرا جدا عن استخدام الإبداع الضرورى لتطوير أفكار جديدة لخطط الفعل. وبالإضافة إلى ذلك فمن خلال البحث يوجد تفاعل منظم بين الجلسات المكتملة **Plenary Sessions** وجماعة العمل الصغيرة التى تشيد بناء اجتماعيا جديدا. ومن الخصائص المهمة الأخرى فى البحوث هى كيف يخلق البناء الصارم والقواعد العادلة العملية التى تساعد فى تشكيل مناطق ذات قيمة للحوار.

وقد شبة هيربست (Herbst 1980) عملية البحث على أنها مزدوجة الطريق **Dual Track**. وينقل الشكل رقم (٩-١) التصور العام للبحث كعملية إنتاجية وخالقة (تبنى تاريخ ورؤى مشتركة، وتنتج إمكانيات فعل خالقة، وتعكس مدى جدوى إمكانيات الفعل، وأخيرا تضع أولويات الاختيار بين عناصر الفعل المتاحة).

وتتضمن عملية العمل في مؤتمر البحث كل من العروض التكاملية والمناقشات وجماعات العمل الصغيرة. وهذه الجماعات الصغيرة إما أن تكون متجانسة أو أن تكون خليطاً من الاهتمامات والخلفيات، وتستخدم في إعداد الأفكار والمواد اللازمة للمناقشات المتكاملة، وبالتالي فهي تعبر عن نفسها كجماعة مشاركين كلما كان ذلك ممكناً.

تصميم المؤتمر

مراجعة		تحديد المشكلة		الخطوط المحتملة للعمل من الآن وحتى المستقبل	
الماضي	الحاضر	الحاضر	المستقبل	الماضي	الحاضر
ما التغيرات التي حدثت في المجتمع من الماضي إلى الحاضر؟ هل هي إيجابية أم سلبية؟	ما التغيرات المتوقعة في المستقبل؟ هل هي إيجابية أم سلبية؟	صياغة المشكلات الرئيسية بواسطة فريق البحث على أساس المعلومات التي حصلوا عليها.	مراجعة صياغة المشاركين للمشكلات الرئيسية	تصنيف المشكلات الرئيسية	العمل والأفعال التي نحتاجها والتي تبدو ممكنة التنفيذ
حيز الجماعة	حيز الجماعة	حيز الجماعة	حيز الجماعة	حيز الجماعة	الحيز الممتلئ

اليوم الثاني

الجماعة المتجانسة

اليوم الأول

الجماعة المتجانسة

شكل (٩-١) عمليات بحث الطريق المزدوج لهيربست

الإعداد للبحث :Preparing for Search

تؤدى الكثير من الطرق إلى مؤتمر البحث. فى بعض الحالات يكون لدى الفاعلين المحليين الألفة بمؤتمرات البحث وبالتالي توقع تحقيق ما يتطلعون إليه. وفى هذه الحالة تكون المهمة البدء فى اختيار شخص لتولى وظيفة الميسر. ويتطلب المنهج البيروقراطى المعيارى ببساطة المقترحات من مختلف مديرى مؤتمر البحث المهنيين. ونحن نعتقد أن البحث كنوع من بحوث الفعل يتطلب المهارات والإدارة التى تصل وراء أنماط العمل لمعظم المستشارين التقليديين، ومع ذلك فإن التعاقد على مؤتمر البحث نفسه يعتبر حالة معقدة.

والطريق الآخر لمؤتمر البحث يتعلق بالخارجيين العاملين فى عمليات التنمية المحلية لإقناع الفاعلين المحليين بأن البحث ملائم لهم. وفى هذه الحالة ربما لم يفهم الفاعلون المحليون ما هو البحث. إن التحدى الذى يواجهه الخارجيون يتمثل فى كيفية نقل وتوصيل الفهم بعملية البحث، ورؤية أن ذلك يمكن أن يساعد الفاعلين المحليين. وعلى الرغم من ذلك تعتمد عملية البدء فى البحث على الثقة المتبادلة لأنه من الصعب نقل صورة واضحة وعادلة عن ما يكون عليه البحث إذا لم يكن للناس خبرة أو رأوا نتائج إيجابية للبحث على جماعات أخرى.

التخطيط للبحث وتنفيذه

Planning and Executing a Search

التفويض بمؤتمر البحث

Commissioning the Search Conference

تتمثل أول خطوة فى البحث فى العمل مع الفاعلين المحليين الذين يريدون أن يكونوا مفوضين فى البحث. وهذه المناقشة مهمة جدا للعديد من

الأسباب. فالسؤال أو الطلب الأولى الذى يحفز المحليين ربما لا يكون هو أكثر جوهرية أو أهمية للجماعات التى يمثلونها، أو ربما لا يكون محددا بطريقة يمكن أن تؤدي إلى بحث بناء. ونظرا لأن البحث يعتبر شكلا من إنتاج التعلم التعاوني، فلا بد أن يخصص متسع من الوقت للمناقشة مع هؤلاء المفوضين للبحث، لذلك يتكون لدى كل شخص فكرة واضحة عن ماهية العملية ككل.

ونظرا لأن العملية تستهدف إيجاد فرص تعليمية متبادلة، فلا بد أن يتحدى ويناقش الميسر التحديد المبدئي للمشكلة محور الاهتمام، ومن ثم يناقش التعريفات المحلية لها التى يتم تداولها. ويؤدي الفهم المتبادل الناتج من خلال هذا الحوار إلى تحديد مشكلة البحث التى تستخدم فى التخطيط لمؤتمر البحث. ومن المفضل جدا أن يكون لدينا نوعان من الناس يعملون إما ميسرين مساعدين أو فى إدارة مؤتمر البحث.

تحديد المشاركين :Identifying the Participants

وتتمثل الخطوة الثانية فى تحديد المشاركين المحتملين. وفى الأبحاث بوجه عام يكون الحجم المثالى بين ٢٠ و ٤٠ شخصا، ولكن يمكن إجراء البحوث بنجاح بأكثر من ٧٠ مشاركا، وحاليا تضمنت بعض البحوث المرتبطة عددا من الجماعات المهمة بنفس القضايا عددها مئات من المشاركين.

(Robert Rich, 1998, Personal communication; Pelletier, Kraak, & Asher, 2003; Peters, Hittleman, & Pelletier, 2005)

ويعتبر التحديد المناسب من المستفيدين نوى العلاقة من الأمور الحيوية والضرورية. ويمثل تحديدهم دلالة على تركيز اهتمام البحث عليهم. إن كل جهد يتم يكون لوضع الجماعات والأفراد التى لديها اهتمامات شرعية

أو أقوال موضع الاهتمام. ويعتبر ذلك إجراء معقداً ذلك أننا عادة ما نبدأ بوجهات نظر هؤلاء الذين يفوضون في البحث. ولكن نادراً ما تكون هذه الجماعات ممثلة تماماً للمستفيدين نوى العلاقة. ويجب أن يبحث الميسر عن طريقة لإدارة العملية بشكل يتأكد من خلاله أنه تم عرض الكثير من اهتمامات المستفيدين بأقصى درجة ممكنة.

وهذا يبدأ بمناقشات مع هؤلاء المفوضين في البحث، ولكن بسرعة تصبح عملية إيجاد ودعوة المشاركين نوى العلاقة شكل من تحليل الشبكة. ومع البدء بأسماء الأفراد والجماعات التي قدمتها جماعة البداية أو التفويض، يتم أيضاً سؤال كل مشارك جديد تم الاتصال به عن توصياته ومقترحاته عن أشخاص آخرين أو جماعات أخرى يجب دعوتها للمشاركة في البحث. وبالسير في جميع هذه الخطوات يتم تحقيق الاختيار المناسب للمشاركين. وفي الغالب فإن الغرض من كل ذلك هذه الحوارات والاتفاقات مع هؤلاء تحقيق التوازن المقبول في وقت قصير.

دعوة المشاركين Inviting Participants:

عندما يتأكد الميسر بأنه تم تحديد جماعة الناس المناسبة كمشاركين وأن المستفيدين المحليين قد وافقوا، فلا بد من تقديم الدعوة لهم. ومن وجهة نظرنا فإن أفضل وسيلة لعمل ذلك هي المزج بين الدعوة والمقابلة. وإذا تم تقديم الدعوات بواسطة الميسر فإنه يستطيع من خلال المقابلة اكتساب مزيد من المعرفة عن المشاركين، مثل خلفياتهم وسياقاتهم التنظيمية، والتي تساعد ميسر البحث لكي يكون أكثر فعالية. وتوفر المقابلة للميسر الفرصة لفهم الأشخاص والمواقف، والذي يزيد من قدرته على اتخاذ القرارات القائمة على أساس المعرفة فيما يتعلق ببناء وعملية البحث. وفي نفس الوقت تعتبر المقابلة التي

يتم فيها تقديم الدعوة وسيلة ذات قيمة كبيرة حيث يتم إعلام المشاركين عن ما هو مؤتمر البحث. ويعتبر ذلك نوعا من الإعلام والدافع للمشاركين المحتملين. وأحيانا ما تتطلب بعض الصعوبات والقيود تفويض هذه المهمة لجماعة التخطيط. وعندما يتم إنجاز هذه المهمة يتم دعوة المشاركين على أقل تقدير بواسطة الأشخاص الذين يعرفونهم وأن يكون لديهم الفرصة لتوجيه الأسئلة عن العملية في بيئة مريحة. وفي كل الأحوال فإن الإعداد الأفضل للميسر والمشاركين يزيد من فرص احتمال نجاح البحث.

الدعم اللوجستى Logistical Support:

لا نقدم هنا تفاصيل عن بناءات الدعم المادى المقدم للبحوث، ما عدا القول بأن المحيط الجيد والدعم اللوجستى مهمان بشكل كبير. ويعتمد البحث على تعلم الجماعة عن نفسها، لذلك يجب أن يسمح الوضع القائم للمشاركين بالانفصال عن حياتهم اليومية والتركيز بقوة على الأشخاص الآخرين والمشكلة التى يتناولونها. وهذا يتيح الفرصة للمشاركين للتعرف على بعضهم البعض اجتماعيا أثناء اللحظات التى لم يتم فيها إجراء البحث، وكذلك يتيح الفرصة للبعد عن الحياة اليومية مما يعزز من فرص التركيز على قضايا البحث المطروحة.

ومن المهم جدا أن نجد مكانا يوجد به العديد من الغرف الكبيرة التى تسمح بالمناقشات الوافية. والحجرة يجب أن تكون كبيرة بدرجة كافية تسمح بحرية الحركة للمشاركين، ويجب أن تملأ الحوائط الرسوم التوضيحية والإحصائية التى تعرض مدى التقدم فى العمل. ويجب أيضا أن يتاح فى هذا المكان مساحات واسعة لممارسة أنشطة الجماعات الصغيرة. وكذلك من المهم أيضا أن تتوفر فى هذا المكان منطقة يتم فيها جمع الموارد المادية المطلوبة والحفاظ عليها وصيانتها.

وعند الإعداد للبحث فإن التعاون الوثيق مع جماعة المشاركين المحليين يعتبر من المتطلبات الضرورية. وهذا يوفر أساسا جيدا لدعوة الأعضاء وأيضا يساعد أعضاء جماعة التخطيط فى تقديم خدماتها كميسر متعاون. ويكون لذلك تأثير كبير فى تدريب المشاركين المحليين على تناول بحوث المستقبل بأنفسهم، ولكن أيضا له تأثير ديمقراطى مهم من خلال إعطاء المشاركين الفرصة لإبداء رأيهم عن القرارات التى تتعلق بتصميم مؤتمر البحث وإدارته.

مراحل مؤتمر البحث:

تستغرق عملية البحث النموذجية حوالى يومين، وهذه الفترة من الزمن تتسم بدرجة من المرونة. وقد دارت المناقشات حول هذا الوقت الكثير على أساس أن البحث يعتمد على عمليات تعلم جماعية، وهذه العمليات لا تتحرك بشكل سريع. وربما نجد أن البحث القصير يقع فى شرك عدم التركيز ويهدد الهدف الرئيسى وهو إيجاد عملية تعلم مدعومة.

ويبدأ البحث بالمشاركة الكاملة فى تحديد المشكلة التى يتم التعامل معها، ويتبع ذلك الجلسات التى تركز على جوانب المستقبل النموذجية المحتملة. وينتهى هذا عادة فى اليوم الأول. ويبدأ اليوم الثانى بتكوين إستراتيجيات الفعل، وخلق بناءات القوى وينتهى البحث بالتخطيط للمقابلات المستقبلية.

إيجاد التاريخ المشترك Shared History:

تتمثل الخطوة الأولى فى البحث فى تكوين التاريخ المشترك. ولا يعنى هذا القول إن الفهم الموحد للجذور التاريخية للجماعة يجب أن

يستبعد. وعلى العكس من ذلك فإن التركيز هنا يكون على أنه يجب أن يدرك ويعى كل المشاركين فهم كل طرف من الآخرين للتاريخ ذى العلاقة. وتتمثل الفكرة الرئيسية فى كيفية أن يكون التاريخ متعدد المظاهر ومتنوع الخصائص، وهذا لابد أن يكون واضحا بعد سماع كل وجهات النظر المتنوعة. وبالفعل فإن معظم الجماعات فى البحث يكون لديها تاريخ مشترك، ولكن إنتاج التاريخ فى البحث يختلف، لأنه يبحث بفاعلية عن الخبرات ووجهات النظر، والتي غالبا يتم إغفالها أو قمعها فى الحياة اليومية.

ومن الطرق الشائعة للبدء فى البحث أن يكون لدينا عضو أكثر احتراما فى الجماعة يقوم بوضع تصور تاريخى واسع الرؤية. ومن ثم تعطى الفرصة لكل المشاركين فى الجماعة لعرض رؤيتها الخاصة عن التاريخ. ويتم ضم كل ذلك فى جلسات متكاملة حتى تستطيع الجماعة ككل تكوين وضع متجانس heterogeneous يرضيها ككل.

ومن الوسائل الأخرى لتكوين تاريخ مشترك تقوم على أساس الاستخدام الخلاق للرسم والكتابة. ففي الغرفة المتكاملة يتم تغطية الجدران للورق المعد للرسم والكتابة. ويمكن أن نضع خطا من الأوراق المنفصلة أو صفحة طويلة من الورق (Martin & Rich, 1994). وعلى سطح هذا الورق يتم رسم خط عريض للزمن يبدأ من اليسار بنقطة البداية ويستمر حتى الحاضر. ومن ثم يتم إعطاء الفرصة للمشاركين إضافة رسوم أو أحداث فى أى مكان لديهم فيه ما يساهمون به. بعد ذلك تستمع الجماعة ككل لكل شخص أضاف شيئا ما حيث يقوم بشرحه. ومن خلال هذا الاتجاه يستطيع المشاركون تعلم تفسير التاريخ من كل شخص والبناء عليه، وفى النهاية يتمخض عن هذه العملية ككل إنتاج تاريخ جديد.

إنتاج رؤية مشتركة :Creating A Shared Vision

يتمثل الهدف العام من عملية البحث في إيجاد موقف مشترك عن مستقبل مرغوب ومحتمل. ويكون ذلك بناء على التباين بين المستقبل المثالي والمستقبل الحقيقي. ويمكن أن يكون المستقبل المثالي في رؤية كيف يتطلع المجتمع المحلي أو المنظمة بنهاية العقد القادم. وتتمثل القضايا الجوهرية هنا في أن يكون لدينا سقف لوجهات نظر المشاركين، ووعيمهم المشترك حول ما يجب أن يكون عليه المستقبل المرغوب. ومرة أخرى تعتبر هذه عملية جماعية، والتي من خلالها يرتبط المشاركون في حوار يستخدم الجماعات الصغيرة واللقاءات الجماعية المتكاملة للوصول إلى نوع من الإجماع. وأن كل ما ينشأ أو يظهر نتيجة، كل ذلك يعتبر اتفاقا عاما يسمح بتخصيص الغرفة لتفسيرات الأفراد وأفعالهم.

وعلى الرغم من أن الإجماع المطلق ليس ضروريا أو مرغوبا، فإنه يجب أن يكون هناك مستوى مقبول من الفهم والاتفاق المتبادل. ويمكن أن يحقق مؤتمر البحث نتائج مفيدة فقط عندما يكون هناك حد أدنى من الفهم العام للأهداف والإجماع عليها. وقد ناقش مارتن الخط القاسي **Harder Line** ورأى أن الاختلافات القوية حول المستقبل المثالي تقلل من احتمال وصول مؤتمر البحث إلى نتائج عملية.

ومن وسائل تنفيذ عملية تحديد المجتمع المثالي البدء بالجماعات الصغيرة والمتجانسة نسبيا، والطلب من كل جماعة أن تحدد من ٥ - ١٠ أهداف مهمة للوصول إلى قضية البحث. ومن ثم تقدم كل جماعة وجهة نظرها بشكل متكامل، وهذا يضع أساسا للمناقشة بين جميع المشاركين. ويجب أن ينظر الميسرون لهذه الخطوة على أن المناقشة المتكاملة تركز بشكل تدريجي على القضايا التي اتفق عليها المشاركون. وهذا العمل القائم

على الإجماع له أهمية بالغة نظرا لأنه سيكون نقطة مرجعية لفرق الفعل
Action Teams فيما بعد.

ويتم الوصول إلى المستقبل المحتمل بنفس الأسلوب. حيث يطلب من
الجماعات أن تحدد إدراكها بما سوف يحدث إذا لم يتخذوا الإجراءات
المناسبة لتحسين مستقبلهم. ويعتبر هذا الجزء من العملية حساسا جدا نظرا
لأن النظرة السلبية للمستقبل عادة ما يكون من السهل توضيحها، وغالبا ما
تتطابق مع المخاوف الانهزامية للمشاركين. ونحن نعتقد أن الجماعات يجب
أن تتعامل بانفتاح مع مخاوفهم الانهزامية، نظرا لأن تحديد وتسمية مخاوفهم
السيئة تساهم في تنمية وعيهم وإحساسهم بالحاجة إلى تغيير حقيقي.

وعندما تحدد جماعة البحث المستقبل المحتمل، فإن طاقة الوهم التي
غالبا ما ترتبط بالتاريخ والمستقبل المثالي تبدو في التلاشي. وتعتبر مراجعة
الواقع جزءا من العملية ويجب على الميسرين أن لا يفعلوا أى شىء
ليجعلوها سهلة أو مقبولة. حقا نحن نعتقد أنه من المهم لكل مشارك أن يختبر
مباشرة المواقف الصعبة أو المطبات الناتجة عن عدم اتخاذ الفعل. ويعتبر
ذلك أساسا لصنع التزام بالفعل. ولتعزيز ذلك فإن اليوم ينتهى عند هذه
النقطة، مع ترك المشاركين لتأملهم الذاتى عن المستقبل المثالى والمحتمل.
والنهايات البديلة الممكنة. إن الوقت المتاح وأنواع القضايا وديناميات
الجماعة غالبا ما توحى بتعديلات في تقسيم الوقت.

تحديد خطط العمل :Identifying Action Plans

وفى ضوء المعطيات الخاصة بفهم الأهداف المرغوبة، ونتائج عدم
اتخاذ الفعل، فإن المهمة هنا تكمن فى تطوير وتكوين الأفكار المتعلقة بالفعل
والإستراتيجيات اللازمة للوصول إلى الأهداف المرغوبة. وتبنى العملية على

القدرات الخلاقة للمشاركين. ومن المهم هنا تشجيع المشاركين على أن يتركوا العنان لقدراتهم الخلاقة للخروج إلى الواقع. وفي معظم الأحيان كل يوم من أيام حياتنا نعاني من مطالبنا المنخفضة جدا لإبداعاتنا الشخصية؛ وفي البحث يعتبر ذلك استثمارا جيدا أن نكرس جزءا كبيرا من الوقت لتشجيع هذا النوع من الإبداع.

ولفعل ذلك فلا بد من ملاحظة بعض القواعد. فغير مسموح نقد أفكار الآخرين. وربما يطلب المشاركون من بعضهم البعض التوضيح، ولكن كل الأفكار يتم التعامل معها على أنها جديرة بالاحترام. ولا يسمح لأى شخص أن يسيطر على الحوار أو أن يغلق أفواه الآخرين. ويجب أن يكون الميسر منتبها للاختلافات العمرية والعنصرية والأيدولوجية وحسب الجنس ويحاول الحفاظ على الحوار مفتوحا أمام الجميع بقدر الإمكان. ومن الوسائل الجيدة لتشجيع الإبداع فى هذا الجانب هى تكوين جماعات صغيرة من المشاركين تختلف فى خبراتها وأوضاعها فى المجتمع أو فى المنظمة. ويعمل الأعضاء على تكوين إستراتيجيات وخطط عمل يتم تقديمها تباعا فى الجلسات المتكاملة. ومن خلال هذه الجلسات يتم تشجيع المشاركين على حرية طلب الشرح أو التفسير للأفكار المطروحة وليس انتقادها.

أولويات الأفكار :Prioritizing Ideas

فى الوقت الذى تبدأ عملية الإبداع فى العمل، تقوم الجماعات المجتمعة فى إيجاد العديد من خيارات الفعل من الخيارات التى وضعتها. كل هذه الخيارات تستهدف الوصول إلى المستقبل المثالى. ونظرا لأن طبيعة العملية الإبداعية تؤدي إلى ذلك، فإن هذه الأفكار لا تكون فى أى ترتيب معين. وعندما يكون العمل فى جماعات كبيرة، فلا بد من ترتيبها بأسلوب معين. ونعتقد أن هذه هى مهمة ميسر البحث.

وفى العديد من البحوث ينتهى اليوم الأول عند هذه النقطة، بينما فى بحوث أخرى ينتهى اليوم بمواجهة المشاركين لمشاعرهم السيئة. وعندما يتم إنتاج خيارات الفعل يستطيع الميسر استخدام فترة المساء فى إنتاج فئات من بنود الفعل التى يمكن وضعها فى مجموعات معا. وتعتبر هذه مهمة غاية فى الأهمية نظرا لأنها تشكل أساسا لعملية وضع الأولويات. وتعتبر واحدة من المهارات الأساسية التى يأتى بها الميسر إلى العملية. ويجب أن يكون لدى الميسر القدرة على فهم الثقافة المحلية لكى يستطيع التمييز بين البدائل، وفهم المتشابهات. وعلى الرغم من أن تجميع الميسر ليس نهائيا فإنه يوفر الأساس لعملية تحديد الأولويات فى اليوم التالى.

ويبدأ اليوم التالى بعرض ترتيب وتنظيم الميسر لبنود الفعل. ويبدأ فى توجيه التوضيحات وإجراء التعديلات، ويتم فتح مناقشة متكاملة ينتج عنها إيجاد فهم لكيفية تنوع آراء المشاركين. وعندما تظهر فى الأفق بعض القضايا الأساسية المشتركة، فإن التحرك يتجه نحو وضع وتحديد الأولويات بشكل واضح وصريح. وعندما لا يتوفر الوضوح ولم تظهر وجهات نظر متفقة، فلا بد من إعادة تقسيم المشاركين إلى جماعات صغيرة للعمل نحو هذه القضايا. وكل جماعة يمكن أن تعطى على سبيل المثال تكوين قائمة من ٣-٥ من أكثر قضايا الفعل المرغوبة. وهذا بالفعل يقدم فى شكل متكامل وأن الجماعة ككل تستطيع أن ترى أن الطريق المتاح للوصول إلى قرارات جماعية بدأ فى الظهور.

نشاط التغيير الواقعى خلال فرق عمل المتطوعين

Concrete Change Activity through Volunteer Action Teams

تتمثل المرحلة الأولى للبحث فى إيجاد فرق العمل المسؤولة عن تحديد قضايا الفعل المتفق عليها. ويعتبر هذا اختبارا قويا لعملية تحديد

الأولويات. وهنا يقترح المشاركون من خلال الإشارة إلى الأوراق التى تتضمن قوائم بنود الفعل الأساسية. وبعض القضايا التى حددها المشاركون على أنها مهمة لم تتلق أى إشارة من المشاركين. وعلى الرغم من أن هذا الأمر جدير بالاهتمام فإن الغرض من البحث هو تحديد عالم مثالى للعمل، ولكنه عالم يستطيع الناس فيه الالتزام بتنفيذ أفعال عملية تساهم فى حل مشكلاتهم. فهى دائما خطط واقعية أكثر من أن تكون طاقة مبذولة أو تشجيع للتعامل مع المشكلات.

وللانتهاء من مؤتمر البحث، يكون لدى فرق العمل خطط لجلسات قصيرة مختصرة. نكون لكل جلسة خطة للجزء الأول من عملهم. ويجب أن يتكامل فى هذه الخطة تحديد أهداف الجماعة، وجدول تفصيلى يتضمن مواعيد واقعية للمقابلات، واختيار مقرر مؤقت للجماعة. ويجب أن يلتزم المشاركون كجماعة بمجموعة محددة من مقابلات التتبع العامة. إن الموقف المثالى هو الذى يحتوى على عملية تتضمن مؤتمر البحث نفسه، والتى تستمر نحو عام. مقابلات التتبع التى تتم كل شهرين أو ثلاثة أشهر تحتفظ بتأثير عملية النمو من خلال السماح للمشاركين بالاشتراك فى نتائج جماعات المهام المحددة المختلفة. ويمكن أن يودى ذلك إلى زيادة فرص التعلم لكل شخص وإيجاد ملكية جماعية وضبط لجهود التغيير.

ونحن نريد أن نعزز موضوع أن ممارسات البحث يمكن أن تختلف إلى حد بعيد. فمدة مراحله، وعدد الميسرين والمشاركين، وأشكال الجماعات الصغيرة، ودرجة التركيز على قواعد المناقشات، كل ذلك يختلف بسبب أن الميسرين يختلفون، أو بسبب أن بعض الميسرين يتكيفون بمهارة مع اتجاه تطوير وتنمية ديناميات جماعات معينة. لذلك فالبحث ليس وصفة محددة ولكنه عملية إنتاج تعاونى لبحوث فعل عالية المهارة. فالجهود التى تبذل للتعامل معه كوصفة محددة ينتج عنها أفعال وعمليات غير فعالة تفتقد أو يتم تحريفها على أنها تعاونية.

الخلاصة:

يعتبر مؤتمر البحث فقط واحدا من الطرق التي يمكن أن تستخدم في عمليات بحوث الفعل البرجماتية، ولكن بواسطة عمل عرض مفصل وممتد لمؤتمر البحث، فإننا نركز على الخصائص الرئيسية لاتجاهنا. إنه يتضمن تدريجيا محادثات متعددة الجوانب مع المستفيدين المحليين، والتفكير المتقدم في المشكلة موضوع الاهتمام، وعملية الاحتواء أو التضمين. ومن ثم يتم خلق العديد من ميادين إنتاج التعلم التعاوني، والتي تتركز فيها العلاقة بين التفكير والفعل على بيئة فريق العمل متعدد الأبعاد والجوانب.

وقد تم عرض الكثير من الأبعاد الأخرى لاتجاهنا في فصول الكتاب من الفصل الرابع وحتى الفصل الثامن. وبالطبع فإن جميع الأدوات الخاصة بالبحث الاجتماعي متاحة، إذا احتاج المجتمع أو المنظمة إلى أساليب البحث. فالأساليب الكمية والأساليب الكيفية والطرق المختلطة، وخاصة أساليب (جماعة المهام، والتدريب على ديناميات الجماعة، والتقليد، وتحليل قوى الميدان، ومصفوفة تحليل التغيرات، وتصميم ورش العمل التعاونية، ولعب الدور، ومستندات الروايات أو التسجيلات القصصية) يمكن أن تكون فعالة، ولكن تكون مناسبة فقط لو أنها تطورت في إطار سياق التحديد التعاوني لمجموعة من الأغراض أو الأهداف، وإذا تم مساعدة المشاركين المحليين على نشرها وتحليل النتائج بشكل حاسم.

ويتمثل الأساس الجوهرى لإستراتيجية بحوث الفعل البرجماتية فى احترام الأبحاث والأفعال الجمعية والأهداف الديمقراطية لبحوث الفعل والحفاظ على استمرار الحوار مع المشاركين. ويعتبر ذلك أيضا من الدروس المستفادة من مراجعة الحالات فى الفصل الثالث. وبمقدار القوة والقيمة التي

نعتقد أن يكون عليها البحث، وبمقدار جودة الأدوات التي تم استخدامها في سياقات أو بيانات محددة أو نوعية، فإننا نشك في أن بحوث الفعل التي تستخدم لتسوية المواقف التي يكون فيها بعض المشاركين متحمسين ومتحيزين لبعض الأضرار التي يعاني منها المستفيدون الآخرون. فالبرجماتية بمفردها سلاح غير كافٍ ضد السلطوية.

الهوامش

- (١) نستخدم مصطلح البرجماتي بطريقتين، ونحن نعني به أنه يشير إلى التقاليد الفلسفية للبرجماتية والبرجماتية الحديثة التي تمت مناقشتها في الجزء الثاني، ولكن نقصد أيضا استدعاء المعنى اللغوي المؤلف للبرجماتية، والذي يشير إلى عملي **Practical** أو الاستفادة العملية **Practical useful**.
- (٢) تم مناقشته في الفصل الثاني.

الفصل العاشر

القوة والإصلاح الاجتماعى

بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة والتعليم وتحرر المرأة وبحوث الفعل

Power and Social Reform

Southern PAR, Education, Feminist and Action Research

إن تقديم مجال معقد ومتنوع باختصار كبير يعتبر حتما مثيرا للسخرية. ويظهر ذلك لنا بشكل خاص عندما نحدد مجموعة هائلة من الاتجاهات لبحوث الفعل، والتي تركز على قضايا القوة والإصلاح الاجتماعى وتنمية المجتمع ومواجهة الاضطهاد وحركات مساواة المرأة والتحرر من اللاهوتية والأنشطة العمالية وتنظيم المجتمع وقيادات التنظيمات غير الحكومية (NGO) والموظفين الحكوميين وقادة الجماعات الإنثوية أو العرقية وعدد قليل من العلماء الاجتماعيين المهنيين الذين يشغلون مواقع أكاديمية، وكل ذلك يحتل مكانا تحت هذا العنوان. إن الاهتمامات المشتركة نحو القوة والإصلاح الاجتماعى انقسمت إلى مئات الوسائل بمختلف الطرق والأيدولوجيات والقضايا المحورية محل الاهتمام. ويرغب البعض فى وضع كل هذه الاتجاهات تحت عنوان بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة (PAR) بسبب الاهتمام الراسخ بعلاقات القوة والاضطهاد. ومع ذلك فإننا نحاول جاهدين تحديد التيارات المتنوعة داخل بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة حتى لا نفتقد رؤية الاختلافات المهمة بين الاتجاهات وبين تصميماتها المثالية المختلفة تماما للإصلاح الاجتماعى. ونتناول كل ذلك معا، سواء لتقديمهم أو لتوفير بعض التوجيهات والإرشادات فى الأدبيات التى ننتجها.

ونقوم أيضا بذلك من أجل وصف الاختلافات الواسعة بين هؤلاء الممارسين وبعض باحثي الفعل الآخرين الذين هم الأقل تركيزا على الإصلاح البنائي للمجتمع وعلى تحسين التعلم الاجتماعي والتصميم التنظيمي وحالة الأفراد بوجه عام. ومحصلة هذين الاتجاهين الرئيسيين فى بحوث الفعل التقسيم المهم الذى لا يستطيع الربط بينه إلا القليل من الممارسين. ويميل كلا الجانبين إلى إهمال عمل الآخرين، والتعصب إلى التنوعات الأيديولوجية المتعلقة ببحوث الفعل. والأسوأ من ذلك أن باحثي الفعل ذات التوجه القائم على القوة يرون أن باحثي الفعل العاملين فى المجالات الأكاديمية والصناعية والقطاع العام والحكومات المحلية قادرون على أن يطوعوا أخلاقياتهم مع نخب القوة. وغالبا ما تنتظر هذه الأصوات المعارضة إلى الباحثين الموجهين بالقوة على أنهم سلطويون، ومتأكدون تمام فى صواب وجهة نظرهم، بينما هم متهمون دائما بالتهميش لأنهم يصرون على أن مكانتهم الخارجية هى علامة على الاحترام وحسن السمعة.

ومن حسن الحظ فإن حالات العناد هذه تعتبر نادرة، وعلى الرغم من ذلك توجد اختلافات أيديولوجية ومنهجية واضحة بين الفريقين. ونحن نعتقد أن أى شخص يقوم بعمل بحوث الفعل فإنه يتجه نحو الموضوع الذى يتناسب مع توجهاته، ولكن نحن نعتقد أن كل الجوانب تستطيع تحقيق تعاملات ونتائج جيدة إذا حاولت التعلم من بعضها بعضا والعمل بأمانة وصدق من كل الأطراف. وبعد ذلك كله فإن هذا ما يدعون عمله فى ممارساتهم لبحوث الفعل، وأن هذا لا يتطابق أو ينسجم مع احترامهم لمعارف الآخرين، ومن ثم يرفضون المعرفة من كل جماعات ممارسي بحوث الفعل.

وتمثل مناقشة الباحثين^(١) فى هذا الفصل وجهة نظر القوة أو علاقات القوة بأسلوب يتسم بالعدل والمساواة التى يجب أن نتعامل معها مشروعات

بحوث الفعل. لقد نبعت العديد من الكوارث والأزمات الكبرى من عدم توازن القوى، وبدون إعادة التوازن بين القوى بأسلوب يتسم بالعدل والمساواة فلا يحتمل حدوث تغيير اجتماعي حقيقى. وبالمقابل فإننا نجد باحثى الفعل على الجانب الآخر لا ينكرون وجود اختلافات القوى، ولكنهم يعتقدون أن هناك الكثير الذى يمكن فعله لتحسين جودة الحياة وأداء التنظيمات لوظائفها، وأن هذا التحسين يتسم بالحرر. ويعتقد الكثير بأنه بدون هذه التغييرات فى التنظيمات الرئيسية-المجتمعات الصناعية المتقدمة، فإنه لا يمكن الوصول إلى أهداف المشاركة أو الأهداف الديمقراطية. وسوف نمزج فى هذا الفصل مناقشات بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة (PAR) وتعليم الكبار ونماذج مساواة المرأة المعاصرة نظرا لأن هذه الاتجاهات تشترك فى عدد من القضايا الشائعة أو العامة. ولكنها ليست متشابهة ولا تحقق وجودها بدون معارضة الأحداث الجارية Cross-current. فعلى سبيل المثال نجد بعض تيارات مساواة المرأة لديها انتقادات لبحوث الفعل الجنوبية (PAR) androcentrism (Maguire, 1996). وحاليا نجد أن باولو فيرير Paolo Rreire وهو قائد كاريزمى لحركة البحث التشاركى فى البرازيل وأخيرا حول العالم قد تعرض لانتقادات حادة من التيارات التقليدية الجنوبية المتعصبة (Bowers & Apffel-Marglin, 2004) (انظر أيضا الفصل الحادى عشر "بحوث الفعل التعليمية").

ونعتقد أن تناول هذه الاتجاهات معا يكون مفيدا جدا نظرا لأنها تشترك فى عدد من الخصائص الرئيسية التى تركز على تحليل الاقتصاد السياسى وتطبيقاته. ونحن هنا نميز اتجاه مساواة المرأة فى هذا الخليط نظرا لأن اتجاهات مساواة المرأة المعاصرة تستجيب بشكل أساسى للاهتمامات المصاحبة لبحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة بشكل خاص وبحوث الفعل بشكل عام. (Greenwood, 2005b) ونعتقد أن انتقادات التيارات ضد التشريعية وتيارات مساواة المرأة ضد الوضعية أتاحت الفرصة لفتح مناقشات

جديدة عن بحوث الفعل بصفة عامة. وقد منحت اتجاهات مساواة المرأة حياة جديدة للسياسات المرتبطة ببحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة وأن هذه الجهود قد تزايدت ونمت وريدت الاعتبار لبحوث الفعل بوجه عام.

ويجب أن نضيف أن ذلك ليس هو كل الأخبار السارة من وجهة نظر بعض تيارات مساواة المرأة، التي نظرت إلى بحوث الفعل على أنها متطفلة على جهودهم، ورأوا أن مناقشات بحوث الفعل تعتبر هي الأسوأ، وهي استيلاء منظم على جهودهم. ويمكن تفهم رد الفعل هذا لسببين، الأول أن هناك افتراضا عاما بأن اتجاه مساواة المرأة يتسم بالخضوع (Messer- Davidow, 2002) وبالإضافة إلى ذلك فإنه غالبا ما يصاب علماء اتجاه مساواة المرأة بالإحباط عندما يعلن باحثو الفعل أفكارهم وبرامجهم المستمدة من اتجاه مساواة المرأة بدون الاعتراف بمصدرهم الذي يكافح من أجل الآخرين. وبالإضافة إلى هذه الظروف المعقدة فإن بعض ممارسي بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة نظروا لاتجاه مساواة المرأة بفخر عندما خضعت حركة المرأة البيضاء الجنوبية واختارت التحول الاجتماعي، والذي يحتاج بالضرورة إلى التكافل والتماسك بين الفقراء.

ولم تستطع كل من سياسات بحوث الفعل ولا اتجاه مساواة المرأة المساعدة بشكل جيد من خلال الممارسين في المعركة التي حولت الانتباه بعيدا عن الأهداف المشتركة للتغيير الاجتماعي الديمقراطي. ونحن نعتقد أن كلتا الجماعتين تستطيع الاستفادة من هذه المواجهة بطرق وممارسات كل أنواع بحوث الفعل. وبتناول البناءات السياسية المحافظة بعمق في معظم المجتمعات الغنية، نجد أن الجماعات التي تكافح من أجل تحقيق التغيير وكأنها تقوم بعمل انتحاري عندما تطالب بالعدالة وسيادة القانون والإسهام في الكفاح مع الآخرين بدلا من خصومهم المشتركين.

البحوث بالمشاركة وبحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة

Participatory Research and Southern PAR

نبدأ بتحليل البحوث بالمشاركة (PR) Participatory Research

وبحوث الفعل بالمشاركة الجنوبية Participatory Action Research (PAR)، وهى مجموعة من الاتجاهات التى ظهرت كانتقاد لحالة الظلم السائدة وممارسة الليبرالية فى إطار الكفاح ضد الطبقة. ومن خلال كل ممارسة من هذه الممارسات وأشكال الكفاح الكائنة فى المجتمعات الغنية، فإن هذه الاتجاهات تمارس بشكل خاص فى المجتمعات الفقيرة.

ولم تشكل الكتابات والمدارس المذكورة هنا مجموعة متجانسة. حيث تختلف هذه الاتجاهات اختلافا جوهريا فى وجهة نظرها حول القوة، والطبقة الاجتماعية، والفقير. ولكنهم اشتركوا فى عدم الاتفاق مع الاتجاهات التقليدية واتجاهات السيطرة أو الهيمنة على التنمية وعقلانية البناءات التنظيمية. وقد تم بناء كل ذلك على أساس التحليل السياسى أو الاقتصادى الواضح لعلاقات القوة والتأكيد على أن التغيير الاجتماعى الحقيقى يحدث فقط عندما تتغير بناءات القوة ويقل الظلم وعدم المساواة. ونقول لهؤلاء الممارسين إن الوصول إلى الأفضل باستمرار أو تسوية الصراعات ليس كافيا لبناء التغيير الاجتماعى القابل للبقاء.

ومن الصعب هنا التعامل مع المصطلحات الفنية. فمصطلح الجنوبى مصطلح غامض، حيث إن له جانبا أخلاقيا أوضح من أن يكون ذا انتماء أو طابع جغرافى. وعند استدعاء مصطلح الجنوب South نجد أن جماعة الممارسين يرمزون إليه بالميل نحو الفقر والنبذ أو الاضطهاد من العالم، أينما وجد. (فالشمال والجنوب ليس ارتباطا جغرافيا حقيقيا ولكنه يشير بحق إلى ما يملكون أو ما لا يملكون، لذلك يوجد الجنوب فى الشمال (انظر

الفصل الثانى). وتوجد أيضا مشكلة اصطلاحية لبحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة (PAR) والبحوث بالمشاركة (PR)، فيظهر للبعض أن هناك اختلافات بين المصطلحين، بينما يبدو للبعض الآخر أن المصطلحين يشيران إلى نفس أنواع الممارسة. ويرى البعض الآخر أنه من الضرورى إضافة مصطلح "الجنوبى" للتمييز بين ممارسات كلا المصطلحين. وللأسف فنحن نعتقد أن ما أطلق عليه "بحوث الفعل بالمشاركة" فى الشمال هى التى شكلت الممارسة التى اعتقد الكثيرون أنها نتاج للتعاون والمساعدة من أصحاب القوة^(٢). ونحن نستمر فى استخدام صفة جنوبى فى هذا الفصل أساسا للتركيز على الاهتمامات السياسية الواضحة لهذه الأشكال من الممارسة ولكى نبين أيضا احترامنا أو اهتمامنا بهذه البرامج السياسية.

تحقيق الديمقراطية كنوع من الليبرالية

Democratization as Liberation

يرى الكثيرون من المفكرين فى المجتمعات الصناعية أن تحقيق الديمقراطية عملية مستمرة، وهى التى تشجع على إشراك الجماعات فى عمليات اتخاذ القرار السياسى (ويعتبر هذا قاعدة أساسية فى الليبرالية). ويرى الآخرون فى الشمال والكثيرون فى المجتمعات الفقيرة أن تحرير المضطهدين هو شرط أساسى ولا بد منه لتحقيق الديمقراطية. وبدلا من النظر إلى الفقر على أنه نتيجة للاحتواء، والتعليم غير الكفاء وعدم كفاية البنية التحتية، ينظر هؤلاء المفكرون إلى الفقر على أنه نتيجة منظومة من اضطهاد الكثيرين بواسطة الأغنياء وأصحاب القوى المحليين والنخب الدولية. وتعتمد هذه النظرة إلى العالم على اعتقاد أن عدم المساواة وعدم العدالة لا يمكن أن تغيب ببساطة بسبب أن جماعة الناس يقررون لو أرادوا شيئا أفضل أو كان تركيز الخارجيين منصبا على تشجيع التغيير.

ومن نقطة المشاهدة الجيدة للجنوبى فإن مشروعات التنمية الدولية أيا كانت هامشية التغيير الذى تحققه فى المجتمعات الفقيرة والأقاليم الفقيرة ليست هى الطريق إلى التغيير الاجتماعى المستهدف. إن الاستجابة الوحيدة للفقير والاضطهاد تتمثل فى التعديل أو التغيير الجوهرى فى توزيع القوى والمال. إن تركيز سياسات اتجاهات بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة (PAR) للجنوبية الحادة والراسخة هو الذى يربطها بشكل جوهري باتجاه مساواة المرأة الراديكالى.

وتعتمد هذه الاتجاهات على وجهات النظر المتنوعة للماركسية الحديثة نحو العالم والى تركيز على الصراع الطبقي، ودور وسائل الإنتاج وعدم التوزيع العادل للعمل، ونهب الرأسمالية العالمية. وتعتبر هذه هى العناصر الرئيسية التى تفسر الفقر والحفاظ عليه فى الدول الفقيرة فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وجزء من آسيا والأجزاء الفقيرة فى معظم الدول الرأسمالية الغنية. وهذه أيضا تفسر الزيادة الحالية للفجوة بين الفقراء والأغنياء فى الدول الغنية.

وتتمثل النتيجة المنطقية لوجهات النظر هذه فى أن اتجاهات بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة عادة ما تبدأ بدراسة توزيع الثروة وما يترتب على هذا التوزيع من مخاطر. ولا تتمتع التنظيمات العامة الموجودة بالنقطة وينظر إليها عموما على أنها حامية ومدافعة عن النظم الظالمة، إذا لم تظهر التحليلات التفصيلية للموقف غير ذلك. وتتضمن هذه التنظيمات المشبوهة المدارس والجامعات والكنائس والحكومات والمؤسسات الحكومية ومعظم برامج التنمية الحكومية والدولية المشتركة، وإدارة الأعمال.

لذلك يسير عمل هذا الاتجاه من التحليل الخارجى لظروف الفقر والاضطهاد إلى تصميم برامج التدخل فى المناطق المحلية. وغالبا ما تبدأ

برامج التدخل المحلية (وليس دائما) كنوع من جهود الحراك، مع لعب الخارجيين دور مستثيرى الوعى والمحفرين للمناقشات المحلية. وأحيانا ما تتخذ شكل مجيء الخارجيين لتأييد الداخليين الذين بدعوا بالفعل اتخاذ هذه الخطوات. وفى حالات أخرى يصل الخارجيون ومعهم برنامج للوصول إلى التغيير وتنظيمه.

ويتضمن العمل العامل الخارجى فى التحليل المبدئى لأسباب الموقف المحلى، والذي يمثل تغذية عكسية للسكان المحليين لخلق المساحة الكافية والشهية إلى قيامهم بتحليل أسباب موقفهم من وجهة نظرهم. وتتبع خطط العمل من خلال هذا التحليل. وتتخذ بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة وفق بعض المواقف شكل تعليم الكبار أو برامج تعليم القراءة والكتابة، والتي من خلالها تركز التعليمات على مناقشة وتحليل الظروف التى تقود إلى الفقر والاضطهاد فى المجتمع المحلى. وتوجد العديد من الطرق لاتباعها، والتي تتضمن العمل مع التنظيمات غير الحكومية والكنائس ومع العديد من الأنواع المتعددة من الناشطين المحليين.

وعلى خلاف المعايير التطبيقية الثورية، وتكتيكات تنظيم العمل التقليدية، فإن بحوث الفعل تعتمد على المعرفة وعلى التحليلات وجهود الناس المحليين بصورة أكبر وتقدرهما. وبدلا من التعامل معهم كضحايا فقط (على الرغم من عدم إنكار أنهم ضحايا) فإن ممارسى بحوث الفعل بالمشاركة يبنون أعمالهم على أساس وحدة ومرونة السكان المحليين وثقافتهم. ويتضمن افتراضهم أن المعرفة المحلية للموقف هى معرفة أصيلة وتفصيلية وذات قيمة، وأن فكرة أن الكثير من المنظمين الخارجيين الذين يؤكدون أنهم يعرفون ما هو جيد للناس يتم إهمالهم بصورة روتينية. وتبدأ عمليات بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة بمواجهة التحدى الأول وهو تجميع جماعات

السكان المحليين معا لمناقشة وتحليل مواقفهم. ومن هذا التحليل تتبع برامج البحث والتغيير الاجتماعى، ولكن يجب أن تكون هذه البرامج نتيجة تكامل جهود الباحثين الخارجيين وسكان المجتمع المحليين.

ويعتبر التركيز على المعرفة المحلية أمرا ضروريا لبحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة. وعلى الرغم من أنه يتم التعامل مع المعرفة المحلية أحيانا بصورة خيالية فى هذا الاتجاه، فإن الهدف الأساسى يتمثل فى رفع درجة احترام هذه المعرفة، ومن خلال ذلك يتم التمهيد للعلاقة بين عوامل التغيير الخارجية والسكان المحليين بطريقة تفتح الطريق أمامهم لمزيد من الجهود التعاونية. وتعتبر هذه المعرفة محلية وتتمو نتيجة الخبرات الشخصية القوية التى تجعلها محترمة وحسنة السمعة وتشجع الخارجيين على الاستماع الجيد لكل ما يقال ويحاولون بناء عليها تحديد ما يمكن تقديمه. ولكن من جانب آخر فإن هذا الاتجاه يعزز من الثقة فى الفقراء والمضطهدين والمظلومين الذين يملكون الذكاء والقدرات التحليلية التى يتم إهمالهم عموما. لذلك فمن الضرورى تفسير الفقر ليس فى مصطلحات إهمالهم أو كسلهم، ولكن فى مصطلحات الظلم أو الاضطهاد. وفيما يتعلق بذلك فإن هذا الاتجاه يتفق مع العديد من اتجاهات بحوث الفعل التى تم مناقشتها فى هذا الكتاب، ويتوافق أيضا مع الافتراض الأنثروبولوجى بأن كل الناس فى أى مكان لديهم أنواع متعددة من الفهم التى تتسم بالتعقيد وبحسن التنظيم حول العوالم التى يعيشون فيها.

وبناء على هذه المعرفة المحلية والتفاعلات التى تحدث بين المعرفة الخارجية ومعرفة الناس المحلية، يبدأ الإنتاج التعاونى للحوار، الذى يتم من خلاله تبادل وجهات النظر بين الطرفين. وبالضرورة فإن نظرة الخارجيين تعتبر مجردة وغالبا ما تكون خاطئة حول عدد من المعوقات الواقعية والملموسة للفعل المحلى. وغالبا ما تكون وجهة نظر الداخلين عملية وملموسة (وأحيانا تكون متجانسة بواسطة الأنشطة المحلية)، والتى تبدو أنها

تقدم فقط تفسيراً للفقر بدون تقديم أى مجال أو غرض للفعل. ويمكن أن يخلق الحوار بين كلا الرأيين وعياً عاماً بالمواقف أو المواقف التى تكون فيها أنواع التدخل المختلفة ممكنة.

وعندما يتم الوصول إلى هذه النقطة فغالبا ما يتخذ التحليل طريقه نحو التركيز على البحث. ويشارك الخارجيون والسكان المحليون فى بعض الأطر المرجعية عن المشكلات التى تواجههم وتقدير مواردهم وتوجيهها نحو مواجهة هذه المشكلات. ونظرا لأن الإهمال يعتبر واحدا من أقوى الأسلحة فى أنساق الظلم والاضطهاد، فإن هذه المرحلة كثيرا ما تتضمن تدريب المحليين على مناهج أو طرق بحث معينة ومساعدتهم على الوصول إلى الثقة فى قدراتهم على أن يبحثوا معا عن مصادر مشكلاتهم. وفى الغالب يجب أن يقوموا بجمع وتحليل وتقديم الأدلة التى تدعم ادعاءهم ضد رغبات أصحاب الأعمال والاهتمامات السياسية. ويعتبر البحث سلاحا فعالا فى هذا النضال، وأحيانا ما يكون لهذا البحث من جانب آخر خطورة كبيرة عندما يتم تنفيذه على نحو زائف.

إن التدريب على البحث ليس مجرد عن السياق أو البيئة. وعند الميل إلى تعليم الكبار، فإن التدريب يركز على المشكلات الملموسة والحالية التى يواجهها الناس. وأحيانا ما يعتبر التدريب على القراءة والكتابة عنصرا فى العملية. وفى مواقف أخرى يصبح السكان المحليون باحثين اجتماعيين من خلال استخدامهم التسجيلات الصوتية والتسجيلات المرئية لتوثيق ظروفهم وأحوالهم. وليس من المهم الشكل، فالرسالة واحدة ومتشابهة. فالناس المحليون أذكىاء وقادرون على التحليل المنطقى لمواقفهم، وقادرون على إدارة البحث الذى يستهدف تحسين أوضاعهم وظروفهم، ولديهم حق شرعى وجوهري لتغيير مواقف حياتهم إلى الأفضل. فالبحث يعطيهم صوتا جديدا يستطيعون استخدامه فى كفاحهم نحو التغيير.

ومن خلال هذه العملية يلعب باحثو الفعل الخارجيون دورا مركبا مثل دور الفاحص **investigator** ومدير العملية والمدافع عن الجماعات التى لم تتضمن بعد، والمدرّب على طرق البحث، وغالبا مؤرخا ومسجلا للأنشطة. ويعتبر هذا الدور معقدا ويحتوى على العديد من الصراعات. وعندما يكون هناك شخص متعلم لديه ثروة ويريد أن يحقق ما يريد، ومثل هذا الفرد يمكن رؤيته من جانب فئة الخارجيين الذين لديهم خبرات محلية على أنه سلبي وظالم. وحتى عندما يتم التغلب على النمط المعوق بدرجة ما، فلا يزال هناك بعض الأنماط السلوكية المتكررة التى يجب التعامل معها: سلوك الخضوع للمعلم الخارجى (الارتباط مع إخفاء المعلومات عن المواقف المحلية) والعدوانى على هؤلاء الخارجيين، ونقص الثقة فى القدرات المحلية، وترتيبات القوى المحلية التى تتهدد بواسطة هذه التحالفات الجديدة، والعنصرية وغيرها.

وعند التأريخ للعملية (تسجيلها) فغالبا يكون الخارجى فى وضع يؤثر فيه بإفراط فى كيفية التنظير للعملية وتقديمها أو عرضها خارجيا. فالطلبات التى تتادى بها الأصوات والبيانات تعتبر مربكة بوجه خاص فى هذه السياقات. فإذا كانت محاولات الداخلين فى موقف المخاطرة تتجه نحو تغيير نسق الظلم والاضطهاد، فربما ينظر إلى الخارجيين من جانب أصحاب السلطة فى هذه الحالة على أنهم صانعو مشكلات، وثوريون، أو حتى إرهابيون. إن العملية معقدة فغالبا ما تكون غير منظمة أو متفاوتة، وأحيانا تكون ذات خطر حقيقى.

وعلى الرغم من هذه الصعوبات، فإن هناك الكثير من الجهود التى يمكن رؤيتها، والتى تم التوصل إليها فى هذه الوسيلة. ويعتبر أورلاندو فالس بوردا **Orlando Fals Borda** واحدا من أهم وأشهر الممارسين. وبناء على

تعهداته والتزاماته كمفكر وأكاديمي في مجال تحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، فقد انتقل من نسق الجامعة إلى العمل المباشر في المجتمعات الريفية بأمريكا اللاتينية. وقد قدم العديد من التسجيلات المهمة لأفكاره وللعديد من المشروعات التي قام بها هو وزملاؤه (Fals Borda & Rahman, 1991; Hall, Gillette & Tandon, 1982; Park, Brydon-Miller, Hall & Jackson, 1993). ولم يقتصر فقط على تقديم كتاباته التي تؤثّق نظرية الممارسة، أو مجموعة حالات ومواقف التدخل التي كان لها تأثيرات مرغوبة، ولكنه أيضا قام بمحاولة ربط آرائه وخبراته الخاصة بآراء وخبرات الممارسين العاملين في أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا. ونتيجة لجهود فالس برادو فإنه يمكن الوصول إلى نوع من ممارسة بحوث الفعل بالمشاركة القائمة على الأسس الليبرالية، والتي يمكن تطبيقها على حياة الفقراء.

وهناك الممارسون الآخرون الذين كتبوا بفعالية عن قضاياهم وأفكارهم إلى الجمهور بوجه عام وهم ديفيد براون L, David Brown وراجيش تاندون Rajesh Tandon (١٩٩٣). فقد حاولوا توضيح وشرح قيمة بعض الاختلافات بين البحوث التقليدية، والبحوث بالمشاركة، وبحوث الفعل بالمشاركة، وقد أقاموا تحليلهم على أساس الألفة والاعتقاد على المواقف الملموسة والواقعية للفقير والظلم حول العالم. (Hall, Gillette, and Tandon (1982), Freire (1970), Park, Brydon-Miller, Hall & Jackson (1993), and Gabarron and Hernandez (1994) ويمكن قراءة كل ذلك لمزيد من الاستفادة.

الاختيار التعاوني الشمالي الجنوبي North-South Co-Optation:

لابد أن يدرك القارئ العلاقات الإشكالية بين ممارسي الشمال والجنوب. إن الظهور السريع الحالي لبحوث الفعل في الشمال سببت العديد

من الأنشطة الجنوبية للتعبير عن القلق المشروع عن الاختيار التعاونى Co-Optation لوجهات نظرهم فى الجنوب عن الغرض من المبادرات الديمقراطية المبهمه وغير الجادة. ولا يعتبر ذلك اهتماما تأفها أو عديم الجدوى. إن لدينا كل الشهادات على أن الاختيار التعاونى كانت عليه انتقادات جناح اليسار وأساليب قوى الظلم والاضطهاد (على سبيل المثال التنمية بالمشاركة، والتنمية المستدامة، وحقوق الإنسان، ومساواة المرأة، وكل تلك التى وجهت بقسوة نحو الاختيار التعاونى والوطنية أو المحلية (domestication)

فعلى سبيل المثال فإن إحدى وسائل تحديد الهدف النمطى الحالى للجودة الشاملة فى القطاع الخاص بالمجتمعات الصناعية يتمثل فى إدخال أو إقحام قوة العمل فى إدارة الأعمال. وغالبا ما يوضع هذا فى إطار زيادة المشاركة، وحاليا بدأ بعض خبراء التنمية التنظيمية (الإدارية) التقليدية الادعاء بأن أعمالهم هذه هى بحوث فعل تشاركية. وفى معظم الحالات فإن المشاركة تعنى فقط أن العاملين والموظفين الثانويين يتحملون مسئوليات عظيمة بينما لا يكون لهم دور بارز فى عملية صنع القرار أو لا يوجد أى دور على الإطلاق. وتحت هذه الظروف فإن هذه الإشارات إلى المشاركة أو لبحوث الفعل بالمشاركة تعتبر خادعة لأنها لا تقوم على أساس هدف جعل المؤسسات ديمقراطية، أو زيادة العدالة الاجتماعية. وقد ظهرت واحدة من أعظم الفوائد للممارسين الشماليين نتيجة للتفاعل مع الممارسين الجنوبيين، والتى تمثلت فى أن نكون أكثر يقظة لعمليات الاختيار التعاونى، وعلى الرغم من اعترافنا بقيمة الرؤية الجنوبية فإننا لا نتقبل المساواة بين العمل فى الشمال والاختيار التعاونى والعمل فى الجنوب والتحرر منه. فإذا اعتقدنا بأن كل بحوث الفعل فى الجنوب اختيارية Co-Opt فيجب أن لا نكون ممارسي بحوث فعل. وتكون خبرتنا حول أن بحوث الفعل فى القطاعات الرئيسية بالمجتمعات الصناعية تستطيع أن تربط قضايا المشاركة

وتحقيق الديمقراطية بالجدية المطلوبة كما فى الجنوب تماما. وفى هذه الحالات تختلف الإستراتيجيات (انعكاس المستويات المختلفة من الفقر والامية) بالدرجة التى تختلف بها القضايا التى يتم التركيز عليها (الدفاع، والوعى العام، استخدام النظم القائمة فى تحقيق نهايات أو أهداف جديدة)، ويجب أن تتضمن النتائج بشكل أكبر عمليات التحسين بدلا من التغيير الثورى أو الجذرى. ولكن لا تزال التغييرات الاجتماعية مطلبا حقيقيا، وأن تحليل علاقات القوة والظلم ليست متباعدة. وعندما يخضع العاملون لتحكم السلطات التنفيذية الغنية، وحتى وإن توفرت لهم درجة من التسامح أو الحرية فى حياتهم، فإنهم يعتبرون مضطهدين ومظلومين. إن إهمال أو إنكار حقوق هؤلاء الناس المضطهدين فى أى مكان فى العالم ببساطة بسبب أنهم فقراء يعتبر نوعا من القسوة.

وبالطبع فإن الاضطهاد والظلم فى بعض أجزاء من الجنوب يعتبر أكثر سوءا فى حالات كثيرة. إن الفقر والظلم والموت تحت ظروف الفساد الحكومى العميق، واستخدام الجيوش الوطنية فى قمع المجتمعات المحلية، واهتمام أصحاب رأس المال الأجانب والمحليين بالحفاظ على الأجور الرخيصة لقوى العمل، وسيطرة النزعة الاستعمارية، والامية، والمجاعات، كل ذلك يجعل المشكلات فى الشمال أقل حدة. ولكن الاضطهاد العنصرى، والتشرد، وإدمان العقاقير، وإهمال مشكلة الامية فى الشمال، كما أن العمال فى المصانع يقعون تحت سيطرة رؤسائهم الذين يستخدمون المشاركة للتغطية على التعجيل وخفض أعداد العمال، وإخفاق النقابات وفشلها، والأجور الكبيرة للقيادات التنفيذية، واستخدام موارد المؤسسة فى إفساد النظام السياسى، كذلك أصبح إحلال العمالة الرخيصة بدلا من المديرين فى المستوى المتوسط أمرا أكثر سهولة. إن الاضطهاد هو الاضطهاد فى كل مكان، إنه يوجد فى الشمال وفى الجنوب.

الإستراتيجيات التعليمية Educational Strategies:

يعتبر مجال التعليم واحدا من أهم الطرق التى تقود الناس إلى ممارسة بحوث الفعل فى العديد من السياقات المختلفة^(٣). ويشير مصطلح التعليم كما نستخدمه هنا على أنه أى شىء من الإصلاحات فى نظم المدارس الرسمية من مدارس المرحلة الابتدائية وحتى المرحلة الثانوية وحتى الجامعة، والدرجات فوق الجامعية. ويشمل أيضا تعليم الكبار سواء فى تنمية المهارات فى مجال التكنولوجيا والتغيير الاجتماعى، أو التعليم الفنى على أحدث التقنيات والأساليب فى المجالات سريعة التغيير. والمشكلة التنظيمية التى نواجهها هنا فى شرح وتفسير ذلك تتمثل فى أن المجال الواسع والكبير للتعليم يشمل العديد من الاتجاهات، وأن البعض منها فقط هو الذى يتعامل مع قضايا القوة والتغيير الاجتماعى.

ويمكن أن ينقسم هذا المجال المتنوع إلى العديد من الوسائل المتنوعة. وإحدى هذه الوسائل بواسطة ميادين التعليم التى تتعامل مع: المدارس الأولية، والمدارس الثانوية، والتعليم العالى، وتعليم الكبار، والتعليم غير الرسمى، والتعليم المستمر. والوسيلة الأخرى بواسطة التركيز على الوظائف المتعددة للتعليم. فيمكن النظر إلى التعليم على أن لديه رسالة محافظة تتضمن نقل كل ما هو معلوم ومعروف والمحافظة على النظم الاجتماعية. ولكن أيضا ينظر إليها على أنها تقوم بالمحافظة على البناءات والأفكار، وكذلك فى نفس الوقت ترتقى بعملية نقد النظم القائمة وتنمية أفكار جديدة. وفى الحالة الأخيرة فإنه يمكن النظر إلى أن التعليم يتضمن الاندماج والمشاركة الاجتماعية والحراك الاجتماعى. وأخيرا فإن بعض التيارات والاتجاهات التى تميل نحو التعليم تنظر إلى التعليم كوسيلة لتغيير التنظيمات الاجتماعية، وتسعى نحو تغيير معظم مناحى الحياة.

وقد كونت الجهود التعليمية الرسمية وغير الرسمية مجالا رئيسيا لأنشطة باحثي الفعل خلال أغلب فترات القرن العشرين، وبالتالي تخلل تاريخ المجال التعليمي تاريخ بحوث الفعل فى العديد من المواقع. ويعتبر جون ديوى وهو الأب الروحى للنظام التعليمى العام بالولايات المتحدة الأمريكية رقما مهما جدا فى بحوث الفعل الموجهة تعليميا. إن أفكار ديوى عن العلاقات بين المدرسة والمجتمع، وبين التعليم والديمقراطية، وبين نماذج تعلم البحث فى إدارة الذات وفى تحقيق حرية الإنسان، تذكرنا بقوة بالارتباط الممكن بين أنساق التعليم والتغير الاجتماعى.

ومن خلال سعى ديوى الطويل والمستمر نحو الأهداف الديمقراطية من خلال المدارس التى أنتجت القليل جدا فى سبيل تحقيق التغير الاجتماعى (Westbrook, 1991)، فإن الكثير من أفكار ديوى كان لها صدى واسع مع عوامل التغيير الاجتماعى. وقد رأى بعض المنظمين النقابيين المهنيين أنفسهم على أنهم معلمون، وكما فعل حشد من المصلحين الاجتماعيين المهتمين بتحسين أنماط معيشة الفقراء فى الولايات المتحدة الأمريكية (على سبيل المثال؛ Alinsky, 1946; Chavez, 1975; Horton, 1990).

إن هذا التنوع الواسع للممارسات والبرامج التعليمية لم يعطِ ارتفاعاً مفاجئاً لممارسات بحوث الفعل المتنوعة. فالبعض منها كان يتسم بأنه محافظ اجتماعياً، مثل بحوث الفعل التعليمية؛ البحث القائم على أساس الفصل Classroom Based Research وتحسن المعلم Teacher Improvement ونطاق العمل التقليدى Conventional Extension Work. والبعض الآخر كان أكثر توجهاته نحو التغيير كانت من خلال الارتقاء بمستوى القراءة والكتابة، والحساسية نحو العرقية/العنصرية، وبناء عاطفة تقدير الذات، وتنمية المهارات، وإيجاد مجتمعات الدعم المتبادل للمتعلمين. وأخيراً فإن

هناك بعض الاتجاهات التعليمية تعتبر اتجاهات إصلاحية قوية أو حتى راديكالية. ومن بين هذه الاتجاهات اتجاه تحقيق الضمير **Conscientization** لفرير (1970) Freire، وهو تعليم الكبار في مركز هايلاندر، ودوائر دراسة اتحاد العمال، والأعمال القائمة على المشروعات مثل ما قام به فالس بوردا. وسوف نتعامل في هذا الفصل فقط مع الاتجاهات التعليمية الاصطلاحية الموجهة بالتغيير الاجتماعي. (وبعض الاتجاهات الأخرى تمت مناقشتها في الفصل الحادي عشر؛ بحوث الفعل التعليمية)

وكما أن موجات التغيير الاجتماعي العاطفية قد أتت ثم ذهبت، فإنها أيضا كان لها جهود في الإصلاح التعليمي. وقد نتج عن الحركة العمالية تنظيم واسع وكبير من البرامج التعليمية. وقد خلقت الآثار المترتبة على الكساد العظيم (الأزمة الاقتصادية) حركة تنمية المجتمع والمبادرات التعليمية. وأيضا ظهر عصر الحقوق المدنية. وقد تسببت أحداث ١٩٦٨ في ازدهار المبادرات التعليمية في الفصول وما وراءها (Reading, 1996). وقد صاحبت كل محاولة عظيمة للتحويل المجتمعي مجموعة من التغييرات التعليمية التي تستهدف مساعدة الناس الذين كان يتم التعامل معهم على أنهم سلبيون، وذلك لكي يصبحوا إيجابيين وفعالين.

وقد انتشرت هذه الأنشطة التعليمية الفعالة على مدى واسع على المستوى الدولي. إن التركيز على التعليم كأداة ممكنة لتحقيق الديمقراطية قد توافقت مع بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة التي وضعت ثقلها في التركيز على تعليم الكبار. ومن الصعب القيام بالفصل التعسفي بين تعليم الكبار وبحوث الفعل في الجنوب. ولمواجهة المشكلات الحادة والمربكة للفقراء حول العالم، ووجود الفقر في الكثير من الحالات بواسطة الأنشطة التي تقوم بها الدول الغنية والقوية، والتي سبق ذكر نظمها التعليمية من قبل، فقد طور

الممارسون الجنوبيون التركيز على نوع من تعليم الكبار المتحرر. ويعتبر ذلك أمراً معقولاً جداً، وذلك بسبب أن أكثر الناس فقراً هم أفقر تعليمياً ولم يتم إعدادهم جيداً للقيام بالأدوار الفعالة في مبادرات التغيير الاجتماعي. وبدلاً من ذلك فإن التركيز أولاً على تعليم الأطفال كمدخل رئيسي، فإن باحثي الفعل قد شعروا بأن من الأفضل تركيز مواردنا على تنمية المهارات، والكفاءة والوعي الذاتي والثقة بالنفس بين الكبار، والتي ترتبط بمهمتهم الضرورية للكفاح نحو التغيير.

ومع الوضع في الاعتبار نقطة الانطلاق التاريخية، فقد ركزنا اهتمامنا على الأدبيات الثرية والمتنوعة في تعليم الكبار، سواء في المجتمعات الفقيرة، أو المناطق الفقيرة في المجتمعات الصناعية. ونراجع عدداً من أشكال التدخل القائمة على التعليم، والتي تشمل تنظيم العمل كشكل من أشكال تعليم الكبار، وتعليم النقابات المهنية، ومدارس تعليم الكبار خارج أنساق التعليم العام، والدور المحتمل للمؤسسات التعليمية في بحوث الفعل. وتشير هذه المناقشات بالضرورة إلى مجموعة متجانسة من الطرق والأيدولوجيات والروايات عن الممارسة، ولكن ذلك للتعريف فقط بالمجال. ويعتبر هذا التنوع جزءاً من الطاقة الديناميكية، والتي تتميز بامتلاكها للإستراتيجيات التعليمية لوقت طويل من الزمن. ونحن ندرك أن مبادرات بحوث الفعل المتنوعة في المؤسسات والنظم التعليمية في الشمال مثل أعمال ميشيل فين (1992) Michelle Fine سوف تسلط عليها الأضواء.

المدارس العليا الشعبية: أصول التعليم الشعبي

Folk High Schools; The Origin of Popular Education

يوجد سبب جيد للاعتقاد بأن تعليم الكبار كمجال مميز نشأ في الدانمارك بالتزامن مع أعمال العالم اللاهوتي بيشوب جروندتفيج Bishop

Grundtvig (1783- 1827). فقد بدأ مناقشة حادة مع المؤسسة اللاهوتية فيما يتعلق بالتحليل العلمى للإنجيل. وقد أشار إلى أن الكتب المقدسة يجب أن تكون مفهومة ومدركة للناس العاديين من خلال حياتهم اليومية وسط التجمعات التى يعيشون معها. ومن خلال هذا الصراع ظهرت فى نهاية الأمر جهود واعية لخلق نظام تعليمى شعبى تتكامل فيه الجوانب التاريخية واللاهوتية ودراسات التراث الثقافى التى أوجدت نسقا معرفيا ذات سياق محدد (Norgaard, 1935). وقد تأسست أول مدرسة شعبية عام ١٨٥١ وقد أصبحت هذه المدارس من العوامل الاجتماعية والسياسية المهمة فى الدانمارك. وقد انتشرت حركة التعليم الشعبى فى الدول الإسكندنافية الأخرى وأصبح تأثيرها أكثر اتساعا. إن مدرسة هايلاندر الشعبية فى نيوماركت New market وتنسى Tennessee والمؤسسة التى أوجدها ميليس هورتون Myles Horton قد تأثرت بشكل كبير بمفهوم المدارس العليا الشعبية Folk High School. وما زالت حركة المدرسة العليا الشعبية الإسكندنافية تتسم بالحيوية وبجذب العديد من الطلاب.

تعليم النقابة المهنية Trade Union Education:

يعتبر التعليم دائما عاملا أساسيا ومهماً فى تطور النقابات المهنية، حيث يحقق غرضين رئيسيين. ويعتبر التعليم ذا أهمية بالغة فى تدريب أعضاء النقابات المهنية لكى يصبحوا عوامل فعالة على مستوى المؤسسات التى يعملون بها، على سبيل المثال فى مواقف التفاوض وإتمام الصفقات. ويتمثل الغرض الآخر من التعليم فى رفع مستوى الوعى السياسى. وفى كل المراحل المبكرة للكفاح السياسى فى النقابات المهنية، فإن الجهود التعليمية تتخذ موقفا قويا وحاسما. وتعتبر النقابات المهنية ذلك على أنه قدرة النقابات الأساسية على تدريب أعضائها لكى يصبحوا عاملين مهرة فى المؤسسات

التي يعملون بها، وأيضاً في الكثير من مجالات العمل السياسي العامة. وقد أصبحت هذه الإستراتيجية التعليمية الكبيرة أكثر أهمية في حركات الديمقراطية الاجتماعية في أوروبا الشمالية، وبرهنت على أنها العامل الرئيسي في السياسات الأوروبية. ومن أمثلة ذلك فإن مجموعة "Eaton" (مدرسة النخبة لتعليم القادة السياسية وقيادة الأعمال) بالنرويج بعد عصر الحرب العالمية الثانية، وهي سوماركس Somarks، قدمت التسهيلات التعليمية القومية للنقابات المهنية بالنرويج. وقد جاء عدد قليل فقط من رؤساء الوزراء والوزراء من خارج دائرة سوماركس Somarks. وخلال فترة الثلاثينيات من القرن العشرين كتب رئيس الوزراء إينر جيرهارديسين Einar Gerhardsen كتابه الذي نشر عام ١٩٣٢ عن "لكني أصبح موظفاً نقابياً" Becoming Union Official، والذي لا يزال يستخدم حتى الآن.

وتتضمن أنشطة تعليم النقابات المهنية مزيج من التدريب العملي الذي يتناول شؤون العمالة في المتاجر العادية وفي المؤسسات الكبرى، ودائماً ما يتضمن العنصر الأساسي لانتشار وسيادة أيديولوجية النقابة. وتتخذ هذه الأنشطة التعليمية مكاناً بارزاً في السياق المضاد عندما يتم التعامل مع تعليم التحرر وتنمية الذات بشكل أساسي بواسطة تعليم أيديولوجية نقابية محددة.

وتبدو الخطة العلمية لجهود تعليم النقابات المهنية على أنها مكونة بشكل برجماتي، وتقوم على أساس خبرات محلية معينة. وتأسيساً على فكرة أن المعرفة هي القوة، فإن تعليم النقابات المهنية يذهب وراء هذا النوع من تعبير وضوح الذات Self-evident، حيث ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحل المشكلات العملية اليومية. وقد وضع عالم الاجتماع الألماني أوسكار نيجت Oscar Negt (1977) برنامجاً علمياً لتعليم النقابات المهنية. وفي مقدمته للطبعة الدانماركية لهذا العمل، صاغ المترجمون العبارة التالية:

" ينصب اهتمام نيجت الرئيسى على طبقة العمل المحتملة خلال عمليات التعلم، الوصول إلى خبرات جماعية (شعورية ولا شعورية) وإعطاءهم التعليم السياسى.... (من المهم جدا) أن نتناول كنقطة انطلاق خبراتنا اليومية فى عمليات بناءة، ومن خلال المعلومات عن العلاقات المجتمعية (المعلومات التى يمكن أن تدعم عملية التعلم من خلال المناقشات، والأدوات، والتحليل....إلخ) التدريب على تنمية الخيال الاجتماعى، مع وسائل تعليم أسلوب التفكير، والتى تزيد من قدرات الأفراد العاملين على فهم العلاقات بين حياة الأفراد وتنمية المجتمع". (ص.٧)

واتساقا مع أغراضنا هنا فإننا نقبل هذا البرنامج كخلفية مهمة للأساس العلمى لتعليم النقابات المهنية. إنه يتضمن برامج أيدىولوجية واضحة وصريحة تتكامل مع النسق التعليمى العلمى. وفيما يتعلق بذلك فإنه يشترك كثيرا مع بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة.

التعليم الشعبى Popular Education:

ليس من السهل إهمال الحدود بين تعليم الكبار وجهود التغيير الاجتماعى، والارتفاع بمستوى الوعى بالنقابات المهنية، وغيرها من المبادرات الأخرى. إن جميع الناس الذين يشاركون فى هذه المبادرات لديهم وعى كبير بكل واحدة وأحيانا ما يعملون معا. ولا يوجد مثال أفضل يمكن أن يوجد فى هذا الخصوص من ميليس هورتون Myles Horton ومركز هايلاندر.

وكان ميليس هورتون معلما شعبيا ومشهورا ولد فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية من أسرة متواضعة. وقد وصل إلى ذلك من خلال الجامعة بواسطة المزج بين الموهبة والحافز، إلا أنه نسى أصوله وقرر أن يستخدم

التعليم فى الارتقاء بالتغيير الاجتماعى الديمقراطى. وبعد أن تعلم الكثير عن حركة المدرسة الدانماركية الشعبية، قرر هورتون أن ينشئ مركزا للتعليم والتغير الاجتماعى فى جبال تينيسى Tennessee لإتاحة الفرص للسكان المحليين لمواجهة وتعليم وتنظيم أنفسهم نحو التغير الاجتماعى.

وقد تلاشى مركز هايلاندر بسبب عدد من التقلبات خلال عشرات السنين، والتى تضمنت هجوم المؤسسات الفيدرالية، وأغلق الموقع الرئيسى للمركز، ولكنه لا يزال يعمل. ويعتبر مشاركا رئيسيا وفعالا فى حركة حقوق الإنسان بجنوب الولايات المتحدة الأمريكية؛ لقد أسس لمشروعات بحوث الفعل القائمة على أساس المجتمع الشامل، والتى نتجت عن بتر معظم الممارسات الهدامة لشركات التعدين Mining Companies؛ وأصبحت منبع الطموح لإنتاج وكلاء التغيير الاجتماعى.

وقد أدرك هورتون بشكل جيد التنوعات الواسعة لاتجاهات التغيير الاجتماعى الفعالة، والتى تشمل الفوضوية Anarchism وحراك النقابات المهنية والعصيان المدنى، وبحوث الفعل. وتعتبر نظريته حول العملية غير سلطوية بشكل ملحوظ. وقد ركز هورتون على أنه يجب أن لا ينظم الناس لأن الناس ينظمون أنفسهم عندما تتوفر لهم البيئة الداعمة والفرصة للتفكير فى أنفسهم. وبهذه الطريقة وضع هورتون مركز هايلاندر بعيدا عن اتجاهات التغيير النابعة من القيادة. لقد احترم قدرات وخبرات السكان المحليين فى العمل ونقل هذه الثقة بطريقة شجعت على إنتاج وكلاء للتغيير.

إن قصة هايلاندر تمثل أثرا جيدا فى السيرة الذاتية لهورتون (Horton, 1990)، وفى الكتاب الذى انتهى منه هورتون مع باولو فريير قبل وفاة هورتون مباشرة. وقد استمر هايلاندر فى فعاليته وأصبح مركزا للارتقاء بتعليم الكبار وبحوث الفعل.

Feminist Analysis of Inequality and Development

من خلال خبرتنا التعليمية خلال العقد الماضى، وبعد طرحنا لوجهات نظرنا الأساسية حول بحوث الفعل، سأل الدارسون عن العلاقة بين مساواة المرأة وبحوث الفعل. وقد أدركوا بشكل صحيح أن وجهات نظر اتجاه مساواة المرأة يتعامل مع العديد من نفس القضايا التى تتعامل معها بحوث الفعل؛ نقد الاتجاهات الوضعية، وتحليل علاقات القوة، واحترام معرفة "الصامتين" ونقد الأوضاع القانونية، والتركيز على التطبيقات Praxis التحويلية. إنهم يعبرون أيضا عن مخاوفهم بأن بحوث الفعل تستعير تحليلات اتجاه مساواة المرأة بدون الرجوع إليها أو توثيقها، وكذلك من الممكن أيضا بدون الاهتمامات الإصلاحية الكافية. وتستحق هذه الاهتمامات تركيز الانتباه عليها. وبدون التعاون الحقيقى بين أنصار اتجاهات مساواة المرأة وبين باحثى الفعل، فلن تتوفر إمكانيات النجاح لأى منهما.

إن اتجاهات مساواة المرأة وبحوث الفعل ليست تيارات متعارضة أو متنافسة، حيث يشترك كل منهما فى الالتزامات الأخلاقية والسياسية للديمقراطية والعدالة الاجتماعية. ومن المهم أيضا تذكر أن بحوث الفعل ليست نظرية، ولكنها إستراتيجية نحو التطبيق تستخدم أى أو كل الأدوات التى يرى فريق البحث أنها مفيدة. وكما قلنا مرارا وتكرارا إننا ننظر إلى بحوث الفعل على أنها مزيج عملى بين التحليلات والأساليب التى تستخدم لربط عناصر المشاركة والفعل والبحث فى مواقف عملية وملموسة. إننا لا نحتاج أدوات أقل أو أنقى، ولكننا نحتاج إلى الكثير والكثير من الاتجاهات المتنوعة لمواجهة تحديات الظلم والاضطهاد.

وبنفس المعطيات فلا يجب أن تسعى بحوث الفعل إلى جعل قضايا مساواة المرأة محلية فقط، أو أن تجعل التعامل معها بشكل سطحي. نحن لسنا مهتمين بالسياسات المهنية الضمنية؛ إننا مهتمون بإظهار وتصوير كيفية الوصول إلى عالم أفضل. يجب أن تستمر بحوث الفعل في النمو، كما كانت في الماضي، بواسطة التعلم من العمق الفكري لاتجاهات مساواة المرأة ومن التحليلات التفصيلية للاضطهاد على أساس الجنس والجهود التي تبذل لتحقيق الليبرالية أو التحرر الجنسي **Gender Liberation**. إن الانتقادات الموجهة للاتجاهات الوضعية والحتمية والاضطهاد والفصل بين النظرية والممارسة، والتي تعتبر مركزية بالنسبة لاتجاهات مساواة المرأة تعتبر ضرورية بالنسبة لبحوث الفعل أيضا.

وتبدأ معظم اتجاهات مساواة المرأة بالنظر إلى الاضطهاد على أنه حالة من الأمور الاعتيادية التي تبنى تطبيقاتها على اعتقاد أن الوضع الحالي يجب أن يتغير أو ينقلب إلى مجموعة من الظروف التي تتسم بكثير من الحرية. وتملك اتجاهات مساواة المرأة تاريخا طويلا من الكفاح للوصول إلى الاعتراف بهذه القضايا لإقناع جزء كبير من سكان العالم بأن حقوق المرأة يتم امتنانها بشكل روتيني، وأن حتمية التصنيف الجنسي للكائن الإنساني (رجال ونساء) يعتبر شكلا من أشكال الاضطهاد والظلم. وتؤكد اتجاهات مساواة المرأة على أن التغيير الاجتماعي الديمقراطي ليس فقط المحادثات المهذبة عن أن نصبح عالما أفضل - يعتبر ضروريا لتغيير هذه الكوارث والآثام.

ومن وجهة نظرنا فقد عملت اتجاهات مساواة المرأة أكثر من أي اتجاهات أخرى خلال العقدين السابقين لتقويض النماذج السلطوية التي تم بناؤها داخل العلوم الاجتماعية التقليدية والبرامج الاجتماعية. ولعل الاستعراض الجيد لهذه الفكرة يمكن أن نجده في إسهام إيرس يونج

Justice and Politics of "العَدالة وسياسات الاختلاف Iris Young (1990) "Differences". فقد ربط يونج بشكل مقنع الاضطهاد أو الظلم بحالة الرعاية، ونظام توزيع الموارد العادل، والعلوم الاجتماعية الوضعية بطريقة أفادت اتجاهات مساواة المرأة بشكل مميز، ولكنها أيضا قابلة للتطبيق بشكل مباشر في كفاح بحوث الفعل لقهر الأيديولوجيات القمعية لبحوث الفعل بواسطة البحوث الاجتماعية التقليدية.

إن انتقاد مساواة المرأة لفكرة البحث الحر القيم Value-Free Research قد دمرت تماما، بسبب أن اتجاهات تحرير المرأة كانت قادرة على البوح باستمرار عن كيفية ما قامت به مثل هذه الأبحاث الحرة من تجسد لقيمة التنوع الجنسي (نكور - إناث) (Fox Keller, 1985; Lather, 1991). وتعتبر هذه خطوة قصيرة من هذه الفكرة إلى الفكرة العامة بأن البحوث الحرة تغطي كل أنواع نظم الاضطهاد الاجتماعي تحت قناع التجرد أو عدم التحيز والأيديولوجية العلمية، وأصبح هذه الانتقاد عنصرا جوهريا في بحوث الفعل.

وقد أكنّت اتجاهات مساواة المرأة أيضا على قيمة التنوع. وبالتركيز على ظروف التمثيل المتدنى للمرأة، فقد أظهروا أن البيض والرجال والطبقة الوسطى تمثل مركز النقل والاهتمام في معظم النظريات الاجتماعية والسياسات الاجتماعية. وقد بينوا أن هذا الأمر فعال في المجتمعات الصناعية كما هو الحال في المجتمعات الفقيرة (Sims Feldstein, & Poats, 1990).

وقد وجد أيضا كل من الماركسية الجديدة واتجاهات مساواة المرأة النقطة المفيدة من الالتقاء حول التركيز على العمليات الفعلية للإنتاج. وقد بذلت اتجاهات تحرير المرأة جهدا كبيرا في إظهار المكافآت المتدنية للنساء ودورهن المركزي في عمليات الإنتاج في المجتمع، وكذلك مساهمتهم القوية في نقد الرأس مالية المتقدمة وأيديولوجياتها السائدة (Swantz, 1985).

وتتعامل اتجاهات مساواة المرأة بشكل روتينى مع الاضطهاد والصمت، حيث طورت التزاما قويا للنظر من أسفل إلى استماع أصوات الصامتين، والوصول بهذه الأصوات إلى الطاولة (Mies, 1990). وهنا نجد أن التزامن بين تحليل اتجاهات مساواة المرأة مع التركيز القوى على تاريخ الحياة والمعرفة المحلية وبحوث الفعل يعتبر أمرا بديهيا. فالكمل يبحث عن نهاية ضمت الكثيرين جدا، ففي إحدى الحالات يكون صمت الجنس (المرأة)، وفي حالة أخرى يكون الصمت القائم على أساس الطبقة.

وقد اتخذت اتجاهات مساواة المرأة فى المجتمعات الفقيرة (كما هو الحال فى المجتمعات الصناعية) اتجاها فعالا نحو العديد من القضايا مثل حماية البيئة، وخدمات الرعاية، وبرامج التنمية. وكان الشعار هو البحث المستجيب للجنس **Gender- responsible research** فى أى قطاع ربما يكون موجودا فيه (Van Den Hombergh, 1993). فقد حددوا بشكل مقنع أنه بدون الاهتمام المنظم للجنس، فإنه سوف يتم إهمال آراء ووجهات نظر النساء فى العديد من أحداث الحياة العادية. ويقوم هذا التوازى بين هذا وبين التركيز على المعرفة المحلية فى بحوث الفعل على أساس الخبرة بأنه بدون التأكيد على هذه القيم فإن المعرفة المحلية سوف يتم نبذها وإهمالها وسوف يستمر الاضطهاد بنفس الحال وبشكل واضح.

لذلك فإن العلاقة بين اتجاهات مساواة المرأة وبحوث الفعل تعتبر تكاملية. وبدون دهشة فإننا نعتقد أن الفوائد والمنافع تتدفق من كلا الاتجاهين. وبدون الهجوم العنيف من اتجاهات مساواة المرأة على مراكز القوى، فإننا نعتقد أن نوع الفراغ الذى نشغله حاليا كباحثى فعل سيبقى. وفى نفس الوقت فإننا نعتقد أن هناك هدفا أو غرضا لكل من تعزيز اتجاهات مساواة المرأة داخل بحوث الفعل وتحسين ممارسة هذه الاتجاهات من خلال الاهتمام

بالعديد من أساليب التدخل التى تم تطويرها فى مختلف اتجاهات بحوث الفعل. وغالبا ما تشارك أو تتدمج اتجاهات مساواة المرأة ببحوث الفعل، ولكن هناك بعض المحاولات القليلة التى تربط بين كلا المنظورين. ومن بين هذه المحاولات فسوف نشير باختصار إلى إسهامات القليل من الكتاب الرئيسيين فى هذا الخصوص.

أوضحت باتريشيا ميجواير Patricia Maguire عند قيامها ببحثها المشترك عن اتجاه مساواة المرأة المزج بين برامج مساواة المرأة والبحوث المشتركة وبعد التجربة الشخصية لعملها. وقد تحدث هذا الكتاب بشكل أفضل عن معظم الكتابات التى وصفت الدمج بين مساواة المرأة والمشاركة والتطبيقات العملية الاجتماعية، مستخدمة قضايا من اتجاهات مساواة المرأة والمشاركة، ولكنها وقفت بحزم مركزة على المشكلات الاجتماعية التى حاولت ميجواير حلها. وفى كتاباتها التالية عمقت (1994, 1996) Patricia Maguire نقدها على العديد من أنواع ممارسة بحوث الفعل، وخلصت إلى أن أى فكرة للبحوث المشتركة تعتبر غير منطقية بدون الدمج المنظم لاتجاهات مساواة المرأة. ومع ذلك لم تتطور هذه المناقشة بشكل كافٍ، وقد اعتقدت أيضا أن بحوث مساواة المرأة يجب أن تتحرك أو تنتقل داخل مجال بحوث الفعل حتى يمتد ويتسع مجالها الخاص. لذلك حثت ميجواير على الاعتماد المتبادل الضرورى والبناء بين الاتجاهين وبين القضايا محل اهتمامها، وحثت أيضا على الدعوة للاندماج بين بحوث الفعل واتجاهات مساواة المرأة.

وتحدث الكثيرون أيضا عن بعض أنواع الارتباط بين اتجاهات مساواة المرأة وبين بحوث الفعل. وفى كتابه عن "الوصول إلى البراعة: أبحاث مساواة المرأة وعلم أصول التدريس مع/ فى ما بعد الحداثة

⁷In Getting Smart: Feminist Research and Pedagogy With/in The Postmodern

أوضحت باتى لانر Patti Lather أن المساهمات الأساسية لاتجاهات مساواة المرأة تمثلت فى نقد الوضعية، وإظهار أن كل أشكال البحث مليئة بالقيم، وتتيح الإمكانية للعلوم الاجتماعية النقدية، وتضغط على سياسات القوة، وتريد من تحديات اتجاهات ما بعد الحداثة. إن محاولتها الطموحة لدمج الاتجاهات والتيارات تجعلها تكافح للوصول إلى ما وراء معضلات اتجاهات ما بعد الوضعية Postpositivism وما بعد البنائية Poststructuralism وما بعد الحداثة Postmodernism من خلال علوم اجتماعية نشطة وفعالة. لقد جعلت بحوث الفعل عنصرا أساسيا. وقد منحت لانر باحثى الفعل ثروة من أساليب التحليل ووجهات النظر.

وقد دافع العديد من مفكرى اتجاهات مساواة المرأة عن تفاوت أشكال الدمج بين اتجاهات مساواة المرأة وبين بحوث الفعل. فقد ناقش كل من لويابا ومارتين (Loyappa and Martin 1996) الدمج بين بحوث مساواة المرأة وبين البحوث المشتركة للثورة على العقبات التى تواجه تعليم الكبار بالولايات المتحدة الأمريكية، كما كشفت رينهartz (Reinharz 1992) عن إمكانيات ما أسمته "ببحوث فعل مساواة المرأة Feminist Action Research" حيث ربط بين مذهب الفعالية Activism والمنح التعليمية Scholarship. إن عدم إمكانية امتلاك منظور مساواة المرأة بدون الالتزام بالتغيير الاجتماعى هو ما يربط هذه الأنشطة ببعضها، وما يربطها معا ببحوث الفعل بشكل أكثر عمومية.

ويستحق العديد من مفكرى اتجاه مساواة المرأة ذكرهم ومنهم على سبيل المثال بيلينكى Belenky وكلينشى Clinchy وجولد بيرجر Goldberger وتارول Tarule ١٩٩٧ وجيليجان Gilligan ١٩٨٠، ولكننا نأمل أن نجد الفرصة للحديث بشكل كاف عنهم لفتح المجال للمناقشات الواسعة. وحتى هذه المراجعة السريعة تطرح أهمية الاتصال المتكرر

والتفصيلي بين الباحثين في مساواة المرأة وبين ممثلي العديد من الاتجاهات الأخرى لبحوث الفعل. إننا نشترك في العديد من البرامج والأجندات، ونعتقد بوضوح أن بحوث الفعل ليست ممكنة بدون آراء ووجهات نظر مفكرى اتجاه مساواة المرأة. وفي المقابل يستطيع أن يمنح باحثي الفعل المتخصصين في اتجاه مساواة المرأة الوعي والإدراك الكبير للعديد من برامج التدخل، وأساليب عمليات الجماعة التي تطورت ونمت في حركة الديمقراطية الصناعية، وفي الاستقصاءات التعاونية وغير ذلك. ومثل هذه الأساليب يمكن أن تساعد أنصار التزام اتجاه مساواة المرأة بمذهب الفعالية في المعرفة الجيدة بالأساليب التي تعمل من خلال التعاون في جماعات نحو تحقيق أهداف التغيير الاجتماعي.

الخلاصة:

لقد تم ذكر العديد من الاتجاهات التي تتناول قضايا القوة والتحرر. وقد تركز اهتمامنا فقط على الحديث بشكل كافٍ لإقناع القراء بأن وجهات النظر هذه يجب أن ترتبط ببعضها ارتباطاً بناءً، وجعل هذا التأكيد ملموساً من خلال تقديم بعض الخطوط العامة الرئيسية لوجهات النظر هذه، والتي كونت بحوث الفعل الغربية بالمشاركة واتجاه مساواة المرأة. ونتمنى أن نكون قد أقنعنا القارئ بأن هناك جنوباً في الشمال، وأن اتجاهات بحوث الفعل التي تكونت بواسطة وجهات نظر الجنوبيين هي مثل اتجاهات بحوث الفعل في الظروف المختلفة في الشمال. وتتمثل قيمة وجهات نظر الجنوبيين بصفة خاصة في تذكر الممارسين الشماليين بالأخطار الحالية والمستمرة في الاختيار *Cooptation* والسيادة عندما يتم الاستيلاء على لغة المشاركة من أجل أغراض عدم المشاركة. وأخيراً فإننا نحث على تكثيف المناقشات عن العلاقة بين تعليم الكبار ومساواة المرأة وبحوث الفعل كعنصر أساسي وضروري من أجل نجاح الكل.

الهوامش

(١) نذكر القارئ بأن مصطلح الجنوب وما يقابله من مصطلح الشمال تعتبر مصطلحات غامضة وتتسم بالمرادغة. فالجنوب يشير إلى السكان الذين يتسمون بالفقر والظلم، بسبب أن النسبة الغالبة لهذه السكان تقع في المجتمعات الفقيرة، والجنوب مصطلح يشمل هؤلاء السكان، ولكن توجد العديد من المناطق الجنوبية في الشمال، وأن العديد من المبادرات مثل مبادرة هايلاندر قد قامت على أساس نفس مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصادية التي تقوم عليها نفس جهود التغيير في الجنوب.

(٢) بعض النماذج لأنواع الصراع التي أربكتنا يمكن أن نجدها في كتاب وايت ووايت (1991) Whyte & Whyte، والذي استخدم مصطلح بحوث الفعل بالمشاركة للإعلان عن اتجاه بحوث الفعل الذي وضعه. وقد تضمن كتابه الذي يحمل هذا العنوان حالات من الدول النامية، وكل السياسات التي لم تظهر في الأطر الليبرالية، والاستخدامات السابقة لمصطلح بحوث الفعل بالمشاركة بواسطة الباحثين الجنوبيين ولم يتم ذكرها. وهذا النوع من استخدام اللغة يمنع الاتصال بين ممارسي بحوث الفعل.

(٣) ونظرا لما لهذا المجال من تاريخ طويل، ونظم بشكل مناسب، فقد قدمته العديد من الكتب للقراء في معظم الدول. ومن بين أكثر هذه المصادر فائدة بوجه عام كتاب باولو فريير (١٩٧٠) أصول تدريس وتربية المضطهدين. والمقالة الكلاسيكية لباد هال Budd Hall (١٩٧٥) البحث التشاركي كاتجاه نحو التغيير؛ وهو والعديد من المقالات المنشورة في دورية Journal Convergence، وكذلك كتاب كار وكيميس Carr and Kemmis (1985) الناقد الجذاب، وكتاب جون إليوت John Elliott (1991) بحوث الفعل للتغيير التعليمي، ومقالة المراجعة لسوزان نوفك Susan Noffke (1994).

الفصل الحادى عشر

بحوث الفعل التعليمية

Educational Action Research

بنظرة شاملة على الممارسات المرتبطة ببحوث الفعل، فإن الاتجاهات ذات التركيز التعليمى تقدم واحدا من المنظومات الأكثر اتساعا وتعقيدا، والتي تتراوح بين بحوث الفعل فى المدارس الابتدائية والثانوية والبناءات الإدارية لبحوث الفعل فى التعليم العالى إلى تعليم الكبار وتنمية المجتمع والحركات الليبرالية. ويتسم هذا المجال الواسع أيضا بأنه يضمن العديد من الخواص المختلفة والمتغيرة، وأن محاولة الوصول إلى مركب من هذه الخواص، لخدمة أغراض هذا الكتاب يعتبر أمرا صعبا للغاية. وتعتبر الحدود بين التعليم وأنشطة بحوث الفعل الأخرى أيضا غامضة للغاية، وهناك العديد من الاتجاهات التى ظهرت فى الفصول الأخرى تشير إلى ذلك أيضا. لا توجد خريطة واضحة ولا حتى توجيه بسيط لذلك. ويتمثل هدفنا فى تمكين القارئ من الدخول فى بداية هذا الموضوع، وأن يستخرج بعضا من خطوط هذه الخريطة، وأن يجد طريقه لهذه المواد أيضا^(١). وعلى الرغم من أن الاتجاهات التى نتناولها هنا موجهة نحو التغيير الاجتماعى، فإنها لا تتضمن سياسات حادة وعنيفة كتلك التى تناولناها فى بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة. والتركيز هنا يكون على التغيير التنظيمى والسلوكى، وإصلاح النظم والمؤسسات.

على الرغم من أنه ليس كل الأنشطة التعليمية وثيقة الصلة ببحوث الفعل تتعامل مع تعليم الكبار، فإن إحدى مميزات هذا المجال تظهر في أن معظم التجمعات والتركيبات الفكرية وأطر العمل المستخدمة أتت من تعليم الكبار بدلا من التعليم الابتدائي والثانوي التقليدي والتعليم العالي. وتخدم هذه التركيبات والتجمعات أغراضنا بطريقتين. فهي توفر إطارا أوسع للموضوع أكثر مما تفعله النماذج الخاصة بدراسات وتنظيمات العمل، وتبدو لنا بعض التركيبات والتجمعات الأكثر حداثة وتحديا على أنها تؤدي بإصرار إلى خلاصة مضمونها أنه كما في الديمقراطية الصناعية، فإن بحوث الفعل تعتبر فقط الوسيلة الملموسة التي تتبع من المعضلات والمشكلات في هذا المجال.

ولبناء خريطة هذا المجال فقد استفدنا من الأطر التي قدمها ماتياس فينجر Mattias Finger وجوس مانويل أسن Jose Manuel Asun في عملهم عن تعليم الكبار في مفترق الطرق (2001) وروبين أشر Robin Usher وجان بريانت Jan Bryant وريني جوهانستون Rennie Johnston "تعليم الكبار وتحديات ما بعد الحداثة؛ التعلم خلف الحدود (1997)". وقد وضعت هذه الأعمال التي اتسمت بالطموح وعمق التفكير خريطة مجال التعليم وحددت بعض المعضلات الرئيسية التي تواجه المجال، والتي سوف يتم التعرف عليها في الفصول الأخرى من الكتاب.

فينجر وأسن: تعليم الكبار في مفترق الطرق

Finger & Asun; Adult Education at the Crossroads

وصف كل من فينجر وأسن المجال المحيط بهم على أساس تصنيف الاتجاهات في ثلاثة تصنيفات هي وجهات نظر البرجماتية Pragmatic

والإنسانية Humanist والماركسية Marxist. وقد تناول تحت عنوان البرجماتية مع أعمال كل من جون ديوى John Dewey، وكورت ليفين Kurt Lewin وديفيد كولب David Kolb وجاك ميزيرو Jack Mezirow وكريس أرجيريا Khris Argyria ودونالد سكون Donald Schon^(٢). فقد بينوا أنه على الرغم من الأيديولوجية لاجتماعية المتقدمة للبرجماتية، فإن نظريتهم عن المجتمع والسياسة الاقتصادية قد افقدت في هذا العمل، وأن الظروف التي أثرت على الكشف البرجماتي والتعلم المستمر والتحول الاجتماعي لم يتم الكشف عنها.

إن ما دعاه فينجر وأسن بالمدرسة الإنسانية شمل أعمال كل من مالكولم نوليس Malcolm Knowles وكارل روجرز Carl Rogers وستيفين بروكفيلد Stephen Brookfield. ولعل أهم ما في اتجاهات هؤلاء المفكرين نظرتها التفاضلية نحو إمكانية نمو الكائن الإنساني، والحرية، والنمو الذاتي، ويدينون بالفضل بالتعامل العظيم لعلم النفس الإنساني. وبالتالي فهي تتضمن أيضا من اتجاه علاجي وفردى للتنمية يفتقد إلى أى تنظير للاقتصاد السياسى والبيئات المؤسسية.

ويتضمن الاتجاه الماركسى الماركسية التقليدية والنظرية النقدية (تيودور أدورنا Theodor Adorno ولتر بنجامين Walter Benjamin وجورجين هابيرماس Jurgen Habermas وغيرهم). وقد تطور هذا الاتجاه أيضا بواسطة باولو فرير (انظر الفصل العاشر) داخل ما أسماه فينجر وأسن أصول التعليم النقدى Critical Pedagogy. حيث انتقد كل هذه الاتجاهات من أجل تكوين نظرية معرفة موحدة تستطيع الدفاع عن إمكانية فتح عمليات تعلم وضد سياسات للاضطهاد. إنهم لا يرون كيف نقود النظرية ممارسة ليبرالية، وقد ربطوا هذا النقد بشكل خاص إلى ما نطلق عليه بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة (انظر الفصل العاشر).

وكلما فكر أحد في مناقشات فينجر وأسن بصفة خاصة وتأكيدها بأنه على الرغم من الاختلافات بين هذه الاتجاهات الثرية فإن لديها نفس الهدف - "جعل عملية التنمية إنسانية من خلال مشاركة وتضمين الناس في تشكيل طرقها" (Finger & Asun, 2001, p. 96) - يعتبر خادعا وتأمريا ومقنعا. ولكن ما يقلل من الحدة، على الرغم من هذه الأبعاد النقدية الظاهرة، إنهم يرون أنها انتقادات محدودة وموجهة فقط نحو الرأسمالية المتقدمة نظرا لأنهم يتقبلون صدق عملية التنمية ونموذج الحداثة والتحضر في عصر التنوير.

ومن ثم فقد تطلع فينجر وأسن إلى "Learn our way out"، وقد فعلوا ذلك من خلال التوصية بمجموعة من الأطر العلمية والممارسات التي تتنظر إلينا مثل كل الأسس التي تقوم عليها بحوث الفعل؛ الانخراط في التغيير المؤسسي بواسطة مشاركة كل المستفيدين واستمرارية الدعم والتأييد والعدالة. ولا يعتبر ذلك وجها جديدا للوجه القديم لمشروع التنمية، ولكنه إنتاج تعاوني جديد وأسلوب تحديد تعاوني للحياة في العالم بصورة تتسم بالتماسك والتكافل، ومع ذلك فإنه لم يصرح بوضوح في أن أسلوبهم البارز يتم من خلال بحوث الفعل.

أشر وبريانت وجوهانستون؛ تحدى ما بعد الحداثة

Usher, Bryant, and Johnston; Postmodernism Challenge

ننتقل في هذا الموضوع إلى مناقشات كل من أشر وبريانت وجوهانستون (١٩٧١) نظرا لبنيتهم عن تحديات ما قبل الحداثة لتعليم الكبار على الرغم من المساهمة المتميزة لكل من فينجر وأسن التي أخذتنا لنفس المكان. ومن خلال وجهة نظرهم هذه فإن اتجاه ما بعد الحداثة، نهاية العصر، يرتبط بالتعليم بوسائل متنوعة. فالمذهب الفردي والمذهب الدينامي

وعدم استقرار الجماعة ونظرية الأنساق تحت الظروف الحالية للعولمة حطمت ظهر نموذج الحداثة. ولكنهم أكدوا على أن التعليم فى حد ذاته كمفهوم وكممارسة يعتبر مقدمة منطقية للعناصر المحدد للحداثة؛ النمو والتقدم والقوة كلها أفكار للحداثة. ويعتقدون أنه لا يوجد بديل للتعليم فى عملية الحداثة، ولا يمكن ببساطة الاستغناء عنه. ومع ذلك فقد اعتقدوا أيضا أن مذهب ما بعد الحداثة هيا بعض الظروف المفيدة جدا لممارسة التحديث، وقد أوصوا "بأن إدراك ذلك يعتبر من مطالب الحداثة، وليست حقائق، إن المطالب التى تتكون اجتماعيا وبناء ثقافة المواقع التاريخية، تتسم بالتحيز والخصوصية فى المقالات أو المحاضرات والأغراض.

وعندما يتحدثون عن ماهية أدوات الممارسة، فإنهم يطرحون إطار البحث والأساليب والأفكار عن أن هذه بالتقريب هى بحوث الفعل. إن الانفتاح والتعاون وعمليات الجماعة وتكامل الأفكار مع دوائر الفعل، وغيرها من المظاهر التى توفر الأساس "للتعلم وراء الحدود" لكل من الحداثة وما بعد الحداثة.

وهذه التركيبات عميقة التفكير والمتطورة تماما تستحق القراءة من وجهة نظرهم الخاصة، ولكن من أجل الحاضر فإنها توفر لنا الخلفية العلمية التى من خلالها نبنى وجهة نظرنا حول ممارسات بحوث الفعل التعليمية المتنوعة.

إصلاح التعليم فى الشمال

Reforming Education in the North

بحوث الفعل التعليمية فى المدارس وتعليم المهن

Educational AR In Schools and Teaching Professions

من غير المحتمل أن تتسم الممارسات التى ارتبطت بها مئات المدرسين وأساتذة الجامعات بالتجانس؛ التعليمية حيث يوجد العديد من الممارسات

المتنوعة تحت عنوان بحوث الفعل. ولتخص هذه الحقائق، فإننا نرى أن هذا المجال يركز على مدرسى المدارس الابتدائية والثانوية والتعليم العالي، وطلاب الشهادات الجامعية الذين يدعمونهم. وهذه الفئات المستفيدة تتخبط فى عدد من بحوث الفعل المتنوعة، والتي تركز أساسا على تحسين جودة ممارساتهم كمدرسين، وتحسين بيئاتهم المؤسسية التي يعملون من خلالها. ويوجد عنصر مهم فى التنمية التنظيمية **Organizational Development** فى هذه المنطقة، كما توجد العديد من الأعمال المناظرة لهذا العمل التى يتم تنفيذها تحت عنوان الديمقراطية الصناعية. وقد اكتسبت كل هذه الاتجاهات إلهامها من أعمال كورت ليفين ومعهد تافستوك للعلاقات الإنسانية.

ومن خلال مراجعة مقالة "بحوث الفعل التعليمية" لكن زجنر Ken Zeichner (2001)، حيث درس رموز هذا المجال كالاتي؛ الاتجاه القائم فى الولايات المتحدة الأمريكية على أساس أعمال كورت ليفن، والذي ركز على أعمال ستيفين كورى Stephen Corey بجامعة كولومبيا؛ وحركة إصلاح المناهج البريطانية (١٩٦٠-١٩٧٠)، والتي قامت على أساس أعمال كل من جون إليوت John Elliott ولورنس ستينهاوس Lawrence Stenhouse؛ والحركة الأسترالية التى استوحت أفكارها الرئيسية من المملكة المتحدة، ولكنها أضافت إليها بعد التعامل مع التعليم القديم، والذي يتضمن الكثيرين مثل كيميس وروبين ماكتاجارت Kemmis & Robin McTaggart؛ وحركة الباحث/المدرس فى الولايات المتحدة الأمريكية، وحاليا الدراسة الذاتية للتعليم العالى لتحسن عملية التدريس.

وتختلف كل هذه الاتجاهات فى العديد من الوسائل، ولكن ينصب تركيزهم الأساسى على التغيير فى الممارسة المهنية، والتنمية التنظيمية داخل المعاهد والمؤسسات. وبينما تركز هذه الاتجاهات على التغيير فى الممارسة والتنظيم، فإنها تمثل بوضوح أنشطة إصلاحية تستهدف تغيير القوة بشكل أقل

من تحسين أنماط الاتصال وجهود البيئة من أجل الطلاب والمعلمين ووضع سياسات للإصلاح لدعم هذه التغييرات.

ومن بعض هذه التنوعات لبحوث الفعل تركيز المدرسين بقوة على مشاركة المستفيدين وشعورهم الطيب نحوهم، بينما يفتح الآخرون أمام الطلاب والأعضاء من غير المدرسين الفرصة للانخراط في التنظيمات. وقد وفر زجنر (٢٠٠١) قائمة مهمة من المراجع حول هذا الاتجاه. (ص.ص ٢٨١-٢٨٣) وللوصول إلى الترابط الأكثر شمولاً والتوجيه المنهجي فإن المصدر الأفضل حالياً هو لسترينجر Stringer "بحوث الفعل في التعليم" (٢٠٠٤).

بدائل التعليم العام Alternative to Public Education:

يوجد تحت وأعلى هذه التنوعات من بحوث الفعل التعليمية البعض الآخر الذى يتخذ اتجاهها أكثر قوة لإصلاح النظام التعليمي. وقد تم تنظيم حشد كبير من مدارس التعلم العام الإضافية. وقد شملت المدارس الخاصة للموسيقى والرقص والمعاهد الدينية والإرساليات الثقافية (مثل: مدارس السبت اليابانية فى العديد من المجتمعات الغربية). وتعتزم هذه المدارس كلها إثراء المناهج الدراسية، وكذلك وضع خبرات المدارس العامة اليومية فى سياق نظرة واسعة للعالم الذى يتم التحكم فيه وضبطه بواسطة الوالدين والمدرسين.

بحوث الفعل داخل مؤسسات التعليم العالى

AR Within Higher Education Institutions

لقد خصصنا فصلاً كاملاً لتعليم باحثى الفعل (الفصل السادس عشر)، لذلك فإننا لن نطرق إلى هذا الموضوع هنا، فيما عدا القول إن هناك جهوداً

مهمة وجارية لوضع برامج لبحوث الفعل على مستوى التعليم الجامعى وفوق الجامعى (البكالوريوس والدراسات العليا)

وإحدى أكثر إستراتيجيات التعليم الرسمى طموحا وأحسن تمويلا نحو التغيير الاجتماعى الديمقراطى كانت تنمية الأرض الممنوحة للجامعة بالولايات المتحدة الأمريكية فى القرن التاسع عشر. ويرتبط النظام الأساسى للأرض الممنوحة Land Grant بالظروف المحلية فى الولايات المتحدة. فمعظم الولايات لديها كمية معينة من الأراضى العامة تحت تصرفها. وبالتفويض قامت ببيع بعض من هذه الأراضى العامة واستخدمت عائداتها فى تكوين ميزانية مركزية. وقد استخدم الدخل فى بناء جامعة الولاية (من هنا كان مصطلح منحة الأرض). وقد احتاجت كل ولاية لمنح قطعة أرض خاصة بجامعتها.

وعندما يتم بناء الجامعة من الميزانية العامة للدولة، فإن رسالة الجامعة الممنوحة الأرض تتمثل فى البحث والتعليم والخدمات العامة المرتبطة بشبكة اتصال افتراضية. وقد حرصت الجامعات على تعليم الناس فى الولاية، وعلى القيام بالبحوث فى الموضوعات التى تهتم مواطنيها، ونشر المعرفة بشكل مباشر إلى سكان الولاية. إن الصياغة الأساسية لجامعات الولاية القائمة على منحة الأرض ترتبط تماما ببحوث الفعل. إنها تتضمن الشراكة المنظمة بين المستفيدين الأكاديميين وغير الأكاديميين، حيث يدار حوار بينهم عن احتياجاتهم واهتماماتهم، وعن البحث التعاونى واختبار النتائج. وعلى الرغم من ذلك لم تصبح الجامعات القائمة على منحة الأرض مصدرا لمعظم مبادرات بحوث الفعل.

وعلى الرغم من وجود قضية بسيطة تتمثل فى أن هذه الجامعات العامة قد نفدت العديد من الخدمات المطلوبة ولديها نجاحات كثيرة (Lyall &

(Sell, 2006) فإنها بمرور السنوات أصبحت خادما رئيسيا للقوى الاجتماعية بدلا من أن تكون السبيل لتحقيق ديمقراطية المعرفة. وعلى الرغم من أن تصميم هذه الجامعات كتنظيمات يتم من خلالها تشجيع أعضاء هيئات التدريس بها ومكافأتهم على مساهماتهم الفكرية والتطبيقية في المجتمع، فإن هذه الجامعات قد انقسمت داخليا إلى أعضاء هيئة تدريس ذوى مكانة عالية يقومون بإجراء بحوث غير تطبيقية، وعدد كبير من أعضاء هيئة التدريس وغيرهم من الشخصيات الأخرى ذوى مكانة منخفضة جدا.

وقد قامت هذه الجامعات العامة بدعم وتأييد اهتمامات عدد كبير من الفلاحين ورجال الأعمال أصحاب القوة، وكذلك إحلال الميكنة والآلات فى العمل، وغيرها من الجهود الهرمية. إن مصطلح منحة الأرض فكرة إصلاحية تمت سرقتها والاعتداء عليها بالقوة، حتى لو كانت السلطات التشريعية والاقتصادية قد دعمت نتائج الديمقراطية إلى حد بعيد. وتحت هذه الظروف فإننا نتحدث القليل عنها.

وفى سياق نسق الجامعة ممنوحة الأرض ظهرت أحدث حركة لإعادة صياغة وتنشيط هذا العمل الذى تم بناؤه بشكل خاص على أساس مبادئ بحوث الفعل. ويعتبر سكوت بيبترز Scott Peters واحدا من أهم المشاركين (Peters, 2001 ; Peters, Hittlemen, & Pelletier, 2005) وفى هذا الاتجاه والذين التزموا (Peters, Jordan, Adamek, & Alter, 2005) بفكرة منحة الأرض، حيث نقلته الديمقراطية إلى دراسة الممارسات الماهرة للعديد من الشخصيات النشطة أو الأبطال غير المشهورين للنسق الممتد. ومن خلال هذه الدراسات التعاونية واعتمادا على القصص والروايات التى نشأت من خلال الحوارات الطويلة، وضع بيبترز رؤيته عن التعقيد والإصلاح الممكن داخل ممارسات بحوث الفعل هذه، والتى تم عزلها بدرجة

كبيرة بواسطة سيطرة النماذج التقليدية الأكثر سلطوية للشمولية **Extension** مثل "عمل الخبراء من أجل المستفيدين، وليس العمل معهم" وهناك الآخرون الكثيرون الذين عملوا في إطار هذا النوع من العمل (Crane, 2000).

تعلم الخدمات **Service Learning**:

طورت العديد من المعاهد والمؤسسات برامجهم التعليمية من خلال المجموعات المتنوعة من خدمات التعلم والإرساليات الداخلية **internship** والسجون **Coops**، والتي من خلالها تكاملت خبرات العمل والأنشطة الفكرية في الأسلوب أو الطريقة التي صاغها ديوي (1900) Dewey، ومع المعاهد المشهورة في هذا الخصوص كلية أنتيوش **Antioch College** وكلية بيريا **Berea College**.

وبمرور الوقت فقد نتج عن جهود إشراك الطلاب وأعضاء هيئات التدريس في الإرساليات والأشكال الأخرى من الخدمات المباشرة التي تقدمها المؤسسات سواء داخل أو خارج الكليات والجامعات، حركة الخدمات التعليمية (Giles, Stanton & Cruz, 1999). وقد نمت هذه الحركة خلال العشرين عاما الماضية وأظهرت أن القليل جدا من المعاهد في التعليم العالي الآن تقتقد إلى النظام على الأقل في أوضاع بعض الخدمات التعليمية. وقد نظم اتحاد الجامعات **Campus Compact** بالولايات المتحدة الأمريكية العديد من الأنشطة للارتقاء بجهود أكثر من ٩٢٠ معهدا تحتوى على أكثر من ٥ ملايين طالب.

وقد تحدثنا كثيرا عن هذه الأنواع من الخبرات للطلاب واعتقدنا تماما بقيمتها وأهميتها، وحددنا أن هذه الخدمات التعليمية يمكن أن تتضمن بحوث الفعل ولكن ليس بالضرورة. ومن خلال ممارسات البعض مثل كينيث ريردون (1997) **Kenneth Reardon** التي قدمت بوضوح الإنجازات والخدمات في مجال التدريب المتعدد للمستفيدين على خلفية باحثي الفعل.

ويمكن أن تمتد تماما إلى الحياة التعليمية للطلاب، إن نوعية فصل نشاط "الخدمة" عن تلك التي ربما تعلموا من خلالها شيئا، لأنهم وجدوا أنهم سيتعلمون تعليما أوسع من وجهة نظرهم.

إن تناول علاقات الخدمة داخل حياة التعليم العالي واستخدام خدمات التعليم كوسيلة لإعادة صياغة وتشكيل العلاقات بين التعليم العالي والمجتمع يعتبر أمرا نادرا. وعندما يكون خدمة التعليم مألوفة وواضحة للعامة فإنها تصبح وسيلة لعمل الأفضل بدون تغيير الكثير من أى شيء من عمليات المعاهد التعليمية. وعندما يتم تناول ذلك داخل رسالة المعاهد بطريقة عميقة فإنها تصبح عملية تحويلية Transformative.

اتجاهات تعليم الكبار فى المجتمعات الصناعية

Adult Education Approaches in Industrial Countries

كما أوضحنا فى مقدمة هذا الفصل، فإن مجال بحوث الفعل التعليمية يعتبر ضخما ومتنوعا. قام العديد من المنظرين بأساليب متعددة فى مجال تعليم الكبار بجمع الكثير من خيوطهم داخل صورة متكاملة أكثر تركيبا وتجميعة من تلك التى قام بها باحثو الفعل التعليمى، والذين ربما يكون لديهم العديد من الحدود المؤسسية. ولكننا ننتقل الآن لمناقشة ما يُسمى بشكل ضيق وتقليدى باتجاهات تعليم الكبار.

أندراجوى والتعلم التحويلي

Andragogy and Transformational Education:

يعتبر الاسم الشائع والمألوف لتعليم الكبار فى المجتمعات الصناعية هو أندراجوى، إنه يرتبط بقوة مع أسماء مالكولم نوليس (Knowles, 1990;

Jack Knowles and Others, 1984) والأكثر حداثة هو جاك ميزرو Jack Mezirow, (1991) الذى عرفه بالطريقة التالية: أندراجوى هو منظور مهنى لتعليم الكبار. وقد عرفه بأنه الجهود المنظمة والمستمرة لمساعدة الكبار على التعلم بطريقة تزيد من قدرتهم على التوظيف والأداء كمتعلمين موجّهين ذاتيا. (ص. ١٩٩) ويستخدم أندراجوى بشكل واسع فى قارة أوروبا كمصطلح لتعليم الكبار مع العديد من الدرجات الجامعية التى تستخدم هذا الاسم.

ويتمثل جوهر تعليم الكبار فى النظر إلى التعلم على أنه واقع فى السياقات الاجتماعية والثقافية والمادية، والتى يتم داخلها تحول خبرات الأفراد إلى أفعال متحررة من خلال ردود الفعل النقدية. وقد قدمت نظرية التحول Transformation Theory لميزرو العديد من التركيبات الجدلية عن الافتراضات الأساسية للتعلم الموضوعى الذى ظهر فى التقاليد الفكرية المعاصرة، ومفهوم المعنى الذى جاء من التفاعلية الرمزية. وقد ركزت نظريته عن التحول على ردود الفعل النقدية التى ركزت مباشرة على بناءات المذهب الذاتى اللاهوتى والكفاءة الواضحة (Mezirow, 1996, p. 165).

وفى السنوات المعاصرة تحرك هذا الاتجاه بحيث اقترب كثيرا من الوضع المهنى الموازى لبحوث الفعل. وقد استفادت الكتابات الأخيرة لميزرو (على سبيل المثال، ١٩٩٦) من نقد هابيرماس (1984) Habermas للتقاليد العلمى ونشاطه الأفعال الاتصالية Communicative actions. وقد اتخذت الخطوة الأخيرة فى عالم بحوث الفعل بواسطة ولفريد كار وستيفين كيميس وكلاهما أستاذ فى التعليم. وفى كتابهما، النقد المناسب، التعليم والمعرفة وبحوث الفعل Becoming Critical; Education, Knowledge, and AR, (1985)، قدموا خلفية معرفية لبحوث الفعل تقوم على أساس الفلسفة البرجماتية.

ويتمثل مفهوم التفكير الأندراجوجي الغربي في التركيز على ردود الفعل النقدية والفكرية. وقد خصص بروكفيلد (1987) Brookfield كتابا كاملا لتوسيع مفهوم التفكير النقدي وعرض الكيفية التي يتم بها تيسير العمليات التي تعزز من قدرة المشاركين على التفكير النقدي. وقد حدد بروكفيلد أربعة عناصر للتفكير النقدي هي:

(١) تحديد الافتراضات الرئيسية للتفكير النقدي.

(٢) تحديد السياق المهم والحاسم للتفكير النقدي.

(٣) محاولة المفكرين النقيدين تخيل البدائل والكشف عنها.

(٤) يؤدي تخيل البدائل والكشف عنها إلى الشكوك التأملية أو الانعكاسية.

ويتمثل العنصر المهم في عمل بروكفيلد (١٩٨٦، ١٩٨٧) في تركيزه على الميسر كشخص رئيسي في عملية تعليم الكبار. وقد أشار بروكفيلد إلى التناقض المهم بين استخدام القوة لمساعدة الطلاب على رؤية قضايا محددة والتفكير فيها، ومن ثم تركهم يذهبون إلى الضبط من خلال عمليات التعلم عندما يكون المفكرون النقيدين مستعدين لتولي أمرهم. وهذا التناقض أو الاهتمام قد تم مناقشته أيضا في كتاب ليفين ومارتين (١٩٩٥)، حيث أشار إلى أنه من الضروري تطبيق القوة في مواقف التعلم لكي تصبح قادرة على الوصول إلى التحرر.

ويوجد بعض التداخلات والارتباطات بين التعليم العام في الجنوب وبين الأندراجوجي الشمالي. وقد قام كل من هورتون وباولو فريير Myles Horton & Paulo Freire (1990) بتأليف كتابين في شكل حوارى خلقوا رد فعل على العلاقة بين الوضعين؛ ميلز "لقد جعلنا القراءة بواسطة وكنج وإيرا شور، وكتاب باولو فريير (١٩٨٧) البيداجوجي من أجل التحرر Pedagogy for Liberation

فقد بين الكتابان كيف كانت حيوية العلاقة بين الممارسين والنشجيع عليها، سواء في الشمال أو في الجنوب. ولعل أفضل تلخيص وتحليل لهذين الموضوعين كان في كتاب فينجر وأسن (Finger & Asun (2001, Chap. 3)

الفصول المشتركة Corporate Classrooms:

يعتبر ظهور الفصول المشتركة من المظاهر اللافتة للنظر في الرأسمالية الحديثة. لقد كان اتجاه العديد من الشركات ينصب على إيجاد برامج تدريبية وأنساق تعليمية خاصة بهم. ومعظم العاملين في المجال مستشارون علميون (متعدو الجنسيات) حصلوا على برامج تدريبية متعددة، بينما جميع المستشارين الموظفين حديثا يجب أن يكتسبوا الفهم الكافي للثقافة المشتركة ويتعلموا أدوات المهنة. ويبدو أن مدارس هذه الشركات قد انتشرت بسبب أن هذا البناء من التعليم قد لاءم الطريقة التي سوف يعمل بها المستشارون عندما يعلمون عملاءهم وينصحونهم. وقد مرت ٢٠ سنة في الولايات المتحدة وقد استتجوا أن ساعات التعليم داخل الفصول التي أنشأتها شركات القطاع الخاص أكثر ٣٠٠٠ مرة من ساعات معاهد التعليم العالي التي تعمل في نفس الوقت (Eurich, 1985).

وقد تم تغطية العديد من الموضوعات المتنوعة داخل هذه الفصول. وقد شملت العديد من المجالات التدريب الفني وإعادة التدريب، وشملت المجالات الأخرى العلاقات الإنسانية، وإدارة التعليم، والممارسات المحاسبية، وتنمية الذات، والرعاية الصحية. وقد أصبحت هذه الزيادات الكبيرة في هذه الفرص التعليمية متاحة للعاملين والموظفين بجانب مواقع عملهم.

ويوجد أنواع مختلفة من الفصول المشتركة، وهي مفتوحة لكل الاحتمالات. وأحد التفسيرات هو أن نسق التعليم الرسمي يقوم بوظيفة فقيرة

فى إعداد العاملين والموظفين ذلك أن التعليم الإضافى يعتبر ضروريا لهم لى يؤدوا وظائفهم بصورة مناسبة فى المؤسسات الربحية. ووجهة النظر الأخرى ترى أن العالم المتوحد يتسم بالدينامية، وتحدى أن كل التنظيمات يجب أن تكون "تنظيمات تعليمية" إذا أرادت أن تتنافس بفعالية (Senge, 1990). ومن الواضح أيضا أن الفصول المشتركة يمكن بناؤها لى تخدم أغراض التنشئة الاجتماعية للموظفين والعاملين وتوجيههم أيديولوجيا نحو وجهة نظر المؤسسة أو المنظمة نحو العالم.

وهذا لا يعتبر نشاطا صغيرا غير مهم أو اقتصاديا. لقد تم تقدير أن هذه العملية تتفق حوالى من ٣٠ - ٥٠ بليون دولار على التعليم الرسمى للعاملين فى العام وأكثر من ١٨٠ بليون دولار على تعليم الوظيفة والتدريب (Nash, Hawthorne, 1988). إن كيفية بناء أو نقل هذا التعليم لم يدخل فى مجال تركيز بحوث الفعل فى الولايات المتحدة الأمريكية، وربما بسبب أن عددا قليلا جدا من باحثى الفعل يميلون إلى العمل فى هذه البيئة المشتركة Corporate Environment أو أنهم يدركون أن احتمالات التغيير تُلزم مثل هذه البرامج الكبيرة والممولة تمويليا جيدا.

تعليم الكبار وتنمية المجتمع

Adult Education and Community Development

تنمية المجتمع:

لقد تناولنا فى الفصل العاشر الجزء الأكبر من ما صنفناه على أنه تعليم الكبار. إن جهود تنمية المجتمع، والتي تأتي على رأسها تلك التى قام بها مركز هايلاندر من خلال العديد من الحركات التى قام بها العديد من الخبراء مثل بيلينكى وبوند ووينستوك (Belenky, Bond, & Weinstock, 1997)

وفريير (1970) Freire وجافينتا (1982) Gaventa وهال (1975) Hall وهينسدال ولويس ووالر (1995) Hinsdale, Lewis, Waller ونشير إليها بالفعل ونقدم عنها المعلومات المناسبة هنا. وبينما تتوعد هذه الحركات فى نظرياتنا وطرقها ومنطقاتها الفكرية، فإننا نتفق مع آراء فينجر وأسن (٢٠٠١) الجوهرى بأن كل الحركات الإصلاحية تتخذ مكانها فى النماذج المعاصرة للتنمية. وكما كانت رغبة كل من فينجر وأسن فى وضعها، فإن هذه الحركات استهدفت أساسا وضع الإنسان فى مواجهة الرأسمالية. وقد اعتقد بعض الممارسين أن ذلك أصعب كثيرا مما يفعله الآخرون، ولكن يعتقد الجميع فى توفر إمكانيات إصلاح النظام. وخوفا من أن نفكر فى وضع أنفسنا فى مكان أفضل منهم، فإننا نؤكد على أننا أيضا نشارك فى هذا التوجه الأساسى والذى يعتبر بالتأكيد المسلمة والافتراض الأساسى لجهودنا الخاصة.

ويمكن أن تتجمع كل هذه الأنشطة تحت عنوان تعليم الكبار، لأنها تتضمن عمليات التعليم المستمر وبناء القدرات وتقرير المصير، والذى يشرك الكبار الذين يباشرون أعمالهم بشكل جيد فى حياتهم. إنهم يختلفون بشكل كبير فى الوسائل التى يعلمون بها، فهناك عمليات التوجه الجماعى مقابل عمليات التوجيه الفردى، وكذلك كيفية تقوية قدراتهم على النقد للاقتصاد السياسى المعاصر، ولكنهم لا يزالون يدعمون وينقلون بعض صور الشبيهة بالأسرة. وبالطبع فإن الممارسين ذوى الاتجاهات المختلفة يواجهون معوقات الاتفاق أو الانطلاق معا، وأصبح لديهم ألفة بالقراءة الجيدة لهذا المجال فى الأدبيات من مختلف التنوعات.

التنمية كإطار لبحوث الفعل

Development As a Framework for AR

من خلال فكرة أن بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة هى تعليم شعبى فى الجنوب، والتى تعد خارج الاتجاهات التقليدية للتنمية الدولية، هى واسعة

الانتشار، وللتقليل من غضب بعض ممارسي بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة، فإننا نعتقد أن نتائج المناقشات التي أعلنت مبكرا لكل من فينجر وأسن (٢٠٠١) ومن أشر وبريانت وجوهانسون (١٩٩٧) تتمثل في أن معظم هذه الممارسات تتوافق داخل جميع أطر التنمية الحديثة. إن الاعتقاد في إمكانية قيام التعليم بزيادة قدرات تغيير وتحسين المجتمع كما هو لا تمثل رفضا أو نكرانا لهذا المجتمع. مع ذلك فإن الممارسين يختلفون بشكل كبير في درجة الإصلاح التي ترضيهم، وتقريبا فإن جميعنا مصلحون ولنا ثورين. وكنتيجة لذلك على الرغم من أنها أوجدت توتر وتجاوز غير مريح فإننا نعتقد أنها ساعدتنا في فهم أن بحوث بالفعل بالنسبة للممارسين أنفسهم هي بشكل أساسي جهود إصلاحية تقوم بدرجة معينة على أساس الاعتقاد في قدرات الناس على العمل معا لتغيير مواقف حياتهم وتنظيماتهم في اتجاهات إيجابية.

التعليم الشعبي في الجنوب : Popular Education

من المحتمل أن يكون التقليد الأكثر شهرة في المجال هو تعليم الكبار والتغيير الاجتماعي في الجنوب. ويعتبر هذا هو المجال الضخم الذي كتب عنه في العديد من الكتب. ونحن بالفعل قمنا بعض وجهات النظر الأساسية عنها. وربما يكون ذلك أفضل تعريف لجميع بحوث الفعل واسعة الانتشار في العالم، وكذلك بعض من أهم قادتها الذين يعتبرون نماذج لممارسي بحوث الفعل- باولو فريز (١٩٧٠) وبود هال (١٩٧٥) وأورلاندو فول بوردا (Fals Borda & Rahman, 1991). ونظرا لأن هؤلاء الممارسين قد قاموا بإعداد سجلات فعالة لكل أفكارهم وأعمالهم، فإنه يمكن قراءتها والاستفادة منها استفادة عظيمة. وبالطبع فإن تركيزهم المتشابه إلى حد بعيد لا يجب أن يحجب اختلافاتهم الفردية وتقرّد إستراتيجيات التدخل التي طوروها. فكل منهم ومن زملائهم وطلابهم المنتشرين في مختلف دول العالم لديهم صوتهم

وتعبيرهم المميز ووجهات النظر التى يعرضونها. ولتحقيق أغراض هذا العرض نقوم بنقد ميولهم الفردية لعمل عرض متكامل عن هذه الاتجاهات.

تتمثل نقاط الانطلاق لاتجاه التعلم الشعبى فى الإرادة السياسية والأخلاقية. ويأتى موضوع الأخلاق أولا، ولا يمكن السماح باختلافه فى أى وجهة نظر. فالبشر يؤهلون للحياة اللائقة، والتحرر من أنياب الفقر، والاضطهاد السياسى. فالبشر لديهم الكرامة ويستحقون الاحترام. فالمنطق السياسى الذى نبع من هذا المبدأ الأخلاقى يعتبر بسيطا. نظرا لأن البشر يؤهلون لكى يكونوا أحرارا ويكون لديهم القدرة على إدارة شئون حياتهم بفعالية، وهذا لا يحدث فى معظم الأماكن ويحتاج إلى تفسير. ويمكن التفسير هنا فى أن الظلم والاضطهاد يتم إغلاقه بواسطة القوة الاقتصادية والعنف. لذلك بنى الممارسون لهذا الاتجاه ممارساتهم على أساس وجهة النظر الماركسية القوية. إنهم لم يفقدوا البصر والبصيرة عن القوة والاضطهاد، ولا يرون أن التغيير يمكن أن يحدث بدون إسقاط بناءات القوة، ووضع بناءات كثيرة للتحرر مكانها.

وبالتوازي مع العناصر المتعدد لنظريات الحراك النابعة من النظرية الماركسية والممارسات التنظيمية للنقابات المهنية، فإن هذه الاتجاهات قد انفتحت مع المعرفة المحلية المتميزة. وقد تمثلت نقطة الانطلاق فى أن اهتمامات وقوة النخب - وليس تجاهل الفقراء أو نقص قدرتهم - هى التى تؤدى بالناس إلى الفقر والظلم والاضطهاد. لذلك ينظر إلى الناس فى المجتمعات والتنظيمات على أساس أن لديهم المعرفة التفصيلية والمعقدة ذات القيمة عن مواقف حياتهم، والقدرة على وضع التحليلات والإستراتيجيات التى يمكن أن تحرك هذه المعرفة نحو التغيير الاجتماعى.

إن دور الخبير الخارجى يختلف من ممارس إلى ممارس، ولكن دائما ما يكون الخبير الخارجى محفزا وميسرا، وأحيانا ضاعطا وأحيانا أخرى محذرا، ولكنه يحاول دائما نقل احترامه للسكان المحليين ولحقوقهم. ويحدث ذلك عندما يظهر الارتباط مع تعليم الكبار، نظرا لأن العديد من أنواع التدخل هذه يمكن فهمها كنماذج من تعليم الكبار وبناء القدرات.

وعند استمرار عملية بحوث الفعل يكتسب السكان الثقة فى قدراتهم وإدراكاتهم، ويصبحون أقل استعدادا للخضوع للسلطة، وقادرون على تطوير إستراتيجيات تنظيمية للارتقاء بالتغيير الاجتماعى. وفى بعض من هذه المواقف يمكن ببساطة تجاهل أشكال المقاومة وعدم التفكير فيها. وفى بعض المواقف الأخرى تصبح أشكال المقاومة خطيرة وعدوانية. لذلك فمن الممكن أن تتراوح هذه الجهود بين تنمية التنظيمات المحلية التى تهدد القليل من الناس إلى الأنشطة التى يمكن تسميتها بحق على أنها تمردية *Insurgency*.

باولو فريير *Paolo Freire*:

بمناقشتنا السريعة لهذا الاتجاه نحو بحوث الفعل، نجد أن مراجعتنا المختصرة لإسهامات باولو فريير تساعدنا على فهم هذا الاتجاه. ويعتبر فريير من أكثر الأسماء شهرة ممن ارتبطوا ببحوث الفعل والتصور الذى قدمه هو وكل شخص عمل فى بحوث الفعل يعتبر مألوفا للكثيرين بسبب تركيزهم على بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة وتعليم الكبار والتعليم الرسمى وتنمية المجتمع.

يمتلك فريير الذى ولد فى البرازيل سيرة ذاتية طويلة ومعقدة. فقد بدأ عمله كمعلم للكبار، حيث كان يعمل مع الفقراء، ولكنه استبعد من البرازيل أثناء الانقلاب العسكرى عام ١٩٦٤ بسبب العمل الذى كان يقوم به. وقد تم تلخيص

اتجاهه فى أكثر كتبه شهرة علم تدريس الاضطهاد **Pedagogy of Oppressed** وكانت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٧٠. ويعتبر هذا الكتاب واحدا من أكثر الكتب قراءة عن بحوث الفعل ورسالته لا تزال مثيرة ومناسبة.

وقد استمر نفيه من البرازيل حوالى ستة عشر عاما، حيث عاش وعمل فى إنجلترا وشيلي، وقضى فترة من عمله مع المجلس العالمى للكنائس فى جنيف. وقد تعلم فى هارفارد من عام ١٩٦٩ وحتى عام ١٩٧٩، عندما أصبح قادرا على العودة على البرازيل. وقد أحيا عمله العام فى البرازيل عام ١٩٨٨ عندما تم توظيفه وزيرا للتعليم فى مدينة ساو باولو. وكانت لديه الفرصة لكى يضع أفكاره عن التعليم فى الممارسة. وقد مات فريير عام ١٩٩٧.

وتتكون كتاباته من مزيج معقد من الماركسية الحديثة وآراء جرامشون **Gramscian perspective** والليبرالية اللاهوتية **Liberation Theology**. وقام بتنظيم هذا المزيج تحت عنوان عام لمفهوم واسع "علم أصول التدريس **Pedagogy**" وقد اعتقد فريير أن "الحديث عن العالم الحقيقى يكون بتحول العالم" **To Speak a true world is to transform the world** (١٩٧٠، ص. ٨٧) وقد اعتقد بأن قوة الكلام ترتبط بالوعى النقدى، والعمل المنظم والواضح، ودوائر رد الفعل. وكان لديه رأى معقد عن "الوعى الاغترابى **alienated consciousness**" والذى يخضع المضطهدين للعبودية والاستعباد، وانتقد اثنين من أكثر تنظيمات ردود الفعل شيوعا وهما اللفظية **Verbalism** والفعالية **Activism**. فاللفظية هى الكلام بدون فعل. (١٩٧٠، ص. ٨٧) والفعالية هى الفعل بغرض الفعل بدون التدريب على الوعى النقدى.

وكان لدى فريير اعتقاد قوى فى أهمية الفعل النقدى الصريح والواضح، والذى يبين للناس ظروفهم الحالية، وقدرتهم على تغيير هذه الظروف. لذلك نادى بأهمية امتلاك الناس لأصواتهم وتعبيرهم كمظهر

رئيسى الليبرالية. وقد أعلن فريير أن الكيانات الإنسانية لا يمكن أن تبنى على الصمت (١٩٧٠، ص. ٨٨) وأن المطالبة بالحق فى الكلام والتعبير تعتبر واحدة من أكثر أشكال القوة فى الفعل.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان استخدام الكلام يتسم بالعدائية أو بالعنوانية، وقد أكد فريير على أن الحوار هو عمل يتسم بالحب ويتطلب الإيمان بالعنصر البشرى لأن الحوار يركز على الأمل والاعتقاد بأن الآخرين يستطيعون الاستجابة والتعبير عن رأيهم. لذلك رأى فريير أن التعليم الحقيقى والموثوق به دائما ما يكون اجتماعيا "إنتاج مشترك Cogenerative" فى علم مصطلحاتنا. ويمكن تصور فكرة الحب والتماسك فى تأكيد فريير بأنه يجب على المضطهدين أن يحرروا أنفسهم من خلال تهميتهم للوعى النقدى، وهى ما أطلق عليها فريير "إيقاظ الضمير Conscientization"، ولكن أيضا يجب أن يسعى المضطهدون أيضا إلى تحرير اللذين يضطهدونهم بنفس الوسائل. والقيام بأى شئ خلاف ذلك يعنى ببساطة أن المضطهدين أو المظلومين سوف يتحولون إلى مضطهدين أو ظالمين، وتعود الدائرة فى الدوران من جديد.

هذا وقد اتسعت كتابات فريير (1970, 1998a, 1998b) وبدأت الانتقادات فى الظهور أيضا ومن هذه الانتقادات (Bowers & Apfel, 2004) ولاحظ مرة أخرى أن جزءا من هذا العمل قد تم وضعه كعرض لإستراتيجيات بحوث الفعل الجنوبية. (الفصل العاشر) وأيضا أصبح ذا صلة لبحوث الفعل التعليمية، وأجزاء من إستراتيجية الاستقصاء الإنسانى أيضا (الفصل الرابع عشر).

ويمكن أن يقال الكثير جدا عن هذه الاتجاهات، ولكن يكفى ما تم طرحه لتشجيع الاهتمام بالقراءة أكثر فى الأدبيات المرتبطة بهذا الموضوع. إن التركيز على المعرفة المحلية وقيمتها والتأكيد على أن التغيير الاجتماعى

ليس مجرد تحريك للأقراص، ولكن تغيير أنساق القوى يعتبر أن من أكثر الإسهامات حسما في بحوث الفعل الجنوبية بالمشاركة^(٣).

وكما لا حظنا في الفصل العاشر، يوجد أيضا العديد من الأدبيات النقدية التي ظهرت الآن، والتي كشفت عن بعض القصور ونقاط الضعف في الافتراضات الأساسية لهذه الاتجاهات.

مؤسسات التنمية الدولية International Development Agencies:

ومن بين المؤسسات الأكثر قوة وثراء، والتي تعمل في مجال تعليم الكبار هي التي تنتمي إلى الحكومات المحلية والهيئات الدولية، والتي توظف الميزانيات المحلية في برامج المساعدة التنموية، والتي تعتبر موضوعات دقيقة ومعقدة. إننا نتعامل مع جزء بارز ومهم منها، والذي يرتبط ببحوث الفعل في الفصل الخاص بالتقييم الريفي التشاركي (الفصل الثالث عشر).

وتعتبر مؤسسات التنمية من القوى المسيطرة على نفس المشهد الذي تعمل فيه المنظمات غير الحكومية (NGOs) والإرساليات التطوعية. ومن أمثلة مؤسسات التنمية المؤسسة الأمريكية للتنمية الدولية، NORAD النرويجية، ومنظمة الصحة العالمية، والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي. واعتمادا على التمويل المالي بشكل كبير والمقدم من الحكومات المحلية، تقوم هذه المؤسسات الدولية بدعم برامج التنمية في الكثير من الدول حول العالم.

وعلى الرغم من أنه لازلنا منصفين إذا قلنا إن حجم ميزانيات المشروعات المنفقة على البنى التحتية Infrastructures من القمة إلى القاع، ونتج عنها بوجه عام تحسينات متواضعة في ظروف الفقراء ولم تساهم في تحقيق الديمقراطية، فإن بعض من هذه البرامج كان لها تأثيرات محلية مهمة. إن ما

أطلق عليه اسم تكنولوجيا الثورة الخضراء **Green Revolution Technologies** لتحسين إنتاج معظم حبوب الغذاء قد حسنت من مستوى تغذية الناس وكذلك حالتهم الصحية فى بعض مناطق العالم. وتحت مظلة برامج التنمية فقد تم إرسال آلاف من الناس من المجتمعات الفقيرة إلى المجتمعات الغربية الصناعية لمزيد من التعليم المتطور، وفى بعض الحالات حدثت تأثيرات إيجابية، ولكن لم يعد آخرون منهم إلى أوطانهم على الإطلاق. وفى السنوات الجارية فإن هذه المؤسسات لديها نشر **Promoter** فعال للعديد من الأساليب الفنية مثل التقييم الريفى التشاركى (مع عناصر بحوث الفعل) والذى كتبنا عنه فى الفصل الثالث عشر. وقد أعلنت معظم المؤسسات الآن عن التزامها باستراتيجيات التنمية بالمشاركة، وعلى الرغم من ذلك فإن الكثير منا فى بحوث الفعل ينظر إلى هذه الالتزامات بنوع من الشك بسبب أن تسجيل هذه الجهود القومية مختلطة بشدة. إن المخصصات المالية هى التى تقودهم إلى خدمة الاهتمامات السياسية القومية بعض النظر عن التوجهات الأيديولوجية التى يرتبطون بها.

ولعل إحدى المميزات الراسخة فى هذه البرامج لأكثر من ٢٥ عاما هى الإصرار على أن التنمية تحتاج إلى التغيير فى التعليم وفى الاتجاهات. ومن أهم الانتقادات ثباتا واستمرارا لهذه البرامج تتمثل فى أن مثل هذه البرامج فشلت فى أن يكون لديه معارف كافية عن السكان المحليين، وكذلك فى احترام المعرفة المحلية. وعلى الرغم من وجود محاولة ما لتحسين تسجيل ذلك بنائيا، فإن مؤسسات التنمية الدولية النابعة من **Top down** تقوم بتحقيق أهداف المانحين وليس المستفيدين المحليين. وعندما تكون هذه الأهداف تتوافق مع اهتمامات السكان المحليين، فربما يكون ذلك هو مجال عمليات بحوث الفعل. وعندما لا تكون كذلك، يقوم باحثو الفعل بالتعاون مع الفاعلين المحليين بضرورة معارضتها ورفضها.

جماعات الدعم Support Groups:

على الرغم من أن ذلك ربما يبدو توسيع لفكرة تعليم الكبار، فإن جماعات الدعم تشمل العديد من العناصر من تعليم الكبار وبحوث الفعل التي نوقشت. وجماعات الدعم هي جماعات من الأفراد والأسر التي تكونت إراديا بشكل عمدي متأثرة بالمشكلات المشتركة؛ السرطان في الأسرة، وسوء معاملة أحد الزوجين، وسوء استخدام العقاقير. وقائمة جماعات الدعم لا تنتهى.

وتختلف هذه الجماعات بشكل كبير في تنظيمها والفلسفات التي تقوم عليها، ولكنها تضع بناءها على أساس فكرة أن الناس يتجمعون أو يأتون معا للمشاركة في مشكلاتهم وأزماتهم، وحلولهم، فى مواقف قوتهم وضعفهم، وذلك لمساعدة بعضهم البعض فى المواقف الصعبة. وغالبا ما تنمو جماعات الدعم من داخل أو أثناء مبادرات التغيير من خلال تحصيل التعليم أثناء عمليات التغيير. إن كفاح المؤسسات والمنظمات ضد إيمان الكحوليات وسوء معاملة أحد الزوجين وغيرها من المشكلات الأخرى بدأت فى الجهود التي قامت بها جماعات الدعم. ولعل أهم الحالات الموثقة التي أظهرت العلاقة بين جماعات الدعم وبحوث الفعل قد وجدت فى العمل الذى قام به كل من تشيسلر وتشيسنى (Chessler and Chesney 1995) عن الدعم الذى تم تقديمه لوالدى الأطفال مرضى السرطان. إن التطورات المهمة فى بحوث الفعل فى هذه المنطقة لم يتم تقديرها حق قدرها.

حلقات الدراسة Study Circles:

تعتبر حلقات الدراسة أكثر شيوعا فى أوروبا عنها فى الأمريكتين، حيث نشأت فى الحركة العمالية كآلية لجذب الكبار معا إلى الظروف التي

تؤثر على حياتهم. وحلقات الدراسة هي أكثر الاتجاهات التربوية شيوعاً في تعليم النقابات المهنية. وقد استخدمت معظم حركات التعليم الشعبية في أوروبا الشمالية دوائر الدراسة كعنصر رئيسي في أنشطتها التعليمية.

والقصد من وراء دوائر الدراسة هو تحقيق تعليم كبار واسع الفهم عند التركيز على رفع مستوى الوعي وإستراتيجيات التفكير في القضايا التي تؤثر على مشاركتهم. وبشكل أو بآخر فإن هذه الأنواع من دراسة الجماعات جاءت وزهبت في معظم المجتمعات الصناعية.

التنظيمات غير الحكومية

Nongovernmental Organizations (NGOs)

طورت المنظمات غير الحكومية في معظم أنحاء العالم العديد من البرامج التعليمية الشاملة وإدارتها، وذلك لعدم وجود أنواع معينة من التغيير الاجتماعي ذات الاهتمام بالنسبة لها. وتمثل أنواع التعليم البيئي والتعليم الزراعي والتعليم الجنسي والتعليم الصحي والتعليم الغذائي وغيرها من أنواع التعليم المشابهة جوهر أنشطة هذه المنظمات غير الحكومية. والآن أصبح عدد هذه المنظمات غير الحكومية كبيراً جداً، وقد اشتركت بأنواعها المتعددة في وجهة نظر التنمية العالمية، والتي تتمثل في أن مشاركة الناس وليس الحكومات أو أصحاب الأموال هي العوامل الفعالة للتغيير. وقد مالت المنظمات غير الحكومية تاريخياً إلى استثمار العنصر البشري لذلك فإن الناس هم الذين يصنعون التغييرات ويساندون هذه التغييرات بأنفسهم. وقد جعلت هذه الرؤية التعليم الشعبي أولوية كبيرة وعنصراً ثابتاً وراسخاً في أنشطة المنظمات غير الحكومية.

وفى السنوات الأخيرة تعرضت عمليات وأنشطة المنظمات غير الحكومية لانتقادات لاذعة وحادة. فى بعض الحالات أصبحت غائبة أو مختفية، وأصبحت حكومة غير منتخبة فى المجتمعات الفقيرة مع توفر موارد مالية أكبر من المؤسسات الحكومية. وبتتبع مشروعات وخطط المنظمات غير الحكومية يمكن القول إنها فاسدة تماما (Mendelson & Glenn, 2002) وبنفس المعطيات، فبسبب المرونة التى تتسم بها والحرية التى ترتبط بعملياتها، فإن بعض المنظمات غير الحكومية تستطيع تركيز على أنشطة بحوث الفعل التى تشرك المستفيدين المحليين فى جهود الإصلاح الاجتماعى المهمة تحت الضبط المحلى.

الإرساليات وحملات التبشير Missions and Evangelizations:

أينما تكون الإرساليات التبشيرية فإنها تعتبر جهودا تعليمية. فالإرساليات تعتبر واقعا فى كل دول العالم، ولا يحتمل أن تختفى بسرعة. وينظر إلى المبشرين بشكل نمطى على أنهم إما كونهم مصلحين سذجا، أو دعاة دين خياليين. ومع ذلك يوجد الكثيرون الذين يكيّفون تصورات مع الأجيال الحالية عن الإرساليات التبشيرية بأنها أكثر تحريفا وتعقيدا. وقد أصبحت العديد من الجماعات معلمين شعبيين، حيث تركوا أيديولوجيتهم جانبا للعمل فى المجتمعات المحلية من خلال توظيف الموارد والعمال فى المشروعات ذات القيمة والأهمية للسكان. والبعض منهم أتى بالموارد المهمة معه إلى هذه المجتمعات واستخدم هذه الموارد لحشدها، سواء نحو جهود التغيير أو لعملية التبشير. وفى بعض الحالات كان لبعض هذه الجماعات الشجاعة الكافية والاستقلال السياسى والموارد ليوحدوا فى الأماكن الخطيرة والمنعزلة. وربما عاقبت الحكومات هذه الجماعات وخافت منها، أو أنكرت وجود المشكلات. لذلك حاولت هذه الإرساليات توصيل رسالتها بطرق متنوعة.

وقد صاحب هذه العملية العديد من إستراتيجيات التعليم، والتي شملت حملات تعليم القراءة والكتابة، وتكوين الجماعات الاجتماعية مع مشروعات تغيير معينة قومية أو محلية، ودراسة الجماعات للإنجيل والعيادات الصحية ومعسكرات اللاجئين. وقد بعض من هذه المنظمات بالارتقاء بأيديولوجيات تحقيق الديمقراطية كجزء من رسالتها الكنسية.

وعلى الرغم من أننا لم نسأل عن مدى شرعية هذه التنظيمات، فإنه من المهم الكشف عن ممارساتهم عن قرب. وعلى الرغم من أن أحد عناصر هذه الإرساليات هو الاعتقاد في الصدق المطلق، فإن هناك دائما احتمال لتحمل أعباء بعض الأطر غير المرغوبة من السكان المحليين. وعندما يحدث ذلك فإن الإرساليات تصبح معادية لبحوث الفعل. ولكن هذه ليست حالة دائمة ويجب أن يحتفظ ممارسو بحوث الفعل بعقل مفتوح نحو الإرساليات، تماما كما أنهم يحتاجون إلى أن يكونوا منتبهين ويقظين لسوء الاستعمال أو الظلم الحادث في المنظمات غير الحكومية، والجامعات ذات الأرض الممنوحة، أو لأي مكان آخر تظهر فيه محاولات التدخلات الديمقراطية.

الخلاصة:

نأمل أن يكون المدى الواسع من تعليم بحوث الفعل الذي ألمحنا إليه في مستهل هذا الفصل يكون واضحا الآن، حيث إنه من غير الممكن عزل هذا الموضوع تماما عن الاتجاهات الموضوعات العديدة الأخرى التي عرضناها في الفصول الأخرى. وربما ما تركناه هنا هو العودة إلى التحديات التي أظهرها كل من فينجر وأوستن (٢٠٠١) وأشير وبريانت وجونسون (١٩٩٧). لقد رأوا من خلال الموضوعات المتنوعة المتاحة أمامهم أن معظم ممارسات تعليم بحوث الفعل قد تأثرت بقوة بنماذج التطور المعاصرة.

وقد تعاملوا مع ذلك على أنه شيء ما من الحتمية، والتي يتم من خلالها ضرورة الحفاظ على بعض من عناصر إطار الحداثة بواسطة أى شخص الذى يتفاعل بأن التعليم ورد الفعل والتغييرات المتتابة يمكن أن تؤدي إلى حياة أكثر إشباعا فى منظمات معدلة ومجتمع أفضل. ولكنهم كما أشاروا لم يعد ذلك مؤكدا ولكن من وجهة نظر اتجاه ما قبل الحداثة يجب أن يكون ذلك فى حد ذاته مفهوما كواحد من أكثر القصص الكبرى.

ومع ذلك فإن فهم شيء ما على أنه قصة كبيرة لا يتضمن بالضرورة التخلص من الطرق والممارسات المرتبطة به أو من قيم الديمقراطية والمشاركة. إن التحدى الذى وضعه الباحثون لنا يعتبر مهما جدا. وبالنسبة لتعليم بحوث الفعل وكل أشكال ممارساتها، يجب أن نفهم جيدا التزاماتنا الأيديولوجية، وأن نضع فى اعتبارنا المعايير الأكثر إقناعا لقيم الشفافية والتماسك، والتي ترتقى بعمليات الضامن والإنتاج التعاونى، ويجب أن نتذكر التواضع الضرورى الذى يترافق مع الاستقصاء التضامنى بدلا من الانزلاق فى داخل الخبرة الفنية والتقنية فى تحسين حياة الجميع.

الهوامش

- (١) إننا نشعر بالسعادة أن لدينا نصيحة جيدة من زملائنا آرثر ويلسون وسكوت بيترز من قسم التعليم بجامعة كورنيل. لقد ساعدونا بإرشاداتهم لنا داخل أجزاء هذا الإقليم، وأوصوا لنا ببعض المشروعات الكبرى والتي تشاورنا حولها.
- (٢) لقد تناولنا بالتفصيل هؤلاء المفكرين في الفصل الخاص بالديمقراطية الصناعية (الفصل الثاني) وفي الفصل الخامس عشر عن علوم الفعل، وقد ناقشنا في اتجاهنا الخاص بقوة عن جون ديوى، لذلك لم نقم بمراجعة كل هذا العلم هنا.
- (٣) لقد تناولنا هذا الموضوع بالتفصيل في الفصل العاشر، ونحيلك إلى هذه المناقشة لمزيد من المعلومات.

الفصل الثانی عشر

التقييم بالمشاركة

Participatory Evaluation

التقويم التقليدي للعمليات أو المشروعات هو النشاط النابع من معظم الاتجاهات السلطوية في الإدارة الاجتماعية. ويعتمد التقويم التقليدي بوجه عام على افتراض رئيسي مؤداه أنه من خلال المزاجية بين أنساق الضبط البيروقراطي مع الأساليب الفنية للعلوم الاجتماعية فإنه من الممكن الوصول إلى خريطة واضحة عن أنشطة الآخرين - المانحين، والمؤسسات، وغيرها - وتحليل أدائهم في أنشطة محددة مقابل نوع من القياس ممكن الدفاع عنه حكومياً. وهذا النوع من التقييم التقليدي يبنى على خلفية أساسية هي أن لدى الخبير المحايد والموضوعي القدرة على اتخاذ أحكام موضوعية وجيدة تتعلق بأنشطة محددة باستقلالية عن أي إنجازات شخصية خاصة.

والمحاسبة بالنسبة للسلطة هي القضية الرئيسية هنا. إن الموازنات العامة والخاصة التي تتفق على تحديد مشكلات، سواء في الميادين العامة أو الخاصة، والتقييمات هي التي يتم تنفيذها للتأكد من أن هذه الموارد يتم إنفاقها بشكل مناسب. إن زيادة الطلب على المحاسبة في كل مكان جعل هذا النوع من التقييم التقليدي استجابة مسيطرة. ويعتقد كل شخص أنه يمتلك المحاسبة على الرغم من أنها غالباً ما تكون غير واضحة بالنسبة لهم.

ويحتاج جميع الممولين والسلطات المحلية والحكومات والقادة التنظيميون إلى تقييم البرامج التي يقومون بتمويلها، سواء للتوجيه أو لاتخاذ

القرارات المالية على أسس تشريعية، أو لمساعدتهم على المحافظة على الأنشطة التي يدعمونها تحت سيطرتهم وتحكمهم. وهنا تعتبر الفائدة من عملية المحاسبية واضحة تماماً للمانحين. فالتقييم يحفظ لهم وضعهم القوى ويحدد بوضوح من هو المسؤول.

وتعتبر المحاسبية من وجهة نظر من يحصلون على التمويل ومن يتم تقييمهم، ليست من ضمن اهتمامهم. إنهم يركزون كل اهتمامهم على جودة نتائج أعمالهم. وتطور أسئلتهم بصورة أكبر حول العديد من الموضوعات مثل: هل أدى البرنامج أو النشاط إلى تحسين موقفي؟ هل نتاح لى حياة أفضل الآن؟ هل لدى قدرة أفضل على رعاية نفسي؟ هل وضعى الوظيفى أفضل الآن؟ هل تؤدى منظمتى أو مؤسستى بشكل أفضل؟ هل نفعل أشياء صحيحة، وهل تؤدى هذه الأشياء بصورة صحيحة؟ إن المحاسبية من خلال عملية التقييم لا يحتمل بدرجة كبيرة أن تجيب عن هذه الأسئلة. وللإجابة عن مثل هذه الأسئلة فمن الضرورى إدماج المستفيدين وعملاء المنظمات والمؤسسات فى عملياتهم الخاصة لتكوين وعى حول مواقفهم الخاصة والأنشطة التى يشاركون فيها. وهذه النظرة الداخلية هى التى توجه تصرفات هؤلاء فى المنظمة.

وإذا كان تركيز عملية التقييم على الأشياء التى تهتم المستفيدين الممولين، فمن ثم فإن الوسيلة الوحيدة هى البحث عن الديناميات الداخلية والعمليات والنتائج المفهومة والمحكوم عليها من داخل البرنامج أو النشاط. ويجب إشراك المستفيدين الداخليين تماماً فى عملية التقييم. وكما يعلم كل شخص فإن عملية إشراك المستفيدين فى هذه العملية تعتبر نادرة للغاية. وسواء حدث ذلك أو لم يحدث فإن هذا النوع من مشاركة المستفيدين يمثل الخط الفاصل بين التقييم التشاركى وبين التقييم الوضعى التقليدى.

وهناك العديد من القضايا التي يتم تقييمها التي تتراوح بين الإنجاز في الفصول الدراسية (المدرس - التلميذ - كلاهما) وفعالية البرامج العامة، وتأثير برامج التنمية، وغيرها. وتقريبا لا يوجد مجال سواء عام أو خاص يستطيع الاستغناء عن أى نوع من التقييم. وقد أصبح التقييم التقليدى طريقة معيارية خاصة فى العمل لصانعى السياسات إلى الحد الذى لا يعتقدون فى تنفيذ مثل هذه الأنشطة بتميز.

وبشكل واضح فإن التقييم يشغل مكانا رئيسيا فى كل دوائر عمليات اتخاذ القرار سواء كانت عامة أو خاصة. ويخدم التقييم العديد من الوظائف السياسية والقرارات التشريعية على أساس توزيع الموازنات وتوفير الشرعية لقرارات سياسية معينة. ويستخدم التقييم أيضا كمحاسبة تالية للنزاع المتعلق بمصادر صرف الأموال. وكذلك يستخدم التقييم فى تأجيل القرارات من خلال التصريح بأن الموضوع أو القضية تحت التقييم حتى يتم تقديم التقرير المناسب عنها.

وبتناول كل ذلك نجد أن التقييم قد أصبح مجالا مهنيا رابحا، وعملا استشاريا رئيسيا، ونموا صناعيا حقيقيا. وهذا النوع من الإطار التقييمى لا يمكن أن نتصور من خلاله نشاط التقييم الذى يتضمن المشاركة الفعالة من المستفيدين. حيث يعتبر أنه ليس للمستفيدين الكفاءة فى تقييم أنشطتهم الخاصة ويفترض فيهم عدم الأمانة فى عرض أنشطتهم على المانحين لجعلهم يتطلعون إلى حياة أفضل مما هم عليه.

ومع هذا التوجه الفكرى الذى يركز - إلى حد بعيد - على القيمة الافتراضية للملاحظات البعيدة والحيادية، والمقيم الخبير، وعمليات تكوين الوعى من جانب واحد، وقضايا المشاركة حول دمج المستفيدين فى الأنشطة الخاصة بجمع البيانات عن أدائهم الخاص بهم وتحليل النتائج، والذى يعتبر

أمرا ممكنا. ونجد أن المقيمين نوى الكفاءة الذين يعارضون هؤلاء الذين يجمعون الأموال من إجراء التقييمات، قد اكتشفوا تدريجيا أنه إذا كان للتقييم أى تأثير مفيد فى الأنشطة اليومية فى المنظمات الممولة، فإن عملية التقييم ونتائجها سوف تكون خاضعة للمستفيدين المحليين وذات قيمة بالنسبة لهم، وليس للمانحين. وقد أعقب هذه النظرة ظهور التقييم بالمشاركة كممارسة واسعة الانتشار.

سلطة التقييم The Authority of Evaluation:

عندما تتعرض لزيارة مقيم أو محاسب أو مقدر ضرائب أو مراجع معتمد، أو أى من الأشكال الأخرى التى تلعب دور المقيمين المهنيين، فإنك سوف تكون فى موضع الخضوع لشخص لديه دور مهنى يتمثل فى مراجعتك وتقييمك أو تقييم برنامجك أو المنظمة التى تعمل فيها بموضوعية. وتقريبا كلنا مر بتجربة مثل هذه التقييمات، لذلك فإنه من السهل استعادة الصورة الذهنية عن الشخص الخارجى الموضوعى والمحايد الذى سألنا أسئلة صعبة، عانينا منها كوسيلة عدوانية. والمسافة التى يجب أن تكون حاسمة فى التقييم التقليدى: محاولات اختيار المقيم تكون محمية ضدها (وبالطبع منخرط فيها غالبا). وعلى الرغم من أن بعض المقيمين أكثر مهارة من البعض الآخر فى إدارة العلاقات مع المتعاملين معهم (المقيمين) فإن التقييم التقليدى يفترض التركيز على صراع الاهتمامات الكائن بين المقيمين والذين يقومون بتقييمهم.

وربما يلاحظ القارئ كيف يشابه بقوة هذا الاتجاه نحو التقييم مع مفهوم العلم الاجتماعى التقليدى وارتباطه بالموضوعية البيروقراطية. إن أفكار الموضوعية والمسافة والحاجة على تجنب المجاملات والاختيارات

Co-optation تتناسب عن قرب مع القواعد المعيارية للبحث الاجتماعي التقليدي واعتمادها على آليات المعاينة المعقدة والاختبارات الإحصائية، وتفضيل تحقيق المسافة. وبالإضافة إلى ذلك فإن معظم التقييمات التقليدية تتخذ مكانا لها في نهاية المشروع، أو في مراحل الرئيسية بعد أن يكون قد تم تنفيذ بعض أنشطة المشروع الرئيسية. والهدف من التقييم بوجه عام هو قياس مدى إنجاز المشروع ومستوى أداء قادته، على الرغم من أن بعض التقييمات المرحلية تستهدف إنتاج معلومات مفيدة للمراحل التالية للمشروع. ومن أكثر الافتراضات الأساسية وضوحا هو أنه لا يمكن منح الثقة للمستفيدين لتقديم تقييم عالي الجودة أو الأمانة بأنفسهم، وأن استخدام نتائج التقييم للتغييرات الحالية والمستمرة في المشروع ليست هي الهدف الرئيسي. وعندما تصبح مقيما فإن هذه الوسيلة تمنحك الخبرة حول ما تشعر به عندما يتم التعامل معك كفرد من عينة البحث من قبل الباحث الاجتماعي التقليدي.

نشأة التقييم بالمشاركة

The emergence of Participatory Evaluation

أينما يوجد التقييم التقليدي فإنه بوجه عام لا يستهدف تحقيق تأثير إيجابي على المشروع عندما يكون المشروع في مرحلة التنفيذ فيما عدا حالات التقييم المرحلية للمشروعات متعددة السنوات. وعموما فهو يسجل النتائج من أجل نوعية معينة من المستمعين من متخذي القرارات.

فالبرامج التي تحارب الفقر، والتي تستهدف تعليم غير المتعلمين القراءة والكتابة، والبرامج التي تدعم جهود المجتمعات الريفية نحو البقاء والحياة الكريمة، كل هذه البرامج تحتاج إلى الفحص الدقيق من المقيمين.

وعموما لا تصل التقارير التى تتضمن نتائج مثل هذه التقييمات إلى المستفيدين من البرنامج، إما بسبب الاحتفاظ بسريتها أو أنها تكون مكتوبة بطريقة تتسم بصعوبة فهمها من معظم الأشخاص غير المهنيين. وأيضا فهذه التقييمات لم تصغ فى إطار من الأساليب القابلة للتطبيق؛ لذلك فإن توصياتها نادرا ما تصاغ فى شكل وسائل مفيدة بشكل فوري للمستفيدين المحليين. إنها أكثر مناسبة لاستخدام ممولى ومراقبى المنظمات.

وغالبا يكون للتقييمات بهذا الشكل تأثير سلبي على المشاركين المحليين وعلى استقلاليتهم كأفراد عقلاء وبارعين. وهؤلاء ليس لديهم إلا رأى القليل فيما يتعلق بما الذى يتم تقييمه، وكيف يتم ذلك، وكيفية فهم واستيعاب النتائج. ويتم التعامل معهم كمخبرين بالنسبة للمقيمين، حيث يتم وضعهم فى علاقة سلبية مع المقيمين الخبراء والخارجيين. وهذا بسبب أن واحداً من أكثر المعتقدات الرئيسية للتقييم التقليدى هو أن جوهر التقييم يتمثل فى الحكم الخاص للمقيم المهنى على النتائج (Scriven, 1995). إن حجب الزاوية فى المهن - من وجهة النظر هذه - يتمثل فى إجراء أحكام موضوعية ومحيدة على الأنشطة الخاضعة للتقييم.

وترفض البحوث بالمشاركة هذا الانفصال والاستقلال على أنها ضرورية وممكنة ومرغوبة. وقد أصبح بعض المقيمين المهنيين مهتمين الآن بفكرة أن التقييمات التقليدية ترتبط فقط باحتياجات أصحاب القوة وليس باحتياجات المستفيدين المحليين. وقد لاحظوا أيضا أن تقييماتهم ليس لها تأثيرات محلية ما عدا تأثيرها على حساباتهم البنكية. ونتيجة لذلك عدل البعض أوضاعهم الوظيفية وقاموا بتكوين التقييم بالمشاركة.

ولقد كان لهذا التحول أهميته الحيوية بسبب أنه حول التقييمات إلى عمليات تنمية تنظيمية تستطيع مساعدة المستفيدين المحليين على تحسين أدائهم

الاجتماعية على أساس الأبعاد التي تهتمهم. وبعبارة أخرى فإن بعض التقييمات تحركت بعيدا عن أن تكون محكمة للمحاسبة Court of Accountability إلى الانخراط والالتزام القائم على القيم لبرامج التنمية المحلية. ولكي يحدث ذلك أصبح المقيمون متضامنين مع المستفيدين في البرامج أو الأنشطة، وطبقا لذلك فإنهم يقومون بدور مهني كمشاركين فاعلين بدلا من دورهم كمحكمين موضوعيين ومتباعدين عنهم.

ولعل أول صوت قوى ومرتفع في معسكر المقيمين في هذا الوضع كان لإرنست هاوس (Ernest House 1972, 1993) الذي بدأ مناقشة أخلاقية عن التقييم. وطبقا لهاوس فإن المستفيدين المختلفين في عملية التقييم ولديهم أوضاع قوة مختلفة ليس لديهم اهتمامات محددة وواضحة. وقد عرض هاوس التقييم على أنه العملية التي من خلالها يحتاج المستفيدون أو متلقو الخدمة ومتنوعو القيم والاهتمامات والقدرات إلى أن يتحرك المقيم من وضع الملاحظ المتباعد الموضوعي إلى متعاون ومشارك، وهذا ما يفتح الطريق إلى التقييمات بالمشاركة.

ولا يجب أن نبالغ في وجود التقييم بالمشاركة. فالنقطة التقليدية والأنواع الهائلة الأخرى من التقييمات، ما زالت تواصل العمل مع المشاركين بعلاقة بدائية غير متطورة. على سبيل المثال نجد في كتاب ميشيل سكريفين (Michael Scriven 1991) عن موسوعة التقييم Evaluation thesaurus أنه لم يذكر حتى كلمة مشاركة.

نماذج التقييم بالمشاركة

Models of Participatory Evaluation (PE)

يوجد على الأقل داخل أدبيات التقييم بالمشاركة ثلاثة اتجاهات مختلفة. وهذه الاتجاهات نحو المشاركة بنيت على أساس افتراضات معرفية

متنوعة وتحديد مفهوم المشاركة بوسائل مختلفة. وأيضا تتسم تطبيقات اتجاهات التقييمات بالمشاركة بالتباين. ويعرض أحد خطوط التفكير التي قام بها جوبا ولينكولن (Guba & Lincoln (1981, 1989 "الاتجاهات البنائية". والخط الثاني وهو لباتون (Patton (1986, 1997 وهو عن "التقييم القائم على أساس النفعية" أما الخط الثالث والأخير "التقييم التمكيني"

(Fetterman, Kaftarian & Wandersman, 1995)

التقييم البنائي Constructivist Evaluation:

أصبح كل من إيجون جوبا Egon Guba ويفونا لينكولن Yvonna Lincoln مهتمين بالتقييم البنائي بعد أن أصبحوا غير راضين بشكل جوهري عن فوائد التقييم التقليدي. وتعتبر هذه نتيجة منطقية لمتطلبات مذهبهم الواقعي "Naturalistic Enquiry" Perspective: "لقد شعروا بأنه لإجراء تقييم فعال فلا بد أن يبنى كل تقييم على أساس النموذج الواقعي Naturalistic Paradigm:

"يعتمد النموذج الواقعي على الدراسة الميدانية كأسلوب جوهري ينظر إلى الحقيقة على أساس أنه لا يمكن تجنبها. فالحقيقة لا مفر منها نهائيا، ولا يمكن حجبها تماما، وبالتجربة فإن المجال المحسوس والمدرَك ينتج استنتاجات حتمية عما هو مهم، ودينامي، وما هو متغفل في هذا المجال. والأنثروبولوجيا الوصفية Ethnography لها نفس البعد".

وقد كان التقييم البنائي هو الموضوع الرئيسي في كتاب جوبا ولينكولن (Guba & Lincoln (1989 وعنوانه "الجيل الرابع للتقييم Fourth Generation Evaluation". وقد قدموا في هذا الكتاب الاتجاه البنائي للتقييم وإعادة بناء الحقائق. ويمثل هذا الكتاب المتابعة المنطقية لكتابهم التقييم الفعال

(1981) **Effective Evaluation**، وقد تمثلت فكرتهم الرئيسية فى كيفية جعل التقييم ذا أهمية وتحقيق واقعى **Naturalistic Evaluation**، والذي يركز على التطور الشامل فى مرحلة ما بعد منهجية الفلسفة الوضعية للعلوم الاجتماعية. وقد ركز كتاب الجيل الرابع للتقييم على صياغة وضع علمى للعلوم الاجتماعية البنائية والاتجاه نحو وضع منهج تفصيلى للباحثين الذين يتجهون نحو مجال لا يخضع للفلسفة الوضعية.

وتتمثل الفكرة الرئيسية لأعمال كل من لينكولن وجوبا فى التركيز على حث الباحثين الاجتماعيين على الارتباط بالناس مباشرة لتوفير الوعى بعملية التقييم ونتائجها. وبهذه الوسيلة يجعلون الممارسين هم العناصر المركزية فى المناقشة حول التطبيق المعاصر للتقييم. وكما قال كل من جوبا ولينكولن:

تتمثل المهمة الرئيسية للفاحص أو الباحث البنائى فى تحليل (حصر) البناءات التى يتمسك بها مختلف الفاعلين فى مكان ما إلى حد تجميعهم معا فى اتحاد أو ارتباط بعضهم ببعض مع أى معلومات يمكن جمعها ولها علاقة بالقضايا ذات الاهتمام" (1989, p. 142).

وبالضرورة فإن التقييم البنائى يستدعى وضع أصحاب المشكلة فى المقدمة، نظرا لأن آراءهم تعتبر مفتاح فهم العمليات والبناءات التى يتم تقييمها. وهذا يعنى أن التقييم يعتمد على فهم المشاركين لمواقفهم الخاصة وكيفية حكمهم على النتائج التى تم تحقيقها. ويستطيع المقيمون دعم هذه العملية التفسيرية (**Hermeneutic Process**) والانخراط فيها نظرا لأنها سوف تؤدى فى النهاية إلى فهم عميق وضرورى. ولا يمكن أن يستكمل التقييم إذا لم يتم وضع الأساس التفسيرى بواسطة المشاركين.

النفعية والمشاركة Utilization and Participation:

لقد وجدت أكثر الاستجابات التى تتحدى كفاءة Efficiency وفعالية Effectiveness التقييم فى عمل ميشيل كوين باتون Michael Quinn (1986). فبالنسبة لباتون فسؤاله الرئيسى كان عن كيفية تشكيل وتكوين التقييمات لذلك كانت الإجابة تتعلق بالمستفيدين المشاركين. ومن وجهة نظر باتون فإن التقييم عبارة عن نشاط يتم تصميمه لإحداث تأثير فى البرنامج أو النشاط الذى يتم تقييمه.

وللتعامل مع معضلة أن يصبح التقييم مهملًا بواسطة المستفيدين، فقد طور المقيمون مثل باتون اتجاهات للمشاركة من خلالها يخلق القائمون بالتقييم، والذين يتم تقييمهم، علاقة قوية وإتاحة الفرصة لعملية تعلم متبادلة. وكان باتون واحدا من أوائل من قدموا هذا الطريقة المتميزة والمختلفة للتقييم. وفى كتابه التقييم القائم على النفعية Utilization- focused Evaluation (1986) ركز باتون استخدام نتائج التقييم فى تحسين المشروعات الضرورية لنشاط التقييم:

"إن ما يميز التقييم المرتكز على النفعية عن الاتجاهات الأخرى هو أن المقيم لا يتحمل بمفرده عبء تكوين الاختيارات عن طبيعة وغرض ومحتوى وطرق التقييم. وهذه القرارات تتخذ بمشاركة الجماعات المنظمة والمحددة من المستفيدين المعنيين" (P.53).

وقد استهدف باتون بشكل أساسى حصر المستفيدين كما حددهم. وهؤلاء هم "الناس الذين لديهم مصلحة- اهتمامات واسعة- فى نتائج التقييم" (1986, p. 43). ولأجل أى تقييم يوجد مستفيدون متعددون- مانحو البرامج، والإداريون، والعاملون، والعملاء، وغيرهم- لديهم اهتمام مباشر أو حتى

غير مباشر بفعالية البرنامج. وعلى الرغم من أن اهتمام باتون* (١٩٨٦، ١٩٩٧) ينصب على الانتفاع بالمانحين والعاملين والإداريين، فإن عملاء المشروع الذى يتم تقييمه أيضا قد وضعهم فى تفكيره وفى عملية التقييم.

وتؤدى النظرة الخاصة بأن إدخال العناصر المحلية يعتبر ضروريا للوصول إلى نتائج تقييمات مفيدة، وإلى الاهتمام بالوسائل التى يصبح بها العملاء المشاركون فى البرنامج مقيمين يتعاملون مع نتائج التقييم. ومثل هؤلاء العملاء يكونون فى وضع مختلف عن جميع المستفيدين الآخرين، كالأشخاص الفاعلين الذين من الممكن أن يستفيدوا أكثر من التقييم. واهتماماتهم فى مواقف كثيرة ليست مثل اهتمامات العاملين فى البرنامج. وهم بمعنى أكيد العاملون الأساسيون فى أى مشروع، ويرجع السبب ببساطة إلى أن تركيز النشاط يكون على عمل أشياء متعلقة بمواقف حياتهم. ولا توجد جماعة أخرى فى مثل هذا الموقف، لذلك فإنها تخلق تحركا قويا لتركيز الاهتمام على الوسائل التى يمكن أن يستخدم بها المستفيدون الرئيسيون التقييم.

ويهدف التقييم بالمشاركة إلى خلق عملية تعليم العملاء للبرنامج ودعم جهودهم نحو تحقيق أهدافهم المرغوبة. وتشوه اتجاهات التقييم بالمشاركة عمدا التمييز بين فعالية البرنامج وبين نتائج التقييم، وذلك بسبب أن التقييم يهدف إلى عمل اختلاف من خلال مساعدة عملاء البرنامج على تحقيق أهدافهم بشكل أفضل. وغالبا ما يستطيع أى اتجاه ينتهى بالذهاب بعيدا ويخلق موقفا يكون من الممكن خلاله ليس فقط تقييم ما إذا كان البرنامج قد فعل ما يفترض فعله بطريقة جيدة، ولكن أيضا ما إذا كان الذى فعله يعتبر شيئا صحيحا فعله، وأن أى فعل قام به قد أشبع احتياجات المشاركين فيه بشكل أفضل.

وتتضمن الممارسة المعيارية للتقييم بالمشاركة كلاً من مقدمى البرنامج وعملاءه، أو فعالية العملية فى تفسير نتائج التقييم. ولعل أكثر وسيلة تقليدية للقيام بذلك هى مناقشة المعلومات معهم كوسيلة لفهم النتائج وإعطائها معنى. ولعل الشكل الأكثر تقدماً هو إشراك المشاركين بقوة فى عملية تصميم عملية التقييم من بداية المشروع وحتى نهايته. (مثلاً: تحديد المتغيرات وكيفية تعريفها) وذلك لمشاركتهم فى عملية جمع البيانات، وإشراكهم فى فهم نتائج التقييم.

إن كيفية بناء عملية المشاركة يمكن أن تختلف بشكل واسع بين ممارسى التقييم. فكل مقيم يدمج المشاركين بوسائل تبدو مريحة لكلا الطرفين. وقد عقد البعض للمقابلات، واستخدم البعض الآخر عمليات ديناميات الجماعة- وقد استخدم أيضاً مؤتمر البحث- وغيرها من أساليب المشاركة.

ومع ذلك فإن مثل هذه العمليات لا توجد بدون مشكلات. وتكمن الصعوبة الرئيسية فى استخدام اتجاهات التقييم بالمشاركة لغرض وحيد وهو تحقيق وتحسين المنفعة فى أنها تخلق موقفاً انتهازياً للمقيم ويؤدى بسهولة إلى العملية الانتقائية التى من خلالها يدرب المقيم عملاء للمشروع بفعالية على ما يرغبون فيه من البرنامج. وهذا ما ينتج عنه إهمال بالقضايا التى تهم عدداً كبيراً من المستفيدين أو الاستخفاف بها وبالعامل الجاد للمستفيدين لوضع أهدافهم.

تقييم التمكين Empowerment Evaluation:

دائماً ما توجد فى أى عملية مشاركة توتر بين المشاركة كأدوات نافعة فى تحقيق شىء ما وبين المشاركة كهدف فى حد ذاته. وعادة ما تلعب المواقع السياسية الكبرى التى تتضمن القوة والاهتمامات دوراً ثانوياً فى معظم الممارسات التقييمية، ونادراً ما يكون تحقيق الديمقراطية من عناصر

الإطار التصوري للمشروعات المرتبطة بالتقييم. ومع ذلك يتم التركيز على هذه المواقع السياسية في التقييم التمكيني. على سبيل المثال فإن التقييم بالمشاركة لبيونر وكوزمان **Beunner and guzman**؛ تتمثل فيه أداة تقدير المشروعات وأصحاب القوة (١٩٨٩) في أنها جهود لرؤية التقييم على أنه عنصر منهجي لمشروع التنمية التعليمية، والذي يستهدف تمكين الجماعات المسيطرة في المجتمع، لذلك يصبحون قادرين على الربط بين الكفاح من أجل تحقيق العدالة ومجتمع المساواة (ص ١٠). ويعتبر كل من ويس وجرين **Weiss and Greene (1992)** وباتى لازر **Patti Lather (1991)** وميشيل فين **Michelle Fine (1996)** من أنصار اتجاه التقييم التمكيني.

وقد لخص ميشيل فين **Michelle Fine (1996)** هذا العمل في شكل خمسة التزامات للتقييم بالمشاركة: وهى بناء القدرات المحلية، والتقييم والإصلاح، وأخلاقيات البحث والاستقصاء، والمشاركة الديمقراطية، وإعادة التفكير في نتائج البحث التقييمي. وقد عرف فيترمان وآخرون **Fetterman et al. (1995)** البحث التمكيني بأنه "استخدام مفاهيم وأساليب التقييم ونتائجه في التحسين السريع والعاجل وقرير المصير. وذهبوا إلى القول بأن "عمليات التمكين تعتبر من محاولات الوصول إلى الضبط والحصول على الموارد المطلوبة، وأن فهم البيئة الاجتماعية يعتبر أمرا بالغ الأهمية" (١٩٩٥، ص ٤).

وتعتبر هذه نقطة جذرية وحاسمة في الانطلاق. ويقوم التقييم التمكيني على أساس إعادة بناء دور المقيم الذي يختلف بشكل مثير عن الدور التقليدي الموضوعي والمستقل وأكثر تعاملًا مع الجوانب السياسية عن التقييمات القائمة على الأساس النفعي والوضعي. ولعل أخذ العناصر اللاحقة للنظر للتقييم التمكيني تتمثل في فهم المقيم أن لديه القدرة على التدخل وعلى الفعالية. والانخراط السياسي الفعال يعتبر أمرا متوقعا.

ويقوم التقييم التمكيني على أساس تعليم المشاركين إدارة تقييمهم الخاص. ويتضمن ذلك جهود مساعدة المشاركين على فهم ماذا يعنى التقييم وكيف يمكن إدارته. ومن خلال التقييم التمكيني يتوقع أن ينخرط المستفيدون فى أنشطته بصورة فعالة. وهنا فإن التقييم الذاتى يتم تصوره على أن له معنيين مزدوجين: القيام بتقييم نفسك، وتقييم موقفك الخاص. ومن ثم يصبح المقيم المهنى الميسر الذى يعمل لزيادة قدرة المشاركين على القيام بعملية التقييم وأيضا النظر إليها على أنها عمليات تعلم ضرورية يتم بناؤها لتدعيم أنفسهم. وفيما يتعلق بذلك فإن التقييم التمكيني يتطلع بصورة مشابهة تماما إلى الإنتاج التعاونى لعمليات تنمية تنظيمية مناسبة.

ويعتبر المقيم المهنى أيضا مدافعا، ولكن ينصب معظم تركيزه على تقوية المشاركين لإدارة تقييمهم الخاص. وباستخدامه سلاحا يصبح المقيم متحدثا شعبيا ومصححا للأراء التى يتم الوصول إليها من خلال عملية التقييم.

وتعطى ممارسات التقييم التمكيني اهتماما خاصا للخبرات المضنية Illuminating (فتح العين، والإحياء، والتتوير الثقافى) والتى يمكن أن توجد نقطة انطلاق لتنمية الليبرالية. وعلى الرغم من ذلك فإن القضايا الواسعة من الليبرالية يتم التعامل معها بهدوء، كما على سبيل المثال هنا: يستطيع التقييم بالمشاركة تحرير قوى التحرر من أجل تحقيق التوجيه الذاتى (حرية الإرادة) (Fetterman et al. 1995, p. 16). وينظر إلى الليبرالية على أنها التأثير الثانوى الذى يتخذ مكانا داخل التقييم التمكيني. فالليبرالية ليست هدفا فى حد ذاتها، ولكنها تعتبر نتيجة ممكنة يمكن أن تكون أفضل لو أنها حدثت. إنها ليست من معايير تصميم التقييم.

ويعتبر ذلك نوعا من التناقض المثير. فإذا كان التقييم التمكيني غير معنى بالضرورة بالهدف النهائى من الليبرالية، فما هدفه إذن؟ فبدون توضيح

هذا الهدف الأوسع والأكبر فإن التقييم التمكيني يمكن أن يختار بشكل غير صحيح إستراتيجية للمشاركين فى عملية ليس لها تأثير أو لها تأثير قليل على قدرات الناس على المدى البعيد فى التأثير على مواقف حياتهم. لقد أوشك التقييم التمكيني على السقوط فى نفس الشرك الذى وقعت فيه حركة التمكين فى الحياة التجارية، والتى من خلالها كان التمكين هو عبارة عن أشياء نتم من أجل المستفيدين بدلا من اتخاذ الإجراءات والأفعال بأنفسهم.

بحوث الفعل فى ممارسة التقييم

Action Research in Evaluation Practice

تشارك إستراتيجيات التقييم بالمشاركة بوجه عام فى العديد من الخصائص مع اتجاهات بحوث الفعل من حيث التعقيد والتنوع والتخصصية. وعلى الرغم من ذلك يعتبر التقييم بالمشاركة شكل من الممارسة بحكم حقها الخاص، تقوم بشكل مباشر على أساس أنشطة بحوث الفعل، وقد أشار العديد من المؤلفين إلى أنشطة بحوث الفعل على أنها جزء من أنشطتهم العقلية والفكرية. وقد كان لاتجاهات بحوث الفعل إسهامات مهمة فى هذا المجال حيث فتحت الباب أمام فكرة تقييم اتجاهات المشاركة والتعاون. وقد أنتج باتون (1997) العديد من المراجع التى تناولت بحوث الفعل، ولكنه لم يضعها فى إطاره الفكرى.

وقد يبدو لنا أن التقييم المصمم على أساس بحوث الفعل، يملك الآن فقط تأثيرا مهما. على سبيل المثال فىن وليفين ونيلسين Finne, Levin and Nelssen (1995) أطلقوا على أحد التطورات المعاصرة لتقييم بحوث الفعل اسم "البحث المتناقل Trailing Research". وهنا نجد أن اتجاهات التقييم

بالمشاركة قد تم تكوينها مباشرة من عمليات بحوث الفعل. وتكمن الفكرة الرئيسية لهذه العمليات فى تحقيق ارتباط مستمر مع المستفيدين طوال فترة البرنامج. ويتعاون المقيمون مع المستفيدين فى تحديد قضايا وموضوعات عملية التقييم. ثم يقوم فريق البحث عادة بجمع البيانات وإجراء بعض التحليلات الأولية، حيث يشترك المستفيدون فى عمليات صنع الإحساس **Sense making**. وقد ظهرت خارج عملية التعلم المتبادل هذه أفعال تم إعادة تصميمها للتطبيق فى البرنامج المستمر للوصول إلى الأهداف أو لإعادة توجيه البرنامج نحو أهداف جديدة. وقد ظهر هذا التقرير أخيراً نتيجة تقرير من التقييم التكويني **Formative Evaluation** عندما يتم تطبيق ممارسات بحوث الفعل (Rolfesen & Torvatn, 2005).

وقد استخدمت بحوث الفعل أيضاً كاتجاه للتقييم فى المؤسسات التعليمية، وقد قدم كينج (1998) King مثلاً لهذا النوع من العمل. ومع ذلك فإنه استطاع ملاحظة كيف أن هذه الاتجاهات القليلة قد بنيت على أساس خلفية جيدة لفهم بحوث الفعل.

الخلاصة:

وعلى الرغم من أننا رأينا بوضوح التشابه بين التقييم بالمشاركة وبحوث الفعل بوجه عام، فإن العديد من الاختلافات المهمة فى تأكيدات كل منهما. فالتقييم بالمشاركة يركز على أبعاد المشاركة كحجر الزاوية فى أى تحرك للعملية، ولكن التحرك من المشاركة إلى الارتباط الفعال فى عملية حل المشكلة يعتبر غامضاً بالنسبة للتقييم بالمشاركة.

وعلى الجانب الآخر فإن لدى المقيمين مهارات لجمع البيانات على مستوى عال ومعايير وإستراتيجيات للتحليل. بينما نجد فى المقابلات أن

بحوث الفعل لا تهتم بجمع البيانات وإستراتيجيات التحليل. إن عملية الاستمرار فى تطوير نوع من التقارب أو العلاقة الطيبة بين المقيمين بالمشاركة وباحثى الفعل يمكن أن تكون ذات قيمة لكلا الجماعتين.

وأخيرا فإنه من الواضح أن هناك علاقة تكاملية كبيرة بين بحوث الفعل وأنشطة التقييم أكثر من مجرد التعامل مع التقييم بالمشاركة على أنه موضوع مستقل. ومن المنطقى جدا أن تتضمن مشروعات بحوث الفعل عملية تحديد المشكلات واختيار الطرق والوسائل وجمع البيانات وتحليلها، وتصميم الفعال والإجراءات، وتقييم فعالية هذه الأفعال والإجراءات بواسطة المشاركين المتعاونين. وبدون عملية التقييم فإن عمليات بحوث الفعل تعتبر غير مكتملة. وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك شعورا حقيقيا بأن عملية التقييم تعتبر بعدا أساسيا من أبعاد مشروعات بحوث الفعل من أول يوم وحتى النهاية كوسيلة للكشف عن واختبار العملية وتحديد ما إذا كان قد تم إنجاز أشياء صحيحة من عدمه وطريقة صحيحة، وأيضا ما إذا كانت التغييرات التى حدثت فى المشروعات استطاعت أن تحسن من النتائج أم لا. إن أى شخص يرغب فى ممارسة بحوث الفعل يجب أن يكون أيضا بارعا فى التقييم بالمشاركة.

الفصل الثالث عشر

التقدير الريفى بالمشاركة، والتقدير الريفى السريع والتعلم والتحليل بالمشاركة

Participatory Rural Appraisal, Rapid Rural Appraisal, and Participatory Learning and Analysis

بينما تتوَعَت أشكال التقييم بالمشاركة وأصبحت مطبقة فى تنوعات واسعة من المواقف، فليس هناك مجال للشك فى أن التقييم بالمشاركة هو أكثر أنواع التقييم شيوعا وانتشارا. وكما لاحظنا فى الفصل السابق فإنها تعتمد على الافتراضات القوية التى تتعلق بأمانة وصدق وقدرات المستفيدين غير المهنيين. وعلى الرغم من الميول الإدارية والسلطوية القوية فى العديد من المجالات، فإن التقييم بالمشاركة قد أحدث تقدما مناسبا فى بعض المناطق والمجالات الصعبة التى فشلت فيها الاتجاهات التقليدية. وأحد هذه المجالات هو تنمية الممارسات البيئية الداعمة للمستفيدين المتعددين (Hemmati, Multi-Stakeholders Sustainable Environmental Practices Development of (Dodds & Enayati, 2002). والنوع الآخر هو دراسات خط الأساس Baseline والتقييم فى برامج التنمية المحلية، وهو أحد المجالات القليلة، حيث تتسم مكانة بحوث الفعل بالتهميش، أو على الأقل تبدو هكذا.

والممارسات التى تشير إليها معروفة تحت تنوعات واسعة من الأسماء، والاسم الأكثر شيوعاً وشعبية هو التقدير الريفى بالمشاركة (PRA) ولكن هناك العديد من الأسماء الأخرى، والتى تشير إليها لاحقاً. ويركز التقدير الريفى بالمشاركة على دراسات خط الأساس بالمشاركة والتصميم والتقييم بالمشاركة لبرامج التنمية الدولية (على نطاق واسع ولا يستثنى منها الريفى). ويتسم التقدير الريفى بالمشاركة بأنه ممول بشكل جيد ويعتبر رئيسياً بالنسبة لعمليات بعض مؤسسات التنمية الدولية الكبرى مثل البنك الدولى، والمؤسسة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID)، ومنظمة التغذية والزراعة (FAO). وعلى الرغم من أهمية التقدير الريفى بالمشاركة لهذه المنظمات فى أماكنها الرئيسية، فإنه أصبح رئيسياً فى مجموعة من المؤسسات القوية وذات التمويل الكبير والذى جلب معها عدداً هائلاً من المشكلات، وخاصة المحيطة باختيار ممارسات بحوث الفعل للنهائيات (للأهداف - للأطراف) غير المشاركة.

ويبرر نشر العدد الهائل من هذه الممارسات وكميات الموارد المالية والبشرية المخصصة لها بواسطة المؤسسات الدولية المتعددة الجنسيات أو العديد من المنظمات غير الحكومية الكبرى (NGOs) والتى نتناولها هنا بالتفصيل.

التقدير الريفى بالمشاركة فى التنمية الدولية:

ارتباط هذا التقدير بأشكال ونماذج التقييم بالمشاركة المتنوعة، والتى تشغل وضعاً تنظيمياً متميزاً، والتى تمثل مجموعة من الاتجاهات التى تذهب الآن بشكل عام تحت اسم "التقدير الريفى بالمشاركة"⁽¹⁾ (PRA)، والذى يمثل عنصراً أساسياً فى جميع برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وخاصة فى

المجتمعات الفقيرة. وتهدف هذه الإستراتيجيات إلى تنمية وزيادة البيانات الأساسية الموثوق بها عن المشكلات من خلال إشراك السكان المحليين فى تحديد وتوثيق هذه المشكلات. ويتناول العديد من المشروعات التنمية العالمية والتقدير الريفى بالمشاركة فى الوقت الحاضر، فإنه من غير الممكن تقديم مدخل منفصل لهذا العرض. ونحن نأمل أن نقدم للقارئ ببساطة بداية جيدة وكافية.

إن تحديد الاسم أو المصطلح الخاص بالتقدير الريفى بالمشاركة (PRA) فى حد ذاته يعتبر أمرا صعبا للغاية. فعلى سبيل المثال حدد كل من جوليس بريتي وسيمبليس فودة (Jules Pretty and Simplicie Vodouhe (n.d.) العديد من المختصرات، والتي كلها ترتبط بالتقدير الريفى بالمشاركة (PRA); AEA, BA, DELTA, DPR, FPR, GRAAP, MARP, PALM, PAR, PRM, PRAP, PTD, PUA, PFR, PD, RA, RAAKS, RAP, RAT, RCA, REA, RFSA, RMA, ROA, RRA, SB, SSM, Tfd, Tft, VIPP. ويمكن أن يكون هناك قليل من الشك عندما نرى هذه الضبابية الأبجدية Alphabet، ونحن فى وجود المؤسسات الدولية والبيروقراطية والأعمال الاستشارية الدولية الفعالة والتي من خلالها تعتبر تسميتك للعملية إستراتيجية تسويقية. والذي يزيد من ذلك سوءا أنه لا يوجد أسماء مختلفة تماما لنفس الممارسات، ولكن هناك بعض الممارسات المتنوعة التى ترتبط ببعض الافتراضات الشائعة أو العامة. ويتمثل هدفنا هنا فقط فى تحديد بعض الافتراضات متذكرين أن هناك العديد من المنظمات التى يتم من خلالها استخدام العديد من الإستراتيجيات المتنوعة للتقدير بالمشاركة، وأن هذا التنوع فى الممارسة والمفهوم يحدث فى كل مكان.

ولعل من أهم المؤسسات المتفوقة فى الارتقاء باستخدام هذه الاتجاهات هو معهد الدراسات التنموية فى سوسكس Sussex ولعل أكثر الأشخاص شهرة

وأكثرهم إنتاجاً في كتاباته في هذا المجال هو روبرت شامبرز Robert Chambers. ولقد اقترربنا بقوة من شامبرز هنا، ولكننا نذكر بأن الاتجاهات المرتبطة قد تم تطويرها في العديد من المواقع أو الأماكن - المركز الدولي للبطاطس في بيرو، وفي بعض أقسام معهد كورنيل للزراعة والغذاء والتنمية الدولية بجامعة كورنيل - وفي عدد من الأماكن على مستوى العالم. وعلى الرغم من ذلك فإن شامبرز يعتبر العنصر الفعال الرئيسى والمصمم الأساسى لكل ما أصبح متعلماً، بسبب قيامه بتوثيق أعمال الآخرين بطريقة فريدة ومتميزة، وباجتهاده الرائع والملاحظ في ممارسة النقد الذاتى Self-criticism. ونقدم بياناً استرشادياً بالكتب المرتبطة في آخر الفصل.

وبتعاطينا للأوضاع القيمية والسياسية التى فصلناها فى هذا الكتاب، فلا توجد مفاجأة من كوننا غير مؤيدين بوضوح لبرامج المساعدة التنموية كالتى تم بناؤها حالياً والتى نشك فى الدرجة التى تكون عليها بناء المشاركة السياسية فى هذه البرامج. ويوجد العديد من القيود الحادة فى الجوانب السياسية والاقتصادية للتنمية التى تمنع أى شىء مثل المشاركة ذاتية النزعة Self-determination، التى تبحث عنها بحوث الفعل للتحرك حتى فى حدود ضيقة. ولكن العيوب والنقائص فى اتجاهات وبيئات معينة لا يمكن أن تغمى أعيننا عن حقيقة أن الكثير من الاتجاهات الليبرالية للتنمية قد فشلت بشكل عام وفى معظم الأنشطة التنموية التى أجريت فى أنواع المؤسسات التى ارتبط بها الآن التقدير الريفى بالمشاركة. لذلك فإننا نعتقد بأن التقدير الريفى بالمشاركة قد استحق النظرة الجادة من أى شخص يهتم ببحوث الفعل. وحتى يتم تطوير وتكوين الاتجاهات البديلة لتقليل الفقر على مستوى العالم، فإن التقدير الريفى بالمشاركة يجسد إحدى الممارسات التنموية، والتى تعتبر أكثر شيوعاً وانتشاراً فى بحوث الفعل.

وتتمثل الصعوبات الرئيسية التى تواجه التقدير الريفى بالمشاركة فى الإطار الكلى لأنشطة التنمية الدولية التى تضع القيود المحكمة والشديدة حول ما يمكن عمله وكيفية هذا العمل. وقد خلقت التنمية العالمية التى تمثل فى الغالب جزءاً أو ذراعاً من السياسة الأجنبية والاهتمامات الاقتصادية للدول الصناعية، خلقت بيروقراطية دولية هائلة (موظفين إداريين دوليين) ومجتمعات مهنية متعددة ومعاهد ومؤسسات دولية ومجالات أكاديمية وسلاسل من المجلات والكتب وجيشاً ضخماً من الممارسين ليس بالقليل، يعيش حياة تنسم بالرفاهية والغنى نتيجة كونهم خبراء فى الفقر العالمى. وأضف إلى ذلك الزيادة الضخمة فى المنظمات غير الحكومية، والتى أظهرت أن المجتمعات الفقيرة فى العالم قد تم اجتياحها واحتلالها من الخبراء الخارجيين.

إن مليارات الدولارات التى جنتها أنشطة التنمية فى بدايات عقد الخمسينيات من القرن العشرين 1950s قد ازدهرت، ومن ثم جاءت تحت زيادة التدقيق الحكومى العدائى من جوانب عديدة. وقد شعرت جماعات الرقابة الحكومية فى بعض الولايات المانحة بأن إرسال المال إلى الخارج يعتبر إهداراً للموارد التى تطور اقتصاديات الدول الأخرى التى تخلق منافسات ضارة بالصناعات القومية، وأنه من الأفضل منح الأموال فقط عندما تحقق منافع للدول المانحة لهذه الأموال. وعلى الرغم من عدم انتشار وجهات النظر هذه فإنها جعلت النظم السلطوية الهرمية تتشدد فى تصميم وتقييم البرامج التنموية، وقد أبقت هذه النظم على تصميمها وعزمها وسلطويتها منذ ذلك الحين.

وفى الخمسة عشر عاماً الماضية أو يزيد دخلت المنظمات غير الحكومية فى مسرح التنمية كلاعب رئيسى (Gardener & Lewis, 1996; Lewis, 2001).

ودون أى قيود سياسية أو مرتبطة بالقومية فقد استخدمت هذه المنظمات العديد من الاتجاهات المتنوعة إلى حد بعيد. وقد كان لهذه المنظمات الحرية لكى تكون أكثر انفتاحا من الناحية الأيديولوجية عن أهدافها نظرا لأنها نشأت بشكل مقصود لتضميد وعلاج العديد من الممارسات الاقتصادية والأخلاقية. ونتيجة لذلك فإن مشهد التنمية الدولية الحالية أصبح خليطا معقدا من مشروعات التنمية الدولية الكبيرة للدولة- الولاية، وأنشطة المنظمات غير الحكومية. حيث يستخدم التقدير الريفى بالمشاركة فى كلا النوعين.

تاريخ التنمية :History of Development Work

ولكى نفهم لماذا يعتبر التقدير الريفى بالمشاركة (PRA) منطلقاً مهماً من الممارسة السابقة، فمن الضروري أن يكون لدينا معنى مختصر عن تاريخ التنمية الدولية. وقد وجد اتجاهان رئيسيان منذ الخمسينيات من القرن الماضى- الليبرالية والماركسية- والعديد من الاتجاهات الأخرى ذات التركيز الموضوعى على الأحداث الجارية، والتي انتقلت عبر نفس الطريق أيضاً، والتي تضمنت ضبط السكان **Population control** وإستراتيجيات البنية الرأسمالية، ومساواة المرأة، والاتجاهات البيئية، والمشاركة، والدين الخارجى، والتوافق البنائى وحقوق الإنسان الدولية.

هذا وقد بنى الاتجاه السائد للتنمية على نظرية الممارسة الفردية للسوق. وقد قامت نظرتهم على أساس تشخيص مشكلات التنمية التى تتعامل مع الفقر كنتائج سيئة وغير ملائمة لأعمال وأنشطة اقتصاد العالم، الذى يمكن تصحيحها من خلال إعادة بناء الاستهداف الجيد **well-targeted** للحوافز. وقد دعم عدد كبير من النظريات والطرق على مدى واسع هذه النظرة العامة التفاوضية للتنمية.

وتعتبر نظرية الحداثة واحدة من هذه النماذج والصيغ، التي ترجع مشكلة الفقر إلى الاستمرار غير المناسب لسلسلة من الممارسات التقليدية وغير المنطقية، والتي تمنع الناس من القيام بالأعمال التي تدخل في نطاق اهتماماتهم. وقد رأت بعض النظريات هذه اللاعقلانية على أنها من خصائص الناس غير المتعلمين عموما. بينما رأتها بعض النظريات الأخرى على أنها استغلال أناني للكثيرين بواسطة القليل من القادة التقليديين الذين يجب أن تضعف أوضاعهم تدريجيا.

وقد ركز نوع آخر على تنوع كبير من النظريات التي رأت أن البنية الرأسمالية هي مفتاح نجاح التنمية الاقتصادية. ولكن اختلفت فقط إستراتيجية التنمية الاقتصادية من نظرية إلى أخرى. وغالبا ما تفيد في ضبط النمو السكاني، لذلك يصبح دخل الفرد مرتفعا، أو أنه يفيد في تعليم كيفية استخدام الموارد والحفاظ عليها بشكل أفضل لذلك تتحسن البنية التحتية الأساسية، أو يفيد في التركيز على التعليم وإستراتيجيات الاتصال لتحويل الناس من أشخاص تقليديين إلى مفكرين محدثين.

وقد اشتهرت الاتجاهات التكنولوجية للتنمية دائما داخل الدول الصناعية الغربية. إن بناء السدود والطرق والمدارس وإرسال الجرارات والسماد كانت من أهم أشكال الأولويات التي تساعد في التنمية وكانت مفيدة تماما للموظفين المانحين. والأكثر حداثة كانت التكنولوجيات البيولوجية مثل الثورة الخضراء والأنواع الجديدة من حبوب اللقاح ونظم حراث الأرض الحديثة، وأصبح التكامل الإدارى أمرا شائعا ومشهورا. وعموما فإن هذه التكنولوجيات قد تم تطويرها وغالبا تصنعها في الغرب، ومن ثم تم نشرها (أو أحيانا يفترض) في باقى العالم. إنها تملك ميزة التعامل مع الفقر العالمى كقضية يمكن حلها بواسطة الإنتاج التكنولوجى بدلا من التغير الاجتماعى السياسى وإعادة توزيع الأرض والاستثمار.

وهذه الاتجاهات تتسم بالقوة الكبيرة بسبب أن الحكومات التى تملك الثروات والأموال الطائلة والنفوذ السياسى تقف وراءها وتدعمها. وقد بنيت كل برامج التنمية القومية طوال هذا الجيل على أساس هذه الأفكار، وقامت الأيديولوجيات الفردية على أساسها أيضا، كما كانت خطط وبرامج مؤسسات التنمية الدولية مثل مؤسسات التمويل الدولى، والبنك الدولى، ومعاهد البحث فى الزراعة الدولية قد طورت أنواعا، أكثر إنتاجية من المحاصيل الزراعية الغذائية. والآن أصبحت المنظمات غير الحكومية لاعبا أساسيا فى مشهد التنمية، مضيفين سماتهم النوعية فى تطوير هياكل التنمية.

وقد وقفت على النقيض تماما من هذه الاتجاه نحو التنمية تنوعات كبيرة من النظريات الاقتصادية السياسية عن العالم النامى (تحت مستوى النمو) **Under development**. وقد تمثل العديد من هذه النظريات فى النظريات الماركسية والماركسية الحديثة التى صورت الفقر وفهمته على أنه نشأ أساسا نتيجة للرأسمالية. إن النظام العالمى الجديد قد تطور ونما بشكل غير عادل بسبب أن الدول الغنية استغلت الدول الفقيرة كمصدر رخيص للمواد الخام، والعمالة، والمنتجات. ومن خلال هذه الفرصة المواتية فقد أصبحت الدول المتخلفة نتاجا للرأسمالية، وأصبحت برامج التنمية الدولية نوعا من التغطية على سياسات الإيجار والحفاظ على وجود النظم الاستعمارية بل وامتدادها.

وقد أدت هذه النظرة إلى المشكلات إلى ظهور أشكال ونماذج مختلفة تماما من الممارسة. وأصبح الهدف الرئيسى هو تحطيم الاعتماد على الأمم القوية والغنية التى تتحكم فى النظام. ونظرا لأن ذلك يمثل عملية مغامرة كبيرة وغير محتمل نجاحها تماما فى ظل الظروف الجارية، إلا أنها جذبت العديد من الناس أيديولوجيا كوسيلة لتفسير هذا الفقر المستمر، ولكن لم

يكن لها تحفيز للعديد من الثورات. لقد أثرت على عدد كبير من المؤسسات غير الحكومية حول العالم، والتي تشكلت إستراتيجيات تدخلها بواسطة التحليل الماركسي ومن فهم النمو الاقتصادي على أنه يحتاج إلى تحقيق الديمقراطية العالمية لبناءات القوة.

المشاركة فى سياق مؤسسات التنمية الكبيرة:

بداية فى السنوات المبكرة من سبعينيات القرن الماضى، بدأت بعض البرامج الأخرى تجد طريقها داخل فكر التنمية العالمية التقليدية. ولعل إحدى الحقائق التى استحققت تركيز الاهتمام عليها تمثلت فى أن الجانب الحضرى والريفى فى العمل المشترك لم يتطور بشكل حاد أو متطرف. وقد قام ويليام فوت وبيت William Foote Whyte وغيره ممن اتبعوا جانب علاقات العمل والتخطيط الحضرى فى المشاركة بعمل أو بنشاط مرتبط، وقد عبر وايت نفسه داخل نشاط التنمية الريفية عن مجموعة من الأعمال المهمة (Whyte & Alberti, 1976; In cooperation in Peru; and Whyte & Boynton, 1983). ومع ذلك فإن هذه الخيوط والاتجاهات قد تم تطويرها بشكل مستقل.

وكان نورمان أبوف Norman Ophoff وهو زميل وأستاذ للعلوم السياسية بجامعة كورنيل مركزا للعديد من أشكال التنمية وذلك نابع من كونه مديرا للجنة التنمية الريفية بكورنيل. وقد صنف أبوف Norman Ophoff (1992-1996) تاريخ أنواع التنمية هذه بطريقة شيقة أظهرت كيف كان الطريق نحو اتجاهات المشاركة فى عملية التنمية طويلا ومعقدا.

وكما شكل أبوف التاريخ، حيث تضمنت كل أنواع التنمية التحول مما كان يسمى أوليا بالتقدير الريفى السريع (RRA) إلى التقدير الريفى بالمشاركة (PRA)، بذلت بعض الجهود الأخرى فى هيئة المساعدة الذاتية

الأمريكية (USAID) وخاصة في مبادرة نيد أوينس Ted Owens الموظف في هيئة المساعدة الذاتية الأمريكية (USAID)، والذي لعب دورا رئيسيا في استخدام الهيئة (USAID) لاتجاهات المشاركة. وقد قاموا بجمع التأييد من المجتمع لقسم التنمية الدولية وسكان الولايات المتحدة في الولاية، فقد حصلوا في النهاية على تأييد الكونجرس لهذه الجهود، وقد أمر الكونجرس (USAID) بأن تكون المشاركة في مقدمة أنشطة برامجه ومركزا لها.

ولتنمية كل من الدعم الأكاديمي والمصادقية قدم نيد أوينس الذي قابل أبوف الدعم المالي لكورنيل لإجراء دراسة مقارنة للحكومة المحلية الريفية، وهذه الدراسة أدت إلى مشروع (USAID) الذي قاده كل من أبوف وجون كوهين لتحديد معنى مشاركة التنمية الريفية Rural Development Participation. وقد اهتم أوينس بصورة كافية في هذا بالتعاقد على هذا النشاط بعد خيبة أمله من انسحاب لجنة الجودة الأكاديمية للأنشطة المشابهة بهارفارد و (MIT). وقد وضع مشروع كورنيل بالتريخ كورنيل كمستشار أمين لهيئة المساعدة الذاتية الأمريكية (USAID) في مجال المشاركة في التنمية الريفية تحت اتفاقية تعاونية. وكعنصر أساسي لهذا العمل متعدد الأبعاد في البلدان المتعددة، بدأت الجماعة في نشر استعراض ومراجعة للمشاركة في التنمية الريفية لمدة ثلاث سنوات، وكان ذلك في منتصف السبعينيات من القرن العشرين، وقد تضمنت هذه المراجعة أنشطة العديد من المتخصصين أمثال روبرت شامبرس وجيمس سكوت. وقد أصبحت بمرور الوقت الموقع الرئيسي الذي يتم الذهاب إليه للحصول على المعلومات المتعلقة بالمشاركة في التنمية الريفية. ومع ذلك كانت قد جفت منابع الميزانية مع مجيء إدارة الرئيس الأمريكي رولاند ريجان.

ومن خلال عملية المحاسبة أو التقدير التى قام بها أبوف Ophoff، فإن العديد من الأنشطة المرتبطة بها كانت معروفة بنسبة معقولة، حيث نجحت فى جعل المشاركة الموضوع الرئيسى للمناقشات التى تنصب على عملية التنمية. وقد تحركت بعض أشكال دراسة الحالة والقضايا وراء مشروع أبوف Ophoff الرئيسى عن الإدارة بالمشاركة لنظم الرى فى سيريلانكا (Ophoff, 1992, 1996).

وجزاء من هذا الموضوع فى القصة هو أن إدخال المشاركة على برامج وخطط مؤسسات التنمية الكبرى كانت عملية معقدة تضمنت الشبكات السياسية والفكرية وعملية طويلة وبطيئة وتحتاج إلى مزيد من الصبر للتفاوض والعمل. وكذلك فإن مصطلح المشاركة فى التنمية الدولية نفسها كان قد اكتسب شعبيته نتيجة عقود طويلة من الجهد ولا يمكن أن نصرف النظر عنه كنوع من التعالى كما يفعل فى الغالب أصحاب العقول الكبيرة الذين يرون النواقص المهمة فى ممارستنا.

المشاركة والتأييد :Participation and Sustainability

كان للحركة التنموية تأثير مهم فى الارتقاء باتجاهات المشاركة. ولم يكن لدى الحركة التنموية المبكرة وعى قوى بمشكلات العولمة الأيكولوجية والتركيز الكبير بقوة على مشروعات البنية التحتية القائمة على تركيز الطاقة (والتي من خلالها استمدت الكثير من مؤسسات التنمية وشركات القطاع الخاص قوتها المالية). إن نشوء "الصغير" يعتبر شيئا جميلا (Schumacher, 1973) ولقد قدمت الحركات الخضراء أيضا نقدا قويا لوجهات نظر كل من الليبراليين والماركسيين عن التنمية، وأكدت على الاتجاهات الأكثر شمولية Holistic حول تعقيدات الفقر والغنى. وقد تزامن ذلك مع ظهور الحركة

العالمية القوية لحقوق الإنسان، والتي ذهبت وراء المناقشات حول المعيار الأساسي المقبول للحياة وما يتضمنها من حقوق مثل الحق فى الحرية والحكم الذاتى، والتحرر من الإكراه، والمساواة بين الجنسين، وحقوق الأطفال والمواليد، وحرية الجماعات العرقية والأقليات.

وكان لهذه الحركات مجتمعة تأثير عميق على إستراتيجيات التنمية على المستوى الأكبر **Micro-development Strategies** فى الولايات المتحدة بسبب أن هذه الولايات قد أجبرت على تقديم المنح والتمويل على الأقل مظهرها للتعامل مع قضايا الجنس والبيئة وحقوق الإنسان للحفاظ على أى نوع من الشرعية الأيديولوجية. وقد تزامن ذلك مع الأحداث داخل الدول الغنية الممولة، والتي عانت من مشكلات داخلية معقدة. وهذه الأيام أصبحت المحاسبية والكفاءة والصناعات الصغيرة والمشاركة والتنافسية هى شعارات وكلمة السر فى العمل والمشروعات التجارية، وهذه الأيديولوجيات قد تم تنقيتها داخل القطاع العام تدريجيا وداخل مؤسسات التنمية بصفة خاصة. وفى نفس الوقت وفى الطرف الآخر للطيف السياسى كان هناك هجوم متزايد على المساعدات الأجنبية كأموال فاقدة وغير مفيدة للفقراء والتي تعتبر الفقر هو خطأهم، وهذه هى الأيديولوجية التى أخذتنا إلى الوراء فى مرحلة الخمسينيات. وتتمثل الليبرالية الحديثة فى العمل الحى والنشط للتنمية. وهذه العمليات لم تفاجئنا منذ أن أصبحت الفجوة تتسع بين الفقراء والأغنياء فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة كل عام.

وبتتبع هذا الموضوع تاريخيا نجد أن الخطوط بين جميع الاتجاهات تتسم بالغموض وعدم وضوح الرؤية. ومن قبل كان من الممكن التمييز بسهولة بين الاتجاهات الماركسية والليبرالية، ولكن أصبحت الآن للاتجاهات الليبرالية لغة أكثر ملائمة فى التحليل من الاتجاهات الأيكولوجية والماركسية

ومساواة المرأة. وأصبح لدى المؤسسات غير الحكومية مشهد أيديولوجى معقد مع وجود عدد هائل من الخطط والبرامج المستمدة من تنوعات واسعة من الأيديولوجيات النابعة من التبشير المسيحى بحقوق الأطفال والأشجار. وقد خلق هذا الموقف المعقد البيئة التى من خلالها تك إجبار منظمات التنمية على إعادة بناء نفسها، وإعادة تحديد طرقها ووسائلها، وتحاول إيجاد صيغ وأشكال جديدة لعملياتها، وفى إطار هذا السياق يوجد لدى القليل من الممارسين فى مجالات التنمية اهتمامات أكثر باتجاهات المشاركة فى التنمية.

أنواع التقدير الريفى بالمشاركة

The Specific of Participatory Rural Appraisal

على الرغم من أن البحوث الاجتماعية الرئيسية هى محاولات تعاونية تستخدم الخبرات والنظريات والمعارف التى تساهم فى إنتاج الباحثين، فإن التقدير الريفى بالمشاركة، مثل علم تدريس الاضطهاد لفرير (١٩٧٠)، يرتبط بشكل قوى بالعروض التى قدمها الباحث الفردى روبرت شامبرس. وعلى الرغم من أنه ليس الممارس الوحيد، فقد طور شامبرس التقدير الريفى بالمشاركة بدقة ووضح فى سلسلة من المقالات (Chambers, 1994a, 1994b, 1994c) وفى العديد من ورش العمل التدريبية وفى الندوات حول العالم، وفى كتابه الممتاز الذى لخص حالة الفن، *Whose Reality Counts? Putting The First Last* (1997) وفى العديد من الدراسات التتبعية لهذه الموضوعات التى امتدت بشكل جوهري إلى الأساس المنهجى لهذا العمل.

ومن وجهة نظر شامبرس، فإن التقدير الريفى بالمشاركة له أصوله فى جوانب متعددة ومنفصلة من الفعالية. إنه يعتمد على البحوث بالمشاركة

(والتي أطلقنا عليها بحوث الفعل بالمشاركة الجنوبية في الفصل العاشر). وأيضاً يعتمد على العديد من العناصر من الممارسات المتنوعة للتطبيق، أو أنثروبولوجيا الفعل، والأنشطة التي بدأت في الخمسينيات من القرن العشرين والتي استمرت، ولكنها نادراً ما يكون لها غرض أو اهتمام مشترك قوى، ويعتمد أيضاً التقدير الريفي بالمشاركة على مختلف المدارس، والتي أطلق عليها بصورة فضفاضة وغير محددة "بحوث بنية الأنساق Framing Systems Research"، والتي تضمنت الملاحظة اللصيقة بالممارسات البنائية المحلية من منظور الأنساق وأيضاً بعض أفكار البحوث الحقلية on-farm research كوسيلة مناسبة لخلق إستراتيجيات التنمية.

التقدير الريفي السريع (RRA) Rapid Rural Appraisal

من أهم المشكلات الإستراتيجية الرئيسية التي أوجدت الحاجة إلى الدخول إلى التقدير الريفي بالمشاركة هي الديناميات الشاذة والمحبطة لبرامج التنمية عبر السنين، والتي تمثلت في النقص الكامل والشديد في المعلومات الأساسية المتعلقة بإستراتيجيات برامج التنمية وتقييم نتائجها. لقد قامت كل مشروعات التنمية على أساس الافتراضات عن كل ما هو خطأ، وتخمين كيفية تعديل ما هو خطأ، والتبريرات القائمة على المغالطات غير المنطقية للإستراتيجيات الفاشلة. ولمواجهة هذا الكم من الانتقادات فقد قاومت مؤسسات التنمية بحوث خط الأساس (البحوث الأساسية) كبحوث باهظة التكاليف وغير ضرورية وغير ممكنة. وقد وضع جرين وود Greenwood نفسه ورقة عمل في مرحلة مبكرة حث فيها على ضرورة جمع بيانات أساسية ذات معنى وهادفة تتسم بالسرعة والكفاية.

وبمرور الوقت فقد أصبحت فكرة دراسات خط الأساس السريعة ضرورية، وأمكن تطوير مجموعة من الإستراتيجيات أطلق عليها التقدير

الريفي السريع (Belshaw, 1981; Chambers, 1981). وقد تم تعليم التقدير الريفي السريع (RRA) فى المعهد الدولى للبيئة والتنمية بلندن.

وقد بدأ التقدير الريفي السريع فى الحال فى مواجهة مختلف أشكال التنمية الأخرى التى تبسط من أفكار المشاركة فى أنشطة التنمية، وأيضاً فى إعادة بناء نظم الخدمات فى المجتمعات الصناعية. ومنذ عهد بعيد تم صياغة نوع من العلاقة بين التقدير الريفي السريع وبين التقدير الريفي بالمشاركة، والتى من خلالها تم تعديل التقدير الريفي السريع للتركيز على المعرفة المحلية والمشاركة بشكل كامل. وبينما كان التقدير الريفي السريع أكثر تركيزاً على الخبرة والأساس الأكاديمي، فقد اكتسب التقدير الريفي بالمشاركة زخماً كبيراً من خلال أنشطة المنظمات الأهلية غير الحكومية على مستوى العالم. لقد ركز على المعرفة المحلية والتدريب وتوزيع القوى، وتنمية المبادرات الداعمة للإدارة الذاتية المحلية. ولصياغة أهدافه، درس الكثير جداً مثل التنوعات الكثيرة من بحوث الفعل التى ناقشناها فى هذا الكتاب.

وخلافاً للعديد من الأشكال والنماذج الأخرى لبحوث الفعل، فإن لدى التقدير الريفي السريع مجموعة محددة من الأساليب والوسائل الخاصة به. وقد فصل شامبرز هذه الوسائل والأساليب فى أبحاثه وكتبه. ولعل أفضل وسيلة للوصول إلى مميزات هذه الأساليب والوسائل هى الرجوع إلى هذه الجهود (المقالات والكتب) للوصول إلى فكرة عن العدد الكبير والمرن من الطرق والوسائل المستخدمة. ونذكر القليل منها هنا لإعطاء القارئ نوعاً من التركيز والجاذبية لهذه الاتجاهات.

ويتضمن التقدير الريفي السريع عدداً من طرق المقابلة والمعاينة وبعض الاتجاهات عن ديناميات الفريق والجماعات. ومن بين هذه الاتجاهات المستخدمة خريطة المشاركة **Participatory Mapping** ونمذجة المجتمعات

المحلية ومناطق المشكلات، وانتقاء مقدمى المعلومات الأساسيين كخبراء محليين، ومحاولة تحديد الفروق الجوهرية بين الجماعات المحلية وإجراء اتصالات مع بعض الأعضاء من كل جماعة، ويساعد هؤلاء المشاركون فى تحليل الأشياء التى كتبت عنهم، وتنمية الالتزام بالوقت والاتجاه نحو تحليل المعلومات المحلية، وتطوير التقويم المسمى الذى يتضمن دورات المحاصيل، ومتطلبات العمل، وتطوير فرق العمل وتعاقباتها. إن المرونة والانتباه للوسيلة التى يعتقد فيها الناس المحليين ويتفاعلون معها، والاعتقاد القوى فى أنساق المعرفة للسكان المحليين هى أساس التقدير الرقيق بالمشاركة.

ويمكن رؤية زوجين من نتائج استخدام هذه الطرق فى الشكلين ١٣،١، ١٣،٢ والمأخوذين عن طومسون سكونميكر فروندنبرج

Thomson and Schoonmaker Freudenberger (1997)

الشكل (١٣-١)

	النوع		الثروة				مصدر الاستخدام	
	نكر	أنثى	فقير	متوسط	غنى	قروى	جار	غريب
أرض خصبة	١٢	٢	٥	٨	١٠	١٠		
أرض حديقة للمطبخ	٣	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠		
شجر الخشب	٦	٦	١٠	٦	٥	٦	٤	٥
أشجار مورقة	٣	١٣	١٠	٣	٦	٥	٣	
أعشاب طبية	٦	٨	٨	٣	٢	٥	٣	١٢
أعشاب	١٠	٣	٢	٥	٩	٦	٤	

المصدر:

Thomson, J & Schoonmaker Freudenberger, K, (1997). Creating institutional arrangement for community forestry. Rome: food and agriculture organization of the United Nations (Forests, Trees and People Community Forestry Field Manual 7) Available at <http://www.fo.org/docrep/w7483e/2/7483e00.htm#contents>

وقد نادى التقدير الريفي بالمشاركة بالعديد من الأفكار الرئيسية المرتبطة ببحوث الفعل. وقد اتخذت المعرفة المحلية مكانة متميزة. وقد تم ضبط سلوك الخبراء الخارجيين لإعطاء مساحة للمشاركين الداخليين لوضع وتحديد خياراتهم. وهذه الطرق لا يتم تطبيقها بصورة عشوائية، كما يوجد نوع من الترتيب المنطقي للأنشطة التي تنتقل من نوع من معرفة ديناميات الفريق إلى أشكال أكثر تعقيدا طوال الوقت. ويتعامل التقدير الريفي بالمشاركة مع قضايا صدق وثبات البيانات، كما أنه يطالب بإعطاء السكان المحليين الحق الأكبر في تحديد وتعريف مواقفهم والعمل من أجلها.

وقد تم الارتباط بقضايا القوة والمعرفة بشكل مباشر، على الأقل في الممارسة الخاصة بشامبرس. ولعل العنوان الفرعي لكتابة وضع الماضي الأول **Putting First Last** قد أوحى بهذا المعنى. والافتراض الأساسي هنا هو أن أفكار الأغنياء وأصحاب القوى وممارساتهم سوف تسيطر على كل المواقف إذا لم يتم إيقافها عالميا من خلال التخلي عن العصا (القوة) ضد السكان المحليين بالتركيز على الاستماع إلى آرائهم، واحترام معلوماتهم ومعارفهم. ولعل المهنيين العاملين في مجالات التنمية هم أول من يجب تغييرهم، وتعليمهم الاستماع، ومن ثم اتخاذ ما تعلموه لكي يصبحوا مدافعين عن السكان المحليين.

انتقادات التقدير الريفي بالمشاركة

Critiques of Participatory Rural Appraisal

زاد العديد من الانتقادات حول التقدير الريفي بالمشاركة بسبب العديد من المشكلات التي أحاطت بممارساته في العديد من مؤسسات التنمية

الكبرى. لقد رحبت به مؤسسات التنمية- على الأقل ظاهرياً- كوسيلة سريعة لتصميم برامج التنمية وتقييمها، ولكن لا توجد أدلة واضحة على أن هذه المؤسسات لديها اهتمام كبير بأبعاد مشاركتها بدلا من مجرد تمنى حصولها على فرصة المشاركة التي ينشدها العالم. وغالبا ما تكون التقديرات الريفية بالمشاركة بتفويض من المؤسسات، وهذا ليس بالضرورة شيئا سيئا. ولكن نجد أن الظروف والأحداث الكبرى في هذه المؤسسات والتي تستدعي تفويض التقديرات الريفية بالمشاركة يمكن أن تفسد مباشرة عملياتها، وتتسبب في وجود حكم مسبق لدى المشاركين عن نتائج العمل والانتقال إلى المشروعات التي تم تحديدها بالفعل بدون استخدام التقدير الريفي بالمشاركة.

ومثل أى اتجاه لبحوث الفعل، فإن التقدير الريفي بالمشاركة الذى يكون فى متناول الممارسين غير الأكفاء أو الساخطين يمكن أن يصبح إطارا فارغا (فارغ من حيث الشكل) ومجموعة خطوات طقوسية بدلا من أن تكون مجموعة من الأدوات قابلة للانتشار بشكل متميز لكى تصبح طريقة أفضل لفهم المشكلات والمواقف المحلية المعقدة. وبالطبع فإن هذا الاختيار للممارسات والمصطلحات ليس مقصورا على التقدير الريفي بالمشاركة.

وغالبا ما يتم رعاية وكفالة التقدير الريفي بالمشاركة بواسطة المؤسسات الخارجية القوية، والذي تم ملاحظته فى التعارض بين تزاوج طرق المشاركة أثناء العمل داخل البيئة المؤسسية الإجبارية. وقد بينت اتجاهات مساواة المرأة أن الكثير من التقديرات الريفية بالمشاركة قد فشلت بسبب أنها لم تصل إلى الأعضاء الصامتين فى المجتمع، ولذلك خلقت انطبعا زائفا عن ديناميات المواقف المحلية، وخاصة عندما يكون العاملون الخارجيون من الرجال ويتعاملون مع القيادات المحلية من الرجال. وأخذ بعض من أفضل ممارسي التقدير الريفي بالمشاركة هذه الانتقادات مأخذ الجد وناضلوا فى التعامل مع هذه المشكلات.

وقد أشار ديفيد موس (1993) David Mosse ليس فقط إلى فشل التقدير الريفي بالمشاركة، ولكن أيضا إلى الضعف في الممارسة ولماذا لم ينظر إليه كوسيلة فعالة. وقد بين كيف يستطيع التقدير الريفي بالمشاركة عن غير قصد بناء المعرفة المحلية لتعكس العلاقات الاجتماعية الكائنة بواسطة الفشل في تطوير الشعور الرقيق طويل المدى لعلاقات القوة المحلية، والتي تسعى بالضرورة بحوث الفعل لتطويرها.

وعندما يصل فريق التقدير الريفي بالمشاركة إلى المجتمع ويبدأ في العملية السريعة لجمع البيانات وتحليلها، فإنه لا يوجد الوقت الكافي للميل لى يصبحوا مدركين للوسيلة التفصيلية والدقيقة والإثنوجرافية عن الفوارق الدقيقة في القيادة المحلية. ونتيجة لذلك فإن الإجماع والخداع الذى أملى بوجه عام على المجتمعات من المحتمل تماما أن يعبر عنه فى النتائج. إن التقدير الريفي بالمشاركة ليس حصنا منيعا ضد التحيز الجنسى لنفس هذه الأسباب بسبب أن العروض الرسمية للمعرفة يمكن أن تمنع مساهمة النساء فى صياغتها.

ونتيجة لهذا السوء فإن التقدير الريفي بالمشاركة يعتبر اتجاهًا استخلاصيًا Extractive للمعلومات ومن خلاله يتم جمع البيانات بغرض تنمية المؤسسة بدلا. من مقابلة الاهتمام المزدوج بأن تملك المؤسسة البرامج التى تتكون لتتناسب مع احتياجات المجتمع. لذلك فربما يبذل فريق التقدير الريفي بالمشاركة الجهود الكبيرة لجمع البيانات، وينظمون هذه البيانات وينظمون برامج التدخل فى المجتمع على أساس المراجعة والخلاصة السريعة لما يطلقون عليه المشاركة.

وقد أشار موس (1993) Mosse إلى أن لغة المشاركة فى التقدير الريفي بالمشاركة تميل إلى أن تكون لغة تتسم بالاضطهاد فى بعض

المواقف. وعندما يسأل السكان المحليون فريق التقدير الريفي بالمشاركة عما يجب عمله، تكون الإجابة "ما يجب أن يقرره المجتمع" ويستطيع السكان المحليون أن يكتشفوا ذلك على أنه نوع من الامتناع من الخارجيين الأقوياء عن الكشف لهم عن حقيقة برنامجهم أو أجنداتهم. وهذا ما يخلق حالة من عدم الأمن وعدم الثقة، بينما فى عقول أعضاء فريق التقدير الريفي بالمشاركة شعور بأنهم منفتحون ومشاركون.

ولعل أكثر الانتقادات قوة لاتجاهات المشاركة فى التنمية نشر فى كتاب كوك وكوثارى "المشاركة: هل استبداد جديد؟" **Cooke and Kothari** (2001) وفى هذا الكتاب سأل العديد من المساهمين عن إمكانية نقل الأفكار الغربية عن المشاركة إلى البيئات غير الغربية. وقد أكدوا أن المشاركة غالباً تستخدم فى إضعاف المعارضة للمخططات والمشروعات المفروضة من الخارج، والموضوع الشائع أيضاً عن ردود فعل نقابات العمل على عملية بالمشاركة تبدأها الإدارة. وعلى الأكثر فهى نصيحة مشكوك فيها فى مواجهة الادعاءات المبالغ فيها لاتجاهات المشاركة كوسيلة فعالة لعلاج مشكلات الفقر.

التقدير الريفي بالمشاركة وبحوث الفعل

PRA and Action Research

مهما كانت المشكلات التى صاحبت انتشار التقدير الريفي بالمشاركة فإن هناك علاقة واضحة بينه وبين التقييم بالمشاركة وبين بحوث الفعل بشكل أكثر عمومية. فالمعرفة المحلية موضع تقدير واحترام وتتخذ كأساس لبرامج

ال تنمية التي تصمم وتطبق. وينتج التقدير الريفى بالمشاركة فى بعض تكلفات للفعل. وتحتوى هذه الاتجاهات أيضا على نقد قوى للمهنية أو الاحترافية الحضرية كعنصر رئيسى يتعامل مع العلاقة المهنية كبعد أساسى فى ديناميات العملية.

وفى نفس الوقت يوجد خلاف حول التقدير الريفى بالمشاركة عندما لا يتلاءم مع الأشكال الأخرى من ممارسات بحوث الفعل وانتقادات اتجاهات مساواة المرأة. ويتم الاعتراف بالتقدير الريفى بالمشاركة على أنه قصير المدى، بينما يصنف بحث الفعل على أنه علاقة طويلة المدى بين الداخلين والخارجيين. وعلى الرغم من واقعية شامبرس عن هذه الأحوال والظروف، فإن العديد من الكتابات والممارسات فى التقدير الريفى بالمشاركة تتسم باللامبالاة نحو علاقات القوة التى تمثل العنصر الرئيسى فى أى اتجاه لبحوث الفعل. وعلى الرغم من تحديد التقدير الريفى بالمشاركة لمشكلة الاختلافات الجنسية وتأثيراتها على طرقه ووسائله، فإنه من الواضح أنه غير مبال بشكل كاف بالعلاقات بين الجنسين، ونحن نشك فى أن أى اتجاه شكلى أو قصير المدى يستطيع أن يتغلب على هذه المشكلة.

وبالتوازى مع انتقادنا للتقييم بالمشاركة، بعد التقدير الريفى بالمشاركة الأول، فإن خطط الفعل والمنهجيات التى تم نشرها كانت أقل وضوحا بشكل كبير. ولا يحتوى التقدير الريفى بالمشاركة كنوع من التدخل القصير على إستراتيجية واضحة لتعزيز التغيرات الاجتماعية طويلة المدى. وعلى الرغم من أنه يخلق معرفة محلية وفرق عمل، فإنه لا يبدو أنه يتسم بالفكر العميق كما هو الحال فى العديد من مشروعات بحوث الفعل حول العمل نحو تعزيز العلاقات التى تحفظ التجديدات والإبداعات من الفساد الراجع إلى الموقف الأصلى.

ويفتقد التقدير الريفي بالمشاركة إلى الإطار النظري المتعلق بالتعامل مع الصراعات بين الجماعات التي تم تحديدها، وبين السكان المحليين أنفسهم، عندما يتضمن الفهم إلى حد بعيد العديد من الاهتمامات المتعارضة والمتباعدة. إن التقدير الريفي بالمشاركة بصمت عن العمليات التي تأتي بكل هذه الاختلافات معا بغرض تطوير اتجاه يتسم بالقبول والعدالة.

إننا نرى التقدير الريفي بالمشاركة على أنه اتجاه مهم وشيق ومن اتجاهات المشاركة. ولكن الآن تعتبر خطة عمل التقدير الريفي بالمشاركة ثقيلة على أيدي الممولين الخارجيين والمنظمات غير الحكومية. وهذا يفتح المجال أمام إمكانية تغيير بعض العناصر في المشروعات المفروضة خارجيا، ولكن يجب ألا يتم ذلك بشكل عنيف. وبجانب أن التقدير الريفي بالمشاركة قصير المدى فإنه ليس من المحتمل أن يغير علاقات القوة الكائنة بدرجة كبيرة جدا. ونتيجة كل هذا الكلام فإن التقدير الريفي بالمشاركة يعتبر خيارا أفضل من الممارسات السابقة للمؤسسات التي تمثل ضغوطا سياسية صارخة على الحكومات الأجنبية.

الخلاصة:

أيا ما كانت استنتاجات أي شخص من هذا الفصل، فإن التقدير الريفي بالمشاركة والاتجاهات المرتبطة به يقدم حالة فريدة لباحثي الفعل تستحق إمعان التفكير فيها. وبعيدا عن كونه أصبح مهماشا ومهملا، فإن التقدير الريفي بالمشاركة قد اتخذ مكانه داخل معظم مؤسسات التنمية الريفية الرئيسية، وانتشر بشكل واسع. وكان هذا الاعتراف والنمو في أحد الجوانب مشجعا، ولكنه كان مكلفا. وغالبا ما انتشر التقدير الريفي بالمشاركة داخل المؤسسات الهرمية السلطوية التي كانت التزاماتها نحو تقرير المحليين

لمصيرهم محل شك على أكثر تقدير. إن القيود المتعلقة بالوقت وبالموارد المفروضة على التقدير الريفى بالمشاركة فى هذه البيئات يمكن أن تربك قيمة الاتجاه وينجم عنها نتائج لا قيمة لها. وعلى الأكثر يظهر التقدير الريفى بالمشاركة أنه عندما تتبنى المؤسسات القوية اتجاه بحوث الفعل فإن الاختيار التعاونى للغة وممارسات المشاركة تتجه دائماً نحو مشكلة عميقة. إن الهامشية بوجه عام للكثير جداً من اتجاهات بحوث الفعل التى تمنع هذه القضية من الظهور على السطح، ولكن بالدرجة التى تكون بحوث الفعل بها أكثر مركزية فى معظم الممارسات المؤسسية، فإننا سوف نواجه نفس القضايا المشابهة للاختيار والإجبار التى تؤثر حالياً على بحوث الفعل.

الهوامش

(١) من الصعب جدا حفظ المصطلحات واختصاراتها معا. فالتقدير الريفي بالمشاركة نبع من التقدير الريفي السريع الذى نشأ فى حد ذاته من مزيج من الدراسات الأساسية وبحوث النظم الزراعية، وبعض مبادرات التنمية القليلة التى ركزت على الفلاحين. وحاليا فشل مصطلح التقدير الريفي بالمشاركة (PRA) وحل محله مصطلح التعلم بالمشاركة والفعل (PLA). إننا نستخدم التقدير الريفي بالمشاركة (PRA) كمصطلح فى الفصل الحالى.

(٢) يتضمن هذا الجدول القائمة الكاملة التى قدمها برينى وفوده (Pretty and Vodouhe (n.d)

اختيار مصطلحات وأسماء للأنساق البديلة للتعلم بالمشاركة والفعل		
المختصر	المصطلح باللغة الإنجليزية	المصطلح باللغة العربية
AEA	Agroecosystems	التحليل النسقي البيئي
BA	Beneficiary Assessment	تقدير المستفيد
DELTA	Developing Education Leadership Team	تنمية فريق قيادة التعليم
DPR	Diagnostico Rurale Participative	التشخيص الريفي المشترك
FPR	Farmer Participatory Research	البحث المشترك الريفي
GRAAP	Groupe de Recherche et d'Appui pour L'Auto-Promotion Paysanne	مجموعة الأبحاث ودعم الفلاحين للارتقاء الذاتي
MARP	Methode Accélérée de Recherche participative	الوسائل السريعة للبحث بالمشاركة
PALM	Participatory Analysis and Learning Methods	التحليل المشترك وطرق التعلم

PAR	Participatory Action Research	بحوث الفعل المشتركة
PRM	Participatory Research Methodology	منهجية البحث المشترك
PRAP	Participatory Rural Appraisal and Planning	التقييم الريفي المشترك والتخطيط
PTD	Participatory Technology Development	التطور التكنولوجي المشترك
PUA	Participatory Urban Appraisal	التقييم الحضري المشترك
PIR	Planning for Real	التخطيط للواقع
PD	Process documentation	عملية التوثيق
RA	Rapid Appraisal	التقييم السريع
RAAKS	Rapid Assessment of Agricultural Knowledge Systems	التقدير السريع لنظم المعرفة الزراعية
RAP	Rapid assessment Procedures	إجراءات التقدير السريع
RAT	Rapid assessment Techniques	تكنيكات التقدير السريع
RCA	Rapid Catchment Analysis	التحليل المتجمع السريع
REA	Rapid Ethnographic Assessment	التقدير الإثنوجرافي السريع
RFSA	Rapid Food Security Assessment	تقدير الأمن الغذائي السريع
RMA	Rapid Multi- Perspective Appraisal	التقييم متعدد الآراء السريع
ROA	Rapid Organizational Assessment	التقدير التنظيمي السريع
RAA	Rapid Rural Appraisal	التقييم الريفي السريع

SB	Samuhik Brahman (Joint trek)	سالونيك براهمان (رحلة جماعية)
SSM	Soft Systems Methodology	منهجية النظم الناعمة
TfD	Theatre for Development	مسرح التنمية
TfT	Training for Transformation	التدريب على التحول
VIPP	Visualization In Participatory Programmes	التصور فى البرامج المشتركة.

٣) هذا القرار اتخذ بواسطة مشاركة جرين وود فى ورشة عمل لمدة يومين على التقدير الريفى بالمشاركة بواسطة شامبرس بجامعة كورنيل فى ربيع ١٩٩٧.

الفصل الرابع عشر

تنوعات الاستقصاء الإنساني:

التعاون والفعل والتأمل الذاتى والتعاونية:

Varieties O Human Inquiry;

Collaborative, Action, Self-reflective, and Cooperative

تشير مصطلحات الاستقصاء الإنسانى Human Inquiry والاستقصاء والتضامن المؤسسى Collaborative واستقصاء الفعل Action Inquiry والاستعلام التعاونى Cooperative - ولكن ليس بإنهاك أى مجموعة من الاتجاهات- إلى كل مصطلح مع مجموعة أخرى مهمة فى تصنيف واحد، ولكن الممارسين لكل مصطلح يشجعون استمرار الحوار الطويل والمثمر من كل مجموعة أو تيار آخر. لقد تناولناهم فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب بسبب التشابهات الواضحة فى آرائهم، وأيضاً بسبب أنهم ارتبطوا مباشرة بجهود بيتر ريسون Peter Reason فى جامعة باث Bath. وريسون كاتب غزير الكتابات على سبيل المثال (Reason, 1988, 1994; Reason & Bradbury, 2001a; Reason & Rowan, 1981) وفى الوقت منذ ١٩٩٨ ومن خلال جهود بيتر ريسون، أصبح زملاؤه وتلاميذه هم الفاعلون الرئيسيون فى وضع الخريطة التى حددت بوضوح العناصر المتنوعة التى شكلت بحوث الفعل. وقد كون كل من بيتر ريسون Peter Reason وجون رومان Johan Rowan وجون هيرسون Johan Herson وهيلارى براندبورى Hilary Bradbury ووليام توربورت William Torbert وجودى مارشال

Judi Marshall وآخرون جماعة محددة استخدمت مزيجا متنوعا من العناصر المستمدة من علم النفس والخدمة الاجتماعية والدراسات التقييمية واتجاهات مساواة المرأة وعلوم الفعل وتعلم الفعل والتوسط Mediation والممارسات التأملية لتنسيق وتوزيع Orchestrate ممارساتهم. ولكن ريسون فعل أكثر من ذلك. فقد استخدم اتجاهه كوسيلة لتشكيل جماعات المستمعين والاتصال بهم، وبشكل عام النظر إلى ممارسات بحوث الفعل ككل.

وقد خطا ريسون كفاعل رئيسي في هذه العملية (بالتعاون مع هيلارى براندبورى) خطوات واسعة نحو وضع خريطة لمجال بحوث الفعل بطريقة واضحة، وربط الممارسين حول العالم، وجمع بين اهتماماتهم المشتركة والمتباينة، وأوجد أماكن للتلاقى والاتصال فيما بينهم. وقد استفدنا جميعا من إنجاز كل من ريسون وبراندبورى والمتمثل فى إصدار أول كتاب (دليل) لبحوث الفعل (2001a) ونشاطه فى إصدار دورية بحوث الفعل. وقد نقلت هذه الجهود بحوث الفعل من هذه الشبكة الفضفاضة وغير المترابطة من الناس الذين يعلمون القليل عن أعمال وأنشطة بعضهم البعض ويستخدمون بتطرف المصطلحات المختلفة وغالبا ضد طرح Counterpose نظريات الاتصال عن عملهم، فقد وضع ريسون نظاما داخل هذا المجال بدون حظر الاختلافات فيما بيننا. وفى هذه الطريقة خلق ريسون والمتعاونون معه مساحة للاتصال تستخدم مبادئ بحوث الفعل فى الحوار الديمقراطى لتحسين جودة المجال بدون إثارة النزاعات بين مختلف أنواع الممارسة. ونظرا لعدم اكتمال هذا العمل المهم فإن ريسون وبراندبورى يقومان بإعداد الطبعة الثانية من كتاب (دليل) بحوث الفعل. بحوث الفعل (سابقا مجلة بحوث الفعل) حقق نجاحا كبيرا وبدأ تدريجيا فى نشر القضايا البحثية الخاصة عن الموضوعات التى تمثل اهتماما رئيسيا لممارسى بحوث الفعل فى أى مكان.

وبالنظر إلى ذلك فإن فهم المبادئ الأساسية لعمل ريسون ومعاونيه وزملائه يعتبر ذا أهمية في فهم بحوث الفعل ككل. وتؤثر وجهات النظر هذه بالضرورة على خريبتهم لمجال بحوث الفعل ككل، وكذلك يساعدا فهم هذه الآراء والطرق على تحديد ما هي رؤيتهم التي أنتت ببحوث الفعل إلى دائرة الضوء وتحديد أى أبعاد بحوث الفعل التي تلقت تركيزا أقل. لذلك وبالإضافة إلى التركيز على هذه الأطر العلمية، فإن هذا الفصل يضع تعقيا وتفسيرا على بنيتهم المتكاملة لمجال بحوث الفعل.

وجهات النظر الرئيسية Central Perspectives:

من خلال الإطار الذى وضعه ريسون وبرادبورى فى فصلهم بكتاب (ليل) بحوث الفعل (2001a) فإن بحوث الفعل تركز على إنتاج المعرفة المفيدة للناس فى حياتهم اليومية، وذلك يزيد من الصحة الجيدة well-being للأفراد والمجتمعات فى سياق من العلاقات الدائمة مع بقية العالم، ويعتبر ذلك نوعا من تحرير القصد، ويركز ذلك أيضا على عمليات الاستقصاء الدينامية والمستمرة (Reason & Bradbury, 2001b, P.2). ويقوم هذا الإطار على أساس ما أطلق عليه ريسون "العالمية بالمشاركة Participatory Worldwide". وهذه العالمية لا تتميز فقط بالمشاركة، ولكن أيضا تشير إلى الإحساس بكل من الاندماج والتحول المستمر فى الموقف الإنسانى من الحالات التى تتسم بالحرية الأقل إلى حريات أكثر وهو ما أسماه "الازدهار الإنسانى Human Flourishing" (Reason & Bradbury, 2001b, P.1). وأخيرا تصل بحوث الفعل إلى نتائج صادقة فقط عندما يتم فهم المصادقية على أنها تتضمن تقدير وإدراك الأساليب الجمعية لمعرفة جودة العمليات نفسها، ودلالة النتائج المرتبطة برعاية ورفاهية المشاركين والعوالم المحيطة بهم.

وقد طور ريسون بالتعاون مع جون هيرون John Heron خلاصة شاملة لما أطلقوا عليه "الاستقصاء التعاوني Cooperative Inquiry"، الذى يعنى البحث "مع With" الناس بدلا من "على On" الناس. ولتطوير الأطر التى عملوا على أساسها من نهاية السبعينيات 1970s، فقط حددوا الظروف المواتية للاستقصاء التعاوني، وقد تطلب ذلك أن يكون المشاركون موجودين بشكل كامل كباحثين متعاونين فى كل أبعاد وخطوات عملية البحث. ويستوجب ذلك وجود تفاعل متسق بشكل جيد بين الأنشطة المكونة للوعى ونتائج الخبرة والفعل، ويجب أن يتم التعامل مع المصادقية على أنها مطلب رئيسى. ويتم اختبار مصادقية الفعل من خلال درجة إرضاء أو إشباع النتائج لحاجات وأهداف المشاركين.

ويعتمد الاستقصاء التعاوني على التطور المعرفي للاستقصاء. وقد ميز ريسون وزملاؤه المعرفة التجريبية Experimental Knowing التى تحدث من خلال الفعل المباشر؛ والمعرفة التقديمية Presentational Knowing، التى تتقل نتائج هذه الخبرات، والمعرفة الافتراضية Propositional Knowing وهى إعادة كتابة الشكليات الأولى فى كلمات ومفاهيم، وأخيرا المعرفة العملية Practical Knowing التى تتضمن معرفة القدرة على القيام بالأفعال التى تتسم بالبراعة والمهارة وفى إطار الوعي الذاتى. ونناقش هذا الإطار بشكل مفصل على الصفحات التالية؛ نظرا لأننا وجدنا أنه يعتبر أسلوبا مثمرا وفعالا لتوجيه استقصاءات بحوث الفعل.

وبالإضافة إلى ذلك فقد أكدت الجماعة بقوة على عمل تمييز أو فارق بين أول شخص وثانى شخص وثالث شخص فى البحث والممارسة. وقد حدد توربيرت Torbert فى مقالته "ممارسة استقصاء البحث The practice of Action Inquiry" هذه الاختلافات بوضوح، والتى استخدمها أيضا ريسون

وجودى مارشال (٢٠٠١) والعديد من المفكرين الآخرين. ويتضمن الشخص الأول من البحث والممارسة **First- Person research and practice** العمل على اكتشاف وسائل "تدريب الانتباه" (Torbert, 'exercise our attention' 2001, p.251) والتغلب على الميل القوي نحو الامتناع عن التأمل الفكري فى الاستقصاء. وهذا يركز على الباحثين أنفسهم ويتضمن تعلم كيفية تطوير وتكوين عادات الاستقصاء فى أفعالهم وحالات الوعي لديهم كعنصر أساسى فى تقديمهم فى مواقف الجماعة كمشاركين فعالين وباحثين. وكما رأى توربيرت ذلك، فإن هذا النوع من استقصاء الفعل يمكن أن يسمح لنا للوصول إلى وضوح أكبر عن خبراتنا المستمرة عن أنفسنا وبالتالي نعد أنفسنا للمشاركة بفعالية أكبر مع الآخرين، وفهمهم بصورة أفضل. وفى هذا الخصوص توجد ارتباطات مع أعمال كل من كريس أرجيريس Chris Argyris ودونالد سكون (Argyris, 1974, 1980, 1993; Donald Schon, 1974, 1996) و (Argyris, Putnam & Smith, 1985; Argyris & Schon, 1974, 1996) والذي يعتبر تعليمهم لتحليل الأفعال وتنظيمها للباحث نفسه هو المركز الرئيسى لأى إطار للاستقصاء.

وقد انتقل توربيرت بعد ذلك إلى تحديد الشخص الثانى **second- Person** فى الممارسة والبحث على أساس أنه يتضمن نظم الحوار والاستماع مع الآخرين وفى السياق الذى يعيشون فيه. وتوجد العديد من الأنشطة التى تعتبر أساسية للشخص الثانى فى البحث والممارسة. إنها تتضمن محاولات "تشكيل Frame" المناقشات بحيث تكون مفتوحة لآراء واستجابات المشاركين الآخرين، للدفاع عن الأوضاع التى تناولها السياق الحوارى أو التأكيد عليها، والتى قاموا بتحليلها والاستجابة لها، وتقديم الأمثلة التى تؤيد وتساند هذه التأكيدات، ومن ثم استقصاء رأى الآخرين فى الموقف حول ردود أفعالهم

عن هذا النمط المتطور من التفسيرات. ومن الأمور الجوهرية ربط هذا السياق الحوارى بين الأشخاص بجماعات بحوث الفعل، ومن ناحية أخرى فإن لهذه الآراء نوع من التعامل الجيد نظريا وعمليا مع عمل أرجيريس وسكون. (1987, 1996) (انظر الفصل ١٥) "علوم الفعل والتعلم التنظيمى"

وأخيرا يوجد الشخص الثالث **Third- Person** للبحث والممارسة، والذي من خلاله يرتبط استقصاءات الشخص الأول والشخص الثانى داخل عملية التحول التنظيمى، والذي من خلاله تغير القوة الأيدى **Power changes hands** (Torbert, 2001, P.256). وتوجد العديد من سياقات التغيير التنظيمى، والنمو التنظيمى، والقيادة التنظيمية، والتغيير الاجتماعى الواسع والذي تبرز فيه القوة وحركات القوة بشكل خاص.

إن العمل الذى قام به هؤلاء الزملاء والكثيرون غيرهم الذين تعلموا وأثروا، كان له إطار عمل شامل. فقد اعتمدوا على مجموعة أساسية من الأطر المعرفية التى تباينت بحدة مع الأطر المعرفية للبحث التقليدى. وقد نشروا بوضوح أيضا مجموعة من الاختلافات بين الأنواع المتعدد من المعرفة التى تستخدم فى بحوث الفعل وتعطى لها وزنا. وأخيرا فقد نشروا أيضا الاختلافات بين الشخص الأول والشخص الثانى والشخص الثالث فى البحث، والتى تحافظ على الانتباه الفعال للعمليات الشخصية والحوارية وجميع الأبعاد المتعلقة بعمليات البحث التعاونى. وتعتبر هذه رؤية غنية ومحددة بدقة لبحوث الفعل وقد استخدمها ريسون وبرادبورى لتنظيم الأبعاد الرئيسية لدليل بحوث الفعل (2001a) وبالتالي إعطاء قراءة محددة وواضحة لشكل أو لنموذج مجال بحوث الفعل ككل.

ونحن ندرك أن هذا يعتبر عرضا عاما لهذه الاتجاهات، لذلك نتعمق فيها أكثر من خلال هذا الفصل بمراجعة أعمال الممارسين الأربعة؛ بيتر ريسون ووليام توربوت وجودى مارشال وجون هيرسون.

الاستقصاء الإنسانى Human Inquiry:

الاستقصاء الإنسانى لبيتر ريسون Peter Reason on Human Inquiry:

يعتبر الميل المستمر نحو التنمية من خلال الاندماج الثابت والراسخ للتنوعات الضخمة من الآراء والممارسات واحدا من أهم الخصائص المميزة لهذه النماذج من الاستقصاء. ولعل عمل بيتر ريسون يعود إلى الخلف إلى أواخر السبعينيات 1970s ومن ذلك الوقت وحتى الآن يوجد تطور مستمر لهذا الاتجاه المحدد بدقة والمتنامى. ويرجع تفضيلنا لأعمال ريسون إلى شموليتها وارتباطها بطرق دراسة الحالة، وبالمشاركة فى الاستقصاء الإنسانى (Reason, 1994). وهنا حدد ريسون بشكل مناسب برنامج العمل كاتجاه للحياة يقوم على أساس الخبرة والارتباط، وعلى الحب واحترام سلامة وتكامل الأشخاص؛ وعلى إرادة الارتفاع فوق الافتراضات المسبقة، والنظر وإعادة النظر، وتأمين المخاطرة فى البحث عن الفهم والفعل الذى يفتح الاحتمالات للحياة الخلاقة (Reason, 1994, p.9).

إن القيمة القوية للخبرة والارتباط، والإدراك الواضح للأبعاد الانفعالية والأخلاقية فى العلاقات الإنسانية، والرغبة فى امتلاك عالم من الخبرة الماضية والافتراضات المسبقة غير الصادقة (ضد الوضعية) والالتزام بالحياة الخلاقة، تعتبر من العناصر الرئيسية. ويكون التركيز منصبا على الأفراد وتنظيماتهم فى مواقفهم وأوضاعهم المحلية، وعلى الناس الذين يحاولون أن يعيشوا حياة أكثر إبداعا. وفى نفس الوقت يوجد اهتمام قليل نسبيا بالتنظيمات الاقتصادية السياسية الكبرى، أو الأنساق الأكبر التى ينفصلون عنها.

إن أهداف الاستقصاء الإنسانى تتسم بالجرأة والوضوح. وبالفعل فقد طرح ريسون عام ١٩٩٤ معرفة محددة، ومجموعة من الأساليب التى بدت

كنتيجة لهذه المعرفة، وتاريخ العلم والذى يساند ويدعم الافتراضات المعرفية والممارسات الفنية، وسلسلة من خطط وبرامج الإصلاح الاجتماعى، والتى تشمل تحقيق الديمقراطية، وتحسين الخدمات الاجتماعية، ودمج الآراء المتعلقة بالجنس (النوع) فى جميع أبعاد التغيير الاجتماعى. وفى هذا الإطار كان الاستقصاء الإنسانى على الأقل من بين معظم المجموعات المعقدة والمتنامية من التنظير والممارسة فى الإطار الذى يتم من خلاله دمج علم النفس الاجتماعى والعلاقات الإنسانية والموجودة فى بحوث الفعل.

وقد أسس ريسون العمل حول إطار مبنى بعناية، يركز على أولوية امتلاك مشاركة عالمية لاختيار منهجية مشاركة مناسبة. وبكلمات أخرى فالأساليب بمفردها غير كافية لإنتاج نوع من العمل المرغوب، وهو الموضوع الذى يتم تجاهله فى الغالب من الباحثين الآخرين. فالأساليب يجب إدارتها والتعامل بها من خلال رؤية واسعة من العالم والعلاقات الإنسانية والتى تفضل المشاركة كمسألة مبدأ وحالة ممارسة. ومن ثم فهذه هى الخطوة التى يجب اتخاذها فقط للتحويل من دراسة الموضوعات من البحوث التقليدية إلى البحوث التعاونية.

ومثل الكثيرين منا فقد سأل ريسون عن أسباب سيطرة العلوم الاجتماعية التقليدية التى تتسم بعدم المشاركة والاتجاهات القليلة على البحث الاجتماعى، وقدم نظريته التاريخية النوعية. ونحن ننضم ونرتبط جميعا بمثل هذه الجهود بسبب أنه ليس كافيا أن ندعى ببساطة أن بحوث الفعل هى الوسيلة الأفضل لإدارة البحث من البحوث الاجتماعية التقليدية. وأنه من الضروري أيضا أن نتعامل مع سيطرة العلوم الاجتماعية باتجاهاتها التى ندعى أنها تتسم بضعف المستوى الواضح بالنسبة لبحوث الفعل.

وللتعامل مع مشكلة النماذج المسيطرة والاغترابية للاستقصاء الاجتماعي، فقد طور ريسون (١٩٩٤) "قصة كبيرة Grand Narrative" عن نمو الوعي الإنساني. وتدور فكرته الرئيسية حول أن البشر ينتقلون من المشاركة اللاواعية (اللاشعورية) إلى شكل من الاغتراب الذي تخلقه السيطرة الأبوية patriarchal، ومن ثم البحث عن التحرر بنوع من المشاركة المستقبلية التي تقوم على أساس من الوعي الذاتي وردود الفعل الذاتية. وقد وصفت هذه المشاركة المباشرة على أنها تعمل في العلم الباتيسوني Batesonian في النمط والشكل (Bateson, 1979). إنها تتضمن الاستخدام الشعوري للتخيل، وتقدم لكل خبرة مختلفة عن الذات من تلك الشائعة الاستخدام في اتجاهات التقسيم الجنسي.

ومن ثم فإن الاستقصاء الإنساني قد وضع في هذا السياق كطريقة أو كتكريب، ومجموعة من القواعد والتمارين أو الإجراءات (Reason, 1994, p.40) التي تقود إلى نوع جديد من النتائج المشتركة. وكما أشرنا سابقاً فقد قدم ريسون تصنيفاً لأنماط المعرفة تعتبر جميعها معابر Scaffolding أساسية (مرتكزات رئيسية) للاستقصاء الإنساني؛ وهي المعرفة التجريبية والمعرفة النقدية، والمعرفة العملية، والمعرفة الافتراضية Propositional. وقد وجدنا أن دراسة هذه المصطلحات يعتبر مساهمة مثمرة ونوعية لأنها تستدعي الانتباه للأنشطة المتنوعة التي تشكل بالضرورة جزءاً من المفهوم الواسع والخادع للمعرفة. إنها تؤكد أيضاً فشل العلوم الاجتماعية التقليدية في تذكر كيف تكون المعرفة مختلفة ومعقدة، وكيف أن المعرفة تبنى على أساس المزج بين المعرفة والفعل وتعاقبهما في سياق محدد.

ونحن نتفق أيضاً مع ريسون في أن عملية الاستقصاء تنتقل من خلال المراحل التي تسود فيها نماذج المعرفة. وبالنسبة لنا فإن طريقة فهم

تطور المعرفة فى بحوث الفعل تعتبر واحدة من أكثر الجوانب المثمرة لعمل ريسون. إن كتابة بحوث الفعل توفر لنا القليل جدا مثل الخصائص المساعدة للممارسين على تحديد مكانهم وسماتهم وأشكال تعاونهم داخل العمليات التعاونية. ويوجه هذا الإطار بدرجة ما إلى أدبيات علم النفس الاجتماعى فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، ولكن يعتبر هذا تم وضعه فى نظام أكثر فعالية لأغراض البحث هنا. ويعتبر ذلك مهما جدا بسبب أن التركيبات المعقدة لأول وثانى وثالث شخص فى العمليات والأنواع المتعددة من المعرفة التى تم إنتاجها فى بحوث الفعل غالبا ما تربك قدرة باحثى الفعل على تشكيل وتفسير أنفسهم. ويخدم هذا الإطار أى سياق كخريطة مفيدة لكل أشكال ونماذج بحوث الفعل.

وفى الاستقصاء الإنسانى نفسه فإن هذه المراحل تبدأ مع الباحثين المتعاونين الذين يدرسون الموضوع معا. وبالنسبة لريسون (١٩٩٤) فإن تكوين أشكال ونماذج المعرفة تعتبر افتراضية أساسا على الرغم من وجود المعرفة التقديمية أيضا. وعندما نتعمق العملية يصبح الباحثون المتعاونون فاعلين متعاونين. وعند هذا الحد تكون أنواع المعرفة عملية بشكل أساسى. وفى المرحلة التالية يصبح الفاعلون المتعاونون متعايشين ومنغمسين فى حقائق ووقائع بعضهم البعض وتعتبر أشكال المعرفة هنا تجريبية. وأخيرا يبدأ الفاعلون المتعاونون فى الظهور معا من العملية البحثية. إنهم يسترجعون ويعيدون أو ينكرون بعض الأفكار. وعند هذا الحد تكون المعرفة افتراضية. ولكن تستخدم عناصر المعرفة التقديمية فى الربط بين المعرفة التجريبية والعملية التى تم الوصول إليها من مكتسبات عملية المعرفة الافتراضية.

ويعتبر ذلك مفيدا بشكل خاص بسبب أن الغالبية العظمى من مشروعات بحوث الفعل يبدأ إلى حد ما كبحوث تقليدية أو كأنشطة حل

المشكلة. حقا لقد شعر الكثير من طلابنا بالارتباك حول ما إذا كانوا يقومون بعمل بحوث فعل ككل أم لا عندما يبدعون عملهم. ويبدو أن هناك افتراضا أساسيا بأن مشروعات بحوث الفعل قد ولدت وتشكلت بشكل تام بطريقة ديمقراطية وتعاونية واسعة. ونرى من واقع خبرتنا ومن جزء من مقدمة عمل ريسون أن بحوث الفعل هي العملية التي يمكن أن تبدأ بطريقة هرمية غير واعدة ثم تتخذ اتجاهها آخر جديدا داخل أشكال من المشاركة التجريبية والأكثر مخاطرة. وهذا بالتأكيد ما يتفق مع خبرتنا.

(Greenwood, Whyte, & Harkavy, 1993)

ومنذ أن أصبح بحث الفعل عملية، وليس شيئا، فقد أعطى جزءا كبيرا في هذه العملية العديد من الفرص المتاحة والمتنوعة لتجديدها من خلال انفتاحها نحو تعاون أكبر وإعطاء الفرصة للمشاركين لكي يصبحوا فاعلين متعاونين. وبالضبط إلى أي مدى تعتمد العملية على مهارات المشاركين، وعلى الموقف وعلى مزاج ومواقف الفاعلين المشاركين والعوامل المحلية الأخرى. وما هو مهم الآن هو أن العملية تبدأ في مكان ما (تقريبا) وأن باحثي الفعل يبذلون جهودًا منظمة لضم المشاركين كباحثين متعاونين. وفي عملية الكشف عن ذلك كان لريسون اهتمام كبير للحديث عن ملكية **Ownership** المشروعات وعلاقات القوة والمشكلات وفرص التعاون.

والنقطة الأخرى التي جاءت بوضوح في مقالة ريسون (١٩٩٤) هي أن كونك باحثا جيدا ليس كافيا لعمل مشروع بحث فعل جيد. وللعمل في الاستقصاء الإنساني يجب أن يطور الباحث مهارات التيسير الجيدة، وأن يكون لديه الفهم الجيد لعمليات الجماعة. ويمكن أن تستخدم كل أنواع التدريب في العلوم الاجتماعية الرسمية في العالم ولكنها لن تكون كافية. فطلاب الاستقصاء الإنساني يجب أن يتفهموا عمليات الجماعة، ويجب أن يسعوا إلى

تطوير أنفسهم كميسرين وشركاء، ويجب أن يستمروا فى الكفاح للانضمام المتميز كباحثين مع الالتزامات الأخلاقية والسياسية كفاعلين متعاونين مع شركائهم المحليين. ويعتبر هذا أيضا سببًا لسلامة وصحة رأى ريسون وحثه على ضرورة امتلاك الشراكة العالمية لكى تتلاءم منهجية الشراكة. وبدون هذه الملاءمة العالمية، فإن هذه الطرق لن تأخذنا إلى أى مكان والتحولات والانتقالات التى نقوم بها لن تحقق أى نتائج مرغوبة.

ويعتبر ريسون زملاءه أيضا من المدافعين عن "القصص الجيدة Good Stories" كعناصر نقدية فى هذا العمل. وقد سمح باحثو الفعل لمدة طويلة جدا لأنفسهم لأن يكونوا مجبرين بواسطة الباحثين الاجتماعيين التقليديين الذين يقللون من طموحات بحوث الفعل من خلال ادعائهم بأننا فقط مجرد "رواة قصص". ويعتبر هذا الانتقاد محاولة دفاع خلفية لتبرير ذلك القناع من الميول الاغترابية والمشوهة للبحوث الاجتماعية التقليدية. وكما أشرنا فى الفصل السابع فإن الروايات القوية تعتبر أساس بحوث الفعل وضرورية لأى نوع من محاولات العلوم الاجتماعية، وقد وجدت لنفسها مكانا فى أعمال ريسون. و فقط من خلال الفهم التفصيلى للواقع المنطقى للمواقف الإنسانية كما يتم معاشتها والمشاركة فيها بشكل دينامى، يمكن أن نصل إلى القضايا الأساسية الكبرى وأسبابها، والتى تساعدنا فى وضعها فى اعتبارنا.

وتتمثل العقيدة الرئيسية لبحوث الفعل فى تحويل الناس الذين هم موضوع Subjects البحث فى البحوث التقليدية إلى باحثين متعاونين. ولم يؤكد ريسون وزملاؤه فقط على ذلك، ولكنهم أيضا أعطوا اهتماما كبيرا للمناقشة التفصيلية لنمو هذه العلاقات التعاونية نظريا ومنهجيا أكثر مما فعل الآخرون. والتركيز على الشخص الأول والشخص الثانى يودى إلى التركيز القوى على العناصر البنائية لمثل هذه العلاقات.

على سبيل المثال نجد أن جون رومان John Rowan الذى زامل ريسون مدة طويلة من الزمن قد ركز بقوة على الحاجة إلى تكوين ذات الباحث وتطويرها كجزء من العملية لكي يصبح قادرا بشكل أفضل على العمل مع الآخرين. وبينما يبدأ ذلك بنمو الشخصية، فإنه أيضا يرتبط بالأصول الشخصية، والتي تعتبر ضرورية لازدهار علاقات بحوث الفعل (Rowan, 2001, pp. 114-115). وبوجه خاص فقد حث رومان على أن أى تحركات تعتبر ضرورية لو انتقلنا بعيدا عن البحوث الاغترابية (alienated) وفى اتجاه عمليات البحوث بالمشاركة. لذلك فإن نوع الذات فى بحوث الفعل التقليدية ليست هى ذات الباحث الموضوعى Objectivist الذى يتخيل أنه يستطيع أن يفكر ويبرر بنفسه تماما خارج البحث، ولكنها ذات حساسة وقوية ترتبط تلقائيا مع الآخرين فى استقصاء تعاونى.

ولوصف البحث بهذا الشكل صرح جون هيرسون بأن الاستقصاء التعاونى "يكون ذا مشاركة عالية" له شكل التركيز السياسى Micropolitical ويكتسب أهميته بكونه عملية تعليمية وعملية تحرر سياسى. إنها تمكن من الاستقلالية والعمل التعاونى بين الناس ضد أى نوع من العمليات الاجتماعية السلطوية والمتحكمة (Heron, 2001, p.333). وقد أسماها استقصاء عبر الشخصية Transpersonal Inquiry وركز على التوزيع المتجانس كعملية شاملة تسبب نوعا من الدينامية والنمو الذى نبحث عنه. وتستهدف هذه العملية تغيير حالة الوعي وتخلق لغة مشتركة ومساحة من الحوار الهادئ. كما أنها أيضا تتشد الوصول إلى أسلوب من التفكير القائم على أساس الاستقصاء، وردود الفعل النقدية وتحويل القوة إلى المشاركين (Heron, 2001, p.334).

وكما هو واضح، يعتبر الاغتراب عن المجتمع واحدا من أهم المشكلات التى تواجهها بحوث الفعل. ويعتبر كل من المذهب الفردى

الراديكالى والتوجه الفكرى الليبرالى القائم على نوع من النفعية، والذى يؤسس كثيرا جدا للعلوم الاجتماعية والسياسة الاجتماعية دليلاً على الاغتراب ولعل المخرج الوحيد فقط هو فى اتجاه بحوث الفعل من خلال الدمج القوى للوعى الذاتى مع الوعى بالذات فى سياق الآخرين.

وفى ضوء مؤشرات ريسون وروان وهيرون فإن هذا النوع المرغوب من الشعور **Consciousness** يعتبر جذاباً نظراً لأنه يتضمن الإدراك الذاتى وربود الفعل الذاتية، ويقوم على أساس الحياة فى عالم مرن من الأنماط والأشكال الدينامية، ويتضمن أيضاً استخدام التخيل والانفعالات والفكر معا كأدوات. ويقود الاستقصاء الإنسانى والتعاونى المستقصى **Inquirer** ليس فقط لإدارة البحث بتميز، ولكن أيضاً ليعيش فى العالم كنوع متميز من الأشخاص. وهذا الهدف يضع الأساس لبحوث فعل جذابة فى العديد من مظاهرها، ولكن هذا الهدف كان تحديده قليلاً فى معظم الكتابات. وبالتركيز على أن الاستقصاء الإنسانى يعتبر نظاماً وممارسة وأن لدى الباحث خصائص المعلم، فإن هؤلاء الكتاب ركزوا على أن بحوث الفعل تتضمن كل المشاركين فى عملية الاكتشاف الذاتى **Self-Discover** من خلال بعضهم البعض.

ويتضمن الاستقصاء الإنسانى تعاملًا عظيمًا مع القيم. وسواء اتفق أحدهم أو لم يتفق مع هذا المنظور، فإن هذا الاتجاه يتضمن المعرفة المنظمة والتطور المنهجى، ويعتبر مضاداً قوياً للتكاسل الفكرى، والذى يميز كثيراً بحوث الفعل. وغالبًا ما نجد فى بحوث الفعل أن المبرر الذى يقوم به الباحث يقدم تغطية على رفض الباحث أو عدم قدرته على إنجاز الجهود العقلية التى يحتاجها للتفكير العميق فيما يفعله وكيف يستطيع تحسينه.

Action Inquiry and Self- Reflective Inquiry

يوجد داخل هذه المنظومة من الاتجاهات بوضوح مجموعة متنوعة من التأكيدات. وأحد هذه التأكيدات يتخذ اتجاه التقدم التدريجى نحو الاستقصاء الشخصى لجعل عمليات بحوث الفعل ممكنة. وقد تأثر بعض من هذا العمل بإنجاز أرجيرس Argyris (انظر الفصل الخامس عشر "بحوث الفعل والتعلم التنظيمى") وأيضاً يرجع الفضل لأعمال كل من كورت ليفين وبعض علماء علم النفس الاجتماعى وبعض نماذج العلاج النفسى. ولعل من بين المناصرين الرئيسيين لهذه الاتجاهات ويليام توربورت وجودى مارشال وقد أطلق توربورت (2001) Torbert على هذا العمل اسم استقصاء الفعل Action Inquiry، بينما أطلق عليه جودى مارشال (2001) Marshall اسم استقصاء الانعكاس الذاتى Self-Reflective Inquiry. ويمكن الوصول إلى مجموعة أوراق العمل التى تناولت هذه الاتجاهات فى الإصدار الخاص ببحوث الفعل والمخصص لـ "ممارسة ردود الفعل الذاتية وبحوث فعل الشخص الأول" (Marshall & Mead, 2005).

استقصاء الفعل لويليام توربيرت

William Torbert on Action Inquiry

على الرغم من أن توربيرت قد كون هذه الأفكار فى العديد من الإصدارات، واستمر فى تطويرها، فإننا نشير إلى أكثر الإصدارات شمولاً لآرائه، قوة التوازن (1991) The power of Balance. وقد بدأ هذا الكتاب بمقدمة افتتاحية لدونالد سكون، الذى لم يقر بالكثير من الأشياء التى تناولها

هذا الكتاب، ولكنه يفرض علينا أن نتعلم بفعالية منه. ولعل جزءا من أسباب عدم إقرار سكون ربما يرجع إلى حقيقة أن توربيرت أحيانا ما يكون متطرفا، وقد يؤدي ذلك جزئيا إلى حقيقة أن توربيرت أحيانا ما يكون لديه البوح الذاتى المؤلم **Painful Self- Revealing** عند معالجته لهذه الموضوعات. وعلى الرغم من أن هذه النعمة من البوح الذاتى ليست غريبة على الاستقصاء الإنسانى - واتجاهات الاستقصاء التعاونية، فإن توربيرت يعتبر أكثر إلحاحا وحدة وخاصة فى تركيزه الحاد والقوى على الذات ونقاط ضعفها، والتي تمثل عامل الكفاءة الرئيسى فى باحثى الفعل. وقد أكد أن التحول الاجتماعى يحتاج إلى التحول الذاتى **Self-Transformation** وأظهر فى معظم كتاباته أن ذلك يحتاج إلى تعامل جيد من التأمل والتفكير العميق ونوع محدد من الانفتاح على بعض جوانب الشخصية التى تحاول معظم الاتجاهات إخفاءها.

وقبل مناقشة المؤلفين هنا، فقد عمل توربيرت بجدية على تحقيق التغيير التعاونى القائم على العديد من المرجعيات فى الأفراد والجماعات وعلى المستويات السياسية الكبرى. وقد أدخل توربيرت علاقات القوة بشكل روتينى بوسيلة مباشرة جعلت تحليله إضافة قيمة إلى مجموعة أعماله بوجه عام. وقد بدأ برؤية أن القوة كما يمكن تصورهما بشكل عادى (أى القوة على الآخرين) هى أضعف كثيرا عما أسماها "قوة التوازن **Power of Balance**"، وهى الشكل الشرعى أو الصحيح ذاتيا للقوة **Self-Legitimizing Form** والذى يشجع على التبادلية، والتي تقوى هؤلاء الذين يلبون لهذه الدعوة مع مبادراتهم الذاتية، وما ينتج عن ذلك كل من الإنتاجية والاستقصاء، وكل من التحول والاستقرار، وأيضا كل من الحرية والتنظيم". (ص ٢٠) ويتمثل الهدف من استقصاء الفعل فى تعلم كيفية التدريب على هذا النوع من القوة فرديا أو جماعيا أو عبر الأجيال.

ومن ثم فقد ميز توربيرت بين أربعة أنواع من القوة؛ الأحادية Unilateral والدبلوماسية Diplomatic واللوجستية Logistical والتحويلية Transforming. ودمج هذه الأنماط الأربعة ينهض بقوة التوازن. وهذا التوازن جاء من ما أطلق عليه "العقلانية البناءة Constructive Rationality" والتي ترغب في تحقيق حقوق الأفراد وعلاقات اجتماعية أكثر عدالة. وبالتالي تكمن جذور هذا المنظور في الرؤية السياسية الكبرى التي بنيت على أساس ديناميات الجماعة والفعل الفردي، وكل ذلك يعتبر من المقومات الضرورية في نمو التوازن. وفيما يتعلق بذلك فإن إنجاز توربيرت يتسم بالتميز نظرا لأنه يتضمن نظرة دقيقة للبيئة السياسية والاجتماعية على المستوى الأكبر.

وبالتعاطي مع الخبرة الطويلة لتوربيرت في التعليم بالمدارس التجارية وعمله بالقطاع الخاص، فإن كل الأمثلة التي تناولها والمناقشات التي قام بها كانت منبثقة من هذه المواقع. وقد تضمن هذا العمل مثالا طويلا عن إصلاح المناهج في المدارس التجارية. وقد بقي هذا المثال واحداً من عدد قليل جداً من حسابات بحوث الفعل في تغيير المناهج في التعليم العالي (Reynolds, 1994). وهذا العمل قد التحق به مباشرة تحليلات قصيرة لأفعال الأفراد والجماعات، والتي غالبا ما توفر أمثلة توضيحية قوية وحيوية من موضوعاته الرئيسية.

وتعتبر الممارسة الرئيسية في استقصاء الفعل هي ما أطلق عليها توربيرت "خلق البناءات الليبرالية Liberating Structures". وبدلاً من المناقشات التي تدور ضد البناء، ناقش توربيرت البناءات التي تقود الناس إلى تطوير أنفسهم وعلاقاتهم في عملية مستمرة من النمو، والمواجهة والتطوير. ومن وجهة النظر هذه فإنه بدون البناء فلا توجد حركة أو نشاط،

بينما توجد فى البناءات القهرية المقاومة فقط. أما البناءات الليبرالية فهى تمثل استقصاء فعل بارز.

وقد حدد توربيرت قائمة من ثمانى خصائص وسمات جوهرية للبناءات الليبرالية، الأولى تتضمن التحرر من التجاهل المدروس لنقل الناس خارج الأساليب التقليدية للتفكير حول تنظيماتهم. أما الثانية فتتمثل فى تحديد البناءات الليبرالية للمهام المتكاملة والموجهة بالأساليب والطرق التى تتوافق مع القيم العريضة للنمو التنظيمى. والثالثة أنها تتضمن التغيير المتعمد والمتوقع طوال الوقت. ورابعا يجب أن تخلق هذه العمليات حلقات مستمرة من البحوث الإمبريقية والتجريبية والتغذية العكسية للمشاركين. وخامسا يمكن أن تستخدم القيادة كل الأشكال المتاحة من القوة لتحقيق هذه الأهداف. وسادسا فالبناءات دائمة مفتوحة لآى تحديات بواسطة أعضاء التنظيمات. وسابعا فإنه يجب محاسبة القيادة بنفس القيم التى تعتقها المؤسسة. وثامنا تهدف القيادة إلى تتبع الصراعات الشخصية والتنظيمية وتعديلها.

وعلى الرغم من أن هذه الأوضاع تحاكي أطر العمل الأخرى، فإن مزيج توربيرت يعتبر فريدا. ولعل توربيرت أكثر انتباها لمعضلات ومشكلات ممارسة القيادة والقوة. ولعل منظومة الأبعاد المبكرة التى انتهت فى مثال طويل من إصلاح المناهج، والذى تولاها توربيرت فى كلية التجارة بجامعة ميثوديست الجنوبية. فالروايات الفعالة، والتحديد الإثنوجرافى، والتحرك ذهابا وعودة بين القصة التنظيمية والأبعاد الوجودية والشخصية للعملية، والسياسات الكبرى للمدرسة جعل هذا العمل حالة ذات قيمة وفريدة للقراءة. ولعل كل من المواعيد والبدائيات والشكوك والمخاوف والإحباطات والمخاطر والأخطاء التى بالضرورة تصاحب التغيير التنظيمى الكبير يعتبر من الرائع إعادة حكايتها. وهذا يتم حبه بالترجيح داخل قصة كبيرة عن ميل

توربيرت الخاص بوصفه معلماً وزوجاً وصديقاً وقائداً. وتقدم نبذة الاعتراف في هذه الكتابات عدد محدود من الحسابات المنشورة عن الجانب الوجودي في بحوث الفعل، ويذكرنا ذلك بأن الارتباط بالاستقصاء يربطنا جميعاً على كل المستويات وليس فقط بوصفنا مهنيين مدربين.

وقد استمر في تطوير هذه الآراء في العديد من الكتابات المتنوعة. ويمكن الحصول على ملخص مختصر لممارساته في كتاب توربيرت (٢٠٠١). وقد حدد أيضاً آراءه في إطار واسع من مجال بحوث الفعل في مقالة شيقة عن "الصفات المميزة لبحوث الفعل (Chandler & Torbert, 2003). وخصوصاً مجموعة أمثلة الحالات الملفتة للانتباه الموجودة في كتاب شيرمان وتوربيرت (2001) Sherman and Tolbert.

استقصاء الانعكاس الذاتي لجودي مارشال

Judi Marshall on Self-Reflective

جودي مارشال التي زاملت بيتر ريسون لفترة طويلة من الزمن قد وضعت بحث فعل أول شخص First-Person action research في اهتمامها الخاص. لقد وفرت ملخصاً لمجمل ممارساتها في دليل بحوث الفعل (٢٠٠١) وربطت عملها بالنظرية العامة للأنساق في مقالاتها العلمية عن بحوث الفعل (Marshall, 2004). وتتمثل نقطة الانطلاق عندها في أن الاستقصاء في حد ذاته يحتاج إلى نظام وهو ما أطلقت عليه تظم الانتباه Attentional Disciplines والتي تعتبر أساسية لنجاح عمليات بحوث الفعل. وعملية نظم الانتباه هذه ليس لها أوصاف ضيقة أو قواعد، ولكنها على الأصح عبارة عن وسائل للنمو العام ومهارة الاستقصاء. وفي الإطار الذي حددته مارشال فإن الاستقصاء في حد ذاته هو جزء رئيسي في الحياة. وقد صرحت "أنا حالياً أفضل

فكرة أن الاستقصاء عملية حياة، وأعتبر أن كيفية السؤال أو الاستقصاء هو جوهر وجودي، وأن وجودي الكامل أو المتعدد يدخل في أي بحث أتولى مسؤوليته" (Marshall, 2004, p. 438)

وقد أكدت مارشال على أنه يجب أن يوجه الانتباه إلى الداخل والخارج في بحوث الفعل وأن نظم الانتباه هذه تتخذ مكانها في سياق من الدائرة المنظمة بين الفعل وانعكاسه، وبين كل من الفعل وإدراك الفعل. ولا يمكن أن يكون الاستقصاء غير مقصود، على الرغم من أن الخيال القصصي لبعض الممارسين يرى أنه يجب أن تتحدد بحوث الفعل بواسطة أي شخص آخر، ويجب أن يكون الباحثون أنفسهم محايدين تماما. ونعتقد أن تأكيدات مارشال كانت بحق مدروسة بعناية وعن قصد بينما حافظت على الانفتاح والقبول، والمهارة التي يمكن أن تتحقق فقط من خلال تقوية الفهم الجيد للأنانية والدوافع والحاجات المتأصلة الخاصة بشخص. وبشكل واضح فإن الوزن الأكبر لعمل لكل من تورييرت ومارشال يتخذ مكانه بقوة في نظم الانتباه وتعزيز المعرفة الذاتية كمتطلب سابق وربما كدافع أساسي لبحوث الفعل.

الاستقصاء التعاوني Cooperative Inquiry

John Heron Collaborative Inquiry لجون هيرون

جون هيرون John Heron هو أحد المتعاونين والناقد الصديق لبيرت ريسون Peter Reason (الذي وضع نموذجا جديدا للبحث الجماعي بلندن عام ١٩٨٧ بالتعاون مع ريسون وجون رومان John Rowan). وهو أيضا كاتب وممارس مثير بحكم سمعته الشخصية. وكان تركيز جون هيرون بوجه عام في عمله على العمليات الكبرى في البحث وعن قضايا المصادقية والتي جعلته ذات قيمة بالنسبة لنا للتعامل مع هذا العمل وفقا لتوجهاته الخاصة.

وكان كتابة الرئيسى عن هذه الموضوعات "الاستقصاء التعاونى: البحث فى الظروف الاجتماعية Co-Operative Inquiry; research into human conditions" يمثل تطورا شاملا للأسس المعرفية والمنهجية لبحوث الفعل. وقد بدأ الكتاب بالتوصل من أى رغبة فى خلق أى أرثونوكسية أخرى. وقد سعى هيرون بفعالية لتخطيط اتجاهه على أساس وجود الأنشطة الأخرى، شاملة الاستقصاء الكيفى بوجه عام، ووعد بالكشف عن نموذج الاستقصاء الذى يقوم عليه اتجاهه ومقارنته بالاستقصاءات الأخرى. وقد حاول الوصول إلى المستوى الذى توقعه، وقد استخدم نمونجا جذبا وغير محدود للتعامل مع الموضوعات المعقدة.

وكانت نقطة الانطلاق فى الاستقصاء المقارن تتمثل فى الواقعية المشتركة Participative Reality، والذى أشار إليه هيرون على إنه التلازم بين العقل والطبيعة (تذكر الأحداث الماضية Reminiscent لباتيسون Bateson, 1979) والإنتاج الضرورى والتعاونى لجودة المعرفة الإنسانية. إن ما وضع معالجة هيرون جانبا هو تمييزه بين الواقعية المشتركة باعتبارها قضية معرفية والقيم السياسية والأخلاقية المهمة والقوية للمشاركة والتنمية الإنسانية. وقد تم معالجتهم على أنهما بعدان متميزان. إنه لم يحاول أن يشنق أحدهما من الآخر، كما يتم فعل ذلك غالبا. إن تحقيق ديمقراطية إدارة البحث العلمى تعتبر قضية حقوق إنسان مثلها مثل ديمقراطية الحكومات على المستويات المحلية والقومية (1996, p. 21).

وقد ربطت مناقشته للاستقصاء التعاونى الفعال بين مفهومين للمشاركة، وقد دافع عنهما دفاعا علميا منظما ضد الاتجاهات الأخرى التى تعتبر أكثر محدودية. لقد استخدم الاختلافات بين المعرفة التجريبية والتقديمية والعملية فى كل مكان عندما يبدأ باحث الفعل الجيد فى العملية بواسطة المعرفة التجريبية.

وقد واجه هيرون أيضا قضايا الحقيقة والمصادقية بإنصاف، بدلا من القيام بتبرير أى انحرافات منهجية أو معرفية. ويعتبر هيرون من المعتقدين الأقوياء بوجهة نظر بحوث الفعل عن المعرفة. وقد عمل هيرون خلال أساليب مختلفة لبدء عملية الاستقصاء، وكان من الممكن حدوث أشياء مختلفة فى مراحل متنوعة. وعلى الرغم من ذلك لم يتوفر أى حل لمشكلات التأليف التعاونى، وقد واجه هيرون هذه القضايا بشكل مباشر وصريح.

وقد تتبّه هيرون بوجه خاص إلى قضايا المصادقية وقد قدم مساهمات مهمة فى مناقشته الواسعة عن بحوث الفعل. وقد ربط حلقات الاستقصاء وردود الفعل والفعل وغيرها من العناصر بوجهة النظر الكلية عن ما الذى يؤسس للمصادقية فى هذا النوع من العمل. ونعتقد أن هذا لا يزال مستقرا كأكثر العبارات شمولاً لاتجاه المصادقية الموجود فى أدبيات بحوث الفعل. وقد كانت دفاعات هيرون من خلال إجراءات المصادقية عبارة عن عملية توازن بين التقارب والنشئ، وعناصر رد الفعل. وقد تم مناقشة المصادقية بصورة أكبر فى الفصل الرابع. وكما هو دائما فى بحوث الفعل فإنهم يضمنون الفعل أو حلول عملية.

وقد أخذنا هيرون إلى هذا الطريق الطويل حيث عاد (١٩٩٦) إلى وجهة نظر العالم الكبرى التى توجه الاستقصاء التعاونى. وقد صرح مرة أخرى بالتزامه بما أطلق عليه الإمبريقية. ولكنه أفسد ذلك بتأكيد على أن الإمبريقية تعنى عدم الحكم المسبق على محتوى الخبرة. وقد باشر هيرون بفعالية مفكرى الاتجاهات الإمبريقية فى أماكن نفوذهم على أن آراءهم الخاصة عن الإمبريقية ليست كافية تماما. وقد أغلق العمل من خلال إظهار كيف أن الاستقصاء التعاونى الفعال هو أفضل فى تحديد المشكلات والمعضلات السياسية والإمبريقية والنظرية من البحث الاجتماعى التقليدى.

كان تأكيد هيرون على المصداقية هو ما تبناه كل من برادبوري وريسون في الفصل الأخير من دليل بحوث الفعل (Bradbury & Reason, 2001) وكان اختياراً مشوقاً حيث بين أن مناقشة هيرون لأهمية تناول قضية المصداقية في بحوث الفعل قد لاقت قبولا واسعا. وبدلاً من القول إن إجراء البحث بطريقة جيدة أخلاقياً ينتج تلقائياً بحثاً جيداً، أصبح من الواضح الآن أنه يجب علينا تنظيم مناقشات دفاعية تتعلق بجودة أعمالنا ومصداقيتها.

وقد راجع كل من برادبوري وريسون المعاني المتعددة للمصداقية وكيف أن يكون من غير المقبول لبحوث الفعل أن تقبل محاولة أفكار ما بعد الحادثة في تحطيم كل معايير المصداقية. لقد ربطوا قضايا المصداقية بقضايا الجودة نظراً لأنه بدون الحكم على ما هو ذو جودة مناسبة من الصعب تحديد ما العمل الصادق. وتعتمد الجودة بصورة كبيرة على أهداف الاستقصاء. لذلك فإن قيمة العمل تعتبر من العناصر الرئيسية في الحكم على المصداقية.

والمصداقية في بحوث الفعل شأنها شأن أى شيء آخر هي دينامية، وإجرائية. وتوجد العديد من الوسائل المختلفة للتعامل مع المصداقية في كل نوع من العملية وكل نوع من المعرفة المنتشرة. وقد أنهى برادبوري وريسون مقالتهما بصياغة أكثر حماسة والتي نعرضها كالتالى:

القضايا كنقاط اختيار وتساؤلات حول جودة بحوث الفعل

هل بحوث الفعل:

- واضحة في تطوير تطبيقات المشاركة- الاتصال؟

- تسترشد برود الفعل حول النتائج العملية؟

- منضمة للمعارف المتعددة؟

- تضمن التكامل النظري-المفاهيمي؟
- وسائل تقبل ما وراء العقل؟
- تختار بعناية طرق البحث المناسبة؟
- جديرة بمصطلح الدلالة والأهمية؟
- تبدو قريبة من أن تكون بنية تحتية راسخة؟

(Bradbury & Reason, 2001, p. 454)

الخلاصة:

إن الإتيان بكل مسارات الفكر هذه يعطى لنا وجهة نظر واسعة عن مجموعة محددة من الاتجاهات المرتبطة ببحوث الفعل والراسخة بقوة فى علم النفس الاجتماعى والنمو التنظيمى وأنشطة الخدمات الإنسانية. ويقوم الممارسون بمحاولات أكثر من أى أطراف أخرى وضع خريطة لمجالات بحوث الفعل وربط المناقشات عن الموارد المتفاوتة وميادين ممارسة بحوث الفعل فى حوار عالمى واسع. وقد كانت هذه المساهمة الكبيرة والميدانية مختلفة بدرجة كبيرة الآن عما كانت عليه حتى قبل خمس سنوات بسبب هذا العمل.

ولدينا أيضا بعض الآمال فى أن تتخذ توجهات المستقبل مكانها تحت هذا العنوان. إن ما يعوقنا بشكل واضح هو أنه باستثناء بعض العناصر فى عمل توربيرت وهيرون، فإن نماذج الشخص الأول والشخص الثانى فى عملية الاستقصاء وتحليله ونظم الانتباه المصاحبة لهم تأخذ نصيب الأسد من الاهتمام. ويعتبر ذلك جزئيا نتيجة للدافعية القوية لهذه الجماعة فى علم النفس

الاجتماعى والعلاج النفسى، والممارسات الوسيطة. وهذا التأكيد يمثل مطابقة صحية للمبالغة فى التأكيد لمدة طويلة على نماذج الشخص الثالث من الاستقصاء فى كل من بحوث الفعل وفى العلوم الاجتماعية التقليدية. ولكن كل واحدة من هذه المبالغات لا تتفق فى الصحة مع الأخرى.

ومن خلال التركيز بقوة على أول وثانى شخص، قالت العديد من الكتابات فى هذا المجال الكثير عن الديناميات الشخصية وبين الشخصية أكثر مما قالت عن الديناميات الأكبر للتغير التنظيمى والتحول. وتبدو التنظيمات وكأنها تتأرجح على خلفية التفاعلات الشخصية والمزدوجة بدلا من الأنساق التى تمتلك دينامياتها الخاصة أيضا.

ويربط بذلك أيضا - ولكن بدون أى معان ودلالات متضمنة فى إطار عمل- الميل إلى دراسة الجماعات الصغيرة والتركيز على نظام توزيع الخدمات الاجتماعية والمنظمات التعليمية. ولا تجد أى اهتمام هنا بكل من منظمات القطاع العام الكبرى والبيروقراطيات الكبيرة والمؤسسات الصناعية ومبادرات التنمية الإقليمية والشركات متعددة الجنسيات وغيرها.

وتوجد هنا إشارات مهمة إلى أن هذا التغير بسبب انتقال بيتر ريسون ورفقائه إلى ميادين كبيرة وجديدة للتطبيق والتى جعلت أنشطتهم ترتبط بالديمقراطية الصناعية المهددة لبحوث الفعل. وكان أحد هذه المشروعات باسم "إمكانية خفض الكربون؛ وذلك بدمج بحوث الفعل لتعزيز عملية بنى إدخال الأساليب التكنولوجية الحديثة لخفض الكربون" وقد سعت لخلق فهم جديد لوسائل تغيير انبعاث الكربون، وخاصة فى الصناعات الغذائية. وعند بنى ذلك ركزت الجماعة على المعوقات التنظيمية لحل هذه "الأزمة mess" والارتقاء بجهود التخصصات المتعددة والمتعاونة فى بحوث الفعل، والتى تشمل فريق مؤتمرات البناء والحوار، لمواجهة هذه التعقيدات

(Reason, Personal communication).

وقد ركز المشروع الكبير الآخر على التحول فى إدارة الخدمات العامة بويلز على وجه الخصوص من خلال الاهتمام بتطوير الإدارة الوسطى. لقد ركز على بناء شبكة من التعلم المشترك من خلال عمليات إنتاج تعاونية. وكان لهذا البرنامج ثلاثة أهداف: تطوير الإدارة، وخلق جماعات تعلم فعل، والتحول إلى الثقافة التنظيمية فى الخدمات العامة بويلز

(Reason, Personal communication)

الفصل الخامس عشر

علوم الفعل والتعلم التنظيمي

Action Science and Organizational Learning

من خلال اختيار علوم الفعل (AS) والتعلم التنظيمي (OL) للعلاج الممتد، فإننا نؤكد على أهميتهما كأحد خطوط تنمية وتطوير اتجاهات بحوث الفعل لكورت ليفين (Kurt Lewin, 1935, 1943, 1948) وكذلك الفلسفة البرجماتية والاستفادة منها في بحوث الفعل الحالية. ونحن نعتقد أن علوم الفعل تجسد واحدة من أهم المحاولات المنظمة والمهمة لبناء بحوث الفعل بطريقة تحترم الحاجة إلى كل من الوضوح العلمي والفائدة العملية. ويعتبر كل من التعلم التنظيمي وأطر التنمية التنظيمية مساهمتين علميتين في بناء المعرفة في العلوم الاجتماعية والتي ظهرت من بحوث الفعل. ومهما يكن فلن نكون عادلين إلا عندما نعرض انتقاداتنا بوضوح.

وتعتبر علوم الفعل ذات أهمية في هذا الكتاب نظراً لأن مناقشتها تسمح لنا بتضمين اتجاه بحوث الفعل ذات التركيز السيكودينامي، كعنصر في بحوث الفعل تم تقديمه على الأقل من ٥٠ سنة. وكان من أهم المهندسين الرئيسيين لعلوم الفعل والتعلم التنظيمي كريس أرجيريس ودونالد سكوت، وكل منهما اتسم بغزارة كتاباته وشهرته بوصفه معلماً. وقد كتب أرجيريس عن هذه الموضوعات والأفكار من العديد من وجهات النظر المتنوعة خلال سنوات (1974, 1980, 1985, 1993; Argyris & Schon, 1978, 1996; Schon, 1983). وقد اخترنا التركيز على محتويات عملين كبيرين هما "علوم

الفعل: مفاهيم وطرق ومهارات البحث والتدخل (Argyris, Putnam, & McClain Smith, 1985) وهى مقالة محورية عن اتجاه علوم الفعل: وكتابان الأول عن التعلم التنظيمى تأليف مشترك لكل من دونالد سكون والتعلم التنظيمى II (١٩٩٦). وقد ربطت هذه الأعمال بين علوم الفعل والممارسة الانعكاسية وبين آراء ووجهات نظر التعلم التنظيمى.

علوم الفعل (AS) Action Science:

ونركز على كتاب علوم الفعل الذى ألفه كل من كريس أرجيريس وروبرت بوتنام وديانا ماكلين سميث Chris Argyris & Robert Putnam and Diana McClain Smith (1985) وهذا الكتاب متاح أيضا على الموقع الإلكتروني (http://www.actiondesign.com/acton_science/index.htm)

نظرا لأنه يحتوى على المقومات الأساسية لاتجاه علوم الفعل: ونحن كنا قادرين على استخدام هذا الكتاب فى الفصول الدراسية حيث نجح فى إجراء مناقشات واضحة لقارئه من أول مرة. ونحن نعتقد أن هذا الاتجاه يستحق تقديم عرض تفصيلي وممتد نظرا لأن علوم الفعل هى المعبر الرئيسى لتطوير بحوث الفعل، والتى تمزج عناصر من النظرية العامة للأنساق والتحليل النفسى ووجهات النظر حول السلوك التنظيمى. كما أنه ينطلق بوضوح من قضايا المعرفة العلمية فى ممارسة التغيير الاجتماعى. وحتى الآن يعتبر واحدا من أفضل الجهود التى تتعامل مع العلاقة بين بحوث الفعل والطرق العلمية.

وفى البدايات المبكرة لعلوم الفعل حدد المؤلفون غرضهم بوضوح فى "ينصب تركيزنا على المعرفة التى يمكن أن تستخدم لإنتاج الفعل، بينما

فى الوقت نفسه تساهم فى تكوين نظرية للفعل" (p. ix). ولتحقيق ذلك فقد ناقشوا الربط بين بناء النظرية واختبارها فى الفعل كمستودع فريد للأفعال.

وقد اعترف كل من أرجيرس وبوتنام وماكلين سميث أنه نادرا ما يتم القيام بهذه المحاولة: لقد عملوا على تفسير هذا الفشل من خلال مناقشة ما أطلقوا عليه الصراع الزائف بين "الدقة Rigor" وبين "الارتباطية Relevance". وقد أشار المؤلفون إلى العادة التنظيمية الراسخة لمدة طويلة فى العلوم الاجتماعية والتي تقترض أن ما هو مرتبط، وما يرتبط بالعالم الواقعى فى المواقع المعروفة لا يمكن أن يكون بواسطة تحديد مصدر المعرفة الدقيقة. وقد رأوا أن الدقة والارتباطية تمثل تقسيمات زائفة. وبالإشارة إلى وجهة نظر ليفين بأن أفضل وسيلة لفهم شىء ما تكون بمحاولة تغييره، فقد رأوا أن الطريق إلى الدقة يقع فى محاولة تطبيق النظرية الاجتماعية فى علوم الفعل، وهى النظرة التى تتسق مع فلسفة بحوث الفعل والتي طرحناها فى فصل سابق.

المواجهة Confronting:

تعتبر المواجهة مفهوماً رئيسياً وطريقة فى علوم الفعل. والمواجهة هى العملية التى بواسطتها يكون الفاعلون الاجتماعيون مجبرين على أن يصلوا إلى المصطلحات بوضوح مع ردود أفعالهم الدفاعية للتغيرات والتهديدات المدركة بواسطة التحقق من أسباب ردود أفعالهم وتحليل عواقب تعاطيهم لها. ومن خلال أرجيرس وآخرين (١٩٨٥) فإن تحديد أن ليس كل ردود الأفعال الدفاعية لها عواقب سلبية، فقد اعتقدوا بقوة أن أنماط السلوك الدفاعية هى الأسباب الرئيسية للملاحظة واسعة الانتشار التى غالباً ما تدور الجماعات بشكل لانهاى بين متطلبات الصراع عندما تكون الوسيلة الوحيدة تجاهه هى المواجهة وحل الصراعات.

نظرية التغيير والجمود :Theory of Change and Stasis

من وجهة نظر أرجيرس وآخرين فإن الهدف من علوم الفعل هو خلق نوع من الاستقصاء عن كيفية تصميم الكائن الإنسانى للفعل وتطبيقه فى علاقته بفعل آخر. إذن فهو يعتبر علم الممارسة (1985, p.4).

ويتسم أهدافهم بأنها أكثر طموحا بسبب أنهم استهدفوا التحقق من:

- (١) المتغيرات المتضمنة فى الوضع الحالى والتي يحتفظ بها هذا الوضع.
- (٢) المتغيرات المتضمنة فى تغيير الوضع الحالى والتحريك نحو البدائل اللبيرة.

(٣) المتغيرات الموجودة فى علم التدخل والتي سوف تكون مطلوبة لو كانت الافتراضات السابقة تحت الاختبار، وأخيرا.

(٤) منهجية البحث سوف تجعل التغيير ممكنا وفى الوقت نفسه تنتج المعرفة التى تواجه الصارمة القاسية لعدم التأييد **Disconfirmability**.

وقد سعى أرجيرس وآخرون (١٩٨٥) من خلال الأساليب المستخدمة فى هذه الجهود إلى تطوير ما أسماه "علم الممارسة Science of Practice" (p.4) والذي من خلاله يمكن مساعدة الأفراد والجماعات على خلق إدارة عالمية سلوكية وصيانتها توصل إلى إنتاج معلومات صادقة (تحت) الظروف والتي من خلالها تستطيع القوى (الفاعلون) المختلفة تكوين اختيارات حرة ومعلنة وشعور داخلى بالالتزام بهذه الخيارات (p.77).

الموضوعية :Objectivity

اتخذت علوم الفعل الحصن الذى تتخذه العلوم الاجتماعية والذى يسمى الموضوعية بشكل مباشر، بسبب أن أرجيرس وآخرين (١٩٨٥) توقعوا

بشكل صحيح أن الاعتراضات الجوهرية والأساسية على الصيغ التي وضعوها سوف تتركز على معايير الفلسفة الوضعية الدفاعية الروتينية. وكانت استجاباتهم لمناقشة الموضوعية تتمثل في أنه ليس من الممكن تحقيق حتى الحد الأدنى من "الوصف الصادق" (Valid Description) (p. xii) حتى يمكن على الأقل جذب أنماط الدفاع الروتينية للمشاركين بصورة مباشرة. لأنه من وجهة نظرهم فإن هذه الأنماط من السلوك الدفاعي يمكن أن تكون فعالة أو تمثل نوعاً من الخلل الوظيفي، وليس من الممكن فهم السلوك حتى يمكن البدء في تصنيف هذه العناصر. وبكلمات أخرى فإن الوصف الإمبيريقى نفسه غير ممكن دون التدخل، والهجوم المباشر على وضع العلوم الاجتماعية التقليدية.

التدخل والعلم Intervention and Science:

حث أرجيرس وآخرون (١٩٨٥) على التدخل باعتباره مصدراً رئيسياً للتوصيفات الدالة على الأسس التي يمكن أن تبنى عليها علوم الفعل. وقد عكسوا اتجاه العلوم الاجتماعية التقليدية إلى الدقة والارتباطية من خلال مناقشة أن الاتجاه المعيارى للدقة يعكس افتراضات لا ارتباطية غير مختبرة وغير قابلة للاختبار. وسوف نناقش أن النظرية التي تقصد أو تستهدف المساهمة في الممارسة يجب أن تكون لها خصائص تختلف عن النظريات المسؤولة فقط عن معايير العلوم البحتة.

ومن وجهة نظرهم فإن ما يجعل العلوم الإنسانية متميزة أنها تدرس جماعة الناس في الممارسة، وأن علماء الفعل هم ممارسون ينخرطون في عمليات متوازية للممارسة والانعكاسات والدفاعات والمعارضات مع المشاركين المتعاونين معهم (p.22). وفي النهاية فإن أهدافهم ليست أقل من التالي:

تهتم علوم الفعل بشكل أساسى بممارسة التدخل. وإنها بواسطة رد الفعل على هذه الممارسة، والذي نأمل أن يساهم فى فهم كيف أن المعرفة تتطلب الاختبار وأن تتوافق مع الممارسة، وكيف أن أى استقصاء يتشابه مع أو يختلف عن العلوم السائدة (p.33).

اعتناق النظرية والنظرية قيد الاستخدام

Espoused Theory and Theory-in-Use

من خلال مناقشته لعلوم الفعل، استخدم أرجيرس مفاهيم ونظريات تم وضعها فى العديد من الأعمال السابقة والتى تتضمن بعض كتاباته مع دونالد سكون (Argyris & Schon, 1978, 1996). ومن بينها النظرية التى يتم اعتناقها والنظرية قيد الاستخدام الحلقة التعليمية المفردة **Single- Loop Learning** والحلقة التعليمية المزدوجة **Double- Loop Learning** ونموذج ١ ونموذج ٢ لنظريات الفعل. ونوضح هذه الأفكار هنا باختصار لأنها تمثل العناصر الأساسية فى البنية التحتية لعلوم الفعل باعتبارها شكلاً للممارسة.

إن مصطلحات نظرية المزاوجة أو النظرية قيد الاستخدام لا يشير إلى مفاهيم تم اكتشافها حديثاً، ولكن بالأحرى هى أسماء لأفكار مشهورة تعتبر مهمة فى أى نوع من البحوث الاجتماعية ذات الكفاءة. وتشير النظرية التى تم اعتناقها إلى التقييم الذى يعطيه الفاعلون عن أسباب أفعالهم. وتشير النظرية قيد الاستخدام إلى استنتاجات القائمين بتحليل الملاحظات عن النظرية التى يجب أن تشكل أساس الأفعال الملاحظة لنفس الأشخاص لو أن أفعالهم أصبحت مفهومة. وغالباً لا تتزامن النظرية التى يتم اعتناقها والنظرية قيد الاستخدام معاً، وأحياناً ما يتعارضان مع بعضهما بشكل مباشر.

وهذه النظريات لا تمثل اختلافات جديدة. ففي الأنثروبولوجيا يتم وصفها على أنها تميز بين الاتجاهات *Emic and Etic*. وقد طرحت المادية التاريخية القضية نفسها في مصطلحات الأيديولوجية والبنية التحتية، كما استخدم جرامسكي (1975) *Gramsci* مفهوم الهيمنة *Hegemony*. وأن ما يعتبر جديدا عن علوم الفعل هو أن المسافة بين النظرية التي تم اعتناقها والنظرية قيد الاستخدام أصبحت تمثل تركيز الاهتمام على استقصاء الجماعة داخل أفعالها الخاصة كأدوات لمحاولة نقل الجماعة إلى دينامية أكثر تحررا.

وتشير الحلقة التعليمية المفردة إلى الموقف الذي يغير فيه كل من الأفراد والتنظيمات سلوكهم، ولكن لا يفعلون أى شيء لتغيير الإستراتيجيات السلوكية التي تزيد من المواقف الإشكالية بشكل مبدئي. والموقف الإشكالي يتم تناوله بشكل محدد ويقوم المشاركون بتحسين قدرتهم على حل تحديات محددة. ويتمثل التأثير هنا في تحقيق نوع من التحسن المحتمل والقصير في المشكلة، ولكن بسبب أن الأسباب الرئيسية لم يتم مواجهتها تعود المشكلات مرة أخرى. إنهم يصرون على القوة وإعادتها بمجرد مواجهة معضلات ومشكلات جديدة.

وفي المقابل تنتج الحلقة التعليمية المزدوجة *Double- Loop Learning* من الاستجابة للمشكلة من خلال التوسع الخلفي وفحص بدائل الأطر الأكبر التي من خلالها توضع المشكلة. فالمشكلات الفورية والمباشرة يتم فهمها على أنها نتاج عن السياق الذي يحتاج إلى تبديل في حد ذاته. وبتغيير هذا السياق يمكن أن تنتقل الجماعة إلى خطة جديدة للتعلم التنظيمي والتغيير. وترى علوم الفعل بوجه عام أن الإصرار على حلقة التعلم الفردية هو نتاج لردود الفعل الدفاعية والاستنتاجات غير المناسبة عن دوافع الآخرين.

وتتمثل أهمية التمييز بين الحلقة الفردية والحلقة المزدوجة في تحديد أنواع معينة من المشكلات كتلك التي يجب أن تتجه علوم الفعل إلى استهدافها. وهذه المشكلات هي التي تستمر على الرغم من الجهود التي تبذل لحلها. ومن المحتمل أن تتجسد داخل هذه المشكلات حلقة مزدوجة من القضايا (Argyris et al, 1985, p.87).

وارتباطا بهذين النوعين من التعلم توجد نظريات الفعل. والتي أسماها أرجيرس وآخرون (١٩٨٥) "نموذج ١" ويقوم هذا النموذج على امتلاك ضبط أو تحكم أحادي على الآخرين. ويؤيد القليل من العلماء نموذج ١، ولكن يمارسه الكثير من الناس. وهناك نظرية أخرى للفعل هي "النموذج التنظيمي ١" Model O (rganizaional) وهذا النوع من نظرية الفعل يزيد من نسق التعليم المحدود الذي يصحح الأخطاء التي لا نستطيع إخفاءها ولا تهدد المعايير الأساسية للجماعة. وهنا يكون التركيز على المشاركة الواسعة، وأيضا على اتجاهات المكسب أو الربح Win-win Approaches، والتركيز القوي على التعبير عن المشاعر أثناء التحليل العقلي للقمع.

وبالتوازن مع ذلك يوجد "نموذج ٢" لنظريات الفعل. ويوجد من خلال نموذج ٢ حد أدنى من العلاقات الجماعية والشخصية الدفاعية، وحرية كبيرة للاختيار واتخاذ مواقف المجازفة العالية. ويكون هناك احتمال قوى لتعزيز حلقة التعلم المزدوجة وتزداد فعاليتها بمرور الوقت (Argyris et al, 1985, p.102).

وينطبق الكلام نفسه على النموذج التنظيمي ١١ Model O (rganizaional)، ولكن استكمال الأفراد للجماعية يعتبر خارج نموذج ٢ للنظريات قيد الاستخدام. وتكون النتيجة تكوين مجتمع من الاستقصاء والتي من خلاله يتم فتح العديد من القضايا والصراعات والذي يمكن من خلاله أيضا استخدام كل من حلقات التعلم الفردية والزوجية.

Empirical Testing In Action Science

من أهم الخصائص التي تتميز بها علوم الفعل هي اهتمامها القوي بطريقة تطوير اختبارات التفسير. ويقوم هذا المنظور على أساس التطوير الشامل لكل أنواع المفاهيم المستخدمة في الأسباب المساهمة في أنماط سلوك الناس. وتحديد المسؤولية عن هذه الأسباب، وتحقيق اتفاق بين الأشخاص المشاركين حول البيانات.

وقد استخدم الأسلوب الذي سمي "سلم الاستنتاج Ladder of Reference" لربط موضوع الحوار والتفسيرات والأفعال داخل تفسير تحليلي للتفاعلات. وتتعامل من خلال علوم الفعل مع هذه القضية مع مساعدة الأدوات المفاهيمية النظرية وسلم الاستنتاج. ويعتبر ذلك عرضاً تخطيطياً للخطوات، والتي من خلالها تختار الكائنات الإنسانية منها وتقرأها داخل التفاعل كنوع من الفهم لحياتهم اليومية (Argyris, et al, 1985, p.57).

ولبناء هذا التحليل فإن أول جولة هي التعبير بالكلام العادي في موقف محدد. ومن ثم يحدد الملاحظون والمشاركون معنى هذا التعبير (كل من وجهة نظره ومن وجهة نظر الناس الذين يتعاملون معهم). ويتم فحص هذه المعاني والمقارنة بينها، ويتم تحليل الاستنتاجات التي تم الوصول إليها. ويشير سلم الاستنتاجات إلى العلاقات الارتباطية للتحليل بين التعبير والتفسير الذي تم الوصول إليه. وبالضبط يقوم معظم الناس بعمل استنتاجات قوية جداً عن أهداف الآخرين على أساس البيانات غير الموثوق بها Shaky data. والمهم هنا أن التحرك أعلى وأسفل السلم معاً مع الفاعلين في الموقف يتم فحصه، واختبار كيف تم الوصول إلى الاستنتاجات، وما الذي أخذ الاهتمام الأكبر، وما الذي تم إهماله. ومن خلال ذلك نقود أنماط السلوك إلى الإصرار على حلقة التعلم الفردي وإمكانية اختبارها.

لاحظ أن سلم الاستنتاجات هو أسلوب للتدخل التنظيمي، وليس مجرد أداة بحث. لأنه يطبق بسبب أن لدى الجماعة مشكلة، وهى أنها تتضمن تفويض عالم الفعل لمساعدتها على محاولة حلها. فالتدخل ليس فى طرف متعارض لمتصل من الفعل إلى البحث. ولكن وفقا لما وضعه أرجيرس وآخرون (Argyris et al, (1985 "تدخل علم الفعل المناظر للتجريب" (p.64). وبدون التدخل لا يوجد علوم فعل. إن ميراث كل من ليفين وديوى واضح.

مثال استرجاعى لعلم الفعل: تجارب ميلجرام:

A retrospective Example of Action Science; The Milgram Experiments

لعل أحد أكثر المميزات وضوحا لأرجيريس وآخرين (١٩٨٥) هو النقد الرائع وإعادة صياغة التجارب الشهيرة لعالم النفس الأمريكى ستانلى ميلجرام (Stanly Milgram (1974 عن استعداد الناس العاديين لتوجيه الأذى على الكيانات الإنسانية المماثلة. وبالتعليق على تجارب ميلجرام، وتميز إستراتيجيتهم عن ميلجرام، فقد نجح أرجيرس وآخرون فى إظهار كيف يختلف علم الفعل عن العلوم الاجتماعية التقليدية حتى عن الموضوعات ذات العلاقة اجتماعيا.

وقد استخدم ميلجرام حشداً من الناس بإعلانه الافتراضى لتعلم الخاضعين للتجربة بعض الكلمات المترابطة الدلالة. وعندما يفشل الشخص يقوم المعلم بمعاقبته بصدمات كهربائية، وتزيد هذه الصدمات بمرور الوقت فى البرنامج التجريبي حتى تصل إلى مستويات خطيرة. وفى الحقيقة فإن ميلجرام ومفردات العينة التجريبية كانوا يتعاونون بشكل سرى ولا تستخدم أى صدمات كهربائية. ومع ذلك لم يعلم المدرسون بذلك.

وقد قابل ميلجرام المدرسين فى البداية وقد أكدوا جميعا أنهم لا يرغبون فى إيذاء الكيانات الإنسانية. ومع ذلك وجد ميلجرام عددا كبيرا من ردود الفعل المتنوعة لدى المدرسين، فالكثير منهم كان لديه الرغبة فى توجيه الصدمات إلى المفردات التجريبية. ومن خلال ذلك استنتج ميلجرام، بدون خط واضح من البيانات، إن البشر ليسوا عدائين أو عدوانيين فطريا، ولكن بالأحرى لديهم إرادة ضعيفة وميل إلى اتباع التعليمات والأوامر التى تصدر من السلطة. وفى ضوء هذه النتائج سمى هذا العمل "تجارب أيكمن Eichmann experiment"، وقد قدم ميلجرام تقرير النتائج بعد عشر سنوات تقريبا من انتهاء هذا العمل، ولكنه لم يقدّم بأى تدخل اجتماعى غير طبع هذا الكتاب.

وبالتعليق على عمل ميلجرام (١٩٧٤) أظهر أرجيرس وآخرون (١٩٨٥) احترامهم لإنجازات ميلجرام، ومع ذلك ميزوا بين اتجاههم وبين عمله. "ومن أجل وصف بعض الظواهر بطريقة موثوق بها فإن أول ما يجب عمله هو الرجوع إلى خصائصها الجوهرية وبناء الموقف الذى يجنب الانتباه لوجوده وجوهره" (p.111).

ومن وجهة نظر أرجيرس وزملائه فإن ميلجرام لم يحاول تغيير الموقف ونتائجه. وهذا ما أدى إلى فقدته إمكانية فهم نشأة السلوك الملاحظ وتكوينه. ونتيجة لذلك لم تستطع تجاربه إنتاج المعرفة التى ربما تساعد الأفراد على التغلب على مشكلاتهم وأزماتهم. إننا لم نتعلم قط من البدائل التى ربما تمثل إدارة أفضل لهذا السلوك، ولم نكتشف البناءات العميقة التى تبقى عليه.

وقد أراد نموذج ٢ لأرجيريس وأتباعه تغيير معاملات ثبات Parameters التجربة لتغيير النتائج. ونظرا لأن ما هو مرغوب اجتماعيا هو الناس (السكان) فى الوضع الذى لا يرغب أحدهما فيه فى اتباع الأوامر

غير الأخلاقية، وقد أكد أرجيرس وأتباعه على أن بحوث الفعل يجب أن تركز على المعلمين المتمردين والتحقق من أسباب عدم رغبتهم في اتباع مثل هذه الأوامر. ومن خلال ذلك يمكن أن تتطور النظريات عن أسباب عدم التمرد (عدم الطاعة)، ويمكن أن تتنوع التجربة لزيادة أسباب عدم الطاعة حتى يتحقق أقصى عدم طاعة ممكن. وبهذا الأسلوب فإن استقصاء نموذج ٢ يستهدف التحقق من أسباب السلوك والتدخل المباشر للارتقاء بالسلوك المرغوب أخلاقيا لمفردات عينة البحث. والمسافة بين هذا والعلوم الاجتماعية التقليدية واضحة، وأن الأساس الذى تقوم عليه العلوم الاجتماعية التقليدية نفسه يظهر على أنه حلقة فردية، ونموذج ١ للسلوك.

ممارسة علوم الفعل Practicing Action Science:

لا يوجد محتوى مبسط لتصميم نظريات تجريبية لعلوم الفعل، وقد صاغ أرجيرس وأتباعه (١٩٨٥) أيضا عددًا من قواعد الممارسة التى توجه علوم الفعل لديهم. وبالتوازي مع ذلك وضعوا سلسلة قواعد لاختبار الفروض، وتقريبًا لم يتم مناقشة هذا الموضوع فى أدبيات بحوث الفعل. وكلما فكر أى شخص فى هذه النسخة من علوم الفعل، يوجه أرجيرس وأتباعه الانتباه بشكل صحيح على التفكير العلمى كأولوية عالية.

الخصائص الإيجابية Positive Features:

يوجد الكثير من الفوائد فى هذا الإطار. وبدلاً من تبرير الفعل باستخدام بعض أنواع المناقشة الأخلاقية حول التعامل مع المشكلات الاجتماعية، فإن أرجيرس وأتباعه (١٩٨٥) وجدوا فى علوم الفعل أنها

أفضل شكل للاستقصاء العلمى من العلوم التقليدية. وقد التقطوا أيضا جوهر مناقشات كل من ديوى وليفن والتي تتمثل فى أنه من خلال الفعل يمكن أن يحدث التعلم. لذلك ومن وجهة نظر هذين المؤلفين، فلكى يكون البحث الاجتماعى علميا فلا بد أن يكون مرتبطا اجتماعيا. ولوضع ذلك فى الإطار الذى استخدمه أرجيرس طويلا، فإن الهدف من علوم الفعل هو زيادة إمكانية الوصول إلى تحقيق النتائج الليبرالية المفيدة اجتماعيا. وقد أرادوا تحقيق ذلك من خلال نشر الطريقة العلمية. ويتمثل المنطق الجوهري لمناقشتهم فى أن أى بحث اجتماعى لا يتضمن التدخل لا يكون علميا، وهذه المناقشة التى قاموا بها كانت فعالة تماما فى تحليلهم لتجارب ميلجرام.

ويتمثل الجانب العكسى من هذا المنطق فى تعبيرهم الأقل وضوحا وحكمهم الأكثر حدة على العديد من باحثى الفعل الآخرين. وقد رأى أرجيرس وأتباعه أن عددا كبيرا جدا من باحثى الفعل تقبلوا بكل روتينية الفصل بين التفكير والفعل والذى يميز العلوم الاجتماعية التقليدية، واختاروا تبرير عملهم هذا بخطورة المشكلة التى يدرسونها، أو جودة الأهداف التى يضعونها. وبكثير من البلادة، فإن الجزء الأكبر من بحوث الفعل يتميز بالمعارف الغامضة الضبابية والمنهجيات المفككة والمفتقدة إلى الدقة. وبمنطق علوم الفعل فإن هذا فى حد ذاته هو نموذج ١ سلوك الحلقة المفردة والذى لا ينتج مجتمعا ناجحا من الاستقصاء.

النقد Critique:

النفسوية Psychologism، والصيغ الدفاعية المتكررة Defensive Routines، والمتدخل الأبوى Intervener Paternalism

بالنسبة لنا فقد أخذت علوم الفعل جزءا ضئيلا من تعقيدات علم النفس الإنسانى، وحتى مع ترحيبنا بتحليل الدافع والسلوك على هذا المستوى. وبهذا

المعنى فإن علم النفس الإنسانى وثيق الصلة بالفعل، قد قلل من إنتاج أساليب الدفاع التى تؤدى إلى نتائج ذات حلقة مفردة. ولم يعد مقبولا بالنسبة لنا أن الدفاع هو مجرد عملية نفسية كبرى ترتبط بظواهر الجماعة. إن ثراء الدوافع الإنسانية والتفاعلات المعقدة بين الأفكار الثقافية والاقتصادية والسياسية لمواقف معينة، والاختلافات المعقدة بين كل المشاركين فى موقف معين لا يمكن الكشف عنها لو أن التحليل ركز فقط على الدفاعية.

ومن غير الواضح كيف أن علماء الفعل أنفسهم قد تغلبوا على هذه الدفاعية. وطبقا لوجهة نظرهم فإن الدفاعية هى شكل "مهمل" من الفعل الإنسانى (فقد وصفوا نموذج ١ على أنه استجابات الأفراد "الطبيعية" والتلقائية" (Argyris, et al, 1985, p. 151) وهذا الافتراض مهم جدا بسبب أنه يخلق ثغرة غير واضحة بين الميسر ومفردة العينة.

وبالتخلى عن أنماطهم الخاصة يصبح المشاركون غير قادرين على إعادة تصميم نموذج ١ النزعات (الاستعدادات) التى تؤدى إلى الفشل المتكرر. وبدلا من ذلك يستمر الشعور بالإحباط وانعدام الأمل، فربما يقرروا أنه من غير الممكن إنتاج نموذج ٢ للفعل وبذلك يبررون انسحابهم، أو ربما يقررون أن بعض إستراتيجيات نموذج ١ أفضل مما هو متوقع، ومن ثم لا يركزون على سماتهم غير البناءة. وبكلمات أخرى فإن الدفاعات التى تمكن الناس من أن يكونوا غير مدركين لنظريتهم قيد الاستخدام فى نموذج ١ العالمى فإنها تعيد تأكيد ذاتهم. وتتمثل المهمة الأساسية للقائم بعملية التدخل فى مساعدة المشاركين فى البدء فى إعادة تنظيم نظريتهم قيد الاستخدام بشكل حقيقى وصادق (Argyris, et al, 1985, p.338).

ولا يوجد تبرير يمكن أن يقدم لهذه الحالة ولا أى شرح أو تفسير يمكن أن يقدم لمصادر القدرات الإنسانية "غير الطبيعية Unnatural" للقائمين

بالتدخل للتغلب على هذه المحددات. ويبدو أرجبرس وأتباعه قد ولدوا وكأنهم مولودون طبيعيا باحثى فعل.

. وعند الحديث عن اختيار التغيير، فقد قرروا أنه على الرغم من أن الأفراد ليس لديهم اختيار لنظريتهم قيد الاستخدام ولا نسق التعليم O-1، فإنهم يستطيعون اختيار تغيير نظريتهم قيد الاستخدام ومن ثم التعلم التنظيمى والثقافة. ولكن مثل هذه التغييرات لا تحدث إلا إذا التزم اللاعبون (p.152). ولكن لماذا ليس لدى المشاركين اختيار؟ وما طبيعة التزامهم؟ وكيف يتطور هذا الالتزام؟ كل هذه القضايا لم تتم مناقشتها.

وقد لاقى وجهة النظر هذه هجوما سياسيا كبيرا بسبب أنها تجبرنا على استنتاج أن علماء الفعل يختلفون فى طبيعتهم الإنسانية عن الكائنات الإنسانية الطبيعية الأخرى. وعلى الرغم من أن وجهة النظر هذه قد تم تبريرها من خلال مناقشة تدريب الناس لكى يصبحوا علماء فعل، فإن علوم الفعل لا تحتوى مثل هذه المناقشة. لقد تخلىنا عن علماء الفعل بوصفهم أفرادا غير متنافسين ولديهم وعى ذاتى واحتواء ذاتى وقادرين على العمل من أجل الآخرين.

والطريقة الأخرى للنظر إلى هذه المشكلة هى أن علوم الفعل لديها ملاحظة أن التحليل له نزعة مزدوجة. ذلك أنهم قالوا إنه على الرغم من الأمثلة التى تحدث فى السياقات الجماعية وأن نموذج ١ ونموذج ٢ يشير إلى سلوك الجماعة، فإن التصور السائد أن ما يظهر من قراءة علوم الفعل هو ممارس ماهر أو معلم يواجه عضو الجماعة وتهيئته لدراسته وتغيير سلوكه.

ونعتقد أن هذا التصور للمعلم والتلميذ وللمعالج والمريض، على الرغم من أنه جدير بتركيز الاهتمام على بعض الأبعاد النفسية لعمليات الجماعة، فإنه أيضا يتسبب فى تكاليف كبيرة. وحتى حاليا فى علوم الفعل فإننا لم نر تحليل للجماعات كجماعات، ولكن كان يفترض أن تؤدي

الجماعات بشكل جيد عندما يعمل كل زوج منهم بشكل جيد. إن الأفكار المتعلقة ببناء الجماعة والاقتصاد السياسي والاختلافات أو التنوعات الجنسية، والاختلافات العرقية وغيرها تم التخلي عنها. لقد تم وصف الجماعات وتصويرها على أنها تتكون من الأفراد الذين يرتبطون في عملية تبادلية، ويتحركون بشكل مثالي نحو نموذج الاختيار العقلاني. وهذا بشكل خاص يجعل التحليل غير مهتم بالعلاقات القوة والتي تتضمن منح هذا الاتجاه القوة للمتدخل الخبير.

وهذه الأمور ليست بسبب عدم وجود علماء فعل، حقا فكلنا معا نرى الممارسة الممتازة لممارسة علوم الفعل. وبالأحرى فإن هذه الأمور نتيجة أننا نعتقد أن الممارسة الجيدة التي نراها تظهر، جزئيا، بسبب أن لدى الممارسين نظريات اجتماعية أكثر تعقيدا من التي أوضحوها في كتاباتهم، وأنهم يمارسون بوسيلة أقل تسلسلا (هرميا) من التي اقترحها النموذج. إن تطوير تحليل أفضل لهذه العناصر يعتبر المهمة المنتظرة لعلوم الفعل.

وهذه القضايا للتسلسل الهرمي للتعامل الجيد بسبب أن علوم الفعل تبدأ بتحديد المشكلات والاتفاق عندما يتم إيجاد الحلول. لذلك فإن السلطة التي نقوم باتخاذ هذه القرارات سلطة مركزية. إن تقرير أى أنواع السلوك يعتبر مناسباً، على سبيل المثال، يعتبر قراراً حاسماً، مثال ذلك بالإشارة إلى هشاشة وضعف العلاقات الاجتماعية، فإن علماء الفعل يحددونها على أنها "الميل إلى التعبير عن شعور كبير غير مناسب باليأس والفشل عند ارتكاب خطأ" (Argyris, et al, 1985, p.156). إن ما هو غير مناسب ومن الذى قرره لم يتم مناقشته، ومن الظاهر أن هذا القرار تم اتخاذه بواسطة القائم بالتدخل. وقد تحدث أرجيرس وزملاؤه أيضاً عن "التغيير التنظيمى الحقيقى Genuine organizational Change" بدون تحديد ماذا تعنى كلمه حقيقى

Genuine، والترخيص مرة أخرى للقائم بالتدخل بأن يكون فى وضع سلطوى لتقرير ما الذى يؤسس لعملية التغيير ومن الذى لا يستطيع.

إن الوسيلة التى يستخدم بها سلم الاستنتاجات ووسيلة تقسيم الحوار تعتبران منفصلتين عن التحليل وتظهر أيضا الرؤية الكبيرة للثقافة القائمة على أساس قاعدة أو قانون **Rule-based vision Highly**، والنظر المدعومة من أرجيرس وزملائه المتعلقة بالاستخدام المتكرر لمصطلح الأنماط أو الصياغات المتكررة **Routines** لوصف أنماط السلوك. وعلى الرغم من قيام العديد من المدارس الفكرية بذلك، متضمنا التحليل التكويني **Componential** فى علم الأنثروبولوجيا، فإن هناك حدود مهمة لمثل هذه النظرة. فالسلوك أكثر من أن يكون مجرد قواعد تماما مثل اللغة التى هى أكثر من مجرد قواعد. ويعتبر ذلك أمرا مهما جدا بوجه خاص نظرا لأنه لى تكون جهود علوم الفعل علمية فإنها تحتاج إلى نوع ما من فكرة "عدم التأكيد **Disconfirmation**" كجزء من الاتجاه. ولكن أعطت مناقشات هؤلاء المؤلفين حالة من القوة لعدم التأكيد على وجهة النظر إلى السلوك القائمة على أساس القواعد **Rule-based view**، وأعطتنا إحساسا قليلا بالصعوبات التجريبية لإستراتيجية عدم التأكيد عندما ينظر إلى تدفق السلوك الإنسانى فى إطار تعقيداته الإثنوجرافية.

تاريخ العلم **History of Science**:

يجب علينا جميعا ونحن نطرح انتقاداتنا لاتجاهات العلوم الاجتماعية التقليدية أن يكون لدينا تفسيرات واضحة عن السبب فى انتشار وسيادة مثل هذه العلوم الاجتماعية التقليدية. فلو كنا نحن على حق والعلوم الاجتماعية التقليدية على خطأ، فعلىنا إذن أن نسأل أنفسنا لماذا يسيطرون وينتشرون

ونحن لا. ونحن بالفعل نركز انتباهنا على هذه القضية في الكتاب الحالي (انظر الجزء ٢). ونحن فقط نبين أن علوم الفعل تفتقد إلى تفسير سبب اختيار العلوم الاجتماعية لتقليد العلوم الطبيعية بدلا من ديوى وليفين (Argyris, et al, 1985, p.5) ولماذا يتم الحفاظ على ما أطلق عليه أرجيرس وزملاؤه بالانفصال الضار بين النظرية والممارسة (1985, p.7).

ومن وجهة نظرنا فقد نبعت عملية عدم الاهتمام بالقضايا الكبرى للبناء الاجتماعي والاقتصاد السياسي من نفس الازدواجية والنظرة العلاجية والتي علقنا عليها سابقا. ويفترض علماء الفعل أنهم مضللون ويستطيعون استعادتهم إلى نظرة أفضل لأحوالهم وشئونهم من خلال تدخل عالي الجودة. وكل هذا التجاهل لوجود كل الأبعاد الاقتصادية والسياسية في البحث الاجتماعي، والتي دائما ما تتحرك في اتجاه إضعاف القائمين بالإصلاح وعناصر تحقيق الديمقراطية في العلوم الاجتماعية للأسباب والمبررات التي تبدو أنها أفضل تفسير وتوضيح بواسطة حالات القوة منها بواسطة الأنماط الدفاعية من الأعضاء في جماعة معينة.

لا يوجد أي من هذه الانتقادات قاطعا أو مفحما، وبعض من هذه الانتقادات كانت بواسطة علماء الفعل في مؤلفاتهم الحالية. وقد ذهب هذا الإطار أبعد من أي إطار آخر في محاولته إبراز بعض القضايا المعرفية والمنهجية بواسطة فكرة أن علوم بحوث الفعل تستحق الاهتمام القوي بها لهذا السبب.

التعلم التنظيمي Organizational Learning:

أدى التعاون الطويل والمثمر بين كريس أرجيرس ودونالد سكون إلى إصدار العديد من الكتب: وكان من بين الكتب الأكثر أهمية لهما كتابان هما

التعلم التنظيمي (١٩٧٨) والتعلم التنظيمي II (١٩٩٦) وعلى الرغم من أن مصطلح التعلم التنظيمي OL أصبح شائعا، فإن الفضل يرجع فى وضعه إلى أرجيرس وسكون عام ١٩٧٨، فى الوقت الذى وضع فيه فكر السلوك التنظيمي فى اتجاهات مختلفة. والآن يوجد مئات من الأعمال والاستشارات المهنية المفيدة التى تقوم على أساس التعلم التنظيمي (Senge, 1990).

وكانت هناك العديد من المناقشات التى تتشابه مع تلك التى عرضناها والمتعلقة بعلوم الفعل، ولكن بعض قضايا الديناميات التنظيمية قد اتخذت مكانها فقط فى هذه الأعمال. وهنا سوف نتعامل مع الكتاب الثانى "التعلم التنظيمي II" (١٩٦٦). إنه يوفر مراجعة نقدية ممتازة لأدبيات التعلم التنظيمي. وقد منح المؤلفون وجهة نظرهم المنطقية والدقيقة للتعلم التنظيمي، وأتبعوها بعرض ممتد وواضح للنظم الأساسية للحلقة الفردية الأساسية، والحلقة المزدوجة، ونموذج ١، ونموذج ١١، والتى تم مناقشتها بالفعل.

إن ما يثير الأهمية حول هذا الكتاب عن منظور علوم الفعل ككل هو أن المؤلفين قد جاهدوا بقوة من أجل للوصول إلى ما وراء العلاقات المزدوجة التى لا تعتبر فيها القوة قضية. لقد ناقشوا السياسات التنظيمية وأظهروا أن الوعى بالتعقيدات التى تخلقها الحياة الثقافية الرمزية للتنظيمات ليست واضحة فى العمل الأول (Argyris & Schon, 1978). وقد نجحوا أيضا فى جعل تعزيز التدخل القائم على الاستقصاء أكثر المفاهيم والعمليات وضوحا من ما قام به أرجيرس وزملاؤه (١٩٨٥).

ولعل الأكثر قيمة وأهمية ما قام به أرجيرس وسكون بعد ذلك من البناء حول النقد القوى والعنيف للممارسة الأكاديمية، والحث على أن النظم الأكاديمية غير قادرة على مواجهة العلاقات بين النظرية والممارسة. ونحن نتفق مع تحليلهم لعلوم الفعل على أن الجامعات غير قادرة على أن تصبح مؤسسات تعليمية ذات مدلول وهدف واضح.

وهناك القليل من الكتب التى حددت القضايا المعقدة لعلوم الفعل والتعلم التنظيمى بالفعالية المطلوبة مثل أرجيرس وسكون. وربما يوجد فقط كتاب روبرت فلود ونورما روم (1996) Robert Flood, Norma Romm وهو "الإسهامات المعرفية والمنهجية المتنوعة للإدارة وطموحاتها العملية". وقد تقدم أرجيرس وسكون أبعد من الحديث عن علوم الفعل من خلال إظهار أنهم واعون للحاجة إلى الحديث عن قضايا الثقافة التنظيمية المتأصلة فى علوم الفعل، وهذا الوعى لم يكن واضحا فى كتابهما الأول.

ومع ذلك فإن هذا البعد يحتاج إلى اهتمام أكثر، نظرا لأن التعامل مع الثقافة التنظيمية يبقى إلى حد ما عليها محددة وآلية بالمقارنة بديناميتها ووجهات النظر السلوكية الأكثر ثباينا. إن ثراء الإنتاجية الثقافية فى السياقات التنظيمية وحول أنواع العمليات، فقد حاول أرجيرس وسكون استثارة الحاجة إلى تنمية تحليل أكبر. وهذا الثراء يعتبر واحدا من أكثر الخبرات ثباتا فى أى مؤتمر.

وقد قام كل من أرجيرس وسكون ببذل العديد من المحاولات للوصول إلى رأى حول التنظيمات كتجمعات من الأفراد الذين يكافحون مع بعضهم للوصول إلى مفهوم اجتماعى أكثر دقة للبناء التنظيمى. ويعتبر ذلك أمرا مهما، ولكن القضية لم يتم حلها بشكل جيد.

وقد أظهر المؤلفون وعيهم بالانتقادات بأن آراءهم سواء غير منتبهة لعلاقات القوة، أو بأنها تدعم أنواعا معينة من تسلسل السلطة فى هذه التنظيمات. ومهما يكن فإن حقيقة أن نموذج السلوك ١ هو إهمال للناس فى المنظمات ولا يزال التعامل معه ببراعة أكثر من قانون الطبيعة، بدلا من أن يكون نتاج أنساق معينة فى الاقتصاد السياسى. وهذا ما ترك مصادر نموذج ١، ونموذج ١١ بدون تفسير، تماما كما فى أرجيرس وزملائه (١٩٨٥). إن

عدم شرح المصادر المهمة لنموذج ١ بتركنا بدون تفسير لماذا يكون أفراد معينون (فى هذه الحالة، المؤلفون) قادرين على تجاوز الحدود الإنسانية العادية ومن ثم يقودون الآخرين لعمل ذلك. وهذا يفتح المجال لشرعية السلطة والخبرة والتي تستحق استقصاء أكثر انفتاحا.

وعلى الرغم من أن الكتاب كان واضحا فيما يتعلق بمتطلبات بحوث الفعل، فإنه تماما مثل علوم الفعل والتعلم التنظيمى ١١ لم يتحدث بقوة عن الجانب الأخلاقى والمعىارى للتعلم التنظيمى. والاهتمام الواضح بالسلوك الإنسانى غير الدفاعى كان إيجابيا، ولكن لم يتم عمل ربطه بالالتزام بتحقيق الديمقراطية. وكان من السهولة تبنى هذا الاتجاه من جانب المستشارين التقليديين، والتي لا تعتبر المشاركة أو تحقيق الديمقراطية ذات أولوية مرتفعة بالنسبة لهم.

المهارات التى تتطلبها علوم الفعل والتعلم التنظيمى

The Skills Required for AS and OL

تركز الممارسات الجيدة لعلوم الفعل بقوة على مهارات عمليات الجماعة. ومن خلال أشكال التدخل التى تمت ملاحظتها بواسطة علماء الفعل فقد تأثرنا ببعض المهارات التى تم تطويرها. لشيء واحد فإنهم كانوا مثابرين ومستمرين فى العمليات. وقد لعبت عوامل الهدوء والدوام والوضوح ودعم أدوار القائمين بالتدخل دورا كبيرا فى خلق المساحة التى من خلالها تم تطوير استقصاء علوم الفعل الذى يؤدى إلى التغييرات فى عمليات الجماعة. وفى إحساسنا فإن علوم الفعل أكدت على أن الممارسين ينظمون أنفسهم من أجل انتظار أطول، وإصرار أكبر، والحفاظ على الهدوء ربما أكثر من معظم الاتجاهات الأخرى. وربما يعتبر ذلك جزءا من الميراث العلاجى لهذه الاتجاهات التقليدية.

ومن المميزات الأخرى فى تدخل علوم الفعل هى الوسيلة التى يتعلم بها الممارسون عدم الإحساس بالتهديد بواسطة أشكال الصمت والفراغ فى عمليات الجماعة. وبدلاً من الاندفاع لملء الفراغات غير الملائمة بالصوت والفعل، فإنهم يحتفظون بمساحات من عدم الارتياح المفتوحة أطول، ومواجهة المشاركين بالحاجة لفحص أفعالهم جزئياً خارج عدم الارتياح الذى سببه عملية الوقوف الساكن.

وفى كل عودة يتحدى ممارسو علوم الفعل المشاركين لى يكونوا واضحين وأن يفسروا أفعالهم، وأن يقوموا بشكل متكرر بتوضيح ردود أفعالهم وتفسيرها كنموذج لهذا السلوك. وغالباً ما يؤدي هذا التدخل شبة السقراطى Quasi- Socratic إلى جعل المشاركين يقومون بعمل اختراق تحليلى بدلاً من السماح لهم بالاختفاء خلال الفترة الفاصلة فى عمليات الجماعة. وهذا يحتاج إلى مهارة مواجهة الناس بدون إسكاتهم، والانفتاح بشكل كبير، والنقد المتجاوب، واليقظة الفائقة لتفصيلات الحديث والفعل. ومرة أخرى فإن هناك ميراثاً كبيراً من العلاج التقليدى، والذى يعتبر جديراً بالدراسة والمنافسة فى عمليات بحوث الفعل.

الخلاصة:

وفى الختام فإن علوم الفعل والتعلم التنظيمى ليسا مثالين ولا خاطئين. إنهما محاولتان واضحتان لجذب بحوث الفعل للمواجهة المباشرة مع العلوم الاجتماعية التقليدية وتعقب مخططات وبرامج الإصلاح الاجتماعى المحدودة. وكذلك توجد بهما العديد من الثغرات والمشكلات، والتى لا تجعلهما يختلفان عن الاتجاهات الأخرى. إنهما جديران بالدراسة المتعمقة بواسطة باحثى الفعل.

الهوامش

- (١) عند تناولنا للممارسة فقد تعاملنا فقط مع الكتاب الثانى لأنه يمثل مراجعة متكاملة للكتاب الأول معتمدا على الممارسة المستمرة للمؤلفين والانتقادات التى تلقوها.
- (٢) لقد أجرينا هذه المناقشة ليس لتضمين الفصل المنفصل عن الاتجاه الأكثر تفردا الذى ارتبط بدونالد سكون، والذى أسماه "الممارسة الانعكاسية" (Schon, 1983, 1987, 1991) بسبب العديد من عناصر الممارسة التنظيمية من وجهة نظره والتى ظهرت فى كتب تأليف مشتركة، وأن العديد من العناصر الرئيسية الأخرى فى اتجاه الممارسة الانعكاسية تركز على علاقات التدريب المزدوجة وليس على قياس التغيير التنظيمى.

الجزء الرابع بحوث الفعل والتعليم العالى والديمقراطية

AR, Higher Education and Democracy

قمنا بتعريف ووصف وتبرير بحوث الفعل AR ووضعناها فى سياقاتها الفلسفية والفنية والتنظيمية والسياسية. وقدمنا اتجاهنا المفضل كعينة من التنوعات الواسعة لاتجاهات بحوث الفعل الأخرى. وقد تركنا التعامل الأكبر جانباً، وحتى الاتجاهات التى قدمناها تناولناها باختصار. ولم يتم ذكر المساهمات المهمة لهذا المجال، وقد تلقت القضايا الشائكة أنواعاً من العلاج القصير فقط. ولازلنا نأمل أن تحرك هذه المقنطفات شهيتك نحو بحوث الفعل وأن تكون نقطة البداية نحو دراسات أوسع وأكبر لهذه الاتجاهات.

وما يتبقى الآن هو مناقشة تعليم باحثى الفعل، وتعييدات العلاقة بين بحوث الفعل ومؤسسات التعليم العالى، والنشر المستقبلى لبحوث الفعل كما نأمل لها. وهذا يتضمن دراسة بعض البرامج التعليمية التى ترتبط ببحوث الفعل، وبناء بحوث فعل داخل مؤسسات التعليم العالى، ونشر بحوث الفعل فى كل أرجاء المجتمع. ولتحقيق ذلك فقد راجعنا فى الفصل السادس عشر "تعليم باحثى الفعل" التوترات والاحتمالات التى رأيناها فى العلاقة بين ممارسات بحوث الفعل والتغيير/التحول المستمر فى مؤسسات التعليم العالى. وحددنا فى الفصل السابع عشر "بحوث الفعل والمشاركة وتحقيق الديمقراطية" ما تمخض عن المناقشات حول الدور الممكن لبحوث الفعل فى منح الحيوية والنشاط للعمليات الديمقراطية، وإعادة تكوين بعض من خصائص المجتمع المدنى الذى أصبح قديماً ومتهاكاً بواسطة الهجوم الضارى للعلومة الاقتصادية.

الفصل السادس عشر

تعليم باحثى الفعل

Educating Action Researchers

على الرغم من وجود "بحث فعل تعليمي" وعدد من باحثى الفعل الذين يشغلون مواقعهم فى مؤسسات التعليم العالى، فإن بحوث الفعل تفتقد إلى الكثير من الأدبيات عن كيفية تعليم باحثى الفعل. إن التركيز على التعليم الرسمى وتعليم الكبار فى أدبيات بحوث الفعل التعليمية لم يتلاءم مع نفس الاهتمام لبحوث الفعل فى التعليم العالى. وما عدا التحليلات العامة عن دور الجامعات فى المجتمع من منظور بحوث الفعل (Brulin, 2002; Greenwood & Levin, 2000) وقد افتقد كتاب ريسون وبراندورى "دليل بحوث الفعل (2001a) إلى وجود فصول عن تعليم بحوث الفعل فى نسق مؤسسات التعليم العالى. وعلى الرغم من تخصيص جزء من هذا الدليل لعمل بحوث الفعل، فإنه لا يوجد أى عرض أو تقديم منظم لكيفية نقل مهاراته إلى المؤسسات التعليمية. وقد وجدت العديد من الحكايات عن التعليم والتعلم فى العديد من الفصول. وهذا الدليل ليس متميزا فى هذا الجانب.

وقد زاد هذا الغياب جزئيا فى العملية التاريخية لفصل العلوم الاجتماعية عن علوم الفعل وجعل الباحثين الاجتماعيين الجامعيين بعيدين عن اهتمامات المجتمع (انظر الفصل ٥). وهذه القصة مشهورة جدا فى الولايات المتحدة (Furner, 1975; Madoo Lengermann & Neibrugge-Brantley, 1998; Ross, 1991) ولكنها تكررت فى كل مكان. لقد حدثت حتى فى النرويج والتي

تعتبر بحوث الفعل فيها أكثر تقديرا واحتراما عنها فى الولايات المتحدة الأمريكية، والتي تحصل على موازنات جيدة كأداة للسياسة العامة.

وقد ظهر أول معهد لبحوث الفعل فى النرويج عام ١٩٦٠ تحت رعاية المعهد النرويجى للتكنولوجيا (NTNU). وقد ركز معهد البحث الاجتماعى فى الصناعة (IFIM) على البحث الصناعى وعلى تعليم الهندسة. وقد ركز (IFIM) على البحث وقدم بعض البرامج القليلة لكلية الهندسة. وبمرور الوقت نما قبول بحوث الفعل فى الجامعة إلى الدرجة التى تم بها تكوين قسم منفصل لعلم النفس والبحث الاجتماعى. ومع ذلك فقد ترك باحثو الفعل معهد البحث الاجتماعى فى الصناعة والمعهد العالى للتكنولوجيا للبدء فى معهد جديد بأوسلو، وهو معهد بحث العمل (WRI) الذى لا ينتمى إلى أى معهد أكاديمى. وكانت دافعية الباحثين موجودة فى معهد أوسلو ولكنهم ربطوا أنفسهم بالعمليات السياسية التى ترتبط بوضع أولويات إجراء البحث وتحسين أساليب وصولهم إلى الموازنة العامة. ولكن إحدى نتائج الانتقال إلى أوسلو كان يتمثل فى فصل بحوث الفعل عن الحياة الأكاديمية اليومية. ولم ينجح أبدا معهد بحث العمل (WRI) فى بناء علاقات جيدة مع جامعة أوسلو. وفى المقابل فإن العداء كان قويا تجاه معهد بحث العمل (WRI) فى جزء من الأكاديميات التقليدية، لدرجة أن التعاون فى النهاية أصبح غير ممكن.

وهذا الموقف أدى إلى اغتراب بحوث الفعل عن الحياة الجامعية فى النرويج لعقد كامل من الزمان. ونتيجة لذلك لم تتوفر الفرصة تقريبا لأى دارس بالجامعة للاطلاع على بحوث الفعل أثناء فترة دراسته بالجامعة، على الرغم من تركيز الجامعة على بحوث الفعل العالمية والتركيز على بحوث الفعل فى السياسة القومية النرويجية. وقد حدثت الزيادة فى عدد باحثى الفعل بعد تلقيهم درجات الماجستير التقليدية ودرجات الدكتوراه. وكان هذا موقفا

مشئوماً لأن الطلاب تربوا وتربوا على أنهم باحثون اجتماعيون تقليديون، وبعد ذلك تحملوا مسؤولية مشروعات بحوث الفعل، والتي لم يتلقوا أى تدريبات عليها.

ولم يكن أيضاً لمعهد تافيسٲوك بالمملكة المتحدة حظاً أوفر للارتباط بالتعليم العالى فى إنجلترا. وباستثناء الجهود المزدوجة فى أستراليا (جامعة ديكن وجامعة الصليب الجنوبية) حيث توجد بعض الأمثلة القليلة من التدريب الجامعى الرسمى على بحوث الفعل، أو برامج للحصول على الدرجات العلمية فى أى مكان فى العالم، متضمناً الولايات المتحدة الأمريكية. وعندما تم اتباع نفس المسار فى العديد من الدول المتنوعة، والأنساق السياسية المختلفة وبناءات التعليم العالى المتنوعة، لم يكن ذلك بالمصادفة.

وبينما كان من المباح توجيه كل اللوم إلى الجامعات والعلماء الاجتماعيين التقليديين، فإن جزءاً من هذه المشكلة كان بواسطة باحثى الفعل أنفسهم. وكان لدى الكثير من باحثى الفعل قناعة برفض زملائنا الأكاديميين والارتباط بهذا الوضع بدلاً من الانتقادات العلمية المتبادلة. وبالطبع فإن زملائنا الأكاديميين التقليديين قاموا بنفس الفعل بشكل روتينى. وهذه "الرقصة" سمحت لكلا الجانبين لكى يستمر فى إهمال الآخر، وأصبح لذلك تأثيراً ضاراً على كل من بحوث الفعل والعلوم الاجتماعية التقليدية. ومن خلال عدم الارتباط بين بعضهم أصبح كلا الجانبين ضعيفاً من الناحية الفكرية.

وفىما يتعلق بذلك فقد قام باحثو الفعل بعمل أفضل قليلاً عن الباحثين الاجتماعيين التقليديين. وعند الاحتفال بالذكرى الخمسين لمعهد تافيسٲوك للعلاقات الإنسانية بلندن، لاحظ ليفين اختفاء الاستجابات الفكرية، ومحادثات النقد الذاتى داخل صفوف باحثى الفعل. وكذلك اختفى الكلام عن الانفصال

وعدم تحدى الآخر عند علماء البحث التقليديين. إنهم غير مضطرين إلى تبرير خيالاتهم التلقائية autopoietic وأنشطتهم المهنية غير المرتبطة بالجوانب الاجتماعية في مواجهة الانتقادات المنطقية من باحثي الفعل، والتي شملت نقد زعمهم بأنهم أنشأوا العلوم الاجتماعية بدون تطبيقات اجتماعية لهذه العلوم.

وقد نتج عن ذلك تهميش باحثي الفعل، وقد ترك هذا أيضا الباحثين الاجتماعيين التقليديين في موقف غير متوقع يتسم بالحساسية والتعرض للنقد. إن عدم ارتباطهم بعملهم واهتمامهم الكاسح فقط بالشئون الداخلية بتخصصاتهم لم يفقدهم التمويل من حكوماتهم ولا أشكال التمويل الأخرى التي يتلقونها. وبينما استمر هذا الوضع أثناء عقود من تطور الجامعات وموازنات البحث، فإن الظروف الاقتصادية والسياسية التي أثرت في الحياة الجامعية قد تغيرت. فقد أدركت كل المؤسسات العامة وقادة القطاع الخاص والمديرون الأكاديميون أن استمرار التمويل للتعليم العالي يعتمد على مساهمات ملموسة ومعرضة للمحاسبة في برامج الرعاية الاجتماعية العامة واستمرار المنافسة الاقتصادية. وللتعامل مع هذه الضغوط قام مديرو الجامعات بتأجير واستخدام خبراء بأجور باهظة لكي يقدموا لهم المعلومات عن المعرفة الإدارية Knowledge management، والميادين الصناعية الأكاديمية، وفصول الابتكار والإبداع "Creative Class". وقد اتخذوا هذا الطريق، جزئيا، بسبب أن الكثير منهم لا يملك مناقشات بناءة عن هذه القضايا مع أعضاء هيئات التدريس في العلوم الاجتماعية. وتقريبا فكل القادة الأكاديميين وصانعي السياسات يدركون نموذج ٢ للبحث (تنفيذ البحث في سياق تطبيقي بحيث ينتج معرفة قوية اجتماعيا يتم اختبارها في الفعل) (Gibbons, Limoges, Nowotny, Schwartzman, Scott, and Trow, 1994; Nowotny, Scott, Gibbons, 2001) لقد شعروا بالقلق بأن يكون

لديهم جامعات تجرى الأبحاث فى سياق تطبيقي، لكى تساهم فى المعرفة الاقتصادية، وتحقق أرباحا اقتصادية عامة، وذلك من خلال تدريب طلابها على المهارات اللازمة لذلك.

ومع ذلك ونظرا للعزلة الطويلة بين بحوث الفعل والجامعات، فلم يفهم معظم القادة أن بحوث الفعل هى الإستراتيجية البحثية الوحيدة التى يتم بناؤها بدقة على أساس أنها وسيلة لإنتاج المعرفة والفعل. وأن عدم معرفة الباحثين الاجتماعيين التقليديين بكيفية مساهمتهم فى مثل هذه الأنشطة لا يعتبر مفاجأة، ولكن كان من الصعب تبرير غياب أصوات باحثى الفعل فى حركة إصلاح إدارة التعليم العالى، وتوجيه الحاجة إلى نموذج ٢ الخاص بهم بطريقة بناءة اجتماعيا وسياسيا.

الاعتبارات العامة :General Considerations

يوجد عدد قليل من برامج الدراسات العليا الخاصة ببحوث الفعل، وفى حدود معرفتنا لا يوجد تخصص دقيق فى الدراسات العليا لبرامج بحوث الفعل على مستوى العالم. وتفتقد بحوث الفعل إلى أى نوع من المنابر لمناقشة الإستراتيجيات التعليمية، والبرامج التدريبية التى تتسم بالكفاءة لتدريب الطلاب على بحوث الفعل.

وتستطيع بحوث الفعل أن تقيم جسرا لسد الفجوة بين الجامعات والمجتمعات بأساليب تتسم بالقوة، ولكن نستطيع أن نفعل ذلك فقط عندما نجعل بحوث الفعل هى الجزء المكمل للبحث والتدريس فى التعليم العالى. ولن تجد بحوث الفعل مساحة واسعة فى الحياة العلمية والاجتماعية إذا لم تحصل كوافر جديدة من المهنيين والباحثين على التدريب الجيد فى الجامعات

ولا يتدربون فقط على الوظيفة بعد أن يستكملوا تعليمهم فى العلوم الاجتماعية التقليدية. ولكى يتحقق ذلك فلا بد من امتداد تعليم بحوث الفعل على كل المراحل الجامعية بدءاً من مرحلة البكالوريوس ثم الماجستير والدكتوراه.

التخصصية ضد تعدد التخصصات

Departmentalization versus Multidisciplinarity

وتتمثل الاستجابة المتوقعة من الجامعات لهذا التحدى فى إنشاء برامج منفصلة لدراسة برامج بحوث الفعل أو أقسام علمية خاصة بها. وهذا بالضبط ما تم فعله مع دراسات المرأة والدراسات الإثنية (العرقية) ودراسات العلم والتكنولوجيا، وعمل نفس النموذج التنظيمى، والذى يتمثل فى القسم الأكاديمى التقليدى، والذى له حدود مشتركة مع التخصص، والتقييم بواسطة هيئة مهنية مستقلة.

إن قبول هذا النموذج التنظيمى لبحوث الفعل يمكن أن ينتج المهنية المتمركزة حول الذات **Self- regard Professionalism** ونقص الانضباط والذى يتسبب فى فشل العلوم الاجتماعية التقليدية والذى يقوم الآن بعزل اتجاهات مساواة المرأة والدراسات الإثنية، والدراسات العلمية والتكنولوجية فى غرف مغلقة، والتى يفكرون الآن فى تحطيمها (Messer-Davidow, 2002).

إن عزل بحوث الفعل فى برامجها وفى أقسامها يمكن أن تؤدى ببساطة إلى تحطيمها بسبب أن بحوث الفعل هى عبارة عن إستراتيجية متكاملة لإنتاج المعرفة تقوم على أساس الإنتاج التعاونى للمعرفة من خلال التخصصات المتنوعة وبالتزامن مع قيام أصحاب المشكلات المحلية بإنتاج المعرفة العملية والنظرية فى نفس الوقت.

ولا بد أن يكون المنطق من وراء ذلك واضحا. فبحوث الفعل لا يمكن أن تعمل داخل نظام تقليدي واحد لأن بحوث الفعل تنتج معرفة جديدة فى سياق تطبيقي، ونتيجة له. ويجب أن تكون بحوث الفعل متعددة التخصصات Multidisciplinary. وحتى لو حاولت إيجاد قسم متعدد التخصصات فإنه لن يعمل، بسبب أن التخصصات التى تم تجميعها فى مختلف مشروعات بحوث الفعل تختلف وفقا للمشكلة التى تم تحديدها. إننا لا نستطيع أن نعرف أولوية أى من هذه التخصصات ذات علاقة.

وفى المعاهد القائمة على أفكار تايلور Tayloristic مثلها مثل الجامعات، فإن هذا النوع من اتساع المجالات والأقسام والبرامج والكليات ليس غير مرحب بها تماما، ولكن يقدمها العمداء ورؤساء الأقسام فى معاهد تايلور على أنها تعنى بالنسبة لهم مشكلة محيرة مستحيلة. ويبدو لهم أن محاولة جعل خبرة الجامعة ملائمة لمشكلات العالم الواقعية والمعقدة هى مستحيلة وغير مرغوبة. ناهيك بأن المجتمع ككل قد عبر لهم بأنه من خلال الطلبات المتزايدة على المحاسبية فإنه، سواء شئنا أو أبينا، فإما أن يجدوا وسيلة أفضل أو أن يجدوا أنفسهم بلا موارد.

تعدد التخصصات أو تعدد التخصصات الموجهة فكريا

Multidisciplinary or Multidisciplinary mindset

ووفقا لما سبق فإننا لا نستطيع تدريب الطلاب لكى يكونوا خبراء فى كل التخصصات ذات العلاقة بمشروعات بحوث الفعل التى سوف يواجهونها أثناء حياتهم المهنية. ومع ذلك فإن ما نستطيع أن نفعله هو تشجيعهم وزيادة قدرتهم على الارتباط بالتخصصات المتنوعة برغبة منهم بدلا من تركهم

يعتادون على التعمق فى أحد هذه التخصصات فى مجال وحيد من الخبرة. إن الشعور بالارتياح فى جماعة من الناس مع أنواع متعدد وواسعة من الخبرات، والقدرة على التغلب على مشكلاتهم، يعتبر مجالا مناسباً يمكن من خلاله إجراء عمليات التعلم والتعليم.

والأكثر من ذلك فعلى الرغم من الخدمة الذاتية Self-serving تؤمن بالخبرة (Brint, 1994) فإننا نعرف من خلال خبرتنا أنه لكى نستطيع إنجاز أى شىء بدرجة عالية، فإننا لا نحتاج إلى شخص غير كفء فى أى شىء آخر. إنه من الممكن أن نرعى وجهة نظر واسعة من الاتجاهات التعليمية والمرحبة بالتعلم، وكيفية تعلم أشياء جديدة وتعلم كيف نساهم بخبراتنا مع زملائنا الذى يختلفون معنا فى خلفياتهم. لو اعتقدنا بحق فى أن ما نقوله عن إيجاد المعرفة المنتجة بشكل تعاونى وفى قيمة وأهمية امتلاك معارف متعددة يتم تقديمها خلال العملية، فإننا أيضا يجب أن نتصرف بهذه الطريقة فى حرم الجامعات. وفيما يتعلق بذلك فإننا لا نطلب أكثر من أن يتصرف زملائنا وطلاب بحوث الفعل بنفس الطريقة التى نتوقع أن يتصرف بها المستفيدون المحليون فى مشروعات بحوث الفعل. إننا نخبرهم بأن يكونوا متسامحين وقادرين على التحمل وأن يكونوا منفتحين على معارف المستفيدين الآخرين، وأن يعملوا معا فى إنتاجية تعاونية.

ونحن نعلم من خلال خبرتنا الطويلة أن زملائنا الأكاديميين التقليديين سوف يدافعون عن مجال عملهم من خلال الرد السريع بأن طلابنا فى بحوث الفعل سوف يكونون عبارة عن هوة قليلة التدريب والخبرة، وأنهم سوف يعرفون بعض الشىء عن كل شىء وليس الشىء الكثير عن أى شىء محدد. وهذه المناقشة الثابت زيفها يتم صرف النظر عنها لأنها تفتقد إلى أى سند أو تأييد من القوى السياسية المتراكمة لعقود من عمل

التايروليزية الأكاديمية Academic Taylorism. وبامتلاكنا وجهة نظر شاملة وواسعة تتمثل في أنها لا تعوق تنمية المعرفة العميقة لموضوعات معينة، وإنما أظهرت أنه من الواضح أن المعرفة العميقة ليست ضرورية فقط للتعامل مع المشكلات المعقدة، ولكنها أيضا تنمو وتتطور من خلال عمليات إنتاج تعاوني تمزج العديد من أنواع الخبرة بوسائل فعالة. وبالطبع فإن زملائنا التقليديين والذين لديهم في الغالب معرفة عميقة عن شيء معين، نادرا ما يكونون قادرين على نشر هذه المعرفة في أي مكان، ولكن في المجالات العلمية التي يقرأها كواثر قليلة من زملائهم المدرسين أمثالهم. إن الخبرة وضيق الأفق أمر مألوف في المجالات الأكاديمية.

تطبيقات بحوث الفعل في التعليم العالي

AR Praxis In Higher Education

إن نقطة الانطلاق لبحوث الفعل في الجامعات تتمثل في الاتجاه التعليمي Pedagogical الذي يمزج المعارف المهنية المتعددة (من فرع أو أكثر من فروع المعرفة) مع الارتباط بسكان المجتمع في سياق مشكلات الحياة الواقعية. وهذا يتعارض مع تدريب الجامعات التقليدية، والتي بوجه عام لا تربط بقصد بين النظرية والممارسة، حيث يعتمد التعليم فيها فقط على تعليم المعارف المهنية الواضحة. والنموذج البنكي Banking model (Freire, 1970)، والذي يعتبر الدارسين من خلاله متلقين سلبيين للمعرفة في رعوسهم بواسطة المعلمين، وهو يمثل السواد الأعظم في الجامعات، على الرغم من الدليل الواضح على أن ذلك يعتبر غير فعال وغير بناء.

القيود الزائفة Pseudo-Constraints:

عندما يكون هناك مشروع لتغيير الجماعات الهرمية (السلطوية)، والتي لا ترغب في التغيير، تتكاثر المبررات عن نقص الموارد والقيود الإدارية. ونحن ندعى أن هذه القيود الزائفة ليست أكثر من مجرد إظهار لعدم الرغبة في تغيير أنماط السلوك الحالية أو إعادة توزيع القوى، وهى مثال جيد لنموذج السلوك ١.

وأحد القيود التي تؤثر على تعليم بحوث الفعل على أى مستوى هى حجم الفصل الدراسى. فنجد على مستوى مرحلة البكالوريوس فى الجامعات الكبيرة، أن فصول طلاب العلوم الاجتماعية فى الغالب تشمل مئات الطلاب الذين يتم تجميعهم فى قاعة محاضرات واحدة. إن الحجم الكبير للفصول الدراسية يعتبر واحدا من أهم معوقات توفير تعليم مثمر وبناء لبحوث الفعل والذي يحتاج إلى أن يكون تفاعليا ويقوم على أساس الفريق والارتباط بجماعات فعلية من أصحاب المشكلات.

وتعتبر هذه قيودا زائفة نظرا لأنها نتيجة لوجود خيارات مؤسسية وأولويات. وأينما يتم التفكير الحاسم فى الفصول ذات الحجم الصغير كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية فى برامج تعليم اللغة والكتابة والتركيبات اللغوية، وتعليم الزراعة والفنون والأستوديوهات الخاصة بها وتعليم الموسيقى وغيرها، فإن معظم المعاهد العلمية تعتمد إلى استخدام الفصول بحجم الحلقات الدراسية Seminar Size. إن جلسات الفصول الصغيرة مع الاتصال الشخصى بين الأستاذ والطلاب تعتبر مكلفة. لذلك فبدلا من تعلم الجامعات العلوم الاجتماعية بطريقة لائقة، فإنها تلجأ إلى مشروع تعليمى سيئ السمعة "لمعالجة processing" أعداد كبيرة من الطلاب وامتلاك الأقسام التى تتنافس من أجل زيادة حجم فصولها الدراسية من خلال

استخدام هذا المعيار لمكافأتهم بتحسين أوضاع أعضاء هيئة التدريس بها وتوفير المساحات والأماكن لهم، وزيادة مكافأتهم ومخصصاتهم المالية وغيرها.

وينتج أيضا بناء البرامج والمناهج الدراسية قيودا زائفة أخرى. فالطلاب يدرسون العديد من المقررات فى وقت واحد مع وجود تنسيق ضئيل جدا بينهم، ولا يوجد أى مبرر لدى الطلاب لعمل ذلك. ومن الممكن أن يدرس الطلاب مقررا دراسيا واحدا فقط طوال الوقت لمدة شهر فى كل مرة على حدة، ويدرسون عددا من المقررات فى عام كامل. ومثل هذه المقررات المكثفة تعتبر من المتطلبات الأساسية والقوية، والتي من خلالها يتم تطوير بحوث الفعل (ومعظم الأشكال الأخرى من) تعليم وتعلم بحوث الفعل. ومع ذلك فإن أى إعادة للتنظيم تحتاج إلى التخيل والطموح، والذى يفقده بوجه عام المسئولون عن إدارة التعليم العالى.

وأیضا تنسم المقررات والحلقات الدراسية فقيرة زمنيا فى تعليم ممارسة بحوث الفعل. إنها كاملة، ولكنها من غير الممكن أن تغطى الدائرة الكاملة لمشروعات بحوث الفعل من خلال المدة المثالية للتقويم الجامعى. ومن الممكن توفير الوقت الطويل خلال مرحلة البكالوريوس، ولكن لا تبذل المعاهد التعليمية الجهد المناسب لحدوث ذلك.

وبوضوح فإن هذه القيود الزائفة للتغيير الضرورى لزيادة كفاءة التعليم والتعلم فى بحوث الفعل تعتبر نتيجة لعدم الرغبة فى مقابلة تحديات نموذج ٢ لإنتاج المعرفة. إن الفشل فى تحقيق ذلك فى الحال يتطلب تكاليف مالية عالية لمعظم الجامعات، وسوف يظهر العامة والسياسيون الانسحاب المتزايد لكل من الدعم المادى والأخلاقى من التعليم العالى العام (Lyall & Sell, 2006).

بعض إمكانيات تعليم بحوث الفعل فى مرحلة البكالوريوس:

باستثناء تقديم بعض البرامج الخاصة للجماعات الصغيرة من طلاب مراحل البكالوريوس، فإننا نعتقد أن التركيز الرئيسى لتعليم بحوث الفعل لطلاب البكالوريوس يكون على أهدافها وتاريخها فى سياق أكبر من إنتاج المعرفة الاجتماعية، والفهم المبدئى لأنواع المهارات اللازمة لإنجازها. وقد أظهرت خبرتنا التعليمية الطويلة لنا أنه حتى داخل حدود القيود الزائفة التى ذكرناها سابقاً، فإن تعليم بحوث الفعل يمكن تنفيذه بنجاح. فنحن نستطيع أن نعطي الطلاب بعض الخبرات فى إدارة بيئاتهم لتعليمية ذات الإنتاجية التعاونية، ومساعدتهم على التعلم عن المشروعات ودور بحوث الفعل، وإعطائهم الفرصة لى يعكسوا اهتماماتهم وقدراتهم على الوسائل التى ربما تزيد من كفاءة بحوث الفعل. ويمكن أن يتم هذا التعليم من خلال مقررات تقديمية (مداخل) كبيرة، على الرغم من ندرتها.

المراحل التعليمية فوق المتوسطة

Intermediate Undergraduate Instruction

من السهل تكوين الفصول الدراسية الصغيرة التى تركز على تعليم بحوث الفعل فى المراحل التعليمية فوق المتوسطة.

مقرر الإدارة العامة والتخطيط لليفين

Levin's Public Planning and Administration Course

فى NTUN وضع ليفين مجالاً تجريبياً لبحوث الفعل هو تعليم الإدارة العامة والتخطيط. وقد جذب هذا الموضوع عدداً قليلاً فقط فى كلية الهندسة،

ولكن ذلك أتاح الفرصة للسماح بخلق بيئة تفاعلية. ولاستحضار مشكلات الحياة الواقعية داخل الفصل قسم ليفين الفصل إلى فرق كل فرقة تتكون من ثلاثة إلى خمسة طلاب، وكل فريق يقوم بالتفكير فى قضية تخطيط عامة تستحق التعامل معها فى الإقليم الذى يعيش فيه. وكان من السهل على الطلاب توجيه الاهتمام والدافعية لمشكلات مناطقهم. ومن ثم وجب على فرق الطلاب تطوير تركيزهم على مشكلاتهم الخاصة وربطها بالعمل الميدانى.

وقد أصبح دور ليفين مستمع وسائل نقدى لتدعيم الجهود لخلق مشروع بحثى، وغالبا، ولكن ليس دائما كان مصدرا للدخول فى موضوعات ونقاط فى المجال. وقد وجب على الطلاب أن يعملوا بأنفسهم فى المجال ويقوموا بإجراء عدد من المقابلات وجمع البيانات، على الرغم من حصولهم على حد أدنى من التدريب على الحصول على البيانات وجمعها. ومعظم هؤلاء الطلاب كانوا فى حاجة إلى مهارات فنية جديدة، وقد علموا أنفسهم من خلال تعاملهم الملموس مع مشكلات الحياة اليومية فى الموقف الميدانى.

وقد تم تصميم العملية التعليمية حول تنمية مشروعات الطلاب، والتوازن مقابل الكتب والنصوص الأساسية التى اعتبرها ليفين ضرورية وتحتاج إلى القراءة واستخدامها كأدوات. وفى واحدة من أهم وأكثر سنوات هذا المقرر نجاحا، فقد وضعت جميع مشروعات الطلاب الأربعة فى الصفحة الرئيسية فى الجريدة المحلية.

ولعل ميكانيزمات الدافعية القوية التى ظهرت من خلال العمل مع مشكلات الحياة الواقعية كانت واضحة جدا. وقد كرس الطلاب وقتا وطاقة كبيرين فى مهامهم وواجباتهم والتى اشتكوا من عدم وجود وقت كاف لمقرراتهم الأخرى، ولكنهم أيضا رفضوا التقليل من انخراطهم فى المشروعات. والأخذ من الناس والتعلم منهم فى مواقفهم المشكلة هو الذى أوجد بحق التزامهم العالى وطاقتهم الكبيرة.

Greenwood's Introductory Course In AR

قام جرينوود بتدريس مقرر المدخل إلى بحوث الفعل لكل من طلاب البكالوريوس وطلاب الدراسات العليا معاً لمدة ١٤ سنة. فقد بدأ المقرر بتقديم محتوى المقرر يوماً بيوم مع القراءات الموصى بها. ومن ناحية ثانية فإن الطلاب يحتاجون إلى الخوض إلى قائمة بالمراجع وتكوين قائمة من مما يرغبون فيه ويقترحونه لهذا المقرر. وقد طلب منهم تحديد ما يريدون تحقيقه وما إذا كانوا قادرين ومعدّين للمساهمة في المقرر. وهذه الرغبات والاقتراحات توضع في قائمة من أولويات المقرر بواسطة أدوات عمليات الجماعة، ويتم وضع النتائج في منهج دراسي. ومن ثم يقوم الطلاب بشكل طوعي بالتنسيق وتوزيع الموضوعات عليهم وفقاً لاهتماماتهم والخبرات والمعارف التي يقدمونها، وقاموا بالتعاون مع جرينوود بإعداد مواد المقرر وتوزيعها وتصميم عمليات الجماعة كجزء من المنهج.

وعلى الرغم من أن هذه الخبرة تعتبر مزعجة للطلاب في البداية، فإن العملية قد انطلقت بسرعة كبيرة جداً، وأصبح الطلاب الذين عانوا من خبرة تعليمية سلبية لسنوات قادرين على إدارة عملية التعلم لديهم بصورة رائعة. وقد تعلموا طوال الفصل الدراسي عن التعقيدات التي تواجه اختياراتهم وتصميماتهم، وأيضاً تعلموا أسلوب المعاملة الجيدة مع أنفسهم. وأيضاً تولوا مهمة تطوير عملية تقييم مشتركة طوال فترة دراسة المقرر، وكذلك قاموا بتطوير نظام لتقييم لأنفسهم وإدارته، وكذلك تقييم أستاذ المقرر من كل الجوانب.

وكما في مقرر ليفين فكان من المدهش أن يصبح الطلاب قادرين بسرعة على الانتقال إلى هذه الوسيلة التعليمية وكيف تقبلوها. وبالتأكيد فإنهم بذلوا جهداً أكبر وكان لديهم إرادة أكثر من الفصول المنظمة بشكل تقليدي. إنهم

مدركون وواعون لذلك، ويرجعون هذه الاستجابة إلى حقيقة أن ما يتعلمونه ويفعلونه يمثل خيارهم الخاص ومسئوليتهم نحو أنفسهم ونحو الآخرين.

مقرر ليفين عن النمو التنظيمي

Levin's Course on Organizational Development

أوجد ليفين مقررًا جيدًا عن النمو التنظيمي (OD) من منظور بحوث الفعل مستفيدًا من خبراته في المقرر السابق والخاص في التخطيط. وبدلاً من اتخاذ النمو التنظيمي التقليدي ذي الخبرة المهنية، فإن عملية النمو التنظيمي قد تم بناؤها حول نموذج البناء التعاوني. وركز ليفين أيضاً على التخطيط لعمليات التغيير وانعكاساتها باستخدام المنظور القائم على أساس خط الوقت Timeline نظراً لأن التغيير لا يحدث في طرفة عين، ولكنه عملية تتشأ وتتطور بالترتيب. وقد تم استقبال هذه الوسيلة لتعليم بحوث الفعل بشكل جيد من الطلاب وكانوا أكثر انتباهاً لليفين أيضاً. وكان تسجيل الطلاب عالياً جداً في هذا المقرر (٣٠-٤٠) وكان تقييمهم مبشراً للغاية. "أنت تلتحق بهذا المقرر من أجل أن تتعلم": "يجب أن تعمل في هذا المقرر أكثر مما تعمل في كل المقررات مجتمعة التي تدرسها في هذا الفصل الدراسي": "إنك سوف تحتاج كل ما درسته في هذا المقرر عندما تبدأ حياتك العملية".

وبتناول ردود الأفعال المبدئية هذه، فقد تطلع ليفين إلى الوسائل الأفضل لجذب الواقعية داخل الفصل وتطوير بناء المهام لدعمها. وقد قام الطلاب بتقدير المنظمة التي قاموا بدراستها، والتي تتضمن جوانب القوى والضعف. وكان هذا التحليل يمثل تغذية راجعة لأول خطة تطوير والتي من خلالها حصل الطلاب على تغذية عكسية نشطة أجبرتهم على تغيير أو إعادة

تطوير خططهم المبدئية. وهذا التغيير المتواضع فى البناء أوجد تغييراً درامياً فى المقرر لأنه نشط واستثار مواقف التغيير الدينامى، وجعل واضحاً أمام الطلاب أن خطة عملية النمو التنظيمى هى فقط مجرد خطة وليست برنامج عمل نهائى لكيفية تطوير الأشياء. لقد تعلموا كيف يغيرون إستراتيجياتهم وأهدافهم بتغيير وتطور العملية.

وبناء على هذه الخبرة، فقد تطلع ليفين إلى وسيلة لعرض الحالة بدون أولوية للتركيز على الانتباه من أجل أن يكون لدينا طلاب يتعلمون أيضاً كيفية تحديد المشكلات وليس فقط حلها. وقد فتح التطور الكبير فى مجال الحاسبات والفيديو الباب أمام إمكانيات جديدة. لقد سجل ليفين العديد من الحوارات مع الناس داخل المنظمات ووضعها على برامج الفيديو فى الحاسبات الآلية وأتاح الفرصة للطلاب للاستماع إليها ومشاهدتها، وكتابة الملاحظات عليها، ومناقشة ما رأوه وسمعوه.

وبالإضافة إلى ذلك فقد تم دعوة عدد من أعضاء المنظمة "الحالة" لتقديم محاضرات داخل الفصل، والتي أعطتهم الفرصة لعرض خبراتهم وآرائهم عن منظماتهم. وقد تم ذلك فى جلسات تراوحت مدتها بين ٢-٣ ساعات. وبعد ذلك قام ليفين بعد عدة أسابيع من الفصل الدراسى إما بتنظيم مؤتمر فيديو Video conference أو - فى حالة أن تكون المنظمة محلية - القيام بدعوة السكان المحليين لتوضيح ومناقشة القضايا التى يمكن أن يعمل من خلالها الطلاب فى مشروعاتهم.

وقد تمثلت مهمة الطلاب ببساطة فى البدء فى "وضع خطة نمو تنظيمى لتحسين عمليات المنظمة". إن عرض المشكلة المبسط وغير واضح الهدف أدى إلى إحباط الكثير من الطلاب. ومن جانب آخر فقد عكس الموقف التجريبي كيف أن عدم التنظيم وعدم الوضوح كان يمثل مواقف

الحياة الواقعية. ومنذ أن أعطى العنصر المهم من الفعل المهني معنى وإحساسا مفهوما لمواقف الحياة الواقعية المعقدة والكلية والقدرة على صياغة فهم واسع لماهية القضايا الأساسية التي يجب أن نتعامل معها، فقد أصبح هذا هو التعليم الواقعي. ولعل الجزء الذي يستغرق جهدا أكبر ويستنزف الكثير من الوقت في هذه المهمة يتمثل في تحليل المقابلات. وكان ذلك يمثل تحديا وإشكالية للطلاب عندما يكون لديهم معرفة بدائية عن تحليل البيانات. وكان من الضروري أن يدرسوا مقررًا قويًا وعميقًا عن تحليل البيانات.

وكان تركيز التدخل ينصب على التفاوض مع المستفيدين المحليين، وكان لزاما على الطلاب أن يفكروا ويناقشوا بجدية ميادين التعلم التي اقترحوها لتحقيق التغيير التنظيمي. وفي نهاية المقرر، تم دعوة أعضاء المنظمة لكي يشاركوا في العرض النهائي للطلاب، وقد تم إعطاء تغذية عكسية مباشرة وكبيرة بواسطة أصحاب المشكلة. وكان عمل الطلاب يتم دائما استيعابه وتلقيه بشكل جيد من المستفيدين المحليين، حتى عندما يتخذ العمل موقفا نقديا من المنظمة المحلية.

ولعل أكثر أنواع الانفصال وضوحا لعمليات بحوث الفعل يتمثل في نقص التعرض المباشر في المجال. فليس من الممكن إرسال ٣٠-٥٠ طالبًا إلى موقع واحد لأنهم سوف يملأونه. وقد لا يستطيع الطلاب بأنفسهم إجراء عملية التغيير القائمة على عمليات بحوث الفعل.

وقد قام العديد من معلمى بحوث الفعل الآخرين بتطوير ميادين تعلم تعاونية مشابهة، وهناك القليل الذي يمثل استثناء عن ما وصفناه بالضبط. وبالأحرى فإننا نريد التركيز على أنه على الرغم من السيطرة المؤسسية للنموذج البنكي، فمن السهولة وضع الطلاب متعلمين متعاونين. وبالطبع فإن من شأن الأستاذ أن يبدأ بأول الخطوات وأن يعرف كيف يدعم عملية التعلم.

المقررات القائمة على أساس الخبرة لمرحلة البكالوريوس:

Experience- Based Courses for Undergraduates

من أجل الوصول إلى مستوى متقدم من طلاب البكالوريوس في بحوث الفعل، فإن تكوين فصول دراسية ذات أعداد قليلة لدراسة بحوث الفعل أصبح أمرا ممكنا. فقد قام جرينوود بالتعاون مع بعض زملائه المتطوعين (Nimat Hafez Barazangi, Ken Reardon, Paula Horrigan, and Leonardo Vargas Mendez) ومع مركز كورنيل للخدمات العامة بتكوين وإدارة برنامج بارتيلز للزملاء من مستوى البكالوريوس في بحوث الفعل Bartels Undergraduate Action Research Fellows Program. وقد قمنا بتنظيم عملية تنافسية على عضوية طلاب البكالوريوس للالتحاق ببحوث الفعل، وذلك بالاستفادة من التمويل المقدمة من مركز كورنيل. ويجب أن تتضمن استمارة التقدم مشروعا محليا جاريا، وخطاب تأييد من المستفيدين المحليين ويوضح استعدادهم لعمل سمينار (حلقة نقاشية) خاصة ببحوث الفعل مع زملائهم الآخرين طوال العام. وفي المقابل فإن هؤلاء مع حاجاتهم للمساعدة المالية يتلقون منحة دراسية، ويحصل الجميع على بعض التمويل لدعم مشروعاتهم.

والافتراض المنطقي كان يتمثل في أن العلاقة والارتباط الأفضل بين الخدمة والتعليم يمكن أن يحدث لو أن خطة المشروع الفردي للطلاب تم مناقشته وعرضه في حلقات نقاشية، وأن التدريب على بحوث الفعل قد تم تقديمه أيضا في حلقات نقاشية وكان يرتبط باحتياجات المشروع. وقد نجح المشروع تماما وتم تقييمه بدقة وصرامة (Hafez Barazangi, Greenwood, Burns, & Finne, 2004) وأصبح مألوفًا للطلاب وأصحاب المشكلات المحليين. ولكن لم يرغب مركز كورنيل في إعادة تخصيص مساعداتها

المالية الموجودة لمثل هذا البرنامج، أو حتى الدعم الرسمي لتشجيع أعضاء هيئة التدريس بالبرنامج على إحيائهم لبعض الواجبات التعليمية فى أقسامهم العلمية. وهذا لم يكن يحتاج إلى أموال جديدة، ولكن كان يحتاج فقط أن تخصص الإدارة الموارد القائمة لتمويل هذه الأنشطة. ونتيجة لذلك فعندما انتهى التمويل الممنوح اختفى البرنامج. وتظهر مثل هذه الحالات أنه ليس مجرد امتلاك برنامج تعليمى لبحوث الفعل لا يعنى البقاء والاستمرار فى المجال الأكاديمى.

وقد أدار كينيث ريردون Kenneth Reardon، وهو أكثر الأشخاص شهرة على المستوى القومى فى كل من البحث والخدمات برنامج المنح الدراسية الحضرية بكورنيل. ومن خلال الميزانية المتاحة له أعطى أكثر من ٢٠ طالبًا بكالوريوس من ست كليات بكورنيل بالإضافة إلى جماعة صغيرة من طلاب الدراسات العليا فرصة العمل خلال الصيف مع التنظيمات القائمة على أساس المجتمع بمدينة نيويورك. ولإعدادهم فقد تم تعليمهم بحوث الفعل داخل الحرم الجامعى والتخطيط لحلقات النقاش المنتظمة أثناء العام الدراسى. وبالإضافة إلى إعطاء الطلاب هذه الخبرة، فقد استهدف البرنامج تشجيع الطلاب على اختيار الوظائف أو المهن التى يفضلونها فى مجال الخدمات العامة. من خلال إعطائهم الخبرات والأدوات اللازمة لفهم مستقبلهم (ومزيد من المعلومات متاح على <http://www.cusp.cornell.edu>).

ويوجد عدد وافر من الأمثلة لما يطلق عليه "خدمة التعليم Service Learning" فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية. وقد تنوعت جودة هذه الخبرات بشكل كبير. ففى بعض الحالات يعمل الطلاب ببساطة كمتطوعين فى المؤسسات المحلية وفى هذه الحالة يطلق على هذه التجربة "خدمة التعليم Service Learning". وفى الحالات الأخرى فإن لدى أعضاء هيئة التدريس

مشروعات مستمرة محليا، والتي يمكن أن يخطر بها الطلاب، وفي حالات قليلة تتضمن المقررات التي يتم تدريسها عناصر خدمة التعليم. وليس كل خدمات التعليم "تعليمية"، وأن معظمها لا توجه نحو إستراتيجيات بحوث الفعل، ولكنها تتخذ الشكل التقليدي من الإرشاد النابع من الخبرة **Expert-driven consulting**.

وتركز مساحة تطوير بحوث الفعل على الأنشطة الموجودة (الكائنة) مثل شرح برامج مرحلة البكالوريوس لكل من جرينوود وريرون، ولكن كسب الدعم المادى المؤسسى المنتظم، والاعتراف بهذه الأنشطة يعتبر معركة عسيرة. وقد أظهرت هذه التجارب والخبرات كيف أنه من الممكن إيجاد تعليم على مستوى البكالوريوس يمكن أن يعد الطلاب لإجراء بحوث الفعل.

التدريب على بحوث الفعل فى مرحلة الدكتوراه PhD Training in AR:

من وجهة نظرنا فإن أكثر الميادين الواعدة والمأمولة لتعليم بحوث الفعل توجد فى التدريب على مستوى الدكتوراه. فالطلاب يكونون أكثر نضجا ويستطيعون تركيز انتباههم على مجموعة محددة من الاهتمامات، ولبرامج الدكتوراه المدة الكافية لجعل برامج التغيير الكبرى ممكن تنفيذها. وهذا يخلق موقفاً يستطيع من خلاله الطلاب الانخراط فى المجال لمدة مناسبة، ويستطيعون طبقاً لذلك التعرض لأنشطة بحوث الفعل المنظمة والمنظمة.

برامج الدكتوراه المميزة Individualized PhD Programs:

تعتبر أكثر الطرق مباشرة لعمل ذلك هى خلق مشروعات بحوث فعل مميزة، والتي يدعمها المشرف (المُرشد) بشكل مباشر، ويرشد الطلاب

سواء في الميدان أو في ردود الفعل الأكاديمية والكتابة. وهذا الشكل من النصيحة ينصب على أنشطة التغيير أو الأنشطة الأكاديمية ويخلق علاقة فردية من شخص لآخر، والتي توجد في معظم برامج الدكتوراه. ومن السهل نقل هذه العلاقة بشكل بارع إلى عمليات التعليم والتعلم، في كل من الميدان وفي ردود الفعل وفي عمليات البحث. وهذا النوع من التحالف والاتحاد الذي يتميز بعمق التعاون يمكن أن يكون ذا قيمة كبيرة جداً، ولكنه أيضاً يحتاج بدرجة كبيرة نشاط تدريبي يحتاج إلى تعامل كبير مع أساتذة ذوي خبرات كبيرة وشخصيات قوية وموارد مالية ضخمة. ويوجد أيضاً أحد الحدود الواضحة المرتبط بكيفية تعامل المشرف الفرد مع عمليات الإشراف والمواقع الميدانية. وغالباً ما توجد أيضاً مشكلة دفاع مثل هؤلاء الطلاب ضد ردود الفعل العدوانية من زملائهم النظاميين (في التعليم النظامي التقليدي) الذين لا يحبون بحوث الفعل، ويضعون مقرر ومتطلبات اختبار غير مفيدة لطلاب بحوث الفعل، ولا يميلون إلى مساهمة أقسامهم العلمية مع طلاب الدراسات العليا الذين يعتمدون تهميشهم.

برامج الدكتوراه المعتمدة على الجماعة

Group-Based PhD. Programs

في NTNU أنشأ ليفين العديد من برامج الدكتوراه المتتالية لبحوث الفعل (Levin, 2003). وبعد ذلك أصبح جوهر تدخل بحوث الفعل هو إيجاد الفرص للتعليم الجمعي من خلال تكامل الأعضاء المحليين وباحثي الفعل في عمليات تعليمية وانعكاسية (فكرية). وهذا النوع من التدريب في مرحلة الدكتوراه يمكن أن يحدث فقط في مواقف الحياة الواقعية. ويشترك كل من الطلاب والمشرفين في تحمل مسؤولياتهم نحو تصميم عمليات التعلم، وتمكين عملية ردود الفعل (التفكير) في الفعل، وردود الفعل (التفكير) على الفعل

(Schon, 1983). ولجعل مثل هذا البرنامج ممكناً لزم على ليفين رفع التمويل الخارجى بما يسمح لمجموعة من طلاب الدكتوراه المرور من خلال هذا البرنامج معاً (Levin, 2003). وقد تم ربط برامج الدكتوراه هذه بالمشروعات الميدانية المستمرة وبالتفاعل المنتظم من خلال حلقات النقاش (السيمينارات) فى ميدان العمل، والتدريب فى الحرم الجامعى. وكان جوهر وقلب العلاقة بين المعلم والمتعلم فى هذه البرامج يتمثل فى توفير وإيجاد الإمكانيات التعليمية التى ترتبط مباشرة بالتطبيق الواقعى والملمس، سواء من خلال الارتباط المتبادل داخل ميدان العمل أو فى الانعكاسات وردود الأفعال على خبرات العمل المشتركة. ولكى يكون ذلك ممكناً فقد وجب على ليفين أن يكون لديه الحرية والقدرة على أن يرتبط بواقعية بالمشروع الميدانى، ويكون قادراً على إدارة فن رد الفعل أو رد الفعل، وجعل ذلك ممكناً للطلاب لى يروا ويفهموا لماذا وكيف تم تنفيذ هذه الأفعال.

وقد كانت هذه البرامج ناجحة لأنها أنتجت جيلاً جديداً من باحثى الفعل المدربين جيداً فى النرويج، ولكن توجد وسيلة، والتى من خلالها يصبح مثل هؤلاء الجماعات من طلاب الدكتوراه منعزلين. وأصبحت ردود الأفعال بين الجماعات المغايرة من الطلاب والمشرفين فى برامج الدكتوراه التقليدية مفقودة. وعلى العكس من ذلك فقد سيطرة العملية من خلال العلاقات المباشرة من شخص إلى آخر.

برامج الدكتوراه الدولية: إدوار

An International PhD. Programs: Edwor:

ومن خلال التمويل الذى قدمه مجلس البحث النرويجى، انتقل ليفين إلى ما وراء حدود برامج دكتوراه فى بحوث الفعل المعتمدة على الجماعات

المحلية إلى برامج الدكتوراه الدولية. وارتباطا بالبناء المعيارى والنموذجى للبرنامج النرويجى المهم الذى تم تكوينه ٢٠١٠ (والممول من المؤسسة النرويجية العلمية) فقد تم وضع برنامج الدكتوراه. وقد اختار ليفين تسعة من أعضاء هيئة التدريس منهم أربعة غير نرويجيين، وكانوا يعملون فى وظيفة أساتذة مساعدين فى NTNU، وخمسة من أعضاء هيئة التدريس النرويجيين من مختلف المعاهد البحثية فى النرويج. وقد قبلت الكلية النرويجية طلبات ٢٤ طالبا وسمحت لهم بالالتحاق بها منهم أمريكى ودينامركى وثلاثة أترك.

ويتوقع من كل هذه الطلبات والاستمارات أن تأتى للبرنامج بمشروع جار تنفيذه بالفعل. وقد انقسم التدريس على أربع سنوات، والتى تتضمن أربعة ١- أسبوع من التعليم المكثف بشدة وجلسات الإرشاد والتى من خلالها يتم إنجاز الساعات المطلوبة للمقررات الدراسية لدرجة الدكتوراه النرويجية. وقد أنشأت المنهج الدراسى ووزعت المقررات على نظرية العلم، والمنهج، والبحث، وأنساق الإبداع، والكتابة. وكل أنواع الكتابة تتم باللغة الإنجليزية. وقد اختار كل طالب اثنين من المرشدين بمرحلة الدكتوراه من داخل البرنامج. وعند هذه المرحلة (منتصف ٢٠٠٦) كان البرنامج فى عامه الأخير.

ونظرا لأن هؤلاء الطلاب كانوا فى الثلاثينيات والأربعينيات من العمر وكانوا يعملون فى وظائف طول الوقت، فإن إيجاد الوقت الكافى لدراسة الدكتوراه، وكذلك التركيز المناسب فى الدراسة واجه العديد من الصعوبات لكثير من هؤلاء الطلاب. وبالإضافة إلى ذلك فإن القيود الخاصة بستة عشر أسبوعا من المقابلات المكثفة فى مصطلحات التماسك الاجتماعى والتعلم الاجتماعى، والتى تحدث فى الأنواع الأخرى من برامج الدكتوراه القائمة على أساس الجماعة كانت واضحة. ومع ذلك كان لإنوارد النجاح الكافى فى أن البرنامج تم تمويله ببرامج دكتوراه أخرى، والدروس التى تم تعلمها تم تطبيقها فى إعادة تصميم العملية.

رسائل دكتوراه بحوث الفعل AR Dissertations:

كان باحثو الفعل صامتين لمدة طويلة من الزمن عن مشكلات كتابة المقالات الطويلة ورسائل الدكتوراه عن بحوث الفعل وجنب القبول لها. ولحسن الحظ فقد أُتيح الآن الكثير من الاستجابات البناءة. ولعل إحدى أكثر الوثائق المفيدة التي ظهرت الآن هي "دكتوراه بحوث الفعل AR Dissertation" (Herr & Anderson, 2005): ونحن نوصي بها لجميع كتاب المقالات ورسائل الدكتوراه، كمرشد عملي للتغلب على الصعوبات التي تواجه كتابة رسائل الدكتوراه الخاصة ببحوث الفعل.

وبالمقارنة بالتأليف الفردي للكتب الذي لا يعتبر كافياً، فإن رسائل دكتوراه بحوث الفعل تعتبر أفضل. إن تطوير اجتماعاتنا ولقاءاتنا المشتركة والتي تؤسس لكتابة بحوث فعل عالية الجودة تنتمي إلى الشبكة الدولية لبرامج وخطط عمل باحثي الفعل، كما حدها براندورى وريسون (2001a). إن كل قضايا التعبير والصياغات المتعددة للكتابة، والسمات الفكرية، والسرية التي تواجه عمليات بحوث الفعل فى البيئات الجامعية تحتاج إلى التنمية والتطوير التعاوني للاستجابات الواعية من جانبنا للتصرف مع الطلاب الذين ندرهم.

وضع بحوث الفعل فى الجامعة Situating AR within University:

يعتبر التعليم واحداً من أهم وسائل - وليس الوسيلة الوحيدة فقط - وضع بحوث الفعل داخل الجامعات. لقد بنيت الجامعات لترعى المناسب من هؤلاء الذين يستحقون الحياة فيها، ومن يديرونها. وتمتلك الجامعة عدداً كبيراً من الأقسام العلمية المنفصلة، والتي من المفترض أن يتضمن كل قسم منها فرعاً من المعرفة بدون أى التباس أو غموض فى حدوده، ويتم خلق

هذه المعارف بشكل منفصل، بناء على رغبة كل من البيروقراطيات الجامعية والسلطات الأكاديمية. ويصبح كل من رؤساء وعمداء الكليات وقيادات الجامعة (الرئيس، والمدير، ونائب الرئيس) يتولون السلطة بالتتابع والتدرج ويفتسمون الإدارة. وأيا كان ما يقومون به فإن هذه البناءات التنظيمية تؤكد على وجود البناءات الهرمية السياسية داخليا "وبنائيا تنتج عدم اتصال" مع مشكلات العالم، فيما عدا المشكلات التي تهم إلى حد بعيد أصحاب قوى العمل والنخب السياسية الذين يملونهم ويدفعون الأموال والدعم السياسي والاقتصادي لهم. وما دام لا يهتم أى شخص بالدراسات التي يقوم بها الباحثون بالجامعة، فإن اتجاه تيلور سوف يبقى، ولكن أصبحت هذه الجامعات الآن تدعى أنها تلتزم بقيمها التي تظهرها نحو المجتمع ككل، وليس بالمهن الأكاديمية والإدارات الأكاديمية، ومع ذلك لا يوجد دليل على هذا الموقف.

ويوجد الآن تركيز كبير متزايد على البحث والعمليات الاستكشافية، وبصفة خاصة في مجال العلوم الاجتماعية، ليس في أنبوبة الاختبار، ولكن في السياق التطبيقي (Nowotny et al, 2001). ومع ذلك فإن اقتراح الصيغة ٢ لإنتاج المعرفة بشكل مجرد ليس مثل امتلاك ميكانيزمات تنظيمية لتحقيقها في الجامعات. وتتطلب الصيغة ٢ لإنتاج المعرفة تحريك معارف مفردات المجتمع وطرق الجماعة بسهولة وسرعة حول المشكلات الخارجة عن نطاق المهنيين الأكاديميين في سياق تطبيقي، وبالتعاون مع المستفيدين المحليين التي تعتبر هذه المشكلات هي مشكلاتهم الخاصة.

وفي الوقت الحاضر فإن كل الجامعات لديها بناء سلطوى هرمى وبناءات مقسمة إلى أجزاء، مع وجود حراس بوابات كل مستوى من أقسام الكلية إلى الجامعة ككل. ويتمثل التحدى الأكبر هنا في فرص تجميع نوى

الخبرة والاهتمام من أعضاء هيئة التدريس والطلاب من جميع بناءات الجامعة أو الكلية ككل، وإيجاد العمل التنظيمي الذي يدعم الارتباط بالصيغة ٢. ويعارض العديد من الأكاديميين إجراء مثل هذه التغييرات، ويعتقد العديد من القيادات الإدارية أن مثل هذه التغييرات غير ممكنة التحقيق بدون زيادة الراديكالية في هرم السلطة الإدارية، وبتر أو تقليل الحرية الأكاديمية والسيطرة على الإمكانيات، وإعادة تنظيم بناءات الأقسام العلمية. وبكلمات أخرى فإننا سمعنا كل التبريرات بأن قيادات الأعمال والقيادات الإدارية كانت غير قادرة في حقبتى السبعينيات والستينيات من القرن الماضى على تحسين أدائها وإنجازاتها.

إن العملية الكلية لخلق "الجامعات الملتزمة" (Marginson, & Considine, 1997; Slaughter & Leslie, 2000) كانت تمثل نوعاً واحداً من الاستجابات الإدارية واستجابات صانعى السياسة لهذا التحدى. لقد حققت مرونة أكبر من خلال جعل كل الوحدات معرضة للمساءلة من سلطة خارجية، وفصل البحث والتعليم إلى مشروعات يشارك فيها مختلف التخصصات، وفرض نظم الجودة الشاملة- واتحاد كل الجهود تحت قوة مركزية. وكلما فكر شخص فى المعنى الكبير للعملية الهرمية **Hierarchization** كعمل كبير وضخم يقوم به الباحثون والخبراء فى التطور التنظيمي، فإننا نعلم أن هذا يعتبر غير بناء فى خلق عمليات الصياغة ٢ فى التعليم العالى.

وهنا يوجد تشابه واضح بالتاريخ المعاصر لإعادة تنظيم المؤسسات الصناعية. وتحت تأثير المنافسة العالمية فإن هذه الشركات التayloristic، والتي لم تعلن إفلاسها قد تحولت بأساليب جوهرية. إن الحدود بين الشركات وبين زبائنهم الخارجيين كانت منخفضة، وتم إعادة بناء العلاقة بينهما على أساس تعاوني. إن أشكال التسلسل الهرمي التنظيمي الداخلى قد تم تهميشه

بشكل واضح وانتقل اتخاذ القرار بدرجة ما إلى أسفل نحو موضوع الإنتاجية كلما كان ممكنا. وقد أصبحت الفرق متعددة المهارات والتفاعلات المتبادلة نظام مفضل للإنتاجية. ويشارك الجزء الأكبر من قوى العمل في الفهم التفصيلي لإستراتيجيات العمل وتحدياته، والمشاركة بالأفكار والخبرات في حل مشكلات الشركات (انظر على سبيل المثال Womack et al, 1990).

ويعتبر هذا بوضوح صورة مثالية، ولكنها لا ترتبط بمناقشتنا. إن ما يدعى حاليا على أنه أكثر الممارسات جدية في معظم الجامعات يعتبر لا شيء مما وصفناه سابقا. فلو أعادت الجامعات بناء نفسها وفقا لهذا النموذج الصناعي، فلا بد أن يعاد توزيع السلطة إلى أسفل بالتوازي مع الحق في الفعل، والتفاعل مع المستفيدين الخارجيين، ويكون واضحا وبارزا فرق العمل بها وتعدد المهارات. ولو تم فعل ذلك فيمكن بحق أن تتخبط الجامعات بفعالية في عمليات الصيغة ٢.

ونحن الآن في وضع نحدد من خلاله أن إستراتيجيات بحوث الفعل تعتبر في حدود مشتركة مع الصيغة ٢ لإنتاج المعرفة. إن فرق العمل التي تتسم بالتعاون وتعدد المهارات مع وجود اتصالات جيدة مع المستفيدين الخارجيين تقوم بدراسة المشكلات والتعامل معها "في إطار تطبيقي" وتنتج "معرفة قوية اجتماعيا". كيف إذن تستطيع الجامعات إعادة تنظيم نفسها لجعل الصيغة ٢ لإنتاج المعرفة هي شكل البحث المسيطر.

ويجب على الجامعات أن تحدد بوضوح المستفيدين الخارجيين، ويجب أن تحدد مطالبهم ومشكلاتهم بواسطة الجامعة وليس بواسطة بعض الأنواع الأخرى من المنظمات البحثية. ونظرا لأن العديد من الكليات أو أعضاء هيئة التدريس والمستفيدين الخارجيين أصبح بينهم بالفعل علاقات جيدة وأفكار حول إمكانية التعاون المثمر بينهم، وكذلك إمكانية تكوين ميادين

جديدة للاتصالات الداخلية فإن ذلك يؤدي إلى جذب انتباه الجامعة لهذه المعلومات. وعندما يتم تحديد المستفيدين الرئيسيين ومشكلاتهم، كما في أي مشروع لبحوث الفعل، فإنه من الضروري تحديد ما هو نوع الخبرة المهنية، والتي تزيد من قيمة العمل نحو التعامل مع هذه المشكلات. وهذا ما يجب أن تكون عليه الخبرة التفاعلية مع المستفيدين الخارجيين.

وعندما يكون هناك تحديد واضح للأشخاص ذوي القيمة في الجامعة، فيجب على الجامعة أن تعيد بناء عملها التنظيمي، وذلك للسماح لهم بتكوين فريق لهذا الغرض، وتحريرهم من بعض الواجبات الأخرى، ومنحهم المزيد من المرونة، سواء للوجود داخل وخارج حرم الجامعة أو التفاعل مع أعضاء الفريق الآخرين ومع المستفيدين المحليين بشكل منظم، وتدريب أنفسهم على الجوانب التي يعملون بها في المشروعات. والوقت المحدد للأنشطة يحتاج إلى مراجعته سنويا (نوريا) حتى ينتهي المشروع ويعود الأكاديميون إلى كلياتهم، وربما يكونون مطلوبين مرة أخرى في مشروعات أخرى.

وربما تتسبب هذه العملية في تحقيق التنوع الواسع لجماعات بحوث الفعل قصيرة المدى، ولو تم التعامل معها بدقة، فإنه يمكن أن تساهم بقوة في الحياة الأكاديمية للجامعات. إن خلق ميادين تنافسية جامعية لتقديم تقارير للمجتمع عن المشروعات، واختيار الطلاب الذين تتناسب أدوارهم مع المشروعات كجزء من تدريبهم على مستوى البكالوريوس والدراسات العليا، واستخدام الموظفين الإداريين لاستمرار عملية اكتشاف أصحاب المشكلات والموارد التي تدعم أنشطتهم، كل ذلك يبدو ممكنا تماما.

الخلاصة:

إن ما يميز ما وصفناه تماما، ليس فقط مقابلة متطلبات الصيغة ٢ للبحث من خلال بحوث الفعل، ولكن أيضا يعتبر ذلك ممكنا حقا. فإن ما هو

ممکن ما هو فعال یعتبر ان شئین مختلفین. ولس ذلك سهلا ولا كما نعتقد أن یتخذ مكانا متمیزا بدون الكفاح. ویوجد أعداء حقیقیون، وهؤلاء یمثلون نخب القوة والذین هم حالیا یتستفدون من الاتجاهات الدعائیة والإقصائیة لإنتاج المعرفة والإدارة، وهؤلاء الذین لا یتخیلون أى عالم آخر غیر الذی یعرفونه، والكسول والمتسائم والذی لا یرید أن یكون مقلقا. ومع ذلك فلیس من الواضح أن هناك خیارا. وقد بدت الجامعات لنا وكأنها آخر التتظیيمات العامة الكبری، والتی تحولت إلى ساحات اللیبرالیة الحدیثة لکی تلعب دور الاهتمام الذاتی التنافسی (Lyall & Sell, 2006).

وبدلا من التسلیم بذلك، فنحن نعتقد أنه یجب أن تحاول بحوث الفعل قیادة حركة مضادة تستهدف الارتقاء بما دعاه رونالد بارنیت **Ronald Barnett (2003)** "بالأیدیولوجیات الفعالة **Virtuous Ideologies**"، والتی تمثل الأیدیولوجیات التی تركز على توازن البرجماتیة الجدیة للأوضاع المتتافرة أو المتباعدة فی الحوارات الدیمرطیة بدلا من إبطال وإنهاء كل أشكال المعارضة، واستبدال المقوم الأساسی للدیمرطیة. ونحن كباحثی فعل أقدر على تبلیغ المستفیدین المحليین الآخرين کیفیة تحویل مواقفهم من خلال الإنتاجیة التعاونیة، ولكن یبدو أننا أقل مهارة وشجاعة فی أخذ هذه الدروس إلى معاهدنا الخاصة بنا.

ونحن نشك بأنه حتی مع الضغوط الخارجیة والعدوانیة نحو الجامعات، والتی وصلت الیوم إلى نقطة الغلیان، فإن زملاطنا الأكادیمیین وإداریی الجامعات سوف یستمررون فی اتباع الطرق المألوفة ویرتبطون بنموذج ١ عن إنتاج المعرفة ونموذج ١ عن الروتینیات الدفاعیة، بینما یستمر لوی أذرعہ باحثو الفعل.

الهوامش

(١) هذه الخبرة تم شرحها بواسطة الطلاب وجرينوود في إفيمو جرانت ماثيوس

(Greenwood, Martin, Strubel, and Thomas (1997)

الفصل السابع عشر

بحوث الفعل والمشاركة وتحقيق الديمقراطية

AR, Participation, and Democratization

نستعيد من خلال هذا الفصل الختامى لهذا الكتاب بعضا من القضايا الواسعة التى تحيط بالمشاركة وتحقيق الديمقراطية. هذه الكلمات تستخدم كثيرا هذه الأيام فى دوائر بحوث الفعل وما وراءها، ولكن غالبا ما تستخدم هذه المفاهيم كمعارك أيديولوجية. ولوضع بحوث الفعل فى صورة واسعة من المشاركة والديمقراطية فإننا نحتاج إلى توضيح وشرح واقعى لاستخدامنا لهذه المصطلحات.

فالمشاركة وتحقيق الديمقراطية فى حد ذاتهما ليسا دواء وشفاء من كل الأمراض، إنهما لن يحلا كل المشكلات فى العالم. إنهما لا يملكان عصا سحرية لتحويل العالم إلى عالم يتسم بأنه الأفضل وتتحقق فيه العدالة ويكتب له الدوام والاستمرار. ودائما ما تلتصق المشاركة بالسياسات. ويمكن أن تدعم المشاركة فى اضطهاد أصحاب **Holders** القوة باستخدامها كرمز بدون محتوى، أو أن تصبح أداة للتحويل الاجتماعى الحقيقى. ولا تستطيع المشاركة تمهيد الأرض للديمقراطية إذا لم تخلق ساحات وميادين واقعية ومدعمة لتوزيع والمشاركة فى القوة التى تزيد من قدرة المشاركين المحليين على التحكم فى مواقف حياتهم الخاصة.

إننا نعتبر أنفسنا مدعمين ومعززين لكل من المشاركة وتحقيق الديمقراطية، ولكن نريد تجنب أن نكون أسرى الانقسامات وأشكال الجدل

الأخلاقي. ونحن نعلم من خلال قراءتنا للعديد من الكتاب أن الانقسامات الراديكالية في الغالب دائما ما تحل مكان المناقشات الفكرية المتوازنة. إن المنطق الثقافي المزيج غالبا ما يميز قطبا أو طرفا واحداً ويجعل الآخر شيطانا ومصدرا لكل الشرور، والإفراط في تبسيط العالم بأسلوب بغض أخلاقيا.

ونظرا لوجود برامج أخلاقية في بحوث الفعل، فإن باحثي الفعل حساسون تماما لأي تفسيرات أخلاقية. ومنذ أن عارض باحثو الفعل التسلسلات الهرمية السلطوية غير العادلة وفضلوا إعادة توزيع القوة والاحترام على نحو واسع، فمن السهل لنا أن نكون من ضمن المحتجين على السلطة الفاشستية وتسلسلها بواسطة المشاركة غير النقدية وتحقيق الديمقراطية وحتى المساواة، والادعاء دائما بأن بحوث الفعل تكون بجوار الملائكة. وغالبا ما تكون المشاركة على نحو مثالي في حين تكون النظم السلطوية، والتي تحدث المشاركة داخلها غافلة. وبينما يمكن وضع بعض التوضيحات والشروح النظرية المفيدة من خلال المقارنة بين المفاهيم بطريقة محورية، وهذه القطبية تعتبر غير مفيدة عند تصميم الأفعال. وتحدث الأفعال دائما في منطقة ضبابية، ويمثل هدفا هنا في تمييز الضباب الأكثر امتلاء قليلا.

ونحن نعتقد أن هناك أنواعا معينة من المشاركة تعتبر حيوية لنجاح أعمال بحوث الفعل، وأنه بدون المشاركة لا يمكن حل المشكلات الاجتماعية بفعالية. ولكن المشاركة في حد ذاتها ليست سببا في وجود عمليات بحوث لفعل جيدة، إنها أداة لعملية واسعة لإنتاج المعرفة، وتصميم الفعل، والتقييم. والمشاركة ليست "شيء" أو "كمية"، إنها عملية غالبا ما تتميز بالتعقيد، والتفاوت وأحيانا التناقض. والمشاركة دائما ما تستقر داخل حدود تسلسل هرمي سياسي واجتماعي واسع.

إن تحقيق الديمقراطية بمعنى تحقيق تقرير المصير وتحرير الإرادة
لأكبر عدد ممكن من المستفيدين المحليين للبحث عن الخطط والتصميمات
الاجتماعية التي تتسم بالعدالة والأكثر حرية والأكثر دعما، يعتبر الهدف
الأكبر لبحوث الفعل. إن الأنواع الخاصة بعمليات المشاركة هي التي تخدم
هذا الهدف، ولكن المشاركة بمفردها لا يمكن أن تحقق الديمقراطية.

المشاركة Participation:

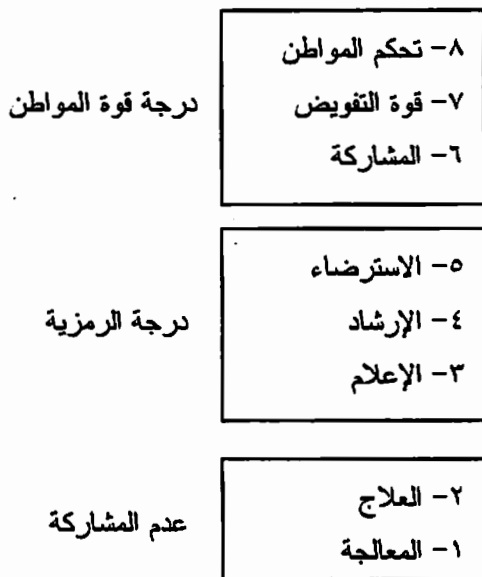
نظرا لأنه يتم التعامل مع المشاركة بأكثر عمومية، فإنه من المهم
تمييز هذا المصطلح بوسائل تساعد باحثي الفعل على تقسيم الاتجاه الكلي
لمشروعاتهم إلى ثلاثة اتجاهات. ويمكن النظر إلى المشاركة من وجهات
نظر مختلفة. وقد اخترنا منها ثلاثة هي: الأولى تقوم على أساس القوة
والضبط، والثانية في إطار نظرية المعرفة للوضع السياسي. والثالثة تبنى
على أساس البرجماتية الواقعية في أماكن العمل.

أرنستين Arnstein: القوة والضبط Power and Control:

كنقطة انطلاق فإننا نعتقد أن المصدر الجيد هو التحليل الرمزي
للمشاركة التي تم تكوينها عام ١٩٦٩ بواسطة شيري أرنستين Sherry
Arnstein. حيث إنها متعددة الأبعاد كما في شكل (١٧-١).

وتتمثل قيمة مساهمة تحليل أرنستين التناول الواسع للمشاركة من
خلال تضمين كل شيء من معالجة (التعامل مع) ضبط (تحكم) المواطنين،
ومن ثم تمييز التأثيرات على علاقات القوة. على سبيل المثال يستطيع الناس
القول إنهم يشاركون في مواقف تشغيلية Manipulative، ولكن من وجهة نظر

القوة فإنهم ليسوا مشاركين فى النتائج الاجتماعية التى تم تحقيقها. ومهما يكن فإن هذه الرموز تجعل من الواضح أن المشاركة ليست دائما فضيلة.



شكل (١٧-١)

وقد بدأت رمزية Typology أرنستين بالمعالجة والعلاج. ويكون موجود هنا خبيرا أو شخصا من أصحاب القوة، والسكان يعتبرون وفقا لرغبتهم كمشاركين فى مجموعة المواقف. مع ذلك فمن وجهة النظر السياسية فإن هذه لا تعتبر اتجاهات مشاركة لأن الهدف من الخبراء والقادة هو الإتيان بهؤلاء المشاركين ليفعلوا ما يريدون منهم. وكان التركيز منصبا على السلطة والعلاقات العامة (وغالبا على الوطنية، والكبرياء الوطنى، وغيرها مثل التعبير عن الانفعالات).

وتتضمن أول خطوة من عملية الاحتواء السياسى ما أسماه أرنستين "الإعلام Informing". وهذا يمكن تنميته وتطويره بأساليب متعددة. وفى

الحدود الضيقة فإنه يتضمن إعلام أصحاب السلطة والقيادات موظفيهم أو ناخبهم أو زبائنهم من خلال المقابلات أو بالاتصال بهم ما الذى يحدث. وفى كثير من الأحيان فإن هذا النوع من الاتصال يعتبر اتصالا ذا اتجاه واحد. مثال هذا الإعلام هو قيام المدير التنفيذى للشركة الرئيسية بجمع الموظفين وإعلامهم بأنه سوف يتم إلغاء ٥٠٠٠ وظيفة خلال فترة معينة من الزمن.

والنوع الثانى من المشاركة هو "الاستشارة Consultation" وهنا يرتبط من هم بالسلطة، سواء طوعا أو بواسطة التفويض الرسمى بالاستشارة مع المستفيدين الشرعيين. ويمكن أن يتضمن ذلك المقابلات ومنتديات الحوار العامة ولجان المواطنين وغيرها. وبينما يجعل هذا النوع من الاستشارة من هم فى السلطة أكثر متاحين بشكل أكبر لأسئلة وطلبات ناخبهم أو زبائنهم، فإن معظم أساليب الاتصال مثل المقابلات من الصعب إدارتها والتحكم فيها. وفى الغالب ما يكون لديهم صوت عدوانى، وتعامل جيد "لتدوير" المعلومات بواسطة كل الأساليب.

وفى نموذج أرنستين فإن النوع التالى من المشاركة هو "الاسترضاء Placation"، والذى من خلاله ينتقى عدد معين من جماعات المستفيدين المؤثرين فى شبكات اتصال تتسم بالقوة والاندماج فيها. وتمثل هذه الشبكات قنوات رأى للمستفيدين من خلال أعضاء مختارين من هؤلاء أصحاب القوة، وأيضا ينتخبون قادة لجماعات المستفيدين داخل خطط لهؤلاء أصحاب القوة. ويستطيع أصحاب القوة تعلم أساليب تعامل جيد، ويمكن أيضا نقل بعض المعلومات عن ما يفعلونه ويفكرون فيه إلى المستفيدين، ولكن يأتى دور المستفيدين فى إصدار أحكام حول ما يجب فعله فى الحد الأدنى.

إن أكثر الأشكال قوة للمشاركة هو "الشراكة Partnership" بين المستفيدين وأصحاب القوة. إنهم يملكون اختيار التعاون مع جماعات العمل

المؤلفة، ومن جانب آخر المشاركة فى المعلومات والتحليل والقوة مع بعضهم البعض. وفى هذه الحالة يكون هناك إعادة توزيع للقوة من القمة إلى مستويات واسعة وكبيرة من النسق، ويتخذ شكل عملية اتخاذ القرار الخصائص التعاونية.

وقد أطلق أرنستين على النمط التالى من المشاركة مصطلح "القوة المفوضة **Delegated Power**"، والتى تتضمن منح المستفيدين الوضع الأكبر فى اتخاذ القرارات التى تؤثر فى اهتماماتهم ورعايتهم. ولا يعنى ذلك فقط وضع المستفيدين بقوة وكثافة فى العملية، ولكن أيضا جعلهم يحاسبون أنفسهم، ويحاسبون القيادات والآخرين فى المجتمع عن مدى جودة وصحة قراراتهم وأفعالهم.

وقد وصف أرنستين موقف "ضبط وتحكم المواطن **Citizen Control**"، والذي من خلاله يشارك بشكل تام هؤلاء المتأثرون بأى قرار أو ظرف أو فعل فى التخطيط وصنع السياسات وتنفيذ الأفعال للتأثير فى موقفهم الخاص وكل التجمعات الواسعة التى هم جزء منها.

جرينبيرج Greenberg: الوضع السياسى **Political Positioning**:

فى مقالته بعنوان "نتائج عامل المشاركة: شرح الأدبيات النظرية" بنى جرينبيرج (1975) Greenberg تصنيفا آخر كان مفيدا لفهم المشاركة فى عمل المنظمات". وقد دمج جرينبيرج المشاركة مع الجهود السلوكية والموقفية والنتائج السياسية والاجتماعية فى مناقشاته. وقد كون أربعة نماذج **Typologies** واعتبرها مدرسة جديدة فى التفكير.

والنموذج الأول هو التفكير القائم على أساس الإدارة **Management-based Thinking**، والذي من خلاله نتوقع أن تكون

المشاركة أقل في القوة والشدة وأضيق في المجال. وكان التركيز منصبا على رفع الروح المعنوية وزيادة كفاءة العملية (التشغيل). وقد تطابقت أهداف المشاركة مع أهداف الشركة، وكانت النتيجة هي تحسين عملية التشغيل ككل للمصنع أو الشركة.

ويتضمن المستوى الثاني من التفكير علم النفس الإنساني Humanistic Psychology. ويتوقع أن يكون قوة المشاركة عالية جدا، ولكن في مجال ضيق تماما. ويمكن رؤية التأثيرات في تحسين للصحة العقلية وفي الكيان الإنساني بوجه عام. ويمكن رؤية هذه التأثيرات أيضا في تحسين أداء المنظمة.

وقدم جرينبيرج في المستوى الثالث في نظرية الديمقراطية، حيث نتوقع أن تكون قوة المشاركة عالية جدا، وأن تمتد لمدى واسع من القضايا الاجتماعية والسياسية. ويتوقع أن تتسبب المشاركة في زيادة الاهتمام بالأمور العامة وفهمها بشكل جيد. وبالإضافة إلى ذلك فإنه من الممكن أن تؤدي المشاركة إلى مزيد من التسامح وتقبل وجهات نظر الآخرين، والأساليب المختلفة أو المضادة. ولعل التأثير الأكبر يتمثل في تنمية روح المواطنة لدى أفراد المجتمع.

أما الفئة الرابعة عند جرينبيرج فهي "مشاركة اليسار Participatory Left" والتي يتوقع أن تكون المشاركة ذات قوة عالية وتمتد إلى سلسلة واسعة من القضايا المجتمعية والسياسية. وهنا تحدث المشاركة حياة عمل صحية، ونمو الرغبة نحو الضبط، ومستويات مرتفعة من الأنشطة الاقتصادية، ولكن تتضمن إلى من يناصبون العداء للمركزية البيروقراطية وهرم السلطة. ولعل التأثير النهائي للمشاركة يأتي من كونها ليست قائمة على أساس نخوى، ولكن على أساس الثورة الجماهيرية.

ليفين Levin: العالم البرجماتي القائم على أساس الواقع

Real-World Pragmatics:

تعتبر هذه الاختلافات مفيدة جدا في سياقات العالم الواقعي. وفي دراسة لليفين (١٩٨٤) حيث كانت تركز قضية هذه الدراسة على تحديد موقف المشاركة في المجتمع النزويجي الصناعي. وبدلا من استخدام الدراسة المسحية، فقد تم إجراء البحث في الشركات الكبرى النزويجية التي تسيطر عليها العمليات الصناعية، وقامت على أساس المقابلات المتعمقة. وقد أظهرت نتائج الدراسة أن مفهوم الفرد عن المشاركة يرتبط بأهمية دوره ووضعه ومكانته في المنظمة. وتعتقد الإدارة أن المشاركة مهمة ومفيدة جدا، بسبب أنها تمثل نقلة فعالة في تمرير المعلومات إلى العاملين. كما أنها تعتبر مهمة أيضا نظرا لأنها توفر المعارف والمعلومات الأساسية للإدارة، والتي تزيد من فهمهم العميق لما يفعله العاملون ويفكرون فيه.

ويعتبر ذلك اتجاها عمليا تماما للمشاركة، مجرد من كل الالتزامات الأيديولوجية للمؤسسات الديمقراطية. ومن جانب آخر فإن العاملين الذين يعملون في مجال توزيع بالمتاجر والشركات لديهم منظور ضيق جدا عن المشاركة، ويعتقدون أن المشاركة تعتبر مفيدة أساسا في امتلاكها على ظروف العمل المحلية الحالية. إنهم يفكرون من خلال خبراتهم بأن المشاركة ممكنة للتأثير في التصميم المادي الواقعي لمكان العمل، وكيف أن الكانتين (مطعم ومقهى العمل) يجب تصميمه وإدارته وغير ذلك.

وكانت وجهة النظر الثالثة للمشاركة بواسطة الاتحادات والنقابات المهنية، والذي كان يفرض عليهم وضعهم الأيديولوجي نوعا من التناغم والتوافق، وقد رأوا أن المشاركة تعتبر مصدرا مهما للممارسات العلاجية، والتي يمكن أن تنقل الشركة إلى الديمقراطية الصناعية. وفي نفس الوقت فقد

ارتبطت هذه الجماعات بشكل كامل فى مشروعات للمشاركة العملية الملموسة والتي تحسن من كفاءة الشركة أو المصنع، وبالمشروعات التى تحسن من ظروف العمل بوجه عام. وقد ضم هؤلاء النقابيون المهنيون الرأى القائل إن المشاركة تمتد من قضايا المشاركة العملية واليومية إلى التعامل مع القضايا السياسية الكبرى فى الشركات والمصانع.

وهذه العينة الصغيرة من المفاهيم النظرية التى تناولناها تظهر بوضوح أن التى ارتفعت بالنقد لعملية المشاركة. وجزء من المشكلة قد تم حله عندما فهمنا أن كل الأنشطة المتنوعة فى نماذج أرنستين وجرينبيرج وليفين قد تدفقت تحت راية المشاركة، والاستخدامات المعيبة وغير الجادة لما كنا نعتبره عمليات مشاركة زائفة، أصبحت معرضة للنقد بشكل تام. وعندما يتم إخبار الجماعة بأن المنظمة أو الحكومة ترتبط بممارسة عمليات الشراكة، وأنهم "مدخلات" مطلوبة فى حاجة إليها، ولكن سوف يتم اتخاذ القرارات بعد أن يقوم "المشاركون" بتقديم مدخلاتهم، فإن هذه العملية لن تؤدى إلى تحقيق الديمقراطية فقط بل إنها تحاول إخفاء المعالجة التى تأتى تحت المشاركة المتكلفة. ولهذا السبب وجدت العديد من المراحل والفترات فى التاريخ العمالى عندما كافحت الاتحادات والنقابات العمالية مع الموظفين والعاملين فى مفاوضات، للانسحاب من خطط المشاركة المفوضة من الشركة أو المصنع (مثال ذلك دوائر العمل، وإدارات الجودة الشاملة، وغيرها) كسلاح يستخدم فى مفاوضاتهم. وقد أدرك قادة الاتحادات والنقابات أن مثل هذه المشاركة، فى الواقع، ليست من أجل تقاسم القوة أو المشاركة فيها ككل، ولكنها مجرد عملية لزيادة الكفاءة والمنافسة، وإشراكهم فى المسئولية.

إن المشاركة الإلزامية تعتبر شائعة ومعتادة فى الكثير من المواقف وتنفذ بعيدا عن الديمقراطية. ولقد ذكرنا بالفعل آراء كوك وكوشارى

Cooke and Kothari عن المشاركة فى هذا المعنى كشكل جديد من الاستبداد (الفصل ١٣) ومع ذلك فقد وجدنا أن مناقشاتهم كانت مفرطة فى التبسيط، إننا نعتقد أن صورتهم عن المشاركة الزائفة فى الكثير من مخططات ونماذج تنمية المجتمع والتنمية الدولية دقيقة للغاية. وتحت مثل هذه الظروف الإلزامية فإن مقاومة المشاركة فى حد ذاتها يمكن أن تكون فعلا ممهدا للديمقراطية. وتحتاج بحوث الفعل إلى أن تأخذ هذه الانتقادات بجديّة وأن تكون أقل ثقة فى أن المشاركة فى حد ذاتها هى شىء جيد، ولكنه محير. إن شبح الانتخاب دائما ما يكون حاضرا.

تحقيق الديمقراطية Democratization:

إذا كان فهم المعانى المتنوعة والمتباينة للمشاركة معقدا، فإن مفهوم تحقيق الديمقراطية يقدم العديد من التحديات نظرا لاتساع مرجعياته. وهذا المصطلح يتصل بالبناءات والعمليات والحكومات واتخاذ القرارات والأهداف الأخلاقية، لا يوجد أى تعامل قصير يجعله عادلا. وعلى الرغم من أهمية انتساب باحثى الفعل إليه، فإن المناقشات الداعمة لمعنى تحقيق الديمقراطية فى بحوث الفعل تعتبر نادرة، ونحتاج إليها بشدة.

ولتنظيم أفكارنا حول تحقيق الديمقراطية، قمنا بإعداد دراسة مختصرة تلقى الضوء على العناصر المختلفة لهذه العملية. ولعل مفتاح كل ذلك هو فكرة التعاون Collaboration. وتحتاج عملية تحقيق الديمقراطية إلى وضع وتحديد المشكلات التى يجب أن ينصب عليها الاهتمام بشكل تضامنى. وتقرير ما يجب تقريره يعتبر واحدا من أكثر الموضوعات الرئيسية فى أى نوع من العملية الديمقراطية. وتعتبر الديمقراطية منفعة

جماعية، ونتيجة لذلك لا يمكن تحقيقها من خلال الفردية المتطرفة (الرايكية). والديمقراطية سواء كانت قائمة على أساس النماذج النيابية أو نماذج المشاركة، فإنها تقوم على أساس قدرة الناس على اتخاذ القرارات الجماعية. إن القواعد التي تتخذ للوصول إلى القرار تتباين وفقا لاختلاف السياقات والبيئات، ولكن تتمثل القضية الرئيسية في أن القرارات تقوم على أساس البناءات الجماعية للمعنى وعلى التعاون والصراع بين الأعضاء الذين يقومون معا بتشكيل وتكوين هذا القرار.

وعندما يتم وضع وتحديد المشكلات بشكل تعاوني، فمن ثم فإن التضامن يعتبر أيضا جوهريا في وضع الحلول لهذه المشكلات. وهنا أيضا نجد أن لتحقيق الديمقراطية معان متعددة. إنها تتضمن تكوين وتطوير الأساس المعرفي المطلوب وأبعاد وجوانب المشكلات. وهذا يعني في الغالب توفير الأدوات الضرورية للمتعاونين والتدريب المناسب لهم لذلك فإنهم يستطيعون مواصلة البحث في المشكلات التي حدوها بأنفسهم. وفي كل هذه الحالات فإن مسؤولية الوصول إلى المعرفة الضرورية تتحقق بطريقة ديمقراطية بدلا من أن تكون مركزة في يد الخبراء.

وعندما يتم تكوين المعرفة، فإن عملية التحليل تعتبر أيضا تعاونية، وتعطى الفرصة للآراء المتعددة لمختلف المستفيدين ولخبراتهم مع هذه المشكلات. ومن هنا يمتد التعاون إلى تصميم الأفعال والإجراءات التي سوف تساعد في حل المشكلات والتي تعطى الدافعية للعمل من البداية. إن خطوة تصميم الفعل تعتبر عملية مشتركة ولا تعتمد فقط على الخبراء لتصميم البرامج. وأخيرا فإن عملية التعاون تمتد إلى تطبيق الأفعال والإجراءات التي تم تصميمها وتقييم النتائج.

وتعتبر قاعدة التعاون واضحة ورئسية فى أى مكان وأن دور المشاركة والذى تتضمن درجة عالية من الحكم التعاونى يعتبر رئيسيا. وعلى الرغم من أن هذا النوع من تحقيق الديمقراطية فى البحث يتضمن ذلك، فإننا نعتقد أنه من الأهمية بمكان التأكيد على أنه من المفترض تماما احترام معارف وخبرات أصحاب المشكلات فى المجتمع. وتسلم الديمقراطية هنا بأن كل كيان إنسانى يعرف أكثر عن مواقف حياته من أى شخص آخر، وأن كل فرد يتم منحه الدعم المناسب قادر على المساهمة بمعارفه وتحليلاته فى العملية الاجتماعية التعاونية لو أننا نملك المهارات الجماعية الكافية التى تساعدنا على توفير الميدان المناسب للتعاون.

وأحد الأشياء التى نفتقد من خلالها الفهم عند الحديث عن الديمقراطية وبحوث الفعل هو كل من نماذج الإجماع Consensus ونماذج الأغلبية فى الديمقراطية والتى تعتبر ضارة وغير ملائمة لمفهوم الديمقراطية الذى يوجه بحوث الفعل. وفيما عدا الموقف الاستثنائى، والذى من خلاله يكون لدى كل فرد اهتمامه الذاتى (ذلك أن، الشهاب أو النيزك القادم إلى طريقنا لا يضرب الأرض) فإن اتخاذ القرار بالإجماع عادة ما يتضمن أصواتا وآراء مسيطرة تستبد وتضطهد الأشخاص التابعين الآخرين. وقاعدة الأغلبية هى الأخرى معوقة لنا نظرا لأنها أكثر عدائية. ففي هذه الحالة فالأغلبية تفوز والأقلية تسحق.

ومن وجهة نظرنا فإن الاتجاه الوحيد نحو الديمقراطية والذى يتسق مع بحوث الفعل هو الديمقراطية ذات المواقف التوافقية Harmonization of Positions (Lijphart, 1977). فبحوث الفعل لا تدور حول محو الاختلاف، ولكن تدور حول تنظيم هذه الاختلافات وتحديد الوسائل الممكنة نحو احترام هذه الاختلافات التى قد لا يستطيع المستفيدون إظهارها أو عرضها. ويعنى هذا فى الغالب تقييد الأفعال التى تحدث فى هذه المناطق، والتى يكون فيها

توافق كافٍ بين الاهتمامات للسماح بتنفيذ الفعل، وعلى الرغم من ذلك فإن النجاح مع هذه الأفعال يمكن أن يؤدي أخيرا إلى إمكانية تحديد الكثير من القضايا بسبب الخلاف. ولكن ما نرفضه هو فكرة أن قواعد اتخاذ القرار يمكن أن تستخدم لتجاهل أو سحق الاهتمامات المنطقية لأي جماعة من جماعات المستفيدين مهما كانت قليلة. وبهذا المعنى فإن فكرتنا عن الديمقراطية تتطابق تماما مع وجهة نظر البرجماتية الحديثة بأن الهدف من هذه الأنشطة هو "الاحتفاظ بالحوارات المستمرة" (Rorty, 1980).

وأخيرا فإننا نعتقد أن عملية تحقيق الديمقراطية تحتاج إلى نوع من اليقظة التامة حول عدالة العملية في تزامنها مع عدالة النتائج. ذلك أنه عندما تتواصل مشروعات بحوث الفعل وتتقدم للأمام، فإنه يجب علينا الاهتمام بطلب الانفتاح والعدالة في العمليات اليومية التي تحدث ولكن أيضا النظر إلى عدالة النتائج. وهذان لا يجب أن يكونا منفصلين. إنه من الممكن أن يكون لدينا عمليات مفتوحة وعادلة وتنتهي بنتائج فقيرة. وإنه من الممكن أحيانا أيضا أن نحقق نتائج جيدة بواسطة عملية سيئة. وفي بحوث الفعل فنحن نحاول أن نكون منتبهين ومتسقين مع اهتمامنا بالديمقراطية على طول الطريق وفي نهاية كل يوم.

موقع المشاركة وتحقيق الديمقراطية

Venues for Participation and Democratization

ونتحدث في هذا الموضوع عن المشاركة وتحقيق الديمقراطية بطريقة مجردة ومحايدة. والإستراتيجية الأخرى تتمثل في التفكير سياقيا عن الظروف الممكنة التي وجدناها في المواقف التي عملنا بها. وتختلف ظروف

المشاركة وتحقيق الديمقراطية فى الصناعة وفى الخدمات الصناعية، وأن هذه الظروف تختلف من تلك الموجودة فى منظمات الخدمات، والمؤسسات التعليمية والمؤسسات الحكومية، ومؤسسات التنمية الدولية، والمنظمات غير الحكومية. وبالطبع فإنها تختلف أيضا داخل كل قطاع من هذه القطاعات طبقا للأنشطة النوعية، والبناءات التنظيمية، والثقافات التنظيمية.

ومنذ أن عمل كلا المؤلفين فى الصناعة وتنمية المجتمع والمؤسسات التعليمية ومنظمات الخدمات، فإننا نعى ونذكر الظروف المختلفة لإمكانية المشاركة وتحقيق الديمقراطية فى هذه الأماكن المختلفة. إننا نعانى من انصراف بعض باحثى الفعل من عملنا، والذين يعتقدون أن أى عمل فى المؤسسات الصناعية والحكومية وفى الجامعات هو اختيارى أساسا، وأن الإبقاء على وضع متماسك ومترابط لبحوث الفعل يحتاج إلى الابتعاد عن "معدة الحيوان Belly of the beast" وفى حين أننا نحترم آراء زملائنا التى تختلف عن آرائنا، فليس من الواجب علينا الموافقة عليها.

ومن وجهة نظرنا فإن الوصول إلى أعلى مستوى من الإنتاجية لبحوث الفعل يتطلب أن ننظر لجميع المواقف الإنسانية بعقل مفتوح، وأن نتعلم كيف تقدم بحوث الفعل إسهاماتها فى كل جوانب الإصلاح والرقى الإنسانى فى جميع البيئات والسياقات. ونحن لا نعتقد بأن أى سياق تنظيمى يمتنع عن بحوث الفعل، وعلى الرغم من ذلك فإننا نعترف حاليا بأن هناك بعض المشروعات المعينة فى أى قطاع، وربما تعمل فى ظروف معادية كثيرا لبحوث الفعل، لذلك فلا معنى ولا هدف من القيام بها.

لذلك فنحن نؤكد على أن الديمقراطية هى سياق مقيد Context bound، دائما ما يعمل داخل سياقات معينة، وبناءات قوة وبيئات. فجزر الفارو Faroe Islands على سبيل المثال لها نظامها الديمقراطى الخاص بها، ولكن

هناك قضايا معينة ترتبط بسياسات خارجية، فهم ينسقون جهودهم مع الدانمارك، والتي من جانب آخر تتبع وتلتزم بقرارات الاتحاد الأوروبي. وأخيرا يكافح الاتحاد الأوروبي لاتخاذ وتطبيق قراراته على أساس ديمقراطي. لذلك فالديمقراطية تعمل دائما تحت ظروف معينة تمثل حدودا مقيدة لها، سواء على المستوى القومي أو على المستوى المحلى.

ويبدو أنه يتم تجاهل ذلك فى بحوث الفعل. ولعل أفضل مثال لتعقيدات هذه العلاقات يظهر فى مشروع الديمقراطية الصناعية النرويجية. وكانت الفكرة تتمثل فى تدعيم الديمقراطية على مستوى عمال التوزيع فى المحلات التجارية، حيث بدأت بالتفاوض على هدنة بين الاتحاد الكونفيدرالى للموظفين ونقابات العمل. وقد انقلب هذا الأمر لكى يتحول إلى حالة من التناقض والاختلاف فى هذه الجهود الديمقراطية، والذى تمثل فى الانفصال بين وضع القوة لنقابات العمل فى الشركات التى تقوم على مستوى عالٍ من العضوية وبين التمثيل الجماعى نحو الإدارة وعمليات الديمقراطية المحلية على مستوى عمال التوزيع. ويمكن أن تجعل القرارات التى يتم اتخاذها على مستوى الموظفين والعمال ونقابات العمل غير ضرورية بسبب تضاعف وتأكل تأثيرها، مما يجعل هذه النقابات تنسم بالعوانية على عملية تحقيق الديمقراطية على مستوى الموظفين والعمال. وباختصار فإن الديمقراطية فى أحد المستويات لابد أن تراعى التوازن مع الظروف على كل مستويات النسق الأخرى. وتتطلب مختلف المستويات صياغات مختلفة لعملية تحقيق الديمقراطية تكون أكثر فعالية.

وهناك وسيلة أخرى لتحديد موقفنا هى القول بأن بحوث الفعل دائما مرتبطا ببنيا. وكما حددنا بشكل متكرر فى هذا الكتاب، أن عمليات بحوث الفعل يمكن أن تتحسن دائما، وأنها دائما مفتوحة أكثر مما وجدناها فى أى

يوم. ولكن هذا يعنى بالضرورة أيضا أن ما يؤسس لأدوات التحسين يقيس ما تم تحقيقه اليوم مقابل ما تم تحقيقه بالأمس. وهذا ليس معيارا مطلقا ولكنه عملية مستمرة لمحاولة التعمق فى ظروف المشاركة وتعزيزها، وبذلك يتم توسيع عملية تحقيق الديمقراطية فى الموقف.

ولإعطاء مثال على تطبيق بحوث الفعل فى المواقع الصناعية، والتي تكون فيها ملكية وسائل الإنتاج فى أيدي مجموعة من المستفيدين خارج قوة العمل، أو أن تكون فى أيدي ممول الشركة أو أسرته، وتتضمن عملية معقدة لزيادة قدرة المنظومة الكاملة من المستفيدين للتأثير فى ظروف العمل وأرباحه، وأخيرا لتحقيق التوزيع العادل لأرباح العمل. ولكن العدالة هنا لا تعنى تماما التقسيم المتساوى أو حتى أى معنى قريب من ذلك. ومع ذلك فيمكن أن تعنى التحسينات المهمة فى الأمن والسلامة فى العمل، والرضا الوظيفى، وربما الأجر وبعض الإنصاف فى العمل. وبينما يكون الارتباط فى مثل هذا العمل دائما ما يكون اختيارا أخلاقيا فرديا، فإننا نعتقد بأنه ليس لأى شخص الحق فى صرف النظر عن هذا العمل كمحددات خارجية لبحوث الفعل نظرا لأن الظلم وعدم العدالة سيبقى وأيضا بسبب أن المنظمات الرأسمالية لا يمكن أن تسقط تماما.

ونحن نعتقد أيضا بأنه بدون وجود أى مواقع عمل تتسم بالديمقراطية، فإن مستقبل الديمقراطية السياسية بوجه عام سيكون فى مهبط الريح. إن العمل فى أماكن تتسم بالسلطوية والإجبار، ومن ثم الاقتراع والتصويت ديمقراطيا لمجموعة من القادة أصحاب رعوس الأموال الكبرى، يعتبر من الصعب وصفه بأنه حكم ديمقراطى حقيقى وجاد. لذلك فإننا نفهم العمل الصناعى على أنه عملية مؤلمة وبطيئة لكسب أرضية للديموقراطية داخله.

وهناك العديد من المناقشات المشابهة التى أجريت فى منظمات الخدمات، والمؤسسات الحكومية وفى الكثير من المؤسسات التى تسودها الاتجاهات

السلطوية الحالية والانتخابات والممارسات غير الديمقراطية. وبينما نجد أن الحقيقة المؤكدة بأن باحثي الفعل الذين ترعّبهم بشدة مثل هذه الظروف، والتي لا تجبرهم على أن يكونوا موجودين في هذه الأماكن يجب ألا يقوموا بهذا النوع من العمل، فليس حقيقياً أن هذا العمل خارج حدود بحوث الفعل. ولنقبل أن إدانة بحوث الفعل للعشوائيات الفقيرة على مستوى العالم ومهاجمتنا كوضع اختياري على حقهم، فإن ترويض بحوث الفعل على هامش الرأسمالية المتقدمة.

ويعتبر الانتخاب (الاختيار) Co-optation دائماً مخاطرة رئيسية في أى عملية من عمليات بحوث الفعل، ولكن ما الذى يؤسس لهذا الانتخاب غير قابل للتحقق بسهولة. فقد يجد شخص ما وجود إمكانيات في الموقف تسمح بتحقيقه ولا يجد شخص آخر. وبالنسبة للشخص الذى لا يرى عدم وجود إمكانيات، فإنه يحاول إجراء بحوث الفعل فى أى موقف لا يدين عملية الانتخاب، وبالنسبة للشخص الذى يرى وجود إمكانيات، فإن الفشل فى اتخاذ الفعل يبدو أن يكون راجعاً للاختيار الانفعالي. ومن وجهة نظرنا فإن كل بحث فعل فردي يحتوى على عناصر الانتخاب والمشاركة الزائفة والمعالجة. والحل فقط هو استمرار الحذر والانتباه الشخصى والمناقشة الفعالة بين ممارسي بحوث الفعل للحفاظ على وضوح مجال وهدف والخط البياني contours لهذه القضايا.

الخلاصة: بحوث الفعل وعمليات الديمقراطية:

إن هدف بحوث الفعل هو دعم عمليات تحقيق الديمقراطية. والآن يدور السؤال حول مدى وجود منظور عام لبحوث الفعل لتدعيم ذلك. وبمراجعة مناقشتنا السابقة، فإننا قلنا إنه لتحقيق عملية اتخاذ القرار على

أساس ديمقراطي، فلا بد أن تبنى العمليات على أساس المشاركة، والتي تتضمن أصحاب المشكلات. وقد قلنا أيضا إن القرارات الديمقراطية ليست مرادفا للعمليات القائمة على أساس الاتفاق العام. فالقرارات يجب أن تتخذ على أساس تنوع وتعدد الأبعاد للمستهدفين. وفي نفس الوقت فإن هذه العملية تعمل على إعادة هيكلة الأوضاع التي تبدو كنتيجة لعمليات إنتاج المعرفة في أنشطة بحوث الفعل.

ومن وجهة نظرنا فإن جوهر العملية الديمقراطية هو إنتاج المعرفة. إن هذا النوع من المناقشة الزائفة التي تقوم عادة على أساس الأوضاع الأيديولوجية، في بحوث الفعل، ويجب أن يحل محله عمليات الإنتاج الجماعي للمعرفة الذي يقوم على أساس الخبرات والتجارب العملية الفعالة الهادفة على حل المشكلات المرتبطة. وتختلف عملية إنتاج المعرفة هذه عن الجدل الأيديولوجي السياسي، حتى لو أنها تأثرت بهذه الأيديولوجيات، نظرا لأن عملية تكوين الوعي ترتبط بالموقف الفعلي والمشارك. وبسبب ذلك فإن تكوين الوعي سوف يكون عمليا ونظريا.

وإضافة إلى ذلك فإن هذه الأرضية من تكوين الوعي في السياق والاختيارات العملية تخلق إمكانية التغلب على "سيطرة الطبقة الحاكمة"، كما طرحها جرامسي Gramsci بقوة (Ransome, 1992). وقد رأى جرامسي أن الطبقات المعتمدة تتبنى (تخضع) نماذج المجتمع التي يسيطر عليها أصحاب القوة، وبذلك يصبحون غير قادرين على تصنيف (فرز) أفضل الاهتمامات التي تخصهم. وتعتبر هذه مشكلة مرعبة (هائلة)، ولكن بحوث الفعل تحاول التعامل مع هذه المشكلة بشكل تدريجي ولكنه مهم من خلال خلق العمليات التي ترفع من المعرفة وتصميمات الفعل والتي تتطابق مع الترتيبات الواسعة لاهتمامات المستفيدين. وعلى الرغم من مخاطر الانتخاب Co- Optation فإن عمليات تكوين المعرفة المنتجة بطريقة تعاونية في بحوث الفعل تعتبر وسيلة وإعادة لتدعيم الديمقراطية.

- Adams, J. (2004, July). *Scientific teams and institutional collaborations: Evidence from U.S. universities, 1981–1999* (Working Paper no. 10640). Cambridge, MA: National Bureau of Economic Research.
- Alinsky, S. (1946). *Reveille for radicals*. Chicago: University of Chicago Press.
- Amabile, T. M. (1996). *Creativity in context*. Boulder, CO: Westview.
- Argyris, C. (1974). *Theory in practice*. San Francisco: Jossey-Bass.
- Argyris, C. (1980). *Inner contradictions of rigorous research*. New York: Academic Press.
- Argyris, C. (1985). *Strategy, change, and defensive routines*. Boston: Pitman.
- Argyris, C. (1993). *On organizational learning*. Cambridge, MA: Blackwell.
- Argyris, C., Putnam, R., & McClain Smith, D. (1985). *Action science: Concepts, methods, and skills for research and intervention*. San Francisco: Jossey-Bass.
- Argyris, C., & Schön, D. (1978). *Organizational learning*. Reading, MA: Addison-Wesley.
- Argyris, C., & Schön, D. (1996). *Organizational learning II*. Reading, MA: Addison-Wesley.
- Arnstein, S. R. (1969, July). A ladder of citizen participation. *Journal of the American Planning Association*, 35(4), 216–224.
- Barnes, B. (1977). *Interests and the growth of knowledge*. London: Routledge & Kegan Paul.
- Barnes B., & Shapin, S. (1979). *Natural order*. Beverly Hills, CA: Sage.
- Barnett, R. (2003). *Beyond all reason: Living with ideology in the university*. Buckingham, England: Society for Research into Higher Education and Open University Press.
- Bateson, G. (1979). *Mind and nature: A necessary unity*. New York: Dutton.
- Belenky, M., Bond, L., & Weinstock, J. (1997). *A tradition that has no name*. New York: Basic Books.
- Belenky, M., Clinchy, B., Goldberger, N., & Tarule, J. (1997). *Women's ways of knowing*. New York: Basic Books.
- Belshaw, D. (1981). A theoretical framework for data-economizing appraisal procedures with applications for rural development planning. *IDS Bulletin*, 12, 12–22.
- Benson, L., Harkavy, I., & Puckett, J. (2000). An implementation revolution as a strategy for fulfilling the democratic promise of university-community partnerships: Penn-West Philadelphia as an experiment in progress. *Nonprofit and Voluntary Sector Quarterly*, 29(1), 24–45.
- Berger, P., & Luckmann, T. (1966). *The social construction of reality*. Garden City, NY: Doubleday.
- Bowers, C. A., & Apfel-Marglin, F. (Eds.). (2004). *Rethinking Freire: Globalization and the environmental crisis*. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum Associates.
- Bradbury H., & Reason, P. (2001). Conclusion: Broadening the bandwidth of validity: Issues and choice-points for improving the quality of action research. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research* (pp. 447–455). London: Sage.
- Bradley, K., & Gelb, A. (1983). *Cooperation at work: The Mondragón experience*. London: Heinemann Educational Books.
- Brint, S. (1994). *In an age of experts: The changing role of professionals in politics and public life*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

- Brokhaug, I., Levin, M., & Nilssen, T. (1986). *Tiltaksarbeid på dugnad* [Collective work for community development]. Trondheim, Norway: IFIM/ORAL.
- Brookfield, S. (1986). *Understanding and facilitating learning: A comprehensive analysis of principles and effective practices*. San Francisco: Jossey-Bass.
- Brookfield, S. (1987). *Developing critical thinkers: Challenging adults to explore alternative ways of thinking and acting*. San Francisco: Jossey-Bass.
- Brown, L. D., & Tandon, R. (1993). Ideology and political economy in inquiry: Action research and participatory research. *Journal of Applied Behavioral Science*, 19(3), 277–294.
- Brulin, G. (2001). The third task of universities or how to get universities to serve their communities. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research* (pp. 440–446). London: Sage.
- Brunner, I., & Guzman, A. (1989). Participatory evaluation: A tool to assess projects and empower people. In R. Conner & M. Hendricks (Eds.), *International innovations in evaluation methodology* (New Directions in Evaluation no. 42; pp. 9–18). San Francisco: Jossey-Bass.
- Brunsson, N. (1989). *The organization of hypocrisy: Talk, decisions and actions in organizations*. Chichester, England: Wiley.
- Burke, T. (1994). *Dewey's new logic: A reply to Russell*. Chicago: University of Chicago Press.
- Bråthen, S. (1973). Model monopoly and communication systems: Theoretical notes on democratization. *Acta Sociologica*, 16(2), 98–107.
- Carr, W., & Kemmis, S. (1985). *Becoming critical: Education, knowledge and action research*. London: Falmer.
- Chambers, R. (1981). Rapid rural appraisal: Rationale and repertoire. *Public Administration and Rural Development*, 2(2), 95–106.
- Chambers, R. (1994a). The origins and practice of participatory rural appraisal. *World Development*, 22(7), 953–966.
- Chambers, R. (1994b). Participatory rural appraisal (PRA): Analysis of experience. *World Development*, 22(9), 1253–1268.
- Chambers, R. (1994c). Participatory rural appraisal (PRA): Challenges, potentials and paradigms. *World Development*, 22(10), 1437–1454.
- Chambers, R. (1997). *Whose reality counts? Putting the first last*. London: Intermediate Technology.
- Chambers, R. (2002). *Participatory workshops: A sourcebook for 21 sets of ideas and activities*. London: James & James/Earthscan.
- Chambers, R. (2005). *Ideas for development*. London: James & James/Earthscan.
- Chandler, D., & Torbert, W. (2003). Transforming inquiry and action: Interweaving flavors of action research. *Journal of Action Research* 1 (2), 133–152.
- Chávez, C. (1975). *César Chávez: Autobiography of La Causa* (with J. E. Levy). New York: Norton.
- Chessler, M., & Chesney, B. (1995). *Cancer and self-help: Bridging the troubled waters of childhood illness*. Madison: University of Wisconsin Press.
- Clifford, J., & Marcus, G. (Eds.). (1985). *Writing culture*. Berkeley: University of California Press.
- Cooke, B., & Kothari, U. (Eds.). (2001). *Participation: A new tyranny?* London: Zed Books.

- Crane, B. (2000). *Building a theory of change and a logic model for an empowerment-oriented family support training and credentialing program*. Unpublished doctoral dissertation, Cornell University, Ithaca, NY.
- Cronbach, L. J., & Suppes, P. (1969). *Research for tomorrow's schools: Disciplined inquiry for education*. London: Macmillan.
- Cummings, T. G., & Worley, C. G. (2001). *Organization development and change*. Cincinnati: South-Western.
- Dahl, R. (1989). *Democracy and its critics*. New Haven, CT: Yale University Press.
- Davis, L. E., & Taylor, J. C. (1972). *Design of jobs*. Harmondsworth, England: Penguin.
- Deming, W. E. (1983). *Out of the crisis: Quality, productivity, and competitive position*. Cambridge, MA: MIT Center for Advanced Engineering Technology.
- Dewey, J. (1900). *The school and society*. Chicago: University of Chicago Press.
- Dewey, J. (1902). *The child and the curriculum*. Chicago: University of Chicago Press.
- Dewey, J. (1976). *Essays on logical theory, 1902-1903* (A. Boydston, ed.). Carbondale: Southern Illinois University Press.
- Dewey, J. (1991). *Logic: The theory of inquiry*. Carbondale: Southern Illinois University Press.
- Dewey, J. (1991/1927). *The public and its problems*. Athens: Ohio University Press. (Original work published 1927).
- Diggins, J. (1994). *The promise of pragmatism*. Chicago: University of Chicago Press.
- Douglas, M. (2002). *Purity and danger: An analysis of the concepts of pollution and taboo*. London: Routledge.
- Dreyfus, H., & Dreyfus, S. (1986). *Mind over machine*. New York: Free Press.
- Eikeland, O. (1992). *Erfaring, dialogikk og politikk* [Experience, dialogue and politics]. Oslo: Work Research Institute.
- Elden, M. (1979). Three generations of work democracy experiments in Norway. In G. Cooper & E. Mumford (Eds.), *The quality of working life in Western Europe* (pp. 226-257). London: Associated Business Press.
- Elden, M., & Levin, M. (1991). Co-generative learning: Bringing participation into action research. In W. F. Whyte (Ed.), *Participatory action research* (pp. 127-142). Newbury Park, CA: Sage.
- Elliott, J. (1991). *Action research for educational change*. Buckingham, England: Open University Press.
- Elster, J. (Ed.). (1986). *Rational choice*. Oxford, England: Basil Blackwell.
- Elvemo, J., Grant Matthews, L., Greenwood, D., Martin, A., Strubel, A., & Thomas, L. (1997). Participation, action, and research in classroom. *Studies in Continuing Education*, 19(1), 1-50.
- Emery, F., & Emery, M. (1974). *Participative design: Work and community life*. Canberra: Australian National University Centre for Continuing Education.
- Emery, F., & Thorsrud, E. (1976). *Democracy at work*. Leiden, Netherlands: Martinus Nijhoff.
- Emery, F., & Trist, E. (1973). *Towards a social ecology*. London: Plenum.
- Emery, F. E., & Oeser, O. A. (1958). *Information, decision, and action*. Melbourne: Melbourne University Press.
- Emery, M. (1982). *Searching*. Canberra: Australian National University Centre for Continuing Education.
- Emery, M. (1993). *Participative design for participative democracy*. Canberra: Australian National University Centre for Continuing Education.
- Emery, M. (1998). *Searching*. Amsterdam: John Benjamins.

- Engelstad, P. H., & Haugen, R. (1972). *Skjervøy i går, i dag og i morgen* [Sjervøy, yesterday, today and tomorrow]. Oslo: Work Research Institute.
- Eurich, N. (1985). *Corporate classrooms: The learning business*. Princeton, NJ: Princeton University Press.
- Fals Borda, O. (1969). *Subversion and social change in Colombia* (J. D. Skiles, trans.). New York: Columbia University Press.
- Fals Borda, O., & Rahman, M. (Eds.). (1991). *Action and knowledge: Breaking the monopoly with participatory action research*. New York: Apex.
- Fetterman, D., Kaftarian, S. J., & Wandersman, A. (1995). *Empowerment evaluation: Knowledge and tools for self-assessment and accountability*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Filley, A. C., & House, R. J. (1969). *Managerial process and organizational behavior*. Glenview, IL: Scott, Foresman.
- Fine, M. (1992). *Disruptive voices: The possibilities of feminist research*. Ann Arbor: University of Michigan Press.
- Finger, M., & Asún, J. M. (2001). *Adult education at the crossroads: Learning our way out*. New York: National Institute of Adult Continuing Education.
- Finne, H., Levin, M., & Nilssen, T. (1995). Trailing research: A model for useful evaluation. *Evaluation*, 1(1), 11–32.
- Flood, R., & Romm, N. (1996). *Diversity management*. Chichester, England: Wiley.
- Fox Keller, E. (1985). *Reflections on gender and science*. New Haven, CT: Yale University Press.
- Frege, G. (1956). The thought: A logical inquiry. *Mind*, 65, 289–311. (Original work published 1918).
- Freire, P. (1970). *The pedagogy of the oppressed*. New York: Herder & Herder.
- Freire, P. (1998a). *Pedagogy of the heart*. New York: Continuum International.
- Freire, P. (1998b). *Teachers as cultural workers: Letters to those who dare*. Boulder, CO: Westview.
- Fuller, S. (2000). *The governance of science: Ideology and the future of the open society*. London: Open University Press.
- Furner, M. (1975). *Advocacy and objectivity: A crisis in the professionalization of American social science, 1865–1905*. Lexington: University of Kentucky Press.
- Gabarrón, L., & Hernández-Landa, L. (1994). *Investigación participativa* [Participatory research]. Madrid: Centro de Investigaciones Sociológicas.
- Gadamer, H. G. (1982). *Truth and method* (2nd ed.). New York: Crossroads.
- Gallagher, R. A. (2001). T-Groups. Available at http://www.orgdct.com/more_on_t-groups.htm
- Gaventa, J. (1982). *Power and powerlessness: Quiescence and rebellion in an Appalachian valley*. Urbana and Chicago: University of Illinois Press.
- Gardner, K., & Lewis, D. (1996). *Anthropology, development and the post-modern challenge*. London: Pluto.
- Geertz, C. (1973). *The interpretation of cultures*. New York: Basic Books.
- Gerhardsen, E. (1932). *Tillitsmannen* [Becoming a union official]. Oslo: Tiden Forlag.
- Gibbons, M., Limoges, C., Nowotny, H., Schwartzman, S., Scott, P., & Trow, M. (1994). *The new production of knowledge: The dynamics of science and research in contemporary societies*. London: Sage.
- Gilligan, C. (1982). *In a different voice*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Giles, D., Stanton, T., & Cruz, N. (1999). *Service-learning: A movement's pioneers reflect on its origins, practice, and future*. San Francisco: Jossey-Bass.
- Gramsci, A. (1975). *Letters from prison* (L. Lawner, trans.). London: Jonathan Cape.

- Greenberg, E. S. (1975, September). The consequences of worker participation and control: A clarification of the theoretical literature. *Social Science Quarterly*, 2, 225-242.
- Greenwood, D. (1980). *Community-level research, local-regional-governmental interaction and development planning: A strategy for baseline studies* (Rural Development Occasional Paper no. 10). Ithaca, NY: Cornell University, Center for International Studies.
- Greenwood, D. (1985). *The taming of evolution: The persistence of nonevolutionary views in the study of humans*. Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Greenwood, D. (1989). Paradigm-centered versus client-centered research: A proposal for linkage. In *Proceedings of the forty-second annual meeting, Industrial Relations Research Association* (pp. 273-281). Madison, WI: Industrial Relations Research Association.
- Greenwood, D. (2002). Action research: Unfulfilled promises and unmet challenges. *Concepts and Transformation*, 7(2), 117-139.
- Greenwood, D. (2004a). Action research: Collegial responses fulfilled. *Concepts and Transformation*, 9(1), 80-93.
- Greenwood, D. (2004b). Feminism and action research: Is "resistance" possible and, if so, why is it necessary? In M. Brydon-Miller, P. Maguire, & A. McIntyre (Eds.), *Traveling companions: Feminism, teaching, and action research* (pp. 157-168). Westport, CT: Praeger.
- Greenwood, D., et al. (1990). *Culturas de Fagor: Estudio antropológico de las cooperativas de Mondragón*. San Sebastian, Spain: Editorial Txertoa.
- Greenwood, D., et al. (1992). *Industrial democracy as process: Participatory action research in the Fagor Cooperative Group of Mondragón*. Assen-Maastricht, Netherlands: Van Gorcum.
- Greenwood, D., & Levin, M. (1998). Action research, science, and the co-optation of social research. *Studies in Cultures, Organizations and Societies*, 5(1), 237-261.
- Greenwood, D., & Levin, M. (2000). Reconstructing the relationships between universities and society through action research. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (2nd ed.; pp. 85-106). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Greenwood, D., Whyte, W., & Harkavy, I. (1993). Participatory action research as a process and as a goal. *Human Relations*, 46(2), 175-192.
- Guba, E., & Lincoln, Y. (1981). *Effective evaluation: Improving the usefulness of evaluation results through responsive and naturalistic approaches*. San Francisco, CA: Jossey-Bass.
- Guba, E., & Lincoln, Y. (1985). *Naturalistic inquiry*. Newbury Park, CA: Sage.
- Guba, E., & Lincoln, Y. (1989). *Fourth generation evaluation*. Newbury Park, CA: Sage.
- Guba, E., & Lincoln, Y. (2005). Paradigmatic controversies, contradictions, and emerging confluences. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (3rd ed.; pp. 191-215). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Gunder Frank, A. (1970). *Latin America: Underdevelopment or revolution: Essays on the development of underdevelopment and the immediate enemy*. New York: Monthly Review Press.
- Gustavsen, B. (1985). Work place reform and democratic dialogue. *Economic and Industrial Democracy*, 6, 461-479.
- Gustavsen, B. (1992). *Dialogue and development*. Assen-Maastricht, Netherlands: Van Gorcum.

- Gustavsen, B., & Engelstad, P. H. (1986). The design of conferences and the evolving role of democratic dialogue in changing working life. *Human Relations*, 39(2), 101-116.
- Habermas, J. (1984). *The theory of communicative action: Reason and the rationality of society* (T. McCarthy, trans.). Boston: Beacon.
- Hafez Barazangi, N., Greenwood, D., Burns, M., & Finne, J. (2004). Evaluation model for an undergraduate action research program. In B. Hall & M. del Carmen Rodríguez de France (Eds.), *Learning the world we want* (pp. 152-159). Proceedings of the conference "Intersecting Conversations on Education, Culture, and Community," Victoria, British Columbia, November 2003.
- Hall, B. (1975). Participatory research: An approach for change. *Convergence*, 8(2), 24-32.
- Hall, B., Gillette, A., & Tandon, R. (Eds.). (1982). *Creating knowledge: A monopoly? Participatory research in development*. New Delhi: Society for Participatory Research in Asia.
- Hanssen Bauer, J., & Aslaksen, K. (1991). *Rett sats* [Correct start]. Oslo: SBA.
- Hemmati, M., Dodds, F., & Enayati, J. (2002). *Multi-stakeholder processes for governance and sustainability*. London: James & James/Earthscan.
- Herbst, P. (1976). *Alternatives to hierarchies*. Leiden, Netherlands: Martinus Nijhoff.
- Herbst, P. (1980). Community conference design: Skjervøy, today and tomorrow. *Human Futures* (2), 1-6.
- Heron, J. (1996). *Co-operative inquiry: Research into the human condition*. London: Sage.
- Heron, J. (2001). Transpersonal co-operative inquiry. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research* (pp. 333-339). London: Sage.
- Herr, K., & Anderson, G. L. (2005). *The action research dissertation*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Herzberg, F. (1966). *Work and the nature of man*. Cleveland: World.
- Hess, D. (2001). *Science studies: An advanced introduction*. New York: New York University Press.
- Hinsdale, M., Lewis, H., & Waller, S. (1995). *It comes from the people*. Philadelphia: Temple University Press.
- Horton, M. (with J. Kohl & H. Kohl). (1990). *The long haul: An autobiography*. New York: Doubleday.
- Horton, M., & Freire, P. (1990). *We make the road by walking: Conversations on education and social change*. Philadelphia: Temple University Press.
- House, E. (1972). The conscience of educational evaluation. *Teachers Colleges Record*, 73(3), 405-414.
- House, E. (1993). *Professional evaluation: Social impact and political consequences*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Ishikawa, K. (1976). *Guide to quality control*. Tokyo: Asian Productivity Organization.
- Jacob, F. (1982). *The possible and the actual*. Seattle: University of Washington Press.
- James, W. (1948). *Essays in pragmatism*. New York: Hafner.
- James, W. (1995). *Essays in radical empiricism*. Lincoln: University of Nebraska Press.
- Johannessen, K. S. (1996). Action research and epistemology: Some remarks concerning the activity-relatedness and contextuality of human language. *Concepts and Transformation*, 1(2/3), 281-297.
- Joyappa, V., & Martin, D. (1996). Exploring alternative research epistemologies for adult education: Participatory research, feminist research and feminist participatory research. *Adult Education Quarterly*, 47(1), 1-14.
- Juran, J. M. (1980). *Quality planning and analysis*. New York: McGraw-Hill.

- Kasimir, S. (1996). *The myth of Mondragón*. Albany: State University of New York Press.
- King, J. (1998). Making sense of participatory evaluation practice. *New Directions for Evaluation*, 80, 57–67.
- Knowles, M. (1990). *The adult learner: A neglected species* (rev. ed.). Houston: Gulf Publishing.
- Knowles, M., and others. (1984). *Andragogy in action: Applying modern principles of adult education*. San Francisco: Jossey-Bass.
- Kuhn, T. (1962). *The structure of scientific revolutions*. Chicago: University of Chicago Press.
- Lather, P. (1991). *Getting smart: Feminist research and pedagogy with/in the postmodern*. New York: Routledge.
- Latour, B. (1987). *Science in action*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Latour, B., & Woolgar, S. (1979). *Laboratory life*. Beverly Hills, CA: Sage.
- Levin, M. (1984). Worker participation in the design of new technology. In T. Martin (Ed.), *Design of work in automated manufacturing systems* (pp. 97–103). Oxford, England: Pergamon.
- Levin, M. (1988). *Lokal mobilisering* [Local mobilization]. Trondheim, Norway: IFIM.
- Levin, M. (1993). Creating networks for rural economic development in Norway. *Human Relations*, 46(2), 193–217.
- Levin, M. (1994). Action research and critical systems thinking: Two icons carved out of the same log? *Systems Practice*, 7(1), 25–42.
- Levin, M. (1998). Book Review—PAR/Action and Knowledge. *Systemic Practice and Action Research*, 11(2), 207–211.
- Levin, M. (2003). Ph.D. programs in action research: Can they be housed in universities? *Concepts and Transformation*, 8(3), 3–23.
- Levin, M., & Klev, R. (Eds.) (2000). *Forandring som praxis* [Change as praxis]. Bergen, Norway: Fagbokforlaget.
- Levin, M., & Martin, A. (1995). *Power differences in discourse*. Unpublished manuscript.
- Levin, M., et al. (1980a). *Hitterværing vi kan vil vi?* [Citizens of Hitra, we can but will we?]. Trondheim, Norway: IFIM.
- Levin, M., et al. (1980b). *Teknisk utvikling og arbeidsforhold i aluminiumselektrolyse* [Technical development and quality of working life in aluminum smelting]. Trondheim, Norway: IFIM.
- Lewin, K. (1935). *A dynamic theory of personality* (D. Adams & E. Zener, trans.). New York: McGraw-Hall.
- Lewin, K. (1943). Forces behind food habits and methods of change. *Bulletin of the National Research Council*, 108, 35–65.
- Lewin, K. (1948). *Resolving social conflicts*. New York: Harper.
- Lewis, D. (2001). *The management of non-governmental development organizations: An introduction*. London: Routledge.
- Lijphart, A. (1977). *Democracy in plural societies: A comparative exploration*. New Haven, CT: Yale University Press.
- Lyall, K., & Sell, K. (2006). *The true genius of America at risk: Are we losing our public universities to de facto privatization?* New York: American Council on Education/Praeger.
- Madoo Lengermann, P., & Niebrugge-Brantley, J. (1998). *The women founders: Sociology and social theory, 1830–1930*. Boston: McGraw-Hill.

- McIntyre, A. (2004). *Women in Belfast: How violence shapes identity*. Westport, CT: Greenwood.
- Maguire, P. (1987). *Doing participatory research: A feminist approach*. Amherst: University of Massachusetts, Center for International Education.
- Maguire, P. (1994). Participatory research from one feminist's perspective: Moving from exposing androcentricism to embracing possible contributions of feminism to participatory research and practice. In I. de Koning (Ed.), *Proceedings of the international symposium on participatory research in health promotion* (pp. 5–14). Liverpool, England: Liverpool School of Tropical Medicine, Education Resource Group.
- Maguire, P. (1996). Considering more feminist participatory research: What has congruency got to do with it? *Qualitative Inquiry*, 2(1), 106–118.
- Mansbridge, J. (1983). *Beyond adversary democracy*. Chicago: University of Chicago Press.
- Marginson, S., & Considine, M. (2000). *The enterprise university: Power, governance, and reinvention in Australia*. Cambridge, England: Cambridge University Press.
- Markova, I., & Foppa, K. (1991). *Asymmetries in dialogue*. Herfordshire, England: Harvester Wheatsheaf.
- Marshall, J. (2001). Self-reflective inquiry practices. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research* (pp. 433–439). London: Sage.
- Marshall, J. (2004). Living systemic thinking. *Journal of Action Research*, 2(3), 305–325.
- Marshall, J., & Mead, G. (Eds.). (2005). Self-reflective practice and first-person action research. Special Issue of the *Journal of Action Research* 3(3).
- Martin, A. (2000). *Search conference methodology and the politics of difference*. Unpublished doctoral dissertation, Columbia University Teachers College.
- Martin, A., Hemlock, N., & Rich, R. (1994). *Saskatchewan highways and transportation traffic safety search conference*. Ithaca, NY: Cornell University Programs for Employment and Workplace Systems.
- Martin, A., & Rich, B. (1994). *Seneca Nation of Indians search '94*. Ithaca, NY: Cornell University Programs for Employment and Workplace Systems.
- Martin, A. W. (1995, November). *Power differences in discourse*. Unpublished proceedings from Power Difference in Discourse, Ithaca, NY.
- Maslow, A. (1943). A theory of human motivation. *Psychological Review*, 50, 370–396.
- Miles, B., & Huberman, M. (1994). *Data analysis: An expanded sourcebook*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Mayo, E. (1933). *The human problems of industrial civilization*. New York: Macmillan.
- Messer-Davidow, E. (2002). *Disciplining feminism: From social activism to academic discourse*. Durham, NC: Duke University Press.
- Mezirow, J. (1991). *Transformative dimensions of adult learning*. San Francisco: Jossey-Bass.
- Mezirow, J. (1996). Contemporary paradigms of learning. *Adult Education Quarterly*, 46(3), 158–173.
- Mies, M. (1990). Women's studies: Science, violence and responsibility. *Women's Studies International Forum*, 13, 433–441.
- Milgram, S. (1974). *Obedience to authority*. New York: Harper & Row.
- Mills, C. Wright. (1959/1976). *The sociological imagination*. New York: Oxford University Press.

- Monden, Y. (1983). *The Toyota production system: A practical approach to production management*. Norcross, GA: Industrial Engineering and Management Press.
- Monk, R. (1990). *Ludwig Wittgenstein: The duty of genius*. London: Jonathan Cape.
- Mosse, D. (1993). *Authority, gender and knowledge: Theoretical reflections on the practice of participatory rural appraisal* (ODI Network Paper 44). London: ODI.
- Nash, N. S., & Hawthorne, E. M. (1988). *Corporate education* (ERIC Digest no. ED301142). Available at <http://www.ericdigests.org/pre-9210/corporate.htm>
- Negt, O. (1977). *Sociologisk fantasi og eksemplarisk indlæring* [Sociological fantasy and exemplary learning]. Roskilde, Denmark: Roskilde Universitetsforlag.
- Noffke, S. (1994). Action research: Towards the next generation. *Educational Action Research*, 2(1), 9–21.
- Nowotny, H., Scott, P., & Gibbons, M. (2001). *Re-thinking science: Knowledge and the public in an age of uncertainty*. London: Polity.
- Nørgaard, A. (1935). *Grundtvigianismen* [The Grundtvig way]. København, Denmark: Gyldendal.
- Park, P., Brydon-Miller, M., Hall, B., & Jackson, T. (Eds.). (1993). *Voices of change: Participatory research in the United States and Canada*. Westport, CT: Bergin & Garvey.
- Parsons, T. (1951). *The social system*. Glencoe, IL: Free Press.
- Pateman, C. (1970). *Participation and democratic theory*. Cambridge, England: Cambridge University Press.
- Patton, M. Q. (1986). *Utilization-focused evaluation*. Beverly Hills, CA: Sage.
- Patton, M. Q. (1997). *Utilization-focused evaluation* (3rd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Peirce, C. (1950). *Philosophy: Selected writings*. New York: Harcourt Brace.
- Pelletier, D., Kraak, V., McCullum, C., Usitalo, U., & Rich, R. (1999). The shaping of collective values through deliberative democracy: An empirical study from New York's North Country. *Policy Sciences*, 32, 103–131.
- Pelletier, D., McCullum, C., Kraak, V., & Asher, K. (2003). Participation, power and beliefs shape local food and nutrition policy. *Journal of Nutrition*, 133, 301–304.
- Peters, S. (2001). The civic mission question in land-grant education. *Higher Education Exchange*, 6, 25–37.
- Peters, S., Hittleman, M., & Pelletier, D. (2005). The North Country community food and economic security project case study. In S. Peters, N. Jordan, M. Adamek, & T. Alter. (Eds.), *Engaging campus and community: Public scholarship in the state and land-grant university system*. Dayton, OH: Kettering Foundation Press.
- Peters, S., Jordan, N., Adamek, M., & Alter, T. (Eds.). (2005). *Engaging campus and community: The practice of public scholarship in the state and land-grant university system*. Dayton, OH: Kettering Foundation Press.
- Phillips, Å. (1988). *Eldsjälar* [Burning souls]. Doctoral dissertation, Stockholm School of Economics.
- Polanyi, M. (1964). *Personal knowledge*. New York: Harper & Row.
- Polanyi, M. (1966). *The tacit dimension*. Gloucester, MA: P. Smith.
- Porter, T. (1995). *Trust in numbers: the pursuit of objectivity in science and public life*. Princeton, NJ: Princeton University Press.
- Pretty, J. N., & Vodouhè, S. D. (n.d.). *Using rapid or participatory rural appraisal*. Available at <http://www.fao.org/docrep/w5830e/w5830e08.htm>
- Pålshaugen, Ø. (1998). *The end of organization theory?* Amsterdam: John Benjamins.

- Pålshaugen, Ø. (2000). Dialogkonferanser som metode i bedriftsutvikling [Dialogue conferences as method in enterprise development]. In M. Levin & R. Klev (Eds.). *Forandring som praxis* [Change as praxis] (pp. 187–195). Bergen, Norway: Fagbokforlaget.
- Pålshaugen, Ø. (2002). Discourse democracy at work. *Concepts and Transformation*, 7, 141–192.
- Price, D. (2004). *Threatening anthropology*. Durham, NC, and London: Duke University Press.
- Rabinow, P. (1996). *Making PCR*. Chicago: University of Chicago Press.
- Rabinow, P., & Sullivan, W. (Eds.). (1987). *Interpretive social science*. Berkeley: University of California Press.
- Ransome, P. (1992). *Antonio Gramsci: A new introduction*. Hemel Hempstead, Hertfordshire, England: Harvester Wheatsheaf.
- Rapoport, A. (1974). *Conflict in man-made environments*. Harmondsworth, England: Penguin.
- Readings, B. (1996). *The university in ruins*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Reardon, K. (1997). Participatory action research and real community-based planning in East St. Louis. In P. Nyden et al. (Eds.), *Building community: Social science in action* (pp. 233–239). Thousand Oaks, CA: Pine Forge Press.
- Reason, P. (Ed.). (1994). *Participation in human inquiry*. London: Sage.
- Reason, P. (Ed.). (1988). *Human inquiry in action*. London: Sage.
- Reason, P., & Bradbury, H. (Eds.). (2001a). *Handbook of action research*. London: Sage.
- Reason, P., & Bradbury, H. (2001b). Introduction: Inquiry and participation in search of a world worthy of human aspiration. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research* (pp. 1–14). London: Sage.
- Reason, P., & Rowan, J. (Eds.). (1981). *Human inquiry: A sourcebook of new paradigm research*. Chichester, England: Wiley.
- Reinharz, S. (1992). *Feminist methods in social research*. New York: Oxford University Press.
- Reynolds, M. (1994). *Democracy in higher education: Participatory action research in the Physics 101–102 curriculum revision project at Cornell University*. Doctoral dissertation, Cornell University, Ithaca, NY.
- Rolfen, M., & Torvatn, H. (2005). How to "get through" communication challenges in formative evaluation, *Evaluation*, 11(3), 297–309.
- Rorty, R. (1980). *Philosophy and the mirror of nature*. Princeton, NJ: Princeton University Press.
- Ross, D. (1991). *The origin of American social science*. Cambridge, England: Cambridge University Press.
- Rowan, J. (2001). The humanistic approach to action research. In P. Reason & H. Bradbury (eds.), *Handbook of action research* (pp. 114–123). London: Sage.
- Russell, B. (1903). *The principles of mathematics*. Cambridge, England: Cambridge University Press.
- Ryle, G. (1949). *The concept of mind*. London: Hutchinson.
- Schafft, K., & Greenwood, D. (2003). Promises and dilemmas of participation: Action research, search conference methodology, and community development. *Journal of the Community Development Society*, 34 (1), 18–35.
- Schön, D. (1983). *The reflective practitioner*. New York: Basic Books.
- Schön, D. (1987). *Educating the reflective practitioner*. San Francisco: Jossey-Bass.

- Schön, D. (Ed.). (1991). *The reflective turn*. New York: Teachers College Press.
- Schumacher, E. (1973). *Small is beautiful: A study of economics as if people mattered*. New York: Harper & Row.
- Schwandt, T. (1997a). *Qualitative inquiry: A dictionary of terms*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Schwandt, T. (1997b). *Towards a new science of action research*. Paper presented at the Tavistock conference "Is Action Research Real Research," London.
- Scriven, M. (1991). *Evaluation thesaurus*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Scriven, M. (1995). The logic of evaluation and evaluation practice. *New Directions for Evaluation*, 68, 49–70.
- Scott, J. (1995). *Sociological theory. Contemporary debates*. Cheltenham, England: Edward Elgar.
- Senge, P. (1990). *The fifth discipline: The art and practice of the learning organization*. New York: Doubleday.
- Shor, I., & Freire, P. (1987). *A pedagogy for liberation: Dialogues on transforming education*. South Hadley, MA: Bergin & Garvey.
- Sherman, F., & Torbert, W. (Eds.). (2000). *Transforming social inquiry, transforming social action*. Boston: Kluwer Academic.
- Sims Feldstein, H., & Poats, S. (Eds.) (1990). *Working together: Gender analysis in agriculture*. West Hartford, CT: Kumarian.
- Skjervheim, H. (1974). *Objektivismen og studiet av mennesket* [Objectivity and the study of man]. Oslo: Gyldendal.
- Slaughter, S., & Leslie, L. (1997). *Academic capitalism: Politics, policies and the entrepreneurial university*. Baltimore: Johns Hopkins University Press.
- Stringer, E. (2004). *Action research in education*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Swantz, M. L. (1985). *Women in development: A creative role denied? The case of Tanzania*. London: Hurst.
- Sørensen, Å. B. (1992). Aktionsforskning i om arbejdslivet [Action research in work life]. *Tidsskrift for samfunnsforskning*, 33 (s.), 213–230.
- Taylor, C. (1985). *Philosophy and the human sciences*. Cambridge, England: Cambridge University Press.
- Taylor, F. W. (1911). *The principles of scientific management*. New York: Harper Bros.
- Thomas, H., & Logan, C. (1982). *Mondragón: An economic analysis*. London: Allen & Unwin.
- Thomson, J., & Schoonmaker Freudenberger, K. (1997). *Crafting institutional arrangements for community forestry*. Rome: Food and Agriculture Organization of the United Nations (Forests, Trees and People Community Forestry Field Manual 7). Available at <http://www.fao.org/docrep/w7483e/w7483e00.htm#contents>
- Tocqueville, A. de. (2001). *Democracy in America*. New York: New American Library, Signet Classic. (Originally published in two volumes, 1835 and 1840).
- Torbert, W. (1991). *The power of balance: Transforming self, society, and scientific inquiry*. Newbury Park, CA: Sage.
- Torbert, W. (2001). The practice of action inquiry. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research* (pp. 250–260). London: Sage.
- Toulmin, S. (1996). Concluding methodological reflection: Elitism and democracy among the sciences. In S. Toulmin & B. Gustavsen (Eds.), *Beyond theory* (pp. 203–225). Amsterdam and Philadelphia: John Benjamins.

- Toulmin, S., & Gustavsen, B. (Eds.). (1996). *Beyond theory*. Amsterdam and Philadelphia: John Benjamins.
- Traweek, S. (1992). *Beamtimes and lifetimes*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Trist, E. (1981). *The evolution of socio-technical systems* (Occasional Paper No. 2). Toronto: Ontario Quality of Work Life Council.
- Trist, E., & Bamforth, K. W. (1951). Some social and psychological consequences of the longwall method of coal getting. *Human Relations*, 4, 3-38.
- Uphoff, N. (1992, 1996). *Learning from Gal Oya: Possibilities for participatory development and post-newtonian social science*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 1992. (Paperback edition with new introduction, Intermediate Technology Publications, 1996).
- Usher, R. B., Bryant, I., & Johnston, R. (1997). *Adult education and the postmodern challenge: Learning beyond the limits*. London: Routledge & Kegan Paul.
- van den Hombergh, H. (1993). *Gender, environment, and development: A guide to the literature*. Utrecht: Institute for Development Research, International Books.
- Van Eijnatten, F. M. (1993). *The paradigm that changed the work place*. Assen, Netherlands: van Gorcum.
- Ver Beek, K. (1996). *The pilgrimage for life, justice and liberty: Insights for development*. Doctoral dissertation, Cornell University, Ithaca, NY.
- von Bertalanffy, L. (1966). *Modern theories of development*. London: Oxford University Press.
- von Bertalanffy, L. (1968). *General systems theory*. New York: Braziller.
- Weber, M. (1958). *The city* (D. Martindale & G. Neuwirth, trans.). Glencoe, IL: Free Press.
- Weisbord, M. (1987). *Productive workplaces: Organizing and managing for meaning and community*. San Francisco: Jossey-Bass.
- Weisbord, M. (1992). *Discovering common ground*. San Francisco: Berrett-Koehler.
- Weiss, H., & Greene, J. (1992). An empowerment partnership for family support and education programs and evaluations. *Family Science Review*, 5(1 and 2), 131-149.
- Westbrook, R. (1991). *John Dewey and American democracy*. Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Whyte, W. F. (1991). *Participatory action research*. Newbury Park, CA: Sage.
- Whyte, W. F. (1994). *Participant observer: An autobiography*. Ithaca, NY: ILR Press.
- Whyte, W. F., & Alberti, G. (1976). *Power, politics, and progress: Social change in rural Peru*. New York: Elsevier-North Holland.
- Whyte, W. F., & Boynton, D. (Eds.). (1983). *Higher yielding human systems for agriculture*. Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Whyte, W. F., & Whyte, K. K. (1991). *Making Mondragón* (2nd ed.). Ithaca, NY: ILR Press.
- Wittgenstein, L. (1953). *Philosophical investigations*. Oxford, England: Basil Blackwell.
- Womack, J. P., et al. (1990). *The machine that changed the world*. New York: Rawson Associates.
- Young, I. M. (1990). *Justice and the politics of difference*. Princeton, NJ: Princeton University Press.
- Zabusky, S. (1995). *Launching Europe*. Princeton, NJ: Princeton University Press.
- Zeichner, K. (2001). Educational action research. In P. Pearson & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of Action Research* (pp. 273-284). London: Sage.

المؤلفان في سطور:

ديفيد جرينوود

يعمل أستاذ الأنثروبولوجيا ومديرًا لمعهد الدراسات الأوروبية بجامعة كورنيل، والتي عمل فيها عضو هيئة تدريس منذ عام ١٩٧٠. وقد اختير عضوا ممثلًا للأكاديمية الملكية الإسبانية للعلوم السياسية والأخلاقية. وقد عمل مثل جون نايت John Knight أستاذًا ومديرًا لمركز ماريو إناودي Mario Einaudi لمدة عشر سنوات، وقد رأس هيئة مديري التعليم الدولية. وقد عمل أيضًا مقيمًا لبرامج العديد من المعاهد ومركز اللغات الأجنبية الدولية. وقد ركزت أنشطته على بحوث الفعل والاقتصاد السياسي والصراعات العرقية، والتنمية المحلية والإقليمية في إسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية. وقد ركز عمله الحالي على تأثير الشركات الكبرى والنفقات والاتحادات على التعليم العالي مع التركيز على العلوم الاجتماعية بصفة خاصة. وقد نشر أعماله التي تتضمن الثروة غير المفيدة Unrewarding Wealth، إدارة التجارة وانهيار الزراعة في مدينة الباسك الإسبانية، والتاريخ الثقافي والإنساني والطبيعي، وترويض النشء والارتقاء، والديمقراطية الصناعية كعملية، وبحوث الفعل بالمشاركة في الجماعات التعاونية بفاجور في موندراجون، والمدخل إلى بحوث الفعل: البحث الاجتماعي من أجل التغيير الاجتماعي (بالتعاون مع مورتين ليفين)، بالإضافة إلى كتابين آخرين.

مارتين ليفين

يعمل أستاذًا بقسم اقتصاديات الصناعة وإدارة التكنولوجيا بكلية العلوم الاجتماعية وإدارة التكنولوجيا بجامعة النرويج للعلوم والتكنولوجيا في تروندهيم. وقد حصل على درجاته العلمية في الهندسة وعلم الاجتماع. وقد عمل طوال حياته المهنية كباحث فعل مع التركيز الخاص على عمليات وبناءات التغيير الاجتماعى فى إطار العلاقة بين التكنولوجيا والتنظيم. وقد اتخذت بحوث الفعل التى قام بها مكانا متميزا فى البيئات الصناعية، وفى المجتمعات المحلية، وفى التعليم الجامعى حيث كان مسئولاً عن تطوير ثلاثة برامج ناجحة للدكتوراه عن بحوث الفعل. وقد ألف العديد من الكتب والمقالات، والنّى تتضمن البحث الاجتماعى من أجل التغيير الاجتماعى، وقدم المقالة الافتتاحية لأكبر النشرات الدولية عن الممارسة المنظمة لبحوث الفعل، وبحوث الفعل الدولية، وبحوث الفعل: دليل الاستقصاء الكيفى، ودليل بحوث الفعل.

المترجم فى سطور:

هشام سيد عبد المجيد

يعمل أستاذًا بقسم خدمة الفرد كلية الخدمة الاجتماعية- جامعة حلوان. وقد حصل على درجة دكتوراه الفلسفة فى الخدمة الاجتماعية تخصص خدمة الفرد عام ١٩٩٠ من كلية الخدمة الاجتماعية جامعة حلوان، وترقى إلى درجة أستاذ عام ٢٠٠٢. وقد عمل بالتدريس فى العديد من كليات الخدمة الاجتماعية فى مصر وليبيا والإمارات العربية المتحدة.

وقد شارك فى العديد من المؤتمرات العلمية المحلية والإقليمية والعالمية فى مصر والإمارات والمملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكية، حيث قدم العديد من الأبحاث وأوراق العمل فى هذه المؤتمرات. كما قام بزيارة علمية لكلية الخدمة الاجتماعية بجامعة جنوب إلينوى بالولايات المتحدة الأمريكية للاطلاع على أحدث الإنجازات فى التعليم والبحث العلمى.

وبالإضافة إلى الإنجازات فى مجال التخصص، سواء على مستوى التدريس أو الممارسة أو البحث العلمى، يعمل المترجم كخبير فى مجال جودة التعليم العالى، سواء على مستوى التدريب أو الدعم الفنى أو المراجعة الخارجية للعديد من الكليات الجامعية. وقد حصل على العديد من الدورات التدريبية من الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد، وكذلك من المركز القومى لتنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس والقيادات بوزارة التعليم العالى.

وللمترجم العديد من الإسهامات، سواء على مستوى البحوث العلمية أو تأليف الكتب العلمية، ونذكر من أهمها:
الأبحاث العلمية:

(1) **The challenge of modernization of social work education in developing countries: The case of Egypt ,USA, International Social Work Journal, Vol 53, N. 1, 2010**

(٢) **الممارسة الخاصة للخدمة الاجتماعية في مصر (٢٠٠٨) المؤتمر العلمى لكلية الخدمة الاجتماعية- جامعة الفيوم.**

(٣) **تطبيقات تكنولوجيا المعلومات فى تعليم وممارسة الخدمة الاجتماعية (٢٠٠٥) المؤتمر العلمى لكلية الخدمة الاجتماعية- جامعة الفيوم.**

(٤) **مقارنة فعالية كل من التعديل السلوكى والتعديل السلوكى المعرفى فى التقليل من حدة المشكلات السلوكية للأحداث الجانحين" المؤتمر العلمى الرابع عشر للخدمة الاجتماعية؛ كلية الخدمة الاجتماعية؛ جامعة حلوان؛ مارس ٢٠٠١.**

(٥) **توقعات المتخصصين فى العمل مع الحالات الفردية من استخدامات الحاسب الآلى فى أنشطتهم المهنية، المؤتمر العلمى السنوى الثانى عشر "الخدمة الاجتماعية ومنظمات المجتمع" جامعة القاهرة، كلية الخدمة الاجتماعية- فرع الفيوم، ٢٠٠١.**

(٦) **تقييم استخدامات التجريب فى بحوث التدخل المهنى مع الحالات الفردية؛ نحو نموذج تجريبى يتناسب وهذه البحوث؛ المؤتمر العلمى الحادى عشر للخدمة الاجتماعية؛ كلية الخدمة الاجتماعية؛ جامعة حلوان؛ ١٩٩٨.**

(٧) **فعالية الممارسة العامة فى الخدمة الاجتماعية فى التقليل من المشكلات المدرسية لطلاب وطالبات المدارس الثانوية، الإمارات العربية المتحدة، القاهرة: مجلة دراسات فى الخدمة الاجتماعية والعلوم الإنسانية، مجلة علمية نصف سنوية تصدرها كلية الخدمة الاجتماعية، جامعة حلوان، العدد السابع، أكتوبر ١٩٩٩**

الكتب العلمية:

- ١٠ الإرشاد الاجتماعي، دار القلم للنشر بدمشق ١٩٩٩.
- ٢ الممارسة العامة للخدمة الاجتماعية مع الفرد والأسرة، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.
- ٣ الممارسة الاجتماعية للخدمة الاجتماعية مع الجماعة والمؤسسة والمجتمع، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.
- ٤ البحث في الخدمة الاجتماعية الإكلينيكية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٦.
- ٥ ممارسة الخدمة الاجتماعية مع الأفراد والعائلات، الأردن، جامعة القدس المفتوحة، برامج التنمية الاجتماعية والأسرية، ٢٠٠٨.

التصحيح اللغوي: محمد محمود

الإشراف الفني: حسن كامل

يعالج هذا الكتاب موضوعاً بالغ الأهمية؛ حيث يثير العديد من الموضوعات الجديرة بالاهتمام والمتعلقة بالبحث العلمي بوجه عام وبحوث الفعل بوجه خاص التي قد تعتبر مثيرة للجدل لدى الكثير من العلماء، وخاصة الذين اعتادوا على استخدام البحوث العلمية بشكلها التقليدي والمعروف، وخاصة في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية. وهذا الكتاب نتاج لخبرة مؤلفيه ديفيد جرينوود ومورتين ليفين في مجال التدريس والعمل في مشروعات البحث العلمي، وخاصة بحوث الفعل لمدة طويلة من الزمن. من أهم القضايا والموضوعات التي تضمنها هذا الكتاب والجديرة بالملاحظة والاهتمام:

– الانتقادات الواضحة من مؤلفي الكتاب للبحوث العلمية التقليدية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، والتي تتضمن المبالغة في سلطة الباحثين وسيطرتهم على البحث مع إهمال الفئات المستهدفة من هذه البحوث، وكذلك سيطرة أصحاب القوة والنفوذ المادي والسلطوي على البحوث العلمية التقليدية، وبالتالي التأثير المباشر على نتائج هذه البحوث، وأيضاً تعارض البحوث العلمية التقليدية مع قضايا التحرر وتحقيق الديمقراطية في المجتمعات الإنسانية وخاصة النامية.

– أهمية المشاركة الكاملة والتعاون بين الباحثين وسكان المجتمع (كباحثين غير مهنيين) ليس فقط في عمليات البحث وإجراءاته، ولكن أيضاً في إنتاج معرفة جديدة يكون مصدرها المستفيدين والمشاركين أنفسهم، ولا تقتصر على الكتابات والنظريات العلمية. وعموماً، فإن من أهم أهداف بحوث الفعل تحقيق التغيير الحقيقي في كل المجالات الاجتماعية والسياسية، وتحقيق العدالة الاجتماعية وتحقيق الديمقراطية.